

فن التعامل مع الناس

لمحات سلوكية في أخلاقيات العلاقات الإنسانية



السيد رضا علوي (خليل الموسوي)

٢١ مارس ١٩٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

طُرق العطاء النافع ليست محصورة في أسلوب محدد، أو مُخلقة على فئة معينة، فالفقير يعطي بعفافه، والغني يعطي بأمواله، والعالم يعطي بأخلاقه، والباحث يعطي بعلمه، والمهندس يعطي بعمله، وهكذا تتكامل أدوار الإنسان بالعطاءات المختلفة، وتنتج مجتمعا صالحا، وقويا وقادرا على البناء، ومستمرا في العطاء. ولكن العلم قد يكون أكبر العطاءات وأوسعها، حتى أنه قُدم على عطاء الدم كما جاء في الحديث المأثور « مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء ». والعلم هو مفتاح النجاحات على المستوى الفردي والإجتماعي، ولذلك اهتم القرآن الكريم بالتأكيد والتحفيز على العلم، وكذلك التشديد على موقع العلماء، كما عجت السنة النبوية بأحاديث كثيرة تبين موقع العلماء، وأهمية العلم، والمسؤولية الملقة على عاتقهم. ولقد خلد التاريخ عظمائه بما خلفوا من عطاءات، وانتفع الناس من الباحثين والعلماء بما تركوا من مؤلفات حملت مضامين علمية تنمي تفكير الإنسان، وتأخذ بيده إلى الجادة، وتحرك عقله نحو الإبداع، وتحثه على العطاء الفكري والثقافي.

من لمحة العطاءات الأنفة الذكر جاء هذا المجهود الخير عرفان لعطاء رجل كرس حياته لخدمة مجتمعه، ودينه، وعائش في عمره القصير معاناة التغرب عن الوطن فهاجر وهو يحمل دينه وإسلامه بين جنبيه، وكان سلاحه القلم الذي يتدفق جدولا من العطاءات الوعظية والعلمية كدروس للشباب الطامح نحو التغيير والتكامل.

فكانت فكرة إعادة كتابة وإخراج مؤلفات الكاتب السيد رضا علوي (خليل الموسوي) كنسخ إلكترونية لتكون في متناول الجميع، ليكون نبع عطاء هذا الرجل مستمرا لا ينضب حتى بعد رحيله.



للحصول على مؤلفات وكتابات السيد رضا علوي (خليل الموسوي) يرجى زيارة موقع الكاتب

WWW.REDHA-ALAWI.COM

فَنُّ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ

لَمَحَاتُ سُلُوكِيَّةٍ فِي أَخْلَاقِيَّاتِ الْعَلَاqَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ

٢١ مارس ١٩٩١

السيد رضا علوي السيد أحمد
(خليل الموسوي)

الفهرس

نبذة عن الكاتب	٥
إهداء	٦
مُقَدِّمَةٌ	٧
القِسْمُ الْأَوَّلُ: الْأُسُسُ الْأَوَّلِيَّةُ لِلتَّعَامُلِ السَّلِيمِ مَعَ النَّاسِ	١٠
القِسْمُ الثَّانِي: الْأُسُسُ الْفَنِّيَّةُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ	٨٦
القِسْمُ الثَّلَاثُ: كَيْفَ يَكْسِبُ الْمَرْءُ وَدَّ النَّاسِ وَحُبَّهُمْ لَهُ؟	١٤٤
القِسْمُ الرَّابِعُ: مِنْ أَخْلَاقِيَّاتِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ	١٨١
القِسْمُ الْخَامِسُ: التَّعَامُلُ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ	٣٣٦
القِسْمُ السَّادِسُ: التَّعَامُلُ مَعَ الْعَائِلَةِ	٣٦٢
دعاء	٣٧٨
الفهرس المفصل	٣٨٢

نبذة عن الكاتب



السيد رضا علوي السيد أحمد (١٩٥٨-٢٠٠٨) وإسمه المستعار "خليل الموسوي. كاتب ومؤلف ومهندس وأستاذ بحراني ولد في قرية مهزة بجزيرة ستره في البحرين. له العديد من المؤلفات التعليمية والتربوية والسلوكية التي يسعى من خلالها لتنشئة جيل واع ذاتياً وتربوياً وإجتماعياً مستقل التفكير، والتي منها سلسلة فن السلوك التي تتكون من ثلاثة أجزاء. وله العديد من الكتابات والمقالات النقدية التي يحاول فيها تسليط الضوء على المشاكل المجتمعية في محاولة لإيجاد حلول عميقة لتطوير ورقي المجتمع. كان معلماً في اللغة العربية وقد ألف كتاب بعنوان فن الكتابة وقام بتدريسه. وكان السيد رضا شاعراً، فله ديوان شعر لم يُطبع بعد. وقد كان يتقن ثلاث

لغات، العربية والانجليزية والفارسية، وقد ترجم أحد كتبه الى اللغة الإنجليزية. وكان مهندساً معمارياً وقد شغل عدة مناصب وأخرها كان في بلدية المنامة. أُلّف السيد رضا اثنا عشر كتاباً، سبعة منها قد تم طباعته وخمسة منها لم يستطع إكمالها بسبب المرض. الكتب التي تم طباعتها ونشرها كلها قام بتأليفها في هجرته، وهي سلسلة فن السلوك والتي تتكون من ثلاثة كتب (كيف تبني شخصيتك - كيف تتعامل مع الناس - كيف تتصرف بحكمه) وقد نُشرت الكتب بإسمه المستعار "خليل الموسوي". وأربعة كتب أخرى (فن التعامل مع الناس - كيف تستثمر أوقاتك - فن الكتابة - طرائف ونوادر) وقد نُشرت بإسمه الحقيقي. وقد طُبعت الكتب العديد من المرات ولا زالت تُطبع وتباع في مكتبات الوطن العربي. وبعد رجوعه إلى الوطن دأب على تأليف عدة كتب وللأسف لم يتمكن من إكمالها بسبب المرض، وهي (فن تربية الأطفال: كيف نبني طفلاً أخلاقياً؟ - أفكار وأشعار: قوافي ورؤى من أثر العقل والتجربة - نظرات وعبر: كلمات عملية عابرة من أثر العقل والتجربة - وكتاب قصص قصار.

توفي السيد رضا علوي بتاريخ ٢٦/٣/٢٠٠٨م بعد صراع طويل مع المرض وقد دُفِن بمقبرة السادة في قرية مهزة بجزيرة ستره في البحرين. رحم الله من قرأ سورة الفاتحة وأهدى ثوابها لروحه الطاهرة.

إهداء

إلى والدي الذي كَانَ عَلَى خُلُقٍ يَعْيشُ بِهِ فِي
النَّاسِ وَيُحْسِنُ مُعَامَلَتَهُمْ ..
إلى رُوحِهِ أُهْدِي هَذَا الْكِتَابَ.

مُقَدِّمَةٌ

تشكّل العلاقات الإنسانية مساحةً كبيرةً من حياة الإنسان، بل إنّ من أهم ما تعنيه: علاقاته مع الآخرين، وتعامله معهم، وعلى هذه العلاقات، وهذا التعامل يتوقّف نجاحه أو فشله في الحياة.

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعامل مع الناس وللعلاقة الإنسانية، فقد جاء الدينُ ورسم لها المناهج القويمة، والنُظُم السليمة التي تضمن استقامتها، واستواءها، معطياً لها أهمية كبيرة، باعتبارها موضوعاً أساسياً من موضوعاته، ووظيفة رئيسة من وظائفه. ومن هنا فلا غرابة أن يعبّر الإسلامُ معاملة الناس هي الدين، «الدينُ المعاملة»، نظراً إلى أنّ التزامه - في قسَم كبير منه - متوقّف على حُسن المعاملة معهم، ومتعلّق بها.

إنّ للإنسان بُعدين: فرديّ، واجتماعيّ، ونجاحه في الحياة الدنيا، والحياة الآخرة يكون بالنظر إلى نجاحه في هذين البُعدين معاً. فنجاحه في الجانب الفرديّ وحده ليس كافياً، وليس بديلاً عن نجاحه في الجانب الاجتماعيّ، بل إن من وظائف الجانب الفرديّ تقويم الجانب الاجتماعيّ، أو بعبارة أخرى: تأهيل الفرد للعلاقة الاجتماعية الحسنة.

إنّ أغلبية المعاملات التي يجريها، أو يدخل فيها الإنسان في اليوم والليلة، هي مع بني نوعه، سواء مع أهله وعائلته، أو مع أصدقائه، أو مع شركائه ونظرائه في العمل، أو مع عموم الناس. بل إنّ كلّ المعاملات سواء كانت اجتماعيّة، أو

اقتصاديّة، أو تربويّة، أو ... تعتمد على الاتّصال بالنّاس والتّعامل معهم، سواء كان الاتّصال شخصيّاً، أو كان بوسائل الاتّصال الأخرى، كالمكاتبّة، والهاتف، و... .

وحيث أنّ التّعامل مع النّاس أمرٌ موجودٌ في كلّ معاملةٍ معهم، فإنّه يتطلّب من المرء أن يُجيد معاملتهم ومعاشرتهم ومخالطتهم. لقد أُجِرَتْ - مرّةً - جامعة شيكاغو استفتاءً واسع النّطاق لاستطلاع ما يريد البالغون أن يتعلّموه، ويُلْمُوا به، فتبيّن أن «الصّحّة» هي أهمُّ ما يعني البالغ، وأنَّ «النّاس» هم ثاني ما يعنيه: كيف يفهم النّاس، ويحسن معاشرتهم، وكيف يتحبّب إليهم، ويجتذبهم إليه، وكيف يقنعهم بأفكاره، وكيف يلتزم أخلاقيات التّعامل معهم... إلخ. وقد قال بعضهم: «إنّ المقدرة على معاملة النّاس، «بضاعة» يمكن أن تُشترى كالسّكر والبُنّ، وإنّي على استعداد لأن أشتريها بأكثر مما يُشترى أيُّ شيء آخر».

إنّ كلّ شخصٍ عاقلٍ يملك قوى متعدّدة الأنواع، ولكنّه قد يُخفق في استعمالها في وجوه حياته، ومن أبرز تلك الوجوه: معاملة النّاس. ومن هنا فهو بحاجة إلى اكتشاف تلك القوى والاستفادة منها في معاملتهم.

ولكي يحسن الإنسان معاملة النّاس، واجبه والأجدر به - قبل كلّ شيء - أن يُحسن التّعامل مع خالقه - جَلَّ وعَلا - ذلك لأنَّ حُسن التّعامل مع الله سبحانه هو أساس كلّ عمل ناجح وموفّق في الحياة، وأن يُقيّم معاملته على أُسس سليمة تُقوِّي فيه ارتباطه بخالقه، هذا مع العلم أنّ للوجدان وللضمير الصّالحين، وللرّبيّة الصّالحة، وللمحيط الصّالح، وللصفّات الحسنة الموروثة دورٌ في إحسان التّعامل مع النّاس، ولكنها ليست بديلة عن الارتباط بالخالق - جَلَّ وعَلا - إذ أنّ الارتباط به - سبحانه - هو القناة الطّبيعيّة لتحقيقها في ساحة الواقع الخارجيّ.

ويُلي حُسن التّعامل مع الله - سبحانه - حُسن التّعامل مع النّفس باعتبارها أقرب المُقَرَّبِينَ، وأحبّ المحبوبيّن للإنسان، ثم يلي ذلك حُسن التّعامل مع النّاس، وهم على التّرتيب: الأهل والعائلة والأقارب، إذ أنّ الأسرة أو العائلة هي محطّة انطلاق أولى في التّعامل مع النّاس، ثم الأصدقاء، ثم عموم النّاس. وبِعِلّة التّركيز على التّعامل مع عموم النّاس، لم يُراعَ التّرتيب المتقدّم.

وبناءً على أن صرح العلاقة الإنسانية، أو المعاملة الاجتماعية - لكي يكون سليماً ومتيناً - يجب أن يقوم على أساس الأخلاق الفاضلة، فقد كان التعرُّض لذكر إشارات لسلسلة من الأخلاقيات الاجتماعية أمراً ملحاً. وذلك لأنَّ إحسانَ معاملة النَّاس لا ينحصر في التزام بعض الأُسُس الفُنيَّة، وفي قواعد تحبُّهم إلى النَّاس، وطرائق تقنعهم بوجهة نظر الذات، وأساليب تملك زمامهم دون استبداد عنادهم، بل إنَّ إحسانها يعتمد أساساً على التزام الأخلاق والمناقب والفضائل التي جاءت بها الرسالات السَّماويَّة، واجتمعت في رسالة الإسلام، تلك الأخلاق والمناقب والفضائل التي كلُّ إنسان مدعوٌّ لالتزامها والتَّحلي بها في مُجَمَّل معاملاته مع النَّاس وعلاقاته بهم.

وهذا الكتاب - أخي القارئ - هو جهدٌ بسيطٌ في مجال التَّعامل مع النَّاس وأخلاقيات العلاقة الإنسانية، استنرتُ فيه بالآيات القرآنيَّة والأحاديث الشَّريفة، واستفدتُ مما كتبه آخرون في هذا السَّبيل، مع ذكر لمحات وإشارات من رؤى الدِّين والعقل والعلم والأخلاق والتَّجربة.

أَسْأَلُ الْبَارِي - تبارك وتعالى - أن يجعلني من الذين يحسنون معاملة النَّاس ويخالقونهم ويخالطونهم ويعاشرونهم بشكل حسن، وأن يُفيد من هذا الكتاب كلُّ محتاج له، إنَّه سميعٌ مجيبُ الدعاء.

السيد رضا علوي السيد أحمد (خليل الموسوي)

الخميس ٥ رمضان ١٤١١هـ

الموافق ٢١ مارس ١٩٩١ م

القِسْمُ الْأَوَّلُ: الْأُسُسُ الْأَوَّلِيَّةُ لِلتَّعَامُلِ السَّلِيمِ مَعَ النَّاسِ

❖ مُعَامَلَةُ النَّاسِ

قال الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١)

وقال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) :

«مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلَمْهُمْ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ، فَهُوَ مِمَّنْ كَمَلَتْ مَرْوَتُهُ، وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجَبَ أَجْرُهُ، وَحَرُمَتْ غِيْبَتُهُ»^(٢).

وقال (ص) أَيْضًا:

«مُدَارَاةُ النَّاسِ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالرَّفْقُ بِهِمْ نِصْفُ الْعَيْشِ»^(٣).

وقال (ص) :

«رَأْسُ الْعَقْلِ - بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ - مُدَارَاةُ النَّاسِ فِي غَيْرِ تَرْكِ حَقٍّ»^(٤).

وقال الإمام عليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي عَهْدِهِ لِمَالِكِ الْأَشْتَرِ حِينَمَا وَلَّاهُ عَلَى مِصْرَ:

«... فَإِنَّهُمْ (النَّاسُ) صِنْفَانِ: إِمَّا أَحْ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقَةِ...»^(٥)

يَسْتَدْعِي تَنَاوُلُ الْأُسُسِ الْأَوَّلِيَّةِ لِلتَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، التَّطَرُّقَ إِلَى مَا هِيَ التَّعَامُلُ نَفْسُهُ، وَالْأَسْبَابُ وَالْعِلَلُ الْأُولَى مِنْ وَرَائِهِ، وَالْأَهْدَافُ وَالْغَايَاتُ مِنْهُ، وَحَوْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ تَبْرَزُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَسْئَلَةِ، مِنْهَا الْآتِيَةُ:

١. الحجرات/١٣.

٢. تحف العقول، ص ٤٠.

٣. المصدر السابق، ص ٢٩.

٤. المصدر السابق، ص ٢٩.

٥. المصدر السابق، ص ٨٤.

مَنْ هُمْ النَّاسُ؟

وماذا يعني التَّعامل معهم أو معاملتهم؟

وَلَمْ التَّعاملُ معهم؟

وما هي الأهداف والغايات من ذلك؟

وكيف يجب أن يكون التَّعامل؟

ولماذا كان التَّعاملُ الحَسَنُ هو المطلوب؟

وكيف يجب أن يكون التَّعامل بالنَّظر إلى الزَّمان والمكان؟

وما هي الأسس التي يجب أن يقوم عليها التَّعامل مع النَّاس؟

عن فلسفة التَّعامل مع النَّاس أو معاملتهم، والأهداف والغايات منها، قد يسأل
السَّائل:

هل هناك ضرورة لأن يتعامل الإنسان مع بني جنسه؟

وَألا يمكنه الاعتماد على ذاته في إصابة حاجاته، وبلوغ أهدافه، دون الحاجة إلى
الآخرين؟

وللإجابة على ذلك:

إِنَّ مَنْ نِعِمَّ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْعَظِيمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ - وَكُلُّ نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ -
أَنْ جَعَلَهُ اجْتِمَاعِيًّا بِالْفِطْرَةِ، مَجْبُولًا عَلَى الْمِيلِ إِلَى نَظَائِهِ فِي الْخَلْقِ. وَهَذِهِ غَرِيزَةٌ
مِنَ الْغَرَائِزِ، مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ. وَإِنَّ وَجُودَ قِسْمٍ مِنَ النَّاسِ يَشُدُّ
فِي سُلُوكِهِ عَنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ وَالْغَرِيزَةِ، لَا لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْهُ اجْتِمَاعِيًّا، وَلَمْ يَجْبَلْهُ
عَلَى الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَإِنَّمَا لِأَنَّهُ أَرَادَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ مُعْزَلًا عَنِ النَّاسِ، مُنْطَوِيًّا عَلَى
ذَاتِهِ، بَلْ حَتَّى الْمُنْعَزَلِ وَالْمُنْطَوِي عَلَى ذَاتِهِ لَا غِنَى لَهُ عَنِ الْإِتِّصَالِ وَالْاجْتِمَاعِ
بِالنَّاسِ، وَالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ، وَلَوْ بِأَدْنَى حَدٍّ.

وبناءً عليه، فإنَّ فلسفة التَّعامل مع النَّاسِ تقوم على أساس الصُّبْغَةِ أو الفطرة الاجتماعية التي جبلهم الله عليها، هذه الصُّبْغَةُ أو الفطرة التي هي ضرورة أكيدة لتلبية متطلَّبات الإنسان وحاجاته، وأداء رسالته في الحياة، وبلوغه الأهداف والغايات التي رسمها الله له فيها. وتتمثَّل هذه الأهداف والغايات في عبادة الله^(*) والخضوع له بالمعنى الشَّامِل للعبادة والخضوع، والهداية إليه، وحسن خلافة الله في الأرض^(*)، وعِمَارَتِهَا^(***) (إقامة الحضارة عليها)، والنَّجَاح في ابتلاء العمل^(***) في دار الدُّنيا، وما يدخل ضمنه من نجاح وسعادة فيها، لتحقيق حُسْنِ المصير في الدَّار الآخرة.

والفطرة الاجتماعية تُوجب التَّعامل بين النَّاسِ، والتَّعامل يقتضي الاتِّصال بينهم، ومن أبرز وجوهه: الاتِّصال الشَّخصيُّ، أي حضور الأشخاص أثناء المعاملة. ومن وجوه الاتِّصال في التَّعامل مع النَّاسِ: المكاتبة (المراسلة)، والهاتف، و (التليغراف)، والرُّموز والاشارات، و...، وفي مثل هذه الوجوه ينبغي لتعامل الإنسان مع الآخرين، أن يَكُونَ حسناً.

وبالنَّظر إلى حاجات الإنسان، وبلوغه الأهداف، فإن طبيعته وفطرته، وتاريخ الإنسانية تثبت أنه مهما كان قوياً ومتمكِّناً، ومهما حاز على القدرات والإمكانات، فهو ليس في غِنَى عن الآخرين، سواء كانوا ذوي قدرات وإمكانات كبيرة متنوِّعة، أو كانوا من ذوي القدرات والإمكانات والجِرْفِ التي قد يُنظر إليها بأنَّها بسيطة، أو قابلة للاستغناء عنها. ومن هنا فإنَّ مسألة الحاجة أو العوز إلى الآخرين - بعد الفطرة الإلهية على الاجتماع - هي السَّمة التي لا تنفك عن الإنسان في هذه الحياة، الأمر الذي يوجب عليه الدُّخول في معاملات مع بني جنسه، هذه المعاملات التي يجب أن تكون حسنة وسليمة لكي تحقِّق أهدافها على أفضل صورة.

*١. قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.. ٥٦ - الذاريات.

*. من معاني استخلاف الله للإنسان في الأرض، أن جعله مخلوقاً: الأولاد يخلفون الآباء، والأمم اللاحقة تخلف الأمم السابقة. قال تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.. ٣٠ - البقرة.

*٢. قال تعالى: وَإِلَىٰ هُودٍ أَخَاهُم صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ٦١ - هود.

*٣. قال تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٢ - الملك.

إِنَّ التَّكَامُلِيَّةَ أو التَّكْمِيلِيَّةَ في الحياة تقتضي أن يحتاج المرء إلى غيره، فالبشر يكامل بعضهم بعضاً بما يمتلكون من القدرات والخبرات والكفاءات والحِرَف المتنوعة، ولا يوجد، ولن يوجد إنسان كامل^(٢١) ومستغنٍ عن غيره من النَّاس، إذ الكمال لله وحده، سبحانه، وهو المنزّه عن أيِّ نقص.

وحيث أنَّ التَّكَامُلِيَّةَ أمر لا يمكن للإنسان إنكاره أو إلغاؤه، فإنَّه بحاجة ضروريَّة إلى الدُّخول مع الآخرين في معاملات. وهذه المعاملات قد تكون عائليَّة، أو أخويَّة، أو أُسرويَّة، أو اجتماعيَّة، أو اقتصاديَّة، أو سياسيَّة، أو . . . ، وهي مهما كان نوعها يدخل التَّعاطي بين الأفراد بعضهم البعض أمراً أساسياً فيها، وهذا التَّعاطي هو التَّعامل الذي يلزم أن يكون حسناً وفتياً.

فالتَّعامل الحسن مع النَّاس، هو المطلوب فيما بينهم، لأنَّه المبدأ الإلهيُّ الذي أراده الله - سبحانه وتعالى - أن يسود فيما بين البشر، ولأنَّه التَّرجمة الحقيقيَّة للفطرة الاجتماعيَّة التي فطر الله النَّاس عليها، ولأنَّه نتيجة العقل، هذا المخلوق العظيم الذي ميَّز الله به البشر عن سائر المخلوقات، وكرَّمه به.

إِنَّ النَّاسَ^(٢٢) - كما هو واضح لكل إنسان هم بنو آدم، أو بنو البشر. وهم المخلوقون من ذكر (آدم)، ومن أنثى (حواء). وبلُغَةِ المعاملة والتَّعامل^(٢٣) هم

*١. لأسباب معيَّنة كالغنى والتَّكَبُّر قد تصل الحال بالإنسان للدَّعاء بأنه مستغن عن التَّعامل مع النَّاس والحاجة إليهم، ولكنَّ هذا غير ممكن، وكَم من إنسان ادَّعى أنه مستغن عن آخر فجاء اليوم الذي يحتاج فيه إليه!

*٢. النَّاس: من أُنس وأُنُس وأُنس به وإليه: أَلِفُه وسكن قلبه به. أُنس يؤاينس مؤانِسَةً : لطفه، أَلِفُه، سَلَاه. تَأَنَس به: أُنس استأَنَس به وإليه: أُنِس. الأُنس وجمعه أناس: من تَأَنَس به، الجماعة الكثيرة. الأنسة: جمعها أوائس وأنسات، الطَّيِّبَةُ النَّفْس، الفتاة غير المتزوجة. الأنوس: الكثير الأُنس. الأُنيس: المؤانس، المؤانوسُ به. يُقال: ما بالدار من أنيس، أي أحد. تَأَنَس: صار إنساناً. الإنس: الواحد إنسيٌّ وأُنسيٌّ والجمع أناس وأناسيٌّ: البَشَر أو غير الجنِّ والملاك. ويقال: إنسك وابن إنسك، إي أَلِفُك وحليُّك.

الإنسان: جمعه أناسيٌّ وأناسية وأناس: البشر للذكر والأنثى ويُطلق على أفراد الجنس البشري. الإنسانيَّة: ما اختصَّ به الإنسان، أكثر استعمالها للمحامد من نحو الجُودة والكرم والاخلاق. المنجد في اللغة..

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى - القرآن الكريم إلى نبيه ليعلم النَّاس أصول الإنسانيَّة بما لها من معنى. ومما تجدر الإشارة إليه أن القرآن الكريم يبدأ باسم الله، وينتهي بالنَّاس -. وقد وردت مفردة النَّاس. في آخر سور القرآن - وهي سورة النَّاس - وردت في خمس آيات منها، مع العلم بأنها تتألف من سبع آيات إذا اعتبرت البسملة إحدى آياتها، وهي تساوي سورة الفاتحة - وهي أوَّل سور القرآن - في عدد الآيات.

جدير الإشارة أيضاً إلى أنَّ مفردة النَّاس. وردت في القرآن الكريم مائتين وأربعين ٢٤٠. مرَّة. ومفردة الإنسان. خمساً وستين ٦٥. مرَّة. ومفردة الإنس. تسعة عشر ١٩. مرَّة. خمسة عشر ١٥. معرفة، وأربع ٤. نكرة. أمَّا مفردة أناس. فوردت خمس ٥. مرَّات

من يتعامل معهم الإنسان من بني جنسه، ويشمل ذلك الوالدين (الأب والأم)، والأجداد، والإخوان، وعموم الأقارب والأرحام، والأصدقاء، والرؤساء، والمرؤوسين، وعموم من يدخل معهم في معاملات، ويربطه بهم نوع من العلاقات والروابط الاجتماعية والمجتمعية.

ومن خلال تعريف «النَّاس» يتبين المقصود من التَّعامل. فهو دخول الإنسان مع غيره من بني جنسه في عمل أو معاملة، بصرف النظر عن حجم ذلك العمل أو تلك المعاملة. وبصيغة أخرى أكثر تحديداً: هو الجانب الأخلاقي في التَّعامل والمعاملة، إذ أنَّ التَّعامل مع النَّاس لكي يكون عقلائياً حسناً يتوجب أن يكون موسوماً بالخلُقِيَّة، والخلُقِيَّة - بدورها - تحتاج إلى مقوِّمات نفسية وسلوكية. والنَّاس بالنَّظر إلى المشتركات فيما بينهم، بالنَّسبة للمسلم بل بالنَّسبة لكلِّ صاحب ديانة أخرى، هم على قسمين كما بيَّنهما الإمام عليُّ (ع):

- إخوانٌ في الدِّين.

- نظراءٌ في الخِلْقَةِ.

فالإخوان في الدِّين الإسلاميُّ هم الذين تجمعهم رابطة الإيمان بمبادئه وأحكامه وقيمه وأخلاقياته، والنَّظراء في الخِلْقَةِ هم المشتركون في الآدمية والبشرية والإنسانية، مع العلم بأنَّ الإخوان في الدِّين هم نظراء في الخِلْقَةِ أيضاً.

وبناءً عليه فالإنسان في تعامله مع غيره من النَّاس يجب أن يأخذ البُعدين معاً بعين الاعتبار، بمعنى أن يعاملهم كإخوة يشتركون معه في دين واحد وفي عقيدة واحدة، أو يعاملهم كنظراء له في الإنسانية. وليس من الصحيح أن يعامل المسلم غيره من غير المسلمين بطريقة غير حسنة، بل التَّعامل يجب أن يكون حسناً مع الجميع على اختلاف أديانهم وعقائدهم، مع مراعاة أن لا يكون التَّعامل - سواء

بصيغة النُّكرة، ومفردة أناسي. مرَّة ١. واحدة، ومفردة إنسي. مرَّة ١. واحدة أيضاً.

** التَّعامل: تعامل القوم: عامل بعضهم بعضاً. عامل: سام يعمل، أي كلف بعمل. والسَّوم: عرض السلعة مع ذكر ثمنها. سام المشتري السلعة: طلب بيعها أو ثمنها. المصدر السابق.. والتَّعامل أو المُعاملة: دخول الإنسان أو الجماعة في معاملة مع شخص أو جهة. والمعاملة الإنسانية مهما كان نوعها هي بحاجة إلى تعامل بين طرفين، وهذا التَّعامل ينبغي له أن يكون حسناً.

في الحالة الأولى أو الثانية - في ترك حقٍّ، أو في إتيان باطل، أو في تحليل حرام، أو في تحريم حلال، أو في تشجيع رذيلة أو في نقض فضيلة.

وحُسْنُ التَّعَامُلِ مع النَّاسِ ليس قضيةً مرحليَّةً، بمعنى أن الحَسَنَ الذي أمر الله به، يبقى حسناً، غير خاضع للزَّمان والمكان. فإذا كان حُسْنُ التَّعَامُلِ مع النَّاسِ مطلوباً منذ أن خلق الله - سبحانه وتعالى - البشر، فهو مطلوب أيضاً في العصر الحاضر وفي المستقبل، وحتى قيام السَّاعة. وهكذا الحال بالنسبة للمكان، إذ حسن التَّعَامُلِ مع النَّاسِ خُلِقَ ينبغي أن يشمل كلَّ مَحَالٍّ وجود النَّاسِ على الكرة الأرضيَّة.

أما عن الجديرين من النَّاسِ بحسن التَّعَامُلِ معهم، فيمكن القول: أنَّ الغالبية منهم جديرة بالتَّعَامُلِ الحسن. صحيح أنَّ الإنسان يجب أن يكون في صَفِّ الحقِّ والخير والصَّلاح والفضيلة، وأن يحافظ على موقفه الرَّاغِبِ ممارسة الباطل والشرِّ والطَّلاح والرَّذيلة^(١)، ولكنَّ الإنسان في عموم تعامله مع النَّاسِ - أو في تعامله بشكل عام - يراعي الجانب البشريَّ والإنسانيَّ، وخصوصاً إذا كان المرء لا يرى من ظاهر الفرد أو الجماعة التي يتعامل معها إلَّا المقبول من التَّصرفات والمسلكيَّات. بل حتَّى لو علم بحالة الرَّذيلة في الطَّرَفِ الآخر، فإن عليه استعمال أسلوب في التَّعَامُلِ يكون به متفوَّقاً عليه، إذ «الحَقُّ يَعلُو ولا يُعلَى عليه».

يقول الإمام الباقر (ع):

«صانعُ المتَّفاقِ بلسانِكَ، وأَخْلَصُ مودَّتِكَ للمُؤْمِنِ، وإن جالَسَكَ يهوديٌّ فأحسن مجالستَه»^(٢).

فالمتَّفاقُ الذي من علاماته: الكذب حين يُحدِّثُ، والخُلْفُ حين يَعدُّ، والخيانة حين يُؤمِّنُ، يُصانعُ باللسان مع العلم بأنَّه لا يتعامل بالوجه الحسن في الواقع الاجتماعيِّ. وحسن المجالسة مع ذوي الدِّيانات والعقائد الأخرى أمر مطلوب،

*١. من المهم الإشارة إليه: أنه لا بد من التمييز بين التعامل الحسن مع عموم الناس، وبين دور الإنسان في اشاعة الحق والخير والصَّلاح والفضيلة، وإنكاره ومواجهته للباطل والشرِّ والطَّلاح والرَّذيلة. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تناقض بين الأمرين.

٢. المصدر السابق، ص ٢١٣. صانِع: داهَن، داري، رافق.

لأنهم نظراء في الخَلْقَةِ. وبالنسبة للتَّعامل مع الْمُؤْمِنين فإنه يجب أن يقوم على إخلاص المودَّة والمحَبَّة.

ويقول الإمام علي (ع):

«خَالِطُوا النَّاسَ بِالسَّنَةِ وَأَجْسَادَكُمْ، وَزَايِلُوهُمْ بِقُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

والتَّعامل مع النَّاس يتمُّ بمخالطتهم والعِشرة معهم بالوجود الجسديّ، وباستعمال أداة التَّعبير عن الأغراض والمشاعر، وهي اللِّسان. أما المَزَايِلَة - وتعني المُفَارَقَة والمُبَايَنَة - فيجب أن تتمَّ بالقلب والعمل. ويُفهم من هذه الكلمة الخالدة أنَّ الإنسان يجب أن يكون بين ظهرائي النَّاس منفتحاً عليهم، حضوراً جسدياً وتعبيرياً، إلَّا أنَّ هذا الانفتاح والحضور يجب ألا يكون على حساب التزام المبادئ والقيَم الحَقَّة العادلة، فإذا كان النَّاس يمارسون خلاف العقل والشرع والفضيلة والدَّوْق المُوَدَّب، فلا يجوز الانسياق معهم في ذلك، لأنَّ الانسياق معهم يعني الوقوع في مطبات السُّوء والرَّذيلة، وفضلاً على ذلك تشجيعهم. والمطلوب هو اتخاذ الموقف القلبي المناسب من ذلك، والعمل بخلاف ممارسات النَّاس غير المقبولة عقلاً وشرعاً، وبذلك يضمن المرء ثلاثة أمور:

- مخالطة النَّاس والانفتاح عليهم.
- وقوع ممارساته وأعماله ضمن إطار العقل المُوَدَّب والشرع المقدَّس.
- امتلاك الحصانة ضدَّ العمل السيِّء والانحراف.

أمَّا عن كَيْفِيَّات التَّعامل مع النَّاس، فتعتمد بدرجة كبيرة على استعمال العقل والحكمة والعدالة والرِّفق وحسن العشرة والاهتمام والمُدارة.

يقول الرِّسُول الأعظم (ص):

«أَحْسِنْ مُصَاحَبَةَ مَنْ صَاحَبَكَ، تَكُنْ مُسْلِمًا»^(٢).

١. ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٣١٧. زايِلُوهُمْ: فارقوهم وباينوهم: أي ليكن لكم الموقف القلبي والعملي من أعمالهم وتصرفاتهم غير الحسنة، والموقف العملي يتجسّد في ممارسة خلاف ما يمارسونه من أعمال وتصرفات غير حسنة. بعبارة أخرى: ممارسة الحسن من الأعمال والأفعال.

٢. المصدر السابق، ص ٣١٨.

ويقول الإمام علي (ع):

«يَحْسُنِ الْعِشْرَةَ تَدْوُمُ الْمَوَدَّةِ»^(١).

ويقول (ع) أيضاً:

«يَحْسُنِ الْعِشْرَةَ تَأْنَسُ الرَّفَاقُ»^(٢).

❖ الْأُسُسُ الْأَوَّلِيَّةُ لِلتَّعَامُلِ السَّلِيمِ مَعَ النَّاسِ

في الحياة بشكل عام، لكل شيءٍ أُسَاسٌ يقوم عليه، وهذا الأمر يجري في المادِّيات والمعنويَّات. وعادةً ما يكون لكل شيءٍ أُسَاسٌ من جنسه. فالبناء هو بحاجة إلى أُسَاسٍ ماديٍّ، والبناء المعنويُّ هو بحاجة إلى أُسَاسٍ معنويٍّ، وبالنسبة للإنسان هناك علاقةٌ تداخل وتكميل بين المادِّيات والمعنويَّات بحُكم تكوينه الماديِّ - الرُّوحيِّ.

ولكي يكون الشَّيء - أيُّ شيءٍ - راسخاً ومتيناً وصحيحاً، يستلزم أن يتَّسم أُسَاسُهُ بالرُّسوخ والمتانة والصَّحَّة. فإذا أُريدَ لمبنى أن يُحدَث بصورةٌ تتحقَّق فيها الأمور المتقدِّمة، فإنَّ من الضَّروريِّ تحقُّقها - أوَّلاً - في أُسَاسِهِ. ونفس الإنسان إذا ما أُريدَ لها أن تكون مستقيمة مُزَكَّاة، يلزم أن تُؤسَّسَ على أُسَاسٍ تقوى الله ورضوانه.

والتَّعامل مع النَّاسِ - باعتباره ميداناً ضرورياً هاماً لا غنى للإنسان عنه - لكي يكون سليماً وحسناً، يلزم أن يقوم على أُسُسٍ وقواعدٍ أوَّلِيَّةٍ سليمةٍ وراسخة، وهذه الأُسُس هي ما تتناولها الصَّفحات التَّالية: وهي ليست أُسُساً أوَّلِيَّةً لمعاملة النَّاسِ فحسب، بل أُسُسُ سعادة الإنسان ونجاحه في الدُّنيا والآخرة.

١. الغرر والذرر.

٢. المصدر السابق.

❖ الأساس الأول: الدِّينُ

(أَقَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)^(١).

وقال سبحانه: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...)^(٢).

وقال الإمام عليُّ (ع): «الدِّينُ أَقْوَى عِمَادٍ»^(٣).

الدِّينُ^(٤) هو مجموعة الشرائع والمناهج والقوانين والنُّظم التي أرسلها الله إلى النَّاسِ - بواسطة الرسول الأعظم (ص) - لحاجتهم الضرورية إليه (الدِّين)، وبهدف هدايتهم إلى الله وتنظيم أمورهم في الحياة، ومنها تعاملهم فيما بينهم، هذا التَّعامل الذي يُشكِّل مساحة واسعة من رِفْعَةِ حياتهم.

والدِّين نور يضيء للإنسان مسيره في الحياة، ويقوم على أساس معرفة الله - سبحانه وتعالى - هذه المعرفة التي هي أول الدِّين. وتكتمل هذه المعرفة بالتَّصديق والإيقان به - جَلَّ وَعَلَا - ويكتمل التَّصديق به بتوحيده ونفي الشُّرك عنه. وتذكر الأحاديث الشَّريفة أنَّ «التَّوْحِيدَ نَصْفُ الدِّينِ»^(٥). لأنَّه الأساس الذي يقوم عليه. وأنَّ «الخُلُقَ الحَسَنَ نَصْفُ الدِّينِ»^(٦) لضرورة الأخلاق في التَّعامل مع الخالق - سبحانه - ومع النَّفس والنَّاس، ولكون الأخلاق ضرورة لتنظيم السُّلوك الإنساني، هذا السُّلوك الذي يُمثِّل التَّعامل مع النَّاس جزءاً كبيراً منه.

والدِّينُ ضرورة في الحياة، وحاجة ماسَّة لبني البشر، وَحُجَّة عليهم، لكي لا يكون لهم حُجَّة على الله، بخلاف ما يتَّصور ويعتقد البعض بأنَّه أمر غير ضروريٍّ، وهذه حقيقة بديهية يلمسها المرء من خلال الآيات القرآنية الكثيرة، والأحاديث الشَّريفة الوفيرة، ومن خلال تتابع الأنبياء والرُّسل - المرسلين من قِبَلِ الله - إلى الأمم، إذ ما

١٠٩ / التوبة.

٢. ١٩ / آل عمران.

٣. الغرر والذُّرر.

٤. ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٣٧٥.

٥. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٨٥.

من أُمَّةٍ إِلَّا وَكَانَ لَهَا نَبِيٌّ أَوْ رَسُولٌ يَهْدِيهَا إِلَى اللَّهِ، وَيُقِنُّ أُمُورَهَا فِي الْحَيَاةِ، وَمِنْهَا إِنْسَانِيَّتُهُمْ وَتَعَامُلُهُمْ فِيهَا بَيْنَهُمْ. وَبَارَادَتُهُ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - قَدَّرَ وَقَضَى بَأَن يَكُونَ الْإِسْلَامُ خَاتَمَةَ الْأَدْيَانِ وَالرَّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، وَوَجَّهَ - سَبْحَانَهُ - النَّاسَ لِابْتِغَائِهِ دِينًا وَرِسَالَةً عَصْر^(١)، إِذْ هُوَ الْمُرْسَلُ لِكَاफَّةِ النَّاسِ وَلِلْعَالَمِ أَجْمَعِ.

قال تعالى:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)^(٢).

وقال سبحانه:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)^(٣).

وحيث أنَّ الله - سبحانه وتعالى - أمر الإنسان بالتزام الدِّين كمنهج وقانون لحياته، فإنَّ الإنسان نفسه مدعوٌّ لأنَّ يُقِيمَ بنيان حياته على أساس الدِّين، هذا الأساس الذي من شأنه أن يضمن له الهداية والاستقامة في الحياة، والتزام الحق والخير والصَّلاح والفضيلة، وبالتالي النَّجاح والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

وَإِذْ أَنَّ التَّعَامُلَ مَعَ النَّاسِ يُثَلِّمُ مِيدَانًا أَوْ سَاحَةً لَا يُمْكِنُ إِنكَارُهَا أَوْ إِلْغَاؤُهَا، وَأَنَّ الدِّينَ جَاءَ لِكَيْ يَنْظِمَ شُؤُونَ الْمَعَامَلَةِ وَالتَّعَامُلِ - كجزء كبير من وظيفته - فَإِنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ التَّعَامُلُ قَائِمًا عَلَى أُسَاسِهِ، وَعَلَى ضَوْءِ مَنَاجِهِ وَنُظْمِهِ، مَعَ التَّأَكُّيدِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ حُرٌّ فِي اخْتِيَارِ الْمُعْتَقَدِ الَّذِي يَرِيدُ، إِذْ (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)^(٤).

وهنا قد يسأل السَّائل:

إِذَا كَانَ الدِّينُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ سُلُوكُ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ

*١. يتوهم العصريون اللادينيون والعلمانيون بأنَّ الإسلام لا يصلح كنظام سياسي واقتصادي وثقافي للعصر الحديث، مدعين أنه جاء قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، وأنه يناسب ذلك العصر. ويغيب عن بال أولئك أنَّ الإسلام دين الفطرة، الذي أراد له الله أن يكون عالمياً، وهو الدِّين الذي يوجه الإنسان إلى التقدم والرفق والحضاريَّين على ضوء المناهج والنُّظُم الإلهية.

٢. ٨٥. ٢ / آل عمران.

٣. ٢٨. ٣ / سبأ

٤. ٢٥٦. ٤ / البقرة.

وجميع أموره، ومنها التَّعامل مع النَّاس، ألا يمكن له أن يقيم أموره في الحياة، ومنها التَّعامل مع النَّاس على غير الدِّين؟ وألا يمكنه تحقيق حسن التَّعامل مع النَّاس بصرف النَّظر عن الالتزام بالدِّين؟

وتكون الإجابة على ذلك كالتَّالي:

إنَّ الدِّين هو رسالة الله - سبحانه وتعالى - إلى النَّاس لكي يلتزموه ويسيروا على نهجه، بمعنى أنه - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَرَ النَّاس بأن يكونوا دِينِيَّين في حياتهم، لكون الدِّين المرسل من عنده هو الذي يناسب ويلاءم فطرتهم التي فطرهم عليها. أفلا تقتضي طاعة النَّاس لرَبِّهم، التزامهم دينه المرسل من عنده؟ وألا يقتضي أمرُ الخالقِ امتثالَ المخلوقِ له؟

ومع أنَّ الله - سبحانه وتعالى - أمر النَّاس بعبادته وإخلاص الدِّين له، إلَّا أنه لم يفرض عليهم الدِّين ولم يُكرِهْهُمْ عليه، وإِما وَجَّهْهُمْ إلى أنَّ الإيمانَ بالدِّين يجب أن يكون نتيجةً طبيعيَّةً لحقيقة الامتثال له، سبحانه، مَبْنِيًّا لَهُمْ أَنَّ الدِّين هو سبيل الاستقامة في الحياة وكسب النَّجاح فيها وفي الآخرة، تاركًا لَهُمْ حُرِيَّةَ الدِّين والمعتقد من دون إكراه. ومن هنا فلا تناقض بين الأمر بالدِّين وبين حُرِيَّةَ اختيار الدِّين والمعتقد.

إنَّ الإنسان بإمكانه اعتناق أيِّ دِينٍ أو عقيدةٍ ينتخبها بمحض اختياره، ولكنَّ القضيةَ ليست مجرد اعتناق وكفى، وإِما إلى أَنَّ هذه العقيدة تُحَقِّقُ له الهداية والاستقامة وفق ما أمر الله أو لا تُحَقِّقُهَا. وبإمكانه أن يتعامل مع النَّاس وفق أيِّ ثقافة، ولكن يُنْظَرُ إلى أَنَّ هذا التَّعامل وفق هذه الثقافة يوافق العقل المؤدَّب والشَّرْع أم لا يوافقهما. وحيث أنَّ الدِّين هو سبيل الهداية والاستقامة والدَّاعِي إلى العقل، فَإِنَّ هذا الأمر يقود إلى أَنَّ الدِّين هو أفضل أساس لإقامة صرح معاملة النَّاس عليه، فضلاً عن أَنَّهُ الأساس الأفضل لكلِّ أمور الإنسان في الحياة.

ورَبُّ قائلٍ يقول: أَنَّ التَّعامل مع النَّاس أمرٌ منفصلٌ عن الدِّين والاعتقاد والثقافة، ولا يخضع لاستعمال العقل، مَبْرَرًا ذلك بأنَّ من النَّاس من هم غير ملتزمين

دينياً، أو غير دِنييَّين على الإطلاق، ولكنهم يتعاملون مع بني نوعهم بشكل لائق. والحقُّ أنَّه مع كون العقل هو الميزان الذي يزن به الإنسان الأمور، ويميز به الخير من الشر، والحقُّ عن الباطل، والحَسَنَ عن القبيح، والفضيلة عن الرَّذيلة، مع كلِّ ذلك فإنَّ العقل وحده ليس كافياً، وأنَّ الإنسان لا غنى له في هذه الحياة عن الدِّين، وإلَّا لِمَ يُرْسَلُ الله الأديانَ مع علمه - عَزَّ وَجَلَّ - بأنَّ العقل أعظم وأكرم مخلوق خلقه، وأنَّه قوام الإنسان؟.

ثمَّ إنَّ العقيدة والثقافة إذا كانتا قَوميتين فإنَّهُما تُوجَّهان مُعتنِقَهُمَا إلى التزام الحقِّ والخير والحَسَن والفضيلة، وحسن التَّعامل مع النَّاس، أما إذا كانتا غير قويمتين فإنَّهُما تُوجَّهان مُعتنِقَهُمَا إلى خلاف ذلك، وقد تلغيان دور عقله، وتجعلانه مُسَيَّراً وفق مبادئهما المنحرفة. وإذا وُجد من النَّاس من هو غير ملتزم دينياً، ويُحَسِّنُ التَّصرف في بعض المجالات - ومنها التَّعامل مع النَّاس - فذلك يرجع إلى التزام استعمال العقل في الوجه الأصح، أو الوجدان الصَّالح أو التَّصرف وفق الفطرة الإلهية وهي الأمور التي يدعو الدِّين إليها ويُرشد. ومن هنا فلا ضامن لاستقامة تصرُّفات الإنسان - ومنها تعامله مع أخيه الإنسان - إلا الدِّين والتزامه^(١).

ويمكن القول أنَّ أزمة التَّعامل والأخلاق والانحراف الخُلقي التي تَعُمُّ أغلب أرجاء العالم - وخصوصاً دول الحضارة الماديَّة والمتأثِّرة بها - من أسبابها الأوَّلِيَّة: غيابُ الدِّين والتزامه، ولا حلَّ لهذه الأزمة أو المشكلة الخطيرة إلا بالعودة إلى رحاب الدِّين. بل إنَّ أغلب النِّزاعات في العالم والصراعات القائمة بين المحكومين والحُكَّام والمشكلات سواء كانت اقتصاديَّة، أو سياسيَّة، أو اجتماعيَّة، أو ثقافيَّة، أو قوميَّة، أو عنصريَّة، أو ... هي بسبب تضييع دِين الله، وغياب السَّيْرِ على نهجه وهداه، في جزء كبير منها.

*١. إنَّ العقل أقوى الأسس لاستقامة تصرفات الإنسان ومعاملاته، ولكن لا غنى للعقل عن الأدب، والأدب من صميم الدِّين. يقول الإمام علي عليه السلام: كلُّ شيء يحتاج إلى العقل، والعقل يحتاج إلى الأدب.. ويقول عليه السلام. أيضاً: لن ينجح الأدب حتى يُقَارَنه العقل..

❖ مُعَامَلَةُ اللَّهِ

حيث أنَّ الدِّينَ هو مجموعة القوانين والنُّظم والمناهج المرسلة من لَدُنِ اللَّهِ لِلنَّاسِ، ووسيلة الاتِّصال بينه - عَزَّ وَجَلَّ - وبينهم، وإذَّ أنَّه الأساس الذي يجب أن تقوم عليه حياة البشر، ومنها تعاملهم فيما بينهم، فإنَّ من ضروريَّاته الأولى حسن معرفة الله - عَزَّ وَجَلَّ - والعبودية له. وبعبارة أخرى: إخلاص الدِّينِ له، وإحسان معاملته والارتباط به -جَلَّ وعلا-.

إنَّ معاملة المرء لخالقه - عَزَّ وَجَلَّ - يجب أن تركز على توحيده، والصَّدق معه، وإخلاص النِّيَّة في معاملته. وإذا كان الإنسان يعلم أشياء وتخفى عليه أشياء، فإنَّ الله - سبحانه - عليم بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء، وهو العليم بذات صدور البشر فضلاً عن أعمالهم وتصرفاتهم الظَّاهريَّة.

ومن هنا فمعاملة الإنسان لله - سبحانه - يجب أن تكون مبنية على أنَّ الإنسان تحت مراقبة الله وتحت سلطته وهيمته، إذ هو الرَّبُّ العَزيز، والإنسانُ هو العبدُ الدَّليل. أفلا يُحسن العبد معاملة سيِّده ومولاه؟

وإذا كان الإنسان قادر على أن يخدع، ويمكن أن يخدع، فإنَّ الله - سبحانه - لا يُخدع ولا يُخادع، ومن يخادع الله، فاللهُ خادِعُه. وعليه فمن واجب الإنسان أن يحسن معاملة خالقه، وكلِّما تعرضت هذه المعاملة لما هو خلاف الحسن والصَّلاح، عليه أن يتوب إلى ربِّه ويصلح معاملته.

❖ أَصْلَاحُ الْعَلَاقَةِ مَعَ اللَّهِ

قال الإمام عليُّ (ع) :

«مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ. ومن أصلح أمر آخرته، أصلح الله أمر دُنياه. ومن كان له من نفسه واعِظٌ، كان عليه من الله حافظٌ»^(١).

١. نهج البلاغة، حكمة ٨٩.

«ذهب النَّبِيُّ محمد (ص) إلى المسجد ليؤدي صلاة الفجر. فلما أتمَّ الصَّلَاةَ بالنَّاسِ كان الظَّلَامُ قد سحب أثوابه خوفاً من أن يحرقها وهج الصَّبَاح. ولمَّا أوشك الرَّسُول (ص) على مغادرة المسجد، إذا بشاب مصفَّر اللون، قد ضعف جسمه ونحف، وغارت عيناه في رأسه.

فسأله رسول الله (ص): كَيْفَ أصبحتَ يا فلان؟

فأجاب الشابُّ: أصبحتُ موقناً يا رسولَ الله!

فتعجَّب الرَّسُول من قوله وقال: إِنَّ لَكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً، فما حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟

فقال الشَّاب النَّحِيل: إِنَّ يَاقِينِي - يا رسول الله - هو الذي أَحزَنَنِي، وَأَسَهَرَ لَيْلِي، وَأَظْلَمَ نَهَارِي، فَزَهَدْتُ نَفْسِي فِي الدُّنْيَا وما فيها، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي وَقَدْ نُصِبَ لِلْحِسَابِ، وَحُشِرَ الْخَلَائِقُ لَذَلِكَ، وَأَنَا فِيهِمْ. وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُسْتَغِيثُونَ، وكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُوي فِي مَسَامِعِي.

فالتفت النَّبِيُّ (ص) إلى أصحابه، وقال: هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ. ثم أوصى الشَّابَّ قَائِلاً: التَّزَمْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ.

فقال الشَّاب: اذْعُ اللَّهَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ أَرْزُقَ الشَّهَادَةَ مَعَكَ. فدعا له رسولُ الله (ص)، فلم يلبثْ أَنْ خَرَجَ فِي إِحْدَى غَزَوَاتِ النَّبِيِّ (ص) فَاسْتَشْهَدَ بَعْدَ تِسْعَةِ أَشْخَاصٍ، فَكَانَ هُوَ الْعَاشِرُ^(١).

وجاء في المناجاة المروية عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) الحسين بن علي بن أبي طالب) عليهم السلام:

اللَّهُمَّ أَلْهَمْنَا طَاعَتَكَ، وَجَبَّنَا مَعْصِيَتَكَ، وَيَسِّرْ لَنَا بُلُوغَ مَا نَتَمَنَّى مِنْ رِضَاكَ، وَأَحْلِلْنَا بِحُبُوحَةِ جَنَّاتِكَ، وَأَقْشَعْ عَنْ بَصَائِرِنَا سَحَابَ الْارْتِيَابِ، وَأَكْشِفْ عَنْ قُلُوبِنَا أَغْشِيَةَ الْمِرْيَةِ وَالْحِجَابِ، وَأَزْهِقِ الْبَاطِلَ عَنْ ضَمَائِرِنَا، وَأَثْبِتِ الْحَقَّ فِي سِرَائِرِنَا، فَإِنَّ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونِ لَوَاقِحُ الْفِتَنِ، وَمَكْدَرَةٌ لِفُتُو الْمَنَائِحِ وَالْمُنَنِ. اللَّهُمَّ احْمِلْنَا

١. الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٥٢، باب حقيقة الإيمان واليقين.

في سفن نجاتك، ومُتَّعَنَا بلذيذ مناجاتك، وأوردنا حياض حَبِّكَ، وأذقنا حلاوة ودِّكَ وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمَّنا في طاعتك (وأخلص نِيَّاتِنَا في معاملتك)، فَإِنَّا بِكَ وَلَكَ، ولا سيلة لنا إليك إلا أنت. إلهي، أجعلني من الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ، وألحقني بالصَّالِحِينَ الْأَبْرَارِ السَّابِقِينَ إِلَى الْمَكْرُمَاتِ، المسارعين إلى الخيرات، العاملين إلى الباقيات الصَّالِحَاتِ، السَّاعِينَ إِلَى رَفِيع الدَّرَجَاتِ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١).

بلا أدنى ترديد، إِنَّ عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِالنَّاسِ وتعامله معهم، مرتبطةٌ أَشَدَّ الارتباط بعلاقته بالله - سبحانه وتعالى - وتعامله معه، ومشروطة بها، لأنه - عَزَّ وَجَلَّ - هو خَالِقُ الْإِنْسَانِ، وبارئه من الْعَدَمِ، ومهيمن عليه، إن شاء أبقاؤه حياً، وإن شاء أخذه إليه. وحيث أَنَّ حياة الإنسان وموته بيد الله - بل كُلُّ أموره بيده جَلَّ وَعَلَا - فَإِنَّ واجبه أن يعرف قَدْرَ رَبِّهِ وَعَظَمَتِهِ، فيُطِيعَهُ، ويخلص الدُّيْنَ لَهُ، ويوقن به ويحبُّه، ويحسن معاملته، ويصلح ارتباطه به، لكي تنعكس آثار ذلك على جميع جزئيات حياته، ومنها تعامله مع بني نوعه.

وبناءً على ذلك، أن من سُنَنِ الله - تعالى - في عبادته والحياة، أَنَّ من يوقِّر في نفسه شرط صلاح العلاقة ما بينه وبين ربِّه - سبحانه -، فإن جزاءه أن تنتظم حياته وتسعد، ومنها علاقته بالنَّاسِ ومعاملته لهم.

وقد يقول قائل:

إِنَّ لِلْإِنْسَانِ وجداناً داخلياً، فإذا صلح هذا الوجدان، صلحت علاقة الإنسان بالنَّاسِ وتعامله معهم، وبالتالي لا ربط لذلك بإصلاح العلاقة مع الخالق! .

وهنا لأبُدُّ من التَّساؤل:

وما الذي سيضمن صلاح وجدان^(٢) الإنسان وضميره، واستمرار ذلك، في غياب صلاح العلاقة والتَّعامل مع الله - سبحانه؟! .

١. كليات مفاتيح الجنان، ص ١١٩، مناجاة المطيعين..

٢. إنَّ الوجدان أو الضمير الصالح هو النتيجة الطبيعية لإصلاح العلاقة بالله، وتركبة النفس وتطهيرها وفق ذلك. كما أنَّ الوجدان والضمير الصالحين يجب أن يقودا المرء إلى الله سبحانه والتزام دينه.

هل العقل واستعماله في خارج إطار طاعة الله وإصلاح العلاقة به، قادر على ذلك؟! .
وهل القانون الوضعي - وحده - كافٍ لخلق الأرضية الحسنة في نظم حياة الإنسان، ومنها تعامله مع الناس؟!

إنَّ إلغاء العلاقة الدينيَّة بالله، أو إعطاءها دوراً هامشياً، هو نهج الملحدِّين، والكفار، والماديِّين، وعموم التَّأهين في الحياة.. ومن هنا فلا غرابة أن تضعَّ المجتمعات الملحدة، والكافرة - والماديَّة عموماً - بسوء علاقة الإنسان، وبتحوُّل الفرد إلى مجرد أداة للمادَّة. ولا غرابة أيضاً أن تطفح المجتمعات الغربيَّة والمقلَّدة لها بالتَّفاقم المذهل للذنب والجريمة، كالقتل، والاعتصاب، والسَّرقة، والإدمان على المواد المخدَّرة والكحولية، والخديعة، وأكل أموال الآخرين بالباطل، واستخدام أيِّ وسيلة من شأنها دُرُّ الأرباح والمكاسب الماديَّة، و... بالرَّغم من كثرة القوانين الوُضعية وتُشعُّبها.

وهذا إن دُلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على أنَّ القانونَ الوضعيَّ لا يصلح أن يكون بديلاً عن القانون الإلهي - وهو الدِّين - وأنَّ القانونَ الوضعيَّ - وحده - غير قادر على تقويم وتنظيم تعاملات الإنسان مع بني نوعه، ولا كافٍ لذلك. وهو قد يمنع الإنسان من ارتكاب الجريمة عن طريق حالة الرُّهبة من الجَزاء المحدَّد إزاءها، إلَّا أنَّه لا يعالج جذورها لاجتثاثها من الأصل. وأكبر شاهدٍ ودليل على ذلك، واقع المجتمعات الغربيَّة، والملحدة، واللا دينيَّة عموماً، إذ بالرَّغم من وجود القوانين وكثرتها، إلَّا أنَّ الجرائم في ازدياد مطَّرد، على الصَّعيد الفرديِّ، والاجتماعيِّ^(**)، فعلى سبيل المثال: إنَّ انقطاع الكهرباء لمدة خمس دقائق في

**. كعبية على كثرة الجرائم في الغرب مع كثرة القوانين الوُضعية، هنا ثلاثة أمثلة من ألمانيا، وبريطانيا، وأمريكا:-

١- ذكرت أول دراسة من نوعها أعدتها وزارة النساء في بون، أنَّ أكثر من سبعين في المائة من النساء يتعرضن للتحرش الجنسي في أماكن عملهن. وفي نتائج هذه الدراسة أن ٥٦ في المائة من النساء يشتكين من الملاحظات المفظة، و٣٤ في المائة من القُرص وملامسة القُفا، و ٢٢ بالمائة من الهجمات على صدورهن. ومن جهة أخرى فإن سبعين بالمائة من النساء تعرضن لتهديدات مهينة، وخمسة بالمائة واجهن إرغامات جنسيَّة.

وفي إطار هذه الدراسة، فإن ٧٧٨ حالة تحرُّش جنسي أُحصيت بين ١٠٨١ امرأة يعملن في عشر مؤسسات ولم يُطرَد سوى ثلاثة رجال، في حين أن ٤٦ امرأة اخترن الاستقالة. وبحسب وزيرة النساء انجيلا ميركل، فإنَّ التحقيق أظهر أنَّ على الموظفين ونقابات العمَّال أن يعملوا أكثر للحوُّول دون التمييز للنساء بالتحرش الجنسي بهن في أماكن العمل. ورأت أنَّ التحرش الجنسي يجب ألا يعتبر بعد الآن هفوة، معلنة أنها ستقترح قريباً على النقابات واتحادات الموظفين مشروع إطار لإيجاد حلول لهذا الوضع..

مدينة نيويورك الأمريكية، يؤدي إلى حدوث عشرات الجرائم!.

إِنَّ القانونَ الوضعيَّ - برأي بعض المُفكرين الإسلاميين - مثلهُ مَثَلُ الشَّرْطَةِ الفرنسيَّةِ المُتَواطِئَةِ مع السُّلْطَةِ الفرنسيَّةِ. فكما يقال: أَنَّهُ حينما يُخَصَّصُ شرطيٌّ للمحافظة على شخص لا ترغب السُّلْطَةُ فيه ومتورِّطٌ معه، فإن وظيفة هذا الشرطيِّ ليس منع المهاجم من ارتكاب الجريمة، وإِنَّمَا وظيفته أن يشهد حدوثها. حينما يُطلَقُ الرِّصَاصُ على شخصٍ غير مرغوب فيه، ويَخْرُ صريعاً على الأرض، آنثِذِ يأتي «البوليس» الفرنسي، ويقول: نعم، رأيت هذا أطلق النار على هذا. وهكذا يكون عمل القانون الوضعيِّ، فهو لا يستطيع كبح جِمَاح الجريمة، ومعالجة جذورها، وإِنَّمَا يأتي فيصدر الأمر بمعاقبة المجرم فقط، والجريمة قد وقعت، بخلاف القانون الإلهيِّ أو الدِّينيِّ الذي يتوجَّه - أولاً - إلى بناء النَّفْسِ الإنسانيَّةِ بتزكيتها من الجريمة، وتربيتها على الفضيلة، فيأتي الإلتزام بالقانون نابعاً من الامتثال لله، والتَّربِّيَّةُ للذَّاتِ على الفضائل، وتزكيتها وتطهيرها من الأهواء، قبل أن يكون نابعاً من حالة التَّرهيب الجَزائيِّ.

ولا يعني ذلك أَنَّ القانونَ الوضعيَّ المحقِّقَ ليس مطلوباً، وأنَّ ليس له تأثير في

جريدة الديار اللبنانية، ٢٥ آذار ١٩٩١، الملحق ص ١٥.. ولكن أين جدوى الحلول ومكافحة الذُّنب والجريمة، في حال غياب الدِّين، وتقوى الله، وغياب الواعظ والرائدع النفسانيِّ؟!

٢- أكدت أحدث احصائية في معدلات الجريمة في بريطانيا أن عام ١٩٩٠ كان أسوأ عام شهدته البلاد، وأعلى بنسب الجرائم، حيث ارتفعت نسبة الجريمة عن العام الماضي ١٧ بالمائة. وذكرت وزارة الداخلية البريطانية أنَّ عدد الجرائم في البلاد أزداد حوالي ٦٣٧ ألف جريمة عن الأعوام السابقة. ويذكر أن أعلى ارتفاع معدل للجريمة في بريطانيا قد حدث في عام ١٩٨٢/١٩٨٠ حين سجلت الاحصاءات ارتفاع معدل الجريمة في البلاد بواقع ١٠ بالمائة. وجاءت جرائم سرقة المنازل والتَّعدي عليها، وسرقة السَّيارات في مقدمة الجرائم المرتكبة في بريطانيا. وكالات الأنباء، أبريل ١٩٩١.

٣- «أعلنت شرطة دالاس أنَّ رجلاً باع ابنه البالغ من العمر أربعة أعوام، مقابل جرعة من الكوكايين قيمتها ٤٠ دولاراً، ولكن زوجته تمكنت من استرجاع الطفل بعد عراك مع المُشترين الثلاثة. وقالت فانيلدا روميرو أنَّ زوجها دَرَجَ على ترويج المخدرات وتعاطيها، وقد انتابته نوبة غضب شديد عندما علم أنها استرجعت الطفل، فضربها وحاول أخذه لبيعه مجدداً. وكالات الأنباء، مايو ١٩٩١.

أليست هذه جريمة نكراء بحقِّ الولد؟! وأليست هذه إساءة معاملة له في منتهى السوء من قِبَلِ أبيه؟! وأليست غالبية الجرائم هي إساءة لمعاملة الإنسان أخاه الإنسان؟!!

تقويم المجتمع وتنظيمه، وإصلاح العلاقات بين أفرادها، بل هو ضروريٌّ، وإمّا المقصود أن يكون القانون مبنياً على أرضية صالحة لكي يتمكّن من ضبط المجتمع وتقويمه، إذ التّقويم يجب أن يبتدئ من الجذور، والجذور تتمثل في إخلاص الدّين لله، والإيمان به، وطاعته، وتقواه، وتربية النّفس وتزكيتها على نهجه وهده، وإصلاح العلاقة والتّعامل معه.

وقد يسأل السّائل فيقول:

وما هي علاقة القانون والقانون الوضعي وارتكاب الجرائم، بالتّعامل مع النّاس؟ وأليست الجريمة متمثلة في القتل، والسّرقة، والاعتصاب، وممارسة الفحشاء، وتهريب المخدّرات والإدمان عليها، وشرب الخمر، وما شابه ذلك؟ وللإجابة على ذلك:

إنّ التّعاملات التي تنشأ بين بني البشر يمكن تقسيمها إلى نوعين:

أ- تعاملات قائمة على الانتفاع المتبادل بين شخصين، أو جهتين، والتي يجب أن تقوم على حفظ الحقّ واحترامه، كما في البيع، والإجارة، والمضاربة، والزّهن، وبقية المعاملات والعقود الأخرى، وفي كلّ المجالات التي يدخل احترام الحقّ طرفاً فيها.

ب- تعاملات تُعنى بالجانب الخُلقيّ في إبرام العقود والمعاملات المتقدّمة، وبعموم معاشرّة النّاس ومخالطتهم.

وما من شكّ أنّ المعاملات من النّوع الأوّل هي بحاجة ماسّة إلى المعاملات من النّوع الثّاني^(*)، إذ حتّى مع حفظ الحقّ واحترامه، ينبغي للإنسان حفظ كرامة الإنسان وإحسان معاملته، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإنّ الأخطاء التي قد يرتكبها الإنسان في تعامله مع النّاس - من جرّاء سوء ارتباطه بالله - هي في حدّ ذاتها أخطاء أو جرائم. وهذه الجرائم

*1. بصيغة أخرى يمكن القول: أنّ المرء في معاملته النّاس لأبّد أن يلتزم أمرين: الأوّل: اجتناب التّعدي عليهم وعلى أعراضهم

أو الأخطاء قد تكون صغيرة، وقد تكون كبيرة، ومن يفعل الجريمة الصَّغيرة، قد يرتكب الجريمة الكبيرة، وكما في المثل: «من سرقَ بيضةً قد يسرقَ جَمَلاً». وفي دين الله ومنهجه لا فَرْقٌ - من حيث الأصل - بين أن تكون الجريمة صغيرة أو كبيرة، وإنَّما الجريمة هي الجريمة، صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ، والخطأ هو الخطأ، صَغُرَ أم كَبُرَ، والمطلوب استئصال جذور الجريمة وإحلال جذور الصَّلاح محلَّها.

ومن جهة ثالثة فإنَّ الجريمة - في أغلب صورها وأشكالها - تأخذ الطابع الاجتماعي^(١)، وبالتالي الإساءة إلى الآخرين، فعلى سبيل المثال إنَّ جرائم السَّرقة، والاعتداء الجنسي، و... إلخ إضافة إلى حالة التَّعدي فيها على حُرُمات الآخرين، فهي تتضمَّن إساءة في معاملتهم، ولا إساءة في معاملة النَّاسِ كممارسة الجريمة بحقَّهم!.

ولإبعاد الإنسان عن الجريمة، وتقويم تعامله مع بني جنسه، فإنَّه بحاجة ضرورية مُلِحَّة إلى التزام دين الله وإخلاصه له - جَلَّ وَعَلَا -، والتزام قوانينه ونُظُمه ومناهجه وأخلاقياته، وإصلاح علاقته به - سبحانه وتعالى - وبناء النَّفس على أساس تقواه وخشيته. ومن أهم وأبرز صور إصلاح العلاقة والارتباط بالله، الأخذ بعين الجدِّ والاجتهاد، الدَّار الآخرة وإصلاح أمرها، والعمل من أجلها.

يقول تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)^(٢).

وأموالهم وعلى كُلِّ حقٍّ من حقوقهم اجتناب الجريمة، والثاني: الالتزام بأخلاقيات التعامل، وآدابه النَّابعة من الدِّين والعقل المؤدَّب في أي معاملة مشروعة. وفي المجتمعات «المتقدِّمة» إذا كان هناك نوع التزام بالأمر الثاني، فإن هناك خرقاً شديداً جداً للأمر الأوَّل.

*١. بالنظر إلى الطَّرَف المجنبي عليه تنقسم الجريمة إلى ضَرَبَيْن: جريمة يجني فيها المرء على ذاته، وأخرى يجني فيها على الآخرين.

٢. ٧٧ / القصص.

❖ إصلاح أمر الآخرة

«... وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ، أَصْلَحَ اللَّهُ أَمْرَ دُنْيَاهِ...».

أرأيت الواحد منّا كيف يرى في الحُلُم أَنَّهُ مسافر إلى مدينة من المدن، أو إلى أيّ مكان آخر، فيتفاعل مع هذا الحدث. وفجأة يدقّ جرس السّاعة، فيفتح اجفانه ليجد نفسه في فراشه ومكانه الأصليّ، وكأنّه لم يرحل إلى أيّ مكان، ولم ير شيئاً على وجه الإطلاق.

وقد يبدي الإنسان عجبه، فيقول:

إنّني كنت في عالم آخر، ثم جيء بي إلى هنا!

وينسى أنّ حياته سريعة كالحُلُم، فيرى كلّ الأشياء حُلُمًا. ويرى تلك المادّيات التي تتّصارع عليها مجردٌ لعب أطفال، والسّيّارة التي باع ضميره لأجلها مثل سيّارة من البلاستيك، إذ الأطفال يتشاجرون - وبعنف - من أجل سيّارة بلاستيكية، أو قطار من الخشب، أو أيّ لعبة أخرى.

ونحن قد نضحك من هذه التّصرفات الطّفليّة، ومن هذا المستوى من التّفكير. إلّا أنّنا سنضحك على أنفسنا في الغد بكاءً فيما إذا لم نستغلّ دنيانا لإصلاح آخرتنا، وإذا لم نجعل هذه الدّنيا مزرعة للدّار الآخرة. وسنّصاب باليأس والحسرة والنّدم، إذا لم نُكوّن لنا رصيلاً راجحاً من الأعمال الصّالحة، ومنها حسن التّعامل مع الإخوان في الدّين، والنّظر في الخلق. وفي آجلنا سنجد نُصبَ أعيننا كلّ شيء من أعمالنا جليّاً واضحاً، الخير منها والشرّ، إلّا أنّه لا فرصة لنا في العمل، ولا في القول: «رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ»^(١)، إذ ذَهَبَ وَقْتُ السّعي والعمل، وحان موعد الحساب والكتاب، وأنّنا لا تنفع الحسرة والنّدم، ولات حينٌ حسرةٍ وندمٍ!

الإمام عليّ (ع) يقول:

«اليوم عملٌ ولا حسابٌ، وغداً حسابٌ ولا عملٌ»^(٢)

١٠٠ / ٩٩.١ المؤمنون.

٢. نهج البلاغة، الحكم.

وحيث أنَّ الأمر كذلك، فلنبداً - ومن اللَّحظة التي نحن فيها - بإصلاح ارتباطنا بالله - تعالى -، وبإصلاح أمر آخرتنا، هذا الإصلاح الذي هو نتيجة طبيعيَّة لإصلاح التَّعامل مع الله - سبحانه -، بجعل دنيانا واسطة ومَطيَّة ومزرعة لها، مع العلم بأنَّ حُسْنَ وإصلاح التَّعامل مع الإخوان ومع بني البشر عموماً، هو جزء كبير من التزام الدِّين، وإصلاح أمر الدُّنيا، وبالتالي إصلاح أمر الآخرة.

إنَّ الدُّنيويِّين والمادِّيِّين والملحدِّين ومن هم على شاكلتهم، يتصوِّرون أو يعتقدون أنَّ الحياة الدُّنيا هي كل شيء، أو ينكرون أنَّ هناك داراً باقية خالدة بعد الدُّنيا، وهي الدَّار الآخرة. ونتيجة لذلك فهم يعيشون ويتصرفون وكأنَّه لا وجود لحياة أخرى بعد الدُّنيا، ولا حَشْر، ولا مَعَاد، ولا حساب، ولا كتاب. ومتى ضاعت الآخرة فيهم، انتكست دنياهم وطُلح أمرها، حتى وإن عاشوا في أرقى حالات الرِّفاه والنَّعيم، إذ لا غنى للإنسان في هذه الحياة عن العبوديَّة والخضوع لله، والارتباط الرُّوحيَّ به، والإيمان به، فمن أصول الدِّين وأساسياته: الإيمان بالمَعَاد والحياة الآخرة.

إنَّهم يتصوِّرون - خطأً - أنه من الجَّهْل والتَّخلف، أو من السَّفه والتَّأخّر أن يكون الإنسان دينيًّا روحياً، وأن يحسن علاقته مع بارئه لكي تنعكس آثار ذلك على كلِّ مجالات حياته، ومنها تعامله مع نفسه ومع النَّاس، وبغياب الدِّين، وبغياب حُسْن التَّفَاعُل معه والارتباط بالخالق والإيمان بآخرته، تتحوَّل حياة أولئك إلى جحيم ماديٍّ، وحينها لا يهتمهم إن أترفوا، أو أفسدوا، أو ظلموا، أو طغوا وتجرَّروا، أو أساءوا التَّعامل مع النَّاس.

وبناءً عليه، فليُصْلح الإنسان ما بينه وبين النَّاس، يتلزَّم عليه أن يصلح ما بينه وبين الله، ولكي يصلح ما بينه وبين الله يلزم له أن يصلح أمر آخرته كي يُصلح الله أمر دنياه. وبديهة أنَّ من أمور الدُّنيا، التَّعامل مع النَّاس، والعلاقات الإنسانيَّة معهم، إذ هي ميدان واسع^(١) في الدُّنيا، ومجالٌ يُحاسب عليه الإنسان في الآخرة التي على الإنسان أن يعدَّ لها ويستعد.

*١. تشكل المعاملات حيزاً واسعاً في حياة الإنسان، وأغلبية الأعمال التي يزاولها هي بحاجة إلى التعامل مع بني جنسه.

وعن ضرورة الاستعداد الجاد للآخرة نقرأ القصة التالية:

يُقال أَنَّ أحد الصَّالِحِينَ كان جالساً في إحدى المقابر وحيداً، وإذا به يرى جنازة يحملها مُشَيِّعُونَ، جاءوا لدفنها. وبعد انتهائهم من دفنها عادوا أدراجهم، وتركوا صاحبهم وشأنه. وبينما هو كذلك، رأى كلباً أسوداً تبدو عليه أمارات الوحشية، يسير باتجاه تلك الجنازة التي دُفِنَتْ، والرَّجُلُ لا يرى من الجَنَازَةِ والقبر شيئاً.

وبعد أمدٍ قصير، وقعت نظراته على شابٍّ وسيم المنظر، مشرق الطَّلعة، يرتدي ملابس بيضاء، متوجهاً إلى ملحُودَةِ الجَنَازَةِ. وبعد فترة من الزَّمن رأى الرَّجُلُ ذلك الشابَّ الوسيم وقد عاد ممزَّق الثَّياب، والدماء تنزف منه، فقفز الرَّجُلُ من مكانه مندهشاً، وبادره بالسُّؤال:

هل لك حاجة يا هذا؟!

وهل آذاك أحد؟!

قال الشابُّ الجميل والدموع تنهمر من عينيه على صفحتيَّ خَدَيْهِ:

يا هذا! إنَّكَ ترى الآخرة، والحجاب قد كُشِفَ عن عينيك.

وأردف قائلاً: هل رأيت الجَنَازَةَ؟

قال: نعم!

قال الشابُّ الوسيم: وهل رأيت الكلب الأسود المتوحَّش؟

قال: نعم!

قال الشابُّ بوداعة: أنا العمل الصَّالح لصاحب الجَنَازَةِ، وذلك الكلب الوحشيُّ هو معاصيه. وحينما وُضِعَ في القبر كُلفَ كلانا أن نذهب إليه، ونكون أنيسيه إلى يوم القيامة. إلَّا أَنَّ معاصيه كانت أكثر من طاعاته، فاستطاع أن يدميني ويطرديني، وسبقني ذلك الكلب الوحشيُّ أنيسه إلى يوم يُبعثون.

فهل - يا ترى - فكَّرنا في أنفسنا بجدٍّ؟

وهل حسبنا حساب الآخرة؟

إنَّ أفضل وأقوى أساس للعلاقات الاجتماعية الإنسانية، هو الدِّين، ومن الدِّين إصلاح العلاقة مع الله، وإصلاح أمر الآخرة والدُّنيا، إذ أنَّ إصلاح العلاقة مع الله والآخرة والدُّنيا هو جوهر الدِّين ولُبَّأبه، مع العلم بأنَّ يوم القيامة هو يوم الدِّين، أي هو يوم القانون الذي يُحاسب فيه النَّاس على مدى التزامهم بقانون الدِّين ومنهجه في الدُّنيا، فليكنَّ تكون آخرة الإنسان نيِّرة لا بُدَّ له أن يتوسَّل بسراج العمل الصَّالح في أولاه.

يقال أنَّه كان لأحد التُّجار خادم، وكان التَّاجر شأنَ كثير من أمثاله، يجمع الأموال ويخزُّنها. وحينما كان الخادم ينصحه بأن ينفق من أمواله في سبيل الله، كان يقول:

- لقد أوصيتُ أن يفعلوا ذلك من بعدي.

وذات ليلة، والظلام الدَّامس ينشر أستاره على الطُّرقات، كان الخادم يسير ويحمل سراجاً، والتَّاجر يسير برفقته، إلَّا أنَّ الخادم تعمد أن يمشي خلفه، فلم يستطع التَّاجر أن يُبصر شيئاً. فالتفت إلى خادمه، وقال:

- كيف استطيع الاهتداء في مسيري، والسَّراج من ورائي؟! وهل يُبصر شيئاً من كان السَّراج من ورائه؟!

قال الخادم: إذن، كيف تريد أن يأتيك السَّراج في قفرك ومَعادِك، ومن ورائك؟

إنَّ العمل للآخرة ضرورة أكيدة، وإنَّ الآخرة حقيقة لا بُسَّ فيها، وما أكثر التَّأكيدات في القرآن الكريم والسُّنة الشَّريفة على ذلك! وبناءً عليه، فلنُصلح أمر آخرتنا بالعمل الصَّالح والمُسارعة والمسابقة إليه في دنيانا، ولنُقَدِّم سراجنا ونضعه أمامنا، فنحن الذين سننامُ في قبورنا، لا غيرنا، ونحن الذين سنُحاسبُ على أعمالنا، لا سوانا. فأنا سَأُحاسبُ على أعمالي، لا غيري، وأنت ستُحاسبُ على أعمالك، لا غيرك. وإنَّ في وضعنا للسَّراج من أمامنا، سيجعلنا - فضلاً عن الفوز بالدار الآخرة

والتَّجَاحَ فِيهَا - نَاجِحِينَ فِي دُنْيَانَا، سَعْدَاءَ فِيهَا، نَتَعَامَلُ مَعَ النَّاسِ بِشَكْلِ يَرْضَى اللَّهُ، وَيَرْضَى عِبَادَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى عِلَاقَتِنَا بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

❖ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَعَامُلُ الْإِنْسَانِ مَعَ اللَّهِ؟

يقول الإمام زين العابدين (ع) في رسالته العظيمة، المعروفة «برسالة الحقوق»: «حَقُّ اللَّهِ الْأَكْبَرُ عَلَيْكَ: أَنْ تَعْبُدَهُ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِإِخْلَاصٍ، جَعَلَ لَكَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكْفِيكَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...»^(*).

سؤال بالغ الأهميَّة، يبرز:

بِمَا أَنَّ الدِّينَ هُوَ الْمُنْهَاجُ الْقَوِيمُ، وَالْأَسَاسُ الرَّاسِخُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُبْنَى حَيَاةُ الْإِنْسَانِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ إِصْلَاحَ الْمَعَامَلَةِ مَعَ اللَّهِ هُوَ الْأَرْضِيَّةُ السَّلِيمَةُ وَالنَّاجِحَةُ لِلتَّعَامُلِ مَعَ جَمِيعِ شُؤُونِ الْحَيَاةِ - وَمِنْهَا التَّعَامُلُ مَعَ النَّاسِ - فَكَيْفَ يَتِمُّ إِصْلَاحُ التَّعَامُلِ مَعَ اللَّهِ؟

والإجابة على ذلك كالتَّالِي:

إِنَّ حُسْنَ التَّعَامُلِ مَعَ اللَّهِ - سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَإِصْلَاحَ الْمَعَامَلَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَحْصُلَانِ مِنْ إِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَجَوْهَرِ هَذَا الْإِخْلَاصِ، الْإِخْلَاصُ فِي تَوْحِيدِهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَالْعِبَادِيَّةَ لَهُ. وَفِيمَا يَلِي مَجْمُوعَةُ مِنَ الْقَوَاعِدِ لِإِحْرَازِ حَسَنِ التَّعَامُلِ مَعَ اللَّهِ، وَإِصْلَاحِ الْعِلَاقَةِ وَالْإِرْتِبَاطِ بِهِ، وَهِيَ حَقُوقُ عَلَى الْعَبْدِ لَهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَفُرُوعُ تَنْبَثِقُ مِنْ أَصْلِ تَوْحِيدِهِ - جَلَّ وَعَلَا -:

- تَوْحِيدُ اللَّهِ بِإِخْلَاصٍ.

- نَفْيُ الشُّرَكَاءِ لَهُ.

- مَعْرِفَتُهُ.

*١. مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ ص ٤١٩.

- الْإِيمَانُ الْيَقِينِيُّ بِهِ.
- عِبَادَتُهُ.
- طَاعَتُهُ (الانتماء بأوامره، والانتهاز عن نواهيه، والتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ، وَالتَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِهِ).
- خَوْفُهُ (تَقْوَاهُ، وَالْوَرَعُ عَنْ مُحَامَاهُ).
- رَجَاءُهُ.
- حُبُّهُ.
- حُبُّ مَنْ يَحِبُّهُ.
- الرَّغْبَةُ إِلَيْهِ.
- حَمْدُهُ.
- شُكْرُهُ عَلَى نِعَمِهِ.
- شُكْرُهُ عَلَى أَيْ حَالٍ.
- الثَّنَاءُ عَلَيْهِ.
- طَلِبُ شَفَاعَتِهِ.
- الرِّضَا عَنْهُ.
- الرِّضَا بِقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ.
- الرِّضَا بِقِسْمَتِهِ.
- النَّظَرُ إِلَى جَمِيلِ رُؤْيَيْتِهِ.
- الْاِعْتِصَامُ بِهِ.
- الْاِفْتِقَارُ إِلَيْهِ.
- النَّدَمُ إِلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ وَالْأَخْطَاءِ.
- التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ.
- طَلِبُ الْعَفْوِ مِنْهُ.

- الْإِنَابَةُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.
- مَنَاجَاتُهُ.
- الشَّكْوَى إِلَيْهِ.
- التَّوَسُّلُ بِهِ.
- ذِكْرُهُ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ^(*).
- الصَّلَاةُ لَهُ.
- دَعَاؤُهُ.
- التَّصَرُّعُ لَهُ
- اسْتِغْفَارُهُ.
- الْخُضُوعُ لَهُ.
- سُؤَالُهُ.
- الْاسْتِكَانَةُ^(**) لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ.
- طَلْبُ الرَّفْقِ مِنْهُ.
- طَلْبُ الرِّزْقِ مِنْهُ.
- الْبُكَاءُ مِنْ خَوْفِهِ.
- الْاسْتِعَانَةُ بِهِ.
- اسْتِمْدَادُ الْقُوَّةِ مِنْهُ.
- طَلْبُ النَّجَاةِ مِنْهُ.
- التَّعَرُّضُ لِحُجُودِهِ.
- طَلْبُ نُصْرَتِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

*١. كلما استطاع الإنسان أن يذكر الله بلسانه فليفعل، إضافة إلى ذلك فإن العمل الصالح المرضي لله هو ترجمة فعلية لذكره - عز وجل.

*٢. الاستكانة: الدُّلُّ والخضوع.

- طَلَبُ سِتْرِهِ لِلْعِيُوبِ.
- طَلَبُ وَقَائِهِ مِنَ الْبَلَاءِ.
- تَقْدِيرُ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.
- الْعَمَلُ فِي سَبِيلِهِ.
- الاسْتِجَارَةُ^(**١) بِهِ، وَمِنْ أَلِيمِ غَضَبِهِ.
- طَلَبُ الْعَطَاءِ مِنْهُ.
- اسْتِمْدَادُ الْأَمَلِ وَالتَّفَاوُلِ مِنْهُ.
- الْإِقْبَالُ عَلَيْهِ.
- مَجَاهَرَتُهُ بِالْعَصِيَانِ (الاعتراف له بالمعصية).
- التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ.
- التَّمَسُّسُ قِرَاهُ^(٢).
- الْإِنَاخَةُ^(**٣) بَبَابِهِ.
- الْإِيْمَانُ وَالْإِحْسَاسُ بِمِرَاقِبَتِهِ.
- الْإِخْلَاصُ إِلَيْهِ.
- الْهَرُوبُ إِلَيْهِ.
- طَلَبُ اطْمَئِنَانِ النَّفْسِ مِنْهُ.
- الْإِيْقَانُ بِهِ.
- اسْتِمْدَادُ الْبَصِيرَةِ وَالْوَعْيِ وَالْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ مِنْهُ.
- حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ.
- الثَّقَّةُ بِثَوَابِهِ.

**١. الاستجارة: الاستغاثة والالتجاء.

**٢. القرى: ما يُقدَّم للضيف، والمقصود طلب الرزق منه.

**٣. الإناخة: من أناخ الجمل: أَبْرَكُهُ. والمقصود الإقامة ببابه.

- تَجَنُّبُ الغفلة عن الاستعداد للقاءه.
- الابتهاالُ إليه.
- التَّعَرُّضُ لنفحات رَوْحِهِ^(****).
- طَلْبُ السَّترِ منه.
- الطَّمَعُ في إحسانه.
- طَلْبُ مرضاته.
- طَلْبُ مغفرته ورحمته.
- التماسُ إبعاد العذاب منه.
- الشُّهُودُ على النَّفْسِ - عنده - بالإهمال والتَّضييع.
- طَلْبُ التَّوْفِيقِ منه، في الدُّنيا والآخرة.
- طَلْبُ الإحلال في بَحْبُوحَةٍ^(****٢) جنَّاته.
- التماسُ قَشْعِ الارتباب والشكوك، منه.
- طَلْبُ تثبيتِ الحَقِّ في النَّفْسِ ، منه.
- طَلْبُ نزع الباطل من الضَّمير، منه.
- الجِّهَادُ في سبيله.
- الإخلاصُ في معاملته.
- طَلْبُ اللُّحُوقِ بالصَّالِحِينَ والأبرار، منه.
- التماسُ الهداية منه.
- طَلْبُ التسهيل في العُسْرِ والشَّدَّةِ، منه.
- الرِّغْبَةُ فيما عنده.

****١. النَّفَّحات: العطايا، والرَّوْح: الرحمة، والعدل الذي يريح المشتكي.

****٢. البحبوحة: الرغد والطيب والسعة.

- طَلْبُ السَّعَادَةِ مِنْهُ.
- الاسْتِشْفَاعُ بِنَبِيِّهِ.
- طَلْبُ خَتْمِ الْعَمَلِ بِالْخَيْرِ، مِنْهُ.
- طَلْبُ قِضَاءِ الْحَاجَاتِ، مِنْهُ.
- الشَّوْقُ إِلَيْهِ.
- الاقْتِرَابُ مِنْهُ.
- طَلْبُ الْأَمَانِ مِنْهُ.
- الاسْتِعَانَةُ بِهِ.
- التَّعَرُّضُ لِنَفَحَاتِ رِيحِهِ.
- اسْتِقْلَالُ الْعَمَلِ فِي سَبِيلِهِ.
- اسْتِثْلَامُ الْأَفْكَارِ مِنْهُ.
- الْإِيمَانُ بِغَيْبِهِ.
- تَقْدِيرُهُ.
- الْأُنْسُ بِهِ.
- التَّمَسُّكُ بِعُرْوَةِ عَطْفِهِ.
- طَلْبُ التَّزْهِيدِ فِي الدُّنْيَا مِنْهُ.
- حَسَنُ الْارْتِبَاطِ وَالتَّعَامُلِ مَعَهُ.

وهكذا فَلَيْكِي نحسن معاملة الله - سبحانه وتعالى - ومن ثم معاملتنا أنفسنا،
والنَّاسَ، واجبنا التزام هذه القواعد، والاستقامة عليها.

❖ التَّعَامُلُ مَعَ النَّفْسِ

قال الإمام عليُّ (ع):

«رَأْسُ الدِّينِ مُخَالَفَةُ الْهَوَى»^(١).

يهتم الدِّينُ اهتماماً بالغاً بالنَّفْسِ الإنسانيَّةِ وتهذيبها وتزكيتها، وذلك لأنَّها منطلق الأعمال والممارسات، فإذا صَلُحت، صَلُحت حياة الإنسان، وَصُلِحَ تقدُّمه ورقَّيه وحضارته. وهذا ما يُمَيِّز الدِّينَ عن العقائد والأيدولوجيَّات الأخرى التي تُؤمِّن برقيَّي المجتمعات وتقدِّمها وتهمِّل الاهتمام بالنَّفْسِ الإنسانيَّةِ وتقويمها.

والأزمة الأخلاقيَّة السلوكيَّة التي تعيشها المجتمعات الغربيَّة والماديَّة والمتغرَّبة، هي نتيجة البُعد عن الدِّين، أو بقاء رسمه في النَّفس فقط. وإذ غاب الدِّين في هذه المجتمعات، أُطْلِقَت الحرِّيَّة للنَّفْس لكي تفعل ما تشاء وما تريد، وحدث ما حدث ويحدث، ولا نجاة لتلك المجتمعات إلَّا بالعودة إلى الدِّين.

ومن هنا فإنَّ من أوليات الدِّين والالتزام به: تهيئة النَّفس، بتهذيبها، وإصلاحها، ومجاهدتها، وحملها على مقتضى العقل والحكمة والتَّقوى والأخلاق، ونهيها عن الأهواء الباطلة، وبعبارة أخرى: حسن التَّعامل معها.

إنَّ حسن التَّعامل مع النَّفس قاعدة أوَّلِيَّة لحسن التَّعامل مع النَّاس، وقبل ذلك هو قاعدة رئيسة في التزام الدِّين، وأمر يضمن نجاح الإنسان وسعادته، في دنياه وآخرته.

فهلَّا يحسن المرء معاملة نفسه، ولا يسيء إليها؟

❖ لَا تُسَيِّ إِلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ

«فتح أبو ذرُّ الرِّسالة التي وصلتته، فوجدها قادمة من مكان بعيد، ومن رجلٍ يعرف أبا ذرُّ وشخصيَّته، ومكانته من النَّبِيِّ (ص)، واطَّلَاعَه الواسع بأحاديث الرِّسول (ص) وحِكَمِهِ، ولذا فهو يطلب في رسالته، نصيحةً من أبي ذرُّ، جامعَةً».

١. مكارم الأخلاق، ص ٤١٩.

وعندما أنتهى أبو ذرٍّ من قراءة الرسالة، كتب في جوابها:

« لا تُعَادِ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْكَ ، ولا تُسِئْ إِلَيْهِ ».

فلَمَّا وصل الجوابُ إلى الرَّجُلِ وقراه، لم يفهم منه شيئاً، فتساءل في نفسه:

ماذا يريد أبو ذرٍّ بهذا: «لا تُعَادِ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْكَ»؟.

إنَّ هذا - لَعَمْرِي! - من أوضح الواضحات، أفيَعَقَلُ أن يعادي الإنسان أَحَبَّ محبوب لديه، وأن يسيء إليه؟ فالَّذي أدريه أَنَّهُ لا يسيء إليه فحسب، بل ويفديه بماله وروحه.

ثم فَكَّرَ في نفسه وقال:

يجب ألا أنسَ شخصية كاتب هذه الوصِيَّة (أبي ذرٍّ)، إِنَّه لقمان هذه الأُمَّة وحكيمها، فلأُطَلِّبَنَّ منه توضيحاً لِمَا أوصاني به. فكتب إليه رسالة أخرى، طالباً منه توضيح ما كتب.

فكتب أبو ذرٍّ في الجواب:

إنَّ مقصودي من أَحَبِّ وأَعَزَّ الأشخاص لديك هو (نَفْسُكَ)، ولست أقصد شخصاً آخر، فأنت تحبُّ نفسك أكثر مما تحبُّ الآخرين، ولذلك قلت لك: «لا تُسِئْ إلى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ»، ومعناه: ألا تُسِئْ إلى نفسك، ألا تعلمَ بأنَّ كلَّ ذَنْبٍ وكلَّ جُرْمٍ يرتكبه الإنسان يعود ضرره على نفسه؟^(١).

❖ بَيْنَ مُعَامَلَةِ النَّفْسِ وَمُعَامَلَةِ النَّاسِ

قد يتساءل البعض:

في موضوع التَّعَامُلِ مع النَّاسِ ، هل هناك علاقة ارتباط بين هذا التَّعَامُلِ وبين التَّعَامُلِ مع النَّفْسِ ؟

١. الشهيد مرتضى المطهري: قصص الأبرار، ج ١.

وهل هناك فاصل بين الإنسان، ونفسه؟

وَأَلَيْسَ الْإِنْسَانُ هُوَ نَفْسُهُ؟

وتكون الإجابة على ذلك كالتالي:

إِنَّ نَفْسَ الْإِنْسَانِ جَوْهَرَةٌ ثَمِينَةٌ، وَهِيَ أَوَّلُ النَّاسِ وَأَقْرَبُهُمْ بِالنِّسْبَةِ لَهُ، بَلَا تَرْدِيدٍ. وَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالذَّابَةِ الْجَامِحَةِ الْمُسْتَعْصِيَةِ، الَّتِي تَرِيدُ أَنْ يُطْلَقَ لَهَا الْعَنَانُ، فَتَرْكَبُ مَا يَحُلُو لَهَا مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْأَفْعَالِ، وَالْمَعَاصِي، وَالذُّنُوبِ، وَالْأَخْطَاءِ. وَالْعَقْلُ الْمُؤَدَّبُ - الَّذِي هُوَ قِيَامُ الدِّينِ وَنِظَامِهِ وَعِمَادِهِ - هُوَ ذَلِكَ الْعِقَالُ، أَوْ اللَّجَامُ الَّذِي يَمْنَعُهَا مِنَ الانْطِلَاقِ وَالانْفِلَاتِ فِي طَرِيقِ الْهَوَى وَالضَّلَالِ وَمِمَّا يَمَارَسُهُ الْأَخْطَاءُ، وَبِالتَّالِيِ إِبْقَاءُهَا ضَمْنِ حَظِيرَةِ الدِّينِ.

يقول الرسول الأعظم (ص):

«أَعْدَى عَدُوِّكَ، نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»^(١).

وَمَا أَنَّ النَّفْسَ هِيَ أَلَدُ الْأَعْدَاءِ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ - مَعَ أَنَّهَا أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ - فَهِيَ يَجِبُ أَنْ تُجَاهَدَ، وَتَمْتَنَّى مَا جُوهِدَتْ، تَمَكَّنَ الْمَرْءُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهَا مَطِيَّةً وَمَرْكَبًا لِلْخَيْرِ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَخْتَارَ لَهَا مَا يَحِبُّ وَيَحْسَنُ الْعَمَلَ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّالِحِ وَالطَّاعَةِ وَالْفَضِيلَةِ، وَتَرَكَ مَا يَجِبُ أَنْ تَنْتَهِيَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفُسَادِ وَالْفُجُورِ وَالرَّذِيلَةِ.

يقول تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)^(٢).

وَمَتَى مَا طَهَّرَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَهَدَّبَهَا وَقَوَّمَهَا، وَجَعَلَهَا تَحْتَ إِمَارَةِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ وَتَقَوَّى اللَّهَ، اسْتَطَاعَ أَنْ يُهَيِّئَ الْأَرْضِيَّةَ الصَّالِحَةَ لِعَمَلِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي جَمِيعِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ وَمِيَادِينِهِ، وَتَمَكَّنَ مِنَ ضَمَانِ الْاسْتِقَامَةِ فِيهَا. وَمِنْ تِلْكَ الْمِيَادِينِ الْهَامَّةِ،

١. ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٩٥.

٢. ٧ - ١٠ / الشَّمْسُ، دَسَّاهَا: أَفْسَدَهَا وَأَغْوَاهَا، وَأَخْمَلَهَا وَأَخْسَّ حَظَّهَا.

وأوسعها، ميدان التَّعامل مع النَّاس ومعاشرتهم، هذا التَّعامل الذي يدخل طرفاً أساسياً في جميع أنواع المعاملات بين أفراد النَّوع الإنسانيِّ بلا استثناء. فالإنسان سواء كان في بيته، أو في موقع عمله : في الإدارة، أو المؤسَّسة، أو المتجر، أو المصنع، أو الحقل، أو في الشَّارع، أو في أيِّ مكان آخر، هو يعاشر الآخرين ويتعامل معهم، وهذا التَّعامل ينبغي له أن يكون حسناً وقويماً، وقائماً على أساس الحقِّ والخير والصَّلاح والفضيلة.

وميدان التَّعامل مع النَّاس هو من أبرز الميادين التي تُختَبَر فيها نفس الإنسان. وهو يعتمد على إصلاح النَّفس وتهذيبها وتزكيتها. فمن يزكِّي نفسه ويهذبها ويصلحها، يُصبح مُوهَّلاً لأن يتعامل مع النَّاس بشكل حسن وناجح، ومن لا يزكِّيها ولا يهذبها ولا يصلحها، لا يصبح مُوهَّلاً لذلك بطبيعة الحال.

وقد يقول قائل:

يبدو ألا علاقة بين إصلاح النَّفس وبين التَّعامل مع النَّاس، إذ هناك أناسٌ فَسَقَةٌ، وفُجَّارٌ، ويرتكبون الموبقات والكبائر كالزُّنا، وشرب الخمر، والسَّرقة، ولعب القمار، وغير ذلك، ولكنهم يتعاملون مع النَّاس بشكل جيد، فيحترمونهم، ويقدرونهم ولا يُسيئون إليهم.

والردُّ على ذلك:

إنَّ ممارسة الفسوق والفجور والموبقات هي في حدِّ ذاتها إساءة من الإنسان إلى الإنسان، وخصوصاً تلك الممارسات التي تأخذ الطَّابع الاجتماعيِّ. وقبل كلِّ شيء فإنَّ ممارسة الموبقات والسَّيئات هي الإساءة العظمى في تعامل الإنسان مع خالقه - جلَّ وعلا - وإساءة إلى نفسه.

ونادراً ما يتعامل الشرِّيرون وأهل السُّوء والفسقة والفُجار مع النَّاس بصورة حسنة، لأنَّ كيانه شخصياتهم يقوم على السُّوء، وإذا وُجد فيهم من يحترم النَّاس ولا يسيء إليهم، فذلك لوجود بقايا الفطرة والوجدان، أو أنَّ حالة العصيان مقصورة على النَّفس دون ربطها بالتَّعامل مع الآخرين، إلَّا أنَّ حالة العصيان والانحراف مهما قُصِّرت على النَّفس، فإنَّ آثارها الاجتماعيَّة السَّليبة تظهر من خلال التَّعامل مع

الآخرين، الأمر الذي يؤكد أنَّ إصلاح النَّفْسِ (الواقع الداخلي) هو الأرضية السليمة لإصلاح جميع أعمال الإنسان وتصرفاته وسلوكياته في الواقع الخارجي.

الأمر الآخر: لا يُضْمَنُ استمرار حسن التَّعامل، مع سوء النَّفْسِ^(١)، ولا يكفي أن تكون علاقة الإنسان بالنَّاسِ حسنة، بينما علاقته مع نفسه سيئة، فَمَثَلُ الذي يُحسن التَّعامل مع الآخرين ويسيء التَّعامل والعِشْرَةَ مع نفسه، كَمَثَلُ الذي يعطي المعروف للأبعدين، وينسى الأقربين له، بينما القاعدة تقول «الْأَقْرَبُونَ أَوْلَى بِالْمَعْرُوفِ». وحيث أنَّ النَّفْسَ هي أقرب المقربين له، وأحب المحبوبين بالنسبة إليه، أَفَلَا يكون من حقِّ الحبيب أن يُتَعامَلَ معه بشكل يليق بمنزلته ومكانته؟ والسؤال هو:

كيف يجب أن يكون التَّعامل مع هذا الحبيب؟ وكيف يمكن للإنسان، إحسان التَّعامل والعِشْرَةَ معه، لكي يحسن التَّعامل والعِشْرَةَ مع النَّاسِ، ولكي يُحسن جميع تصرفاته في الحياة؟.

❖ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ

بعث رسول الله (ص) سَرِيَّةً، فلما رجعوا قال: «مرحباً بقوم قَضَوْا الْجِهَادَ الْأَصْغَرَ، وبقي عليهم الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ».

قيل: يا رسول الله، وما الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟!

قال: «جِهَادُ النَّفْسِ».

ثم قال (ص): «أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ»^(٢).

*١. هذا على افتراض اجتماع سوء النفس، وحسن التَّعامل. والحق أن سوء النفس وفسادها هو الطريق إلى سوء التَّعامل في الواقع الخارجي.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٦٥.

كانت اللَّيْلَةُ لَيْلَةً أُمُّ سَلَمَةَ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ (ص) إِلَى بَيْتِهَا لِيَقْضِيَ لَيْلَتَهُ هُنَاكَ. وَعِنْدَمَا أَسْدَلَ الظَّلَامَ سُدُولَهُ، وَضَرَبَ السَّكُونُ سُرَادِقَهُ^(١) عَلَى الْبَيْتِ، نَهَضَ النَّبِيُّ (ص) مِنْ فِرَاشِهِ دُونَ أَنْ تُحَسَّ بِهِ أُمُّ سَلَمَةَ، وَانْتَحَى زَاوِيَةً مِنَ الْبَيْتِ. فَلَمَّا انْتَبَهَتْ، دُهِشَتْ لِعَدَمِ وَجُودِهِ فِي الْفِرَاشِ، فَدَاخَلَهَا مَا يُدَاخِلُ النِّسَاءَ عَادَةً، فَهَبَّتْ تَطْلُبُهُ فِي جَوَانِبِ الْبَيْتِ، فَأَلْفَتْهُ قَائِمًا فِي زَاوِيَةٍ مِنْهُ، يَدْعُو وَيَبْكِي، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعْ مِنِّي صَالِحَ مَا أُعْطَيْتَنِي أَبَدًا، اللَّهُمَّ لَا تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا وَلَا حَاسِدًا أَبَدًا، اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّنِي فِي سَوْءٍ اسْتَنْقَذْتَنِي مِنْهُ أَبَدًا، اللَّهُمَّ وَلَا تَكْلَنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا».

فَأَثَّرَتْ فِيهَا حَالَةُ الرَّسُولِ تِلْكَ تَأْثِيرًا شَدِيدًا، فَانْفَجَرَتْ بَاكِيةً، فَانْتَبَهَ النَّبِيُّ (ص) لِبَكَائِهَا، فَذَهَبَ إِلَيْهَا، وَسَأَلَهَا: «مَا يُبْكِيكِ؟» فَأَجَابَتْ: لَمْ لَا أَبْكِي؟!

أَنْتَ بِالْمَكَانِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ مِنَ اللَّهِ، وَمَعَ هَذَا تَسْأَلُهُ أَنْ لَا يَكْلَكَ إِلَى نَفْسِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا، فَكَيْفَ بِي؟ فَقَالَ (ص):

«يَا أُمُّ سَلَمَةَ، وَمَا يُؤْمِنُنِي وَقَدْ وَكَّلَ اللَّهُ يُؤَسِّسَ بَنَ مَتَّى إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَكَانَ مِنْهُ مَا كَانَ»^(٢)؟

هَكَذَا يَعْلَمُنَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) كَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّفْسِ، فَلَيْكِي لَا يَكْلُنَا اللَّهُ إِلَى أَنْفُسِنَا، يُلْزِمُ لَنَا أَنْ نَجَاهِدَهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ عَدُوًّا بِالنِّسْبَةِ لَنَا.

أَرَأَيْتَ الْوَاحِدَ مَنَّا كَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَ عَدُوٍّ لَهُ وَيَجَاهِدُهُ؟

إِنَّهُ يُعَدُّ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ قُوَّةٍ، وَإِرَادَةً، وَيَتَرَصَّدُ بِالْعَدُوِّ أَيَّ ثَغْرَةٍ لِكِي يَهْجُمَ عَلَيْهِ، وَأَيَّ ثَغْرَةٍ يَحَاوِلُ النُّفُوذَ وَالْهَجُومَ مِنْهَا، وَيَسْتَخْدِمُ الذِّكَاءَ وَالْحِذَاقَةَ فِي إِحَاقِ الْهَزِيمَةِ بِهِ. وَهَكَذَا الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّفْسِ، فَهِيَ يَجِبُ أَنْ تُعَامَلَ وَتُجَابَهَ بِالْقُوَّةِ

١. السُّرَادِقُ: الْخِيْمَةُ، أَوْ الْمُسْطَاطُ الَّذِي يُعَدُّ فَوْقَ صَحْنِ الْبَيْتِ.

٢. قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ، ج ١.

والشَّدة، لا باللَّين والمُيوعة. ومن صُور هذا التَّعامل: إجهادُها وعدم الرِّفقِ بها، والرَّد منها عند الشهوات، وتجنُّب خَدْعِها، وعدم تحقيق لها ما يكرهه العقل، واختيار أصعب الأعمال، إذ أنَّ أفضل الأعمال ما أُكْرِهت النَّفْس عليه.

يقول الإمام عليّ (ع) في وصف المُتَّقِي:

«إِنْ اسْتَضَعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا هَوَيْتَ»^(١).

ومتى ما جاهد الإنسان نفسه، تمكَّن من خلق الأَرْضِيَّة السَّليمة لتحقيق الفلاح في الدَّار الآخرة، والدَّار الدُّنيا، وأصبح لِبَنَّةً صالحةً في الاجتماع، وكان بوسعه أن يتعامل مع الله، ومع عباد الله بوجه يرضيه - سبحانه وتعالى -.

أما عن كَيْفِيَّة مجاهدة النَّفْس، فمن أبرز وجوه ذلك: نهْيُها عن أهوائِها الباطلة.

❖ نَهْيُ النَّفْسِ عَنْ هَوَاهَا

قال الإمام الصَّادِقُ (ع) في حديث طويل:

«من أَتْبَعَ هَوَاهُ وَأُعْجِبَ بِرَأْيِهِ، كَانَ كَالرَّجُلِ الَّذِي اشتهر بين العامة من النَّاس بالخير، والإحسان إلى الآخرين، فكانوا يُعْظَمُونَهُ وَيَجْلُونَهُ، وكان ذِكْرُهُ يتردَّد على الألسن، والمدح والثناء يُزَجَّيان إليه من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وكانت شهرته بالتَّقوى والصَّلاح قد طغت حتَّى فاضت بها القلوب والأفواه».

«أما الكلام عن شرفه وسخائه، فقد كان يدور في كلِّ نادٍ، ويتكرَّر في كلِّ مجلس. فأحببتُ أن أشاهده عن كثب، ومن حيث لا يعرفني.

وذاث يومٍ رأيته وقد أهدق به خَلْق كثير، فدنوتُ منه متنكِّراً، فوجدت النَّاس مسحورين به، وهو ما يزال يراوغهم حتَّى فارَقَهم. فتبعته من حيث لا يعلم، كي أعرف أيَّ طريق يسلك، وأيَّ مكان يريد، وماذا يفعل، وما هي الأعمال الحسنة التي يقوم بها.

١. نهج البلاغة.

«وبعد بُرْهَةٍ رَأَيْتُهُ يَقِفُ أَمَامَ حَانُوتِ خَبَّازٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ حَتَّى انْتَهَزَ فُرْصَةً انْشِغَالَ صَاحِبِ الْحَانُوتِ، فَتَنَاولَ رَغِيفَيْنِ، وَأَخَذَ طَرِيقَهُ. فَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَعَلَّهُ قَدْ اشْتَرَاهُمَا سَابِقًا، وَدَفَعَ ثَمَنَهُمَا سَلَفًا، أَوْ أَنَّهُ سَيَدْفَعُهُ آجَلًا. ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: إِذَا كَانَ قَدْ اشْتَرَاهُمَا، فَلِمَ إِذَا اغْتَنَمَ فُرْصَةَ انْشِغَالَ صَاحِبِ الْحَانُوتِ؟!»

«ثُمَّ لَمْ أَزَلْ أَتَابِعُهُ، وَأَنَا فِي خِصْمٍ هَذَا الْفِكْرِ، حَتَّى مَرَّ بِبَائِعِ رُمَّانٍ، فَتَوَقَّفَ عِنْدَهُ هَنِيئَةً، وَمَا زَالَ يِرَاقِبُهُ حَتَّى تَغْفَلَ، وَأَخَذَ مِنْهُ رُمَّانَتَيْنِ، وَتَابَعَ سِيرَهُ. فَدَهِشْتُ لِأَمْرِهِ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَعَلَّهُ قَدْ اشْتَرَاهُمَا أَيْضًا. ثُمَّ تَسَاءَلْتُ: وَلَكِنْ لِمَ إِذَا أَخَذَ الرُّمَّانَتَيْنِ فِي غَفْلَةٍ مِنْ بَائِعِ الرُّمَّانِ?!»

«ثُمَّ لَمْ أَزَلْ أَتَابِعُهُ حَتَّى مَرَّ بِمَرِيضٍ، هُنَا بَلَغَ عُجْبِي مِنْتَاهَا عِنْدَمَا وَجَدْتُهُ يَضَعُ الرَغِيفَيْنِ وَالرَّمَانَتَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَهُنَا اقْتَرَبْتُ مِنْهُ، وَقُلْتُ لَهُ: أَنَا رَأَيْتُ مِنْكَ عَمَلًا عَجِيبًا، وَبَيَّنْتُ لَهُ كُلَّ مَا شَاهَدْتُهُ مِنْهُ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَوْضَحَ لِي ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيَّ، وَقَالَ: أَلَسْتُ جَعْفَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ؟

«- بلى، حدسك صحيح، أنا جعفر بن محمد.

«فَقَالَ: أَنْتَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَكَ حَسَبٌ وَنَسَبٌ أَصِيلٌ، وَلَكِنْ مَا يَنْفَعُكَ شَرَفُ أَصْلِكَ مِنْ جَهْلِكَ؟

« فَقُلْتُ: أَيُّ جَهْلٍ رَأَيْتُهُ مِنِّي؟! »

« قَالَ: جَهِلْتَ قَوْلَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا)، وَإِنِّي لَمَّا سَرَقْتُ الرَغِيفَيْنِ كُنْتُ قَدْ اقْتَرَفْتُ سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمَّا سَرَقْتُ الرُّمَّانَتَيْنِ كُنْتُ قَدْ اقْتَرَفْتُ سَيِّئَتَيْنِ أَيْضًا، فَهَذِهِ أَرْبَعُ سَيِّئَاتٍ، فَلَمَّا تَصَدَّقْتُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، كَانَ لِي أَرْبَعُونَ حَسَنَةً، فَانْتَقِصَ مِنْ أَرْبَعِينَ حَسَنَةً أَرْبَعُ سَيِّئَاتٍ، فَيَبْقَى لِي سِتُّ وَثَلَاثُونَ حَسَنَةً!

« فَقُلْتُ لَهُ: ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ، أَنْتَ الْجَاهِلُ بَكِتَابِ اللَّهِ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)؟. إِنَّكَ لَمَّا سَرَقْتَ رَغِيفَيْنِ كَانَا سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمَّا سَرَقْتَ الرُّمَّانَتَيْنِ كَانَتَا - أَيْضًا - سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمَّا دَفَعْتَهُمَا إِلَى غَيْرِ صَاحِبِهَا، وَبَغَيْرِ أَمْرِ صَاحِبِهَا، كُنْتَ قَدْ أَضَفْتَ أَرْبَعَ سَيِّئَاتٍ، وَلَمْ تُضِفْ أَرْبَعِينَ حَسَنَةً إِلَى أَرْبَعِ سَيِّئَاتٍ.

« قال الإمام (ع):

« وتركته وهو على هذه الحال يلاحقني ببصره، وانصرفت.

« وعندما انتهى الإمام (ع) من نقل هذه القصة إلى أصحابه، توجه إليهم، وقال:
 يمثل هذا التأويل القبيح المستنكر يضلُّون ويضلُّون»^١

يقول تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(٢).

قد يسأل السائل: ما الهوى؟

الهوى: هو الحب بالمعنى السلبي، والإفراط في حبِّ الذات، وكلُّ ما من شأنه جعل النفس تخالف هدى العقل والدِّين وتسير في خطِّ الشَّهوات. إنَّ من طبيعة الإنسان أنَّه يحبُّ ذاته، إلَّا أنَّ هذا الحبَّ يجب أن يكون معتدلاً، لا مفرطاً. ومتى ما أفرط الإنسان في حبِّ ذاته، أصبح أنانيّاً، ومتى أصبح كذلك، فإنه يفعل كلَّ ما من شأنه خدمة الذات والتذاذها دون النَّظر إلى مراقبة الله - تعالى -، ودون النَّظر إلى النَّاس وإعطائهم حقوقهم، ومعاملتهم بالتّي هي أحسن.

وكقاعدة عامّة في نهْي النفس عن هواها: في أيِّ عمل يريد المرء القيام به، أو في أيِّ خطوة يريد خطوها، لينظر إذا كانت نفسه تتجه إلى العمل وفق ما يأمر به الله والعقل، فليعمل ذلك لأنَّه طاعة لله، وخلاف هوى نفسه. وإذا كانت تتَّجه إلى مخالفة ما يأمر به الله والعقل فذلك هو الهوى، ويجب أن يخالفه.

فعلى سبيل المثال:

إنَّ نفس الإنسان قد تدعوه لإساءة الظنِّ بفلان المؤمن لأنَّه قال كلمةً فيه. فمخالفة هوى نفسه تقتضي أن يحافظ على ثقته بأخيه والصُّورة الحسنه له،

^١. وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٥٧.

٢. ٤٠ - ٤١ / النزاعات.

وأن يتصرف وفق هدى الرَّبِّ والعقل، فهما يوجِّهانه إلى ألا يَظُنَّنَ كلمة خرجت من أخيه سوءاً، وهو يجد لها في الخير احتمالاً.

مثال آخر:

وقد يُمنُّ الله على أخٍ للإنسان بنعمة، فتُسوَّل له نفسه أن يتمنَّى زوال النِّعمة عن أخيه وانتقالها إليه. فمخالفة الهوى تقتضي أن يفرح الإنسان، ويُسرَّ، وأن يشكر الله على إنعامه على أخيه بهذه النِّعمة، ويسأله - عزَّ وجلَّ - أن يديم النِّعمَ عليه، لا أن يتمنَّى زوالها عنه.

مثال ثالث:

وقد يتناقش المرء مع طرفٍ آخر، فيتبيَّن للأوَّل خطأ - الآخر، فيُصرُّ على أنَّه ليس مخطئاً - وإِما هو مُصيب، وهذا تعصُّب للذات واتِّباع لهواها، ومخالفتها تقتضي أن يُسلِّم بخطيئِهِ إذا كان مُخطئاً.

ومخالفة الهوى، ونهي النَّفس عنه، قاعدة يجب على الإنسان أن يُقيم نفسه عليها في جميع جوانب حياته - ومنها تعامله مع النَّاس - إذ الشَّيطان قد يدخل إلى نفسه من أتفه القضايا وأبسطها، ويُزيِّن له طريق الهوى. ومعرفة هذه القاعدة الأساسيَّة - وهي مخالفة هوى النَّفس - وتطبيقها، يتمكن الإنسان من حسن تعامله مع ربه، ومع نفسه، ومع النَّاس. ومتى ما خالف هواه، انعكست آثار ذلك على جميع جوانب حياته، ومن تلك الجَّوانب، التَّعامل مع النَّاس والعِشرة معهم. فمن يخالف هواه تكن معاملته للنَّاس قائمة على استخدام العدل والإنصاف معهم، وإعطائهم حقوقهم، وتقديرهم، واحترامهم، والتَّواضع لهم، وفعل كلِّ ما من شأنه الإسهام في إحسان معاملتهم. ومعرفة حقِّ النَّفس، والتزام حدود ذلك من أهمِّ الأسس التي تضمن مخالفتها لهواها.

يقول الإمام عليُّ (ع):

«أوصيكم بمُجَانِبَةِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْهَوَى يَدْعُو إِلَى الْعَمَى، وَهُوَ الضَّلَالُ فِي الْآخِرَةِ وَالْدُّنْيَا»^(١).

١. مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ٣٤٥.

ويقول (ع) أيضاً:

«خَالِفِ الْهَوَى تَسْلَمَ»^(١).

ويقول (ع):

«رَدَّعُ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى الْجَهَادُ الْأَكْبَرُ»^(٢).

❖ معرفة حَقِّ النَّفْسِ

«كان مالك الأشتر ضخم الجثَّة، طويل القامة، يرتدي قميصاً وعمَّة، قد طبعت الحرب على وجهه آثارها، وعلمته بعلائمها، وحكَّت عن بطولاته في ميادينها بتقاسيم وجهه.

«بينما كان يمشي ذات يوم في سوق الكوفة، وإذا بأحد السُّوقَةِ تحدَّثه نفسه بالازدراء به والاستهزاء بزيِّه، فرماه ببندقة، وبدون أن يُعيِّره الأشتر التِّفَاتاً، واصل السَّير حتَّى تواری عن الأنظار.

«عندها قيل للسُّوقي: وَيَحَكَ، أتعرف من رميت؟! «

« - لا، لم أعرفه، عابرٌ مثل آلاف المارَّة.

« - إنَّه مالك الأشتر النُّخعي، صاحب أمير المؤمنين (عليُّ بن أبي طالب) وقائد جيشه.

« - أهذا هو مالك الذي ترتعد فرائص الأسد خوفاً منه، ويرتجف العدو من اسمه؟! «

« - نعم، هو بِعَيْنِهِ.

«فهرول الرَّجل من ساعته راكضاً خلف مالك ليعتذر عمَّا بدر منه. إلَّا أنَّ مالكا كان قد دخل أحد المساجد، فلمَّا وصل الرَّجل وجده قائماً يصلي. فلمَّا أنتهى من صلاته، انكبَّ الرَّجل على قدميه يُقبِّلُهما.

١. الغرر والذُّرر.

٢. المصدر السابق.

» فقال له مالك: ما هذا؟

« - أعتذر إليك عمّا صدر مِنِّي، أنا الذي استهزأت بك وتجرات عليك!

« - لا بأس عليك، فوالله، ما دخلت المسجد إلّا لأستغفرنَّ لك»^(١).

تقدّم هذه القصة التي نُقِشت كلماتها في صفحات التاريخ، درساً في جانب احترام النَّاس، وعدم السُّخْرية بهم، واجتناب ازدرائهم وإيذائهم، وفي الحِلْم والتَّسامح معهم، وعدم مقابلة الإيذاء بالإيذاء، ومقابله بالعفو والصَّفح. ومراجعة الأسباب وراء إساءة معاملة النَّاس، يتبيّن أنّ الابتعاد عن العدالة مع النَّفس، هي من أهمّها. إذ من حقِّ النَّفس على الإنسان أن يجعل كل جوانب تصرفاته في الحياة - ومنها تعامله مع النَّاس - مُرضيةً لله بلسانه، وسمعه، وبصره، ويده، ورجله، وبطنه، وقرْجه، لأنَّ إيذائهم ذو جانبين:

إيذائهم من جانب، وإيذاء لنفسه بهضمه حقوقها من جانب آخر.

يقول الإمام زين العابدين (ع) عن حقِّ النَّفس، في رسالة الحقوق:

«وَحَقُّ نَفْسِكَ عَلَيْكَ: أَنْ تَسْتَعْمَلَهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ).

«وَحَقُّ اللَّسَانِ: إِكْرَامُهُ عَنِ الْخَنَى^(٢)، وَتَعْوِيدُهُ الْخَيْرَ، وَتَرْكُ الْفُضُولِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ لَهَا، وَالْبَرُّ بِالنَّاسِ، وَحَسَنُ الْقَوْلِ فِيهِمْ.

«وَحَقُّ السَّمْعِ: تَنْزِيهِهُ عَنِ سَمَاعِ الْغَيْبَةِ وَسَمَاعِ مَا لَا يَحِلُّ سَمَاعُهُ.

«وَحَقُّ الْبَصَرِ: أَنْ تَغْضَهُ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، وَتَعْتَبِرَ بِالنَّظَرِ بِهِ.

«وَحَقُّ يَدِكَ: أَنْ لَا تَبْسِطَهَا إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ.

«وَحَقُّ رِجْلَيْكَ: أَنْ لَا تَمْشِيَ بِهِمَا إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَبِهِمَا تَقِفُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَانْظُرْ أَلَّا تَزِلَّ بِكَ فَتَرْتَدَّى فِي النَّارِ.

١. سفينة البحار، مادة شتر، ص ٦٨٦.

٢. الْخَنَى: الْفُحْشُ فِي الْكَلَامِ.

«وَحَقُّ بَطْنِكَ: أَنْ لَا تَجْعَلَهُ وِعَاءً لِلْحَرَامِ، وَلَا تَزِيدَ عَلَى الشَّعْبِ.

«وَحَقُّ فَرْجِكَ: أَنْ تُحَصِّنَهُ عَنِ الزُّنَا، وَتَحْفَظَهُ مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ»^(١).

ومعرفة حق النفس تتطلب معرفة النفس ذاتها، فمن لا يعرف نفسه حق المعرفة، لا يستطيع أن يكون عادلاً معها فيعطيه حقوقها. ومتى ما عرف الإنسان نفسه سهلاً عليه أن يعرف غيره، وإذا ما أحسن تعامله مع نفسه، فإنه يحسن معاملة الآخرين.

يقول الإمام عليّ (ع):

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ كَانَ لَعِيْرَهُ أَعْرَفَ»^(٢).

فَلِكِيْ يَعْرِفُ الْمَرْءَ الْآخَرِينَ وَيَحْسِنُ مَعَامِلَتَهُمْ، هَلَّا يَعْرِفُ نَفْسَهُ، وَأَقْرَبُ الْأَقْرَبِينَ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ؟

وهلَّا يراقبها ويحاسبها على ما تأتي به من أفعال وتصرفات؟.

❖ مِرَاقِبَةُ النَّفْسِ وَمُحَاسِبَتُهَا.

«جاء رجل إلى النَّبِيِّ «مُحَمَّد» (ص)، وشكا إليه أذىً من جاره، فقال له النَّبِيُّ (ص): اصبر لعلَّه يُعَيِّرُ طَرِيقَتَهُ. وبعدها جاءه مرَّةً ثانية، فقال له النَّبِيُّ (ص): اصبر!.

«ثم جاء مرَّةً ثالثة، فقال له النَّبِيُّ: إذا كان يوم الجمعة، أخرج أثاث بيتك، ووضعه على قارعة الطريق، حتى يراه من يذهب لصلاة الجمعة، فإذا سألوك، فأخبرهم بالخبر. ففعل الرَّجُلُ بوصية الرَّسُولِ (ص)، فأثاه جاره معذراً، وقال له: رُدَّ متاعك إلى بيتك، فَلَكَ اللهُ عَلَيَّ أَنْ لَا أَعُودَ»^(٣).

١. مكارم الأخلاق، ص ٤١٩.

٢. ميزان الحكمة، ج ٦، ص ١٤١.

٣. أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٨، باب حق الجوار

يقول الإمام علي (ع):

«اجْعَلْ مِنْ نَفْسِكَ عَلَى نَفْسِكَ رَقِيْبًا...»^(١).

الحقيقة التي يجب أن يأخذها كل إنسان ببالغ الاهتمام والاعتبار أن أفعاله وتصرفاته خاضعة لمراقبة الله - سبحانه وتعالى - وهذه المراقبة توجب ضرورة مراقبة النفس لذاتها ومحاسبتها.

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْبًا)^(٢).

وقال سبحانه: (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيْبًا)^(٣).

وجاء في الدعاء الذي علّمه الإمام علي بن أبي طالب (ع) لكميل بن زياد:

«... فأسألك بالقدرة التي قدّرتّها، وبالقضية التي حتمتها وحكمتها، وغلبت من عليه أجريتها، أن تهب لي في هذه الليلة وفي هذه الساعة كل جُرم أجرمته، وكل ذنب أذنبته، وكل قبيح أسرّته، وكل جهل عملته، كتمته أو أعلنته، أخفيته أو أظهرته، وكل سيئة أمرت بها الكرام الكاتبين الذين وكلّتهم بحفظ ما يكون منّي، وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي، وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم...»^(٤).

أرأيت الواحد منّا كيف يُراقب الآخريّن، ويحاسبهم على ما يفعلونه من أعمال وتصرفات ترتبط به، فيكون دقيقاً معهم؟ إنّ هذه الحالة يجب أن تُمارس - في الدّرجة الأولى - مع النفس والذّات، بجعلها أوّل المُراقبين والمُحاسبين. إنّ المرء إذا كان له شريك في عمل أو مُلك، أو مال فإنه يحاسبه بدقّة، وإذا كان له خصم فإنه يطالبه بأداء حقوقه كاملة غير منقوصة، فهلاًّ تعاملنا مع أنفسنا على هذا المُنوال؟ إنّ حبّ الذّات، والخضوع لأهوائها يجعلان الإنسان يستهين بأخطائه، وقد لا يعتبرها أخطاءً، فهلاًّ نكون مُنصفين مع أنفسنا؟

١. الغرر والدرر.

٢. النساء. ١.

٣. الأحزاب. ٥٢.

٤. مفاتيح الجنان.

يقول الإمام علي (ع):

«جَاهِدْ نَفْسَكَ، وَحَاسِبْهَا مُحَاسِبَةَ الشَّرِيكَ شَرِيكَهُ، وَطَالِبْهَا بِحُقُوقِ اللَّهِ مَطَالِبَةً الْخَصْمِ خَصْمَهُ»^(١).

إنَّ نقطة الانطلاق في معاملة المرء النَّاس، هي نفسه التي بين جنبيه، إذ عليه أن يحسن معاملتها لكي يحسن معاملة النَّاس. ومعاملة النَّفس تتمثل في الإنصاف معها واعطائها حقوقها، ومجاهدتها، ومخالفة هواها الباطل، ومراقبتها ومحاسبتها، وعلى هذا يقوم صرح نجاح الإنسان وسعادته في الحياة الدُّنيا، والحياة الآخرة. إنَّ المرء بمجاهدته لنفسه ومخالفته لهواها ومحاسبتها ومراقبتها يحتاج إلى عنصر الصَّبْر على ذلك، ويتعرَّض لمرارة ومعاناة، إِلَّا أنَّ هذه المرارة والمعاناة هي مُتَعَةٌ يفتقر إليها كُلُّ مَنْ لَا يَجَاهِدُ نَفْسَهُ، وهي تُؤْثِرُ آثاراً يانعة في الدُّنيا والآخرة.

❖ ثَمَرَاتُ مَجَاهِدَةِ النَّفْسِ

كما النَّبْتَةُ التي تُرَاعَى حَقُّ الرِّعَايَةِ، تُعْطَى ثَمَرُهَا، وكما مَجَاهِدَةُ الْعَدُوِّ بِقُوَّةٍ وَإِخْلَاصٍ تُعْطَى انتصاراً، كذلك فإنَّ مَجَاهِدَةَ النَّفْسِ، وحسن التَّعَامُلِ وَالْعِشْرَةِ معها تُعْطَى آثاراً وَثَمَرَاتٌ تنعكس على الإنسان وتصرُّفاته وسلوكه في الواقع الدَّاخِلِيِّ والخارجي. ومن تلك الآثار والثَّمَرَات ما يلي:

- كَمَالُ الْعَقْلِ.
- اسْتِكْمَالُ ثَوَابِ الرَّبِّ.
- قَهْرُ النَّفْسِ.
- تَزْكِيَتُهَا وَتَطْهِيرُهَا.
- مُلْكُهَا.

١. ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٤٢.

- زُمْهَا عَنِ الْمَعَاصِي^(*).
- عَصَمْتُهَا فِي مَوَارِدِ الشَّرِّ.
- رَدْعُهَا.
- انْطِلَاقُهَا فِي الْخَيْرِ وَالْحَقِّ.
- ارْتِفَاعُ الدَّرَجَةِ.
- الصَّلَاحُ.
- التَّغْلُبُ عَلَى الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ.
- التَّحَلِّي بِالْأَخْلَاقِ وَبِالْعَادَاتِ الْحَسَنَةِ.
- حُلُولُ الْحِكْمَةِ.
- فِرَارُ الشَّيْطَانِ.
- إِكْمَالُ التَّقَى.
- حَسَنُ الْمَعَامَلَةِ مَعَ النَّاسِ.

ويمكن بيان سلسلة من قواعد التَّعَامُلِ وَالْعِشْرَةِ مَعَ النَّفْسِ فيما يلي:

- مَلَازِمَةُ تَقْوَى اللَّهِ وَالْوَرَعِ عَنْ مَحَارِمِهِ.
- مَجَاهِدَةُ النَّفْسِ، وَنَهْيُهَا عَنْ هَوَاهَا.
- مَرَاقِبَتُهَا.
- مُحَاسِبَتُهَا وَلَوْ مُمَا.
- إِصْلَاحُ سِرِّيَّتِهَا.
- إِصْلَاحُ عِلَانِيَّتِهَا.
- اخْتِيَارُ الْخَيْرِ.

^(*) زَمْ: رَبَطَ وَشَدَّ. زُمَ الْبَعِيرُ: خَطَمُهُ. وَالْمَقْصُودُ رَبْطُ النَّفْسِ وَشَدُّهَا عَنِ الْمَعَاصِي وَحَبْسُهَا عَنْهَا.

- تَرْكُ الْبَاطِلِ.
- لَزُومُ الْعَقْلِ.
- جِهَادُهَا بِالْعِلْمِ.
- عَدَمُ اتِّمَانِهَا.
- تَجَنُّبُ جِدْعِهَا.
- سِيَاسَتُهَا (حُسْنُ قِيَادَتِهَا).
- رِيَاضَتُهَا (تَرْوِيضُهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ).
- تَنْزِيهُهَا عَنِ الْفُجُورِ وَالشَّرِّ.
- اسْتِدْرَاكُ فُسَادِهَا.
- الْإِشْتَغَالُ بِعُيُوبِهَا.
- ذُمُّهَا.
- عَدَمُ الرِّضَا عَنْهَا.
- الِاسْتِعَانَةُ بِالْحَقِّ عَلَيْهَا.
- تَعَاهُدُ النَّقْصِ فِيهَا.
- إِجْهَادُهَا وَعَدَمُ الرِّفْقِ بِهَا.
- عَدَمُ التَّسَامُحِ مَعَهَا.
- عَدَمُ ظُلْمِهَا.
- عَدَمُ غَشَّهَا.
- عَدَمُ إِضْلَالِهَا.
- الرَّدُّ مِنْهَا عِنْدَ الشَّهَوَاتِ.
- إِقَامَتُهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ.
- تَهْذِيبُهَا وَتَأْدِيبُهَا.

- تَرْكُ الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ.
 - التَّحَلِّيُّ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ.
 - تَجَنُّبُ مَخَالَطَةِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا وَقِرْنَاءِ السُّوءِ.
 - أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ، نَفْسَهُ.
 - مَعْرِفَةُ النَّفْسِ.
 - أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ طَبِيبَ نَفْسِهِ وَوَاقِيَهَا وَمَعَالِجَهَا.
 - تَقَبُّلُ النَّقْدِ الْبَنَاءِ مِنَ الْآخَرِينَ.
 - نَقْدُهَا (النَّقْدُ الذَّاتِيُّ).
- وهكذا فَلِكِي نُحْسَنَ التَّصَرُّفَ فِي الْحَيَاةِ، وَالتَّعَامَلَ مَعَ النَّاسِ، وَاجِبْنَا أَنْ نَحْسَنَ مَعَامِلَةَ خَالِقِنَا، بِالتَّزَامِ دِينِهِ، وَإِصْلَاحِ أَمْرِ آخِرَتِنَا لِكِي نَصْلِحَ أَمْرَ دُنْيَانَا، ثُمَّ إِقَامَتُهَا عَلَى أُسَاسِ الدِّينِ. وَبِكَلِمَةٍ: أَنْ نَجْعَلَ الدِّينَ أُسَاساً لِكُلِّ تَصَرُّفَاتِنَا وَأَعْمَالِنَا وَمَعَامِلَاتِنَا.

❖ الْأَسَاسُ الثَّانِي: الْعَقْلُ

قال تعالى: (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)^(١).

وقال الإمام علي (ع): «العقل أقوى أساس»^(٢).

وقال (ع) أيضاً: «قَوَامُ الْمَرْءِ عَقْلُهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ»^(٣).

يكفي في الإشارة إلى عظمة العقل، أنه أول وأحسن وأكرم مخلوق خلقه الله - سبحانه وتعالى - وهو مخلوقٌ روحانيٌّ، وأنَّ الدِّينَ يقوم عليه. ولبالغ ضرورته للإنسان، فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - جعل من المهمَّات الأولى في رسالات الأنبياء، إثارة دوافع عقول النَّاس لكي يستضيئوا بها في حياتهم، ويسيروا على هديها.

قال الإمام الباقر (ع):

«مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ اسْتَنْطَقَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَحْسَنَ مِنْكَ، وَإِيَّاكَ أَمْرٌ وَإِيَّاكَ أَنْهَى، وَإِيَّاكَ أُثِيبُ وَإِيَّاكَ أَعَاقِبُ»^(٤).

إنَّ العقل - كمال الدِّين - مثله كمثل النَّبراس الذي يُضيء في وسط البيت وفي ثنياه، فإذا ما انطفأ، بات السَّاكنون في دُجَّة الظَّلام.

ومن هنا فإنَّ الذين يُجيدون استعمال عقولهم - وفي الوجوه الصَّالحة - هم الذين يغمر حياتهم النُّور والضَّوء، بينما الذين لا يُجيدون استعماله، ويُمارسون خلاف ما يأمر ويهْدِي إليه، يعيشون في متاهات الضَّلال والضَّياع، وهم مدعوون للعودة إلى عقولهم واستعمالها في الوجوه الصَّالحة. بل يمكن القول أنَّ قسماً من المشكلات التي يصطدم بها الإنسان في الواقع الخارجيّ، هي بسبب غياب العقل، أو سوء استعماله.

١. ٢٦٩ / البقرة.

٢. الغرر والدرر.

٣. بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٤.

٤. أصول الكافي، ج ١، ص ٢٦.

والعقل هو أساس الدِّين، بل الدِّين نتيجة للعقل، كما تذكر الأحاديث الشريفة: «الدِّين والأدب نتيجة العقل»^(١). وإذ أنَّ الدِّين قائم على العقل، فإنَّ العقل بدوره يحتاج إلى الدِّين والأدب، وإلا فإنَّ العقل إذا لم يتَّحَلَّ بالدِّين وبالأدب، فإنه يصبح وسيلة استعمال في الوجوه غير الصَّالحة. وهذه من المشكلات الرئيسة، بل هي أخطر الأزمات الحضاريَّة التي يعيشها الإنسان في العصر الحديث، إذ العقول تُستعمل ولكن دون مراعاة قيد «الوجوه الصَّالحة» التي يوجه إليها الدِّين والأدب. وإذا فقَدَ العقل قيد «العمل في الوجوه الصَّالحة» صحَّ القول بأنَّه عُطِّلَ أو أُسيء استعماله، أو لم يُستعمل مُطلقاً.

إنَّ العقل أساس لكل أمر صالح، وهو الأساس الرَّاسخ الذي يجب أن يُبنى عليه كيان الإنسان وشخصيَّته وجميع أعماله وتصرفاته في الواقع الخارجي، وهو الأساس لكلِّ خَيْرٍ، وحقٍّ، وصلاحٍ، وفضيلة.

قال الإمام عليّ (ع):

«العَقْلُ صَلاحُ كُلِّ أَمْرٍ»^(٢).

وكُلُّ خطوةٍ يخطوها الإنسان في الحياة هي بحاجة إلى استعمال العقل. ومن العقل تأتي الحكمة التي هي وضع الشَّيء في موضعه، وبه تُسَبَّر أغوارها وتُستخرج. ومن العقل تأتي الأخلاق الفاضلة، والعادات الحسنة.

وبالعقل يُعَبَد الله ويُطاع وتُحَسَّن معاملته، وبه تُعَقَّل النَّفْس وتُلَجَم، وتُحَسَّن معاملتها. وبه تُحَسَّن معاملَةُ النَّاسِ، وعليه يُقَوم صرُّها.

ويسأل السَّائل:

لَمَ كان العقل أساساً أَوَّلِيّاً لمعاملة النَّاسِ؟

وكيف يكون ذلك؟

وتكون الإجابة على ذلك كالآتي:

١. الغرر والدرر.

٢. الغرر والدرر.

من البدائة الأولى أَنَّ شَخْصِيَّةَ الْإِنْسَانِ تَقُومُ عَلَى الْعَقْلِ، إِذْ هُوَ قَوَامُهَا وَنِظَامُهَا الَّذِي بِدُونِهِ تَرْتَبِكُ وَتَضْطَرُّبُ وَرَمًا تَنْهَارُ. فَالْكُلُّ مِنَّا قَدْ شَاهَدَ الْمَجَانِينَ أَوْ الْمُتَخَلِّفِينَ عَقْلِيًّا، وَرَأَى بِأَمِّ عَيْنِهِ كَيْفَ يَتَصَرَّفُونَ، وَلَأَنَّهُمْ فَقَدُوا الْعَقْلَ، أَوْ أَصِيبُوا بِاخْتِلَالٍ فِيهِ، فَقَدْ بَاتَتْ شَخْصِيَّاتُهُمْ مَرْتَبِكَةً مُضْطَرِّبَةً تَفْتَقِدُ الْقَوَامَ وَالنِّظَامَ، هَذَا مِنْ جِهَةٍ. وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، كُلُّنَا يَرَى بِعَيْنِهِ كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ يُسَيِّئُونَ الْعَمَلَ وَالتَّصَرُّفَ، مَعَ أَنَّهُمْ يَمْتَلِكُونَ الْعَقْلَ السَّلِيمَ. وَسَوْءُ تَصَرُّفِهِمْ نَاعِبٌ إِمَّا مِنْ جَهْلِهِمْ، وَإِمَّا مِنْ مَخَالَفَتِهِمْ لَهْدَى الْعَقْلِ الْمُؤَدَّبِ. وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ الْعَقْلَ، وَيَسَيِّئُونَ اسْتِعْمَالَهُ بِتَوْظِيفِهِ فِي غَيْرِ الْوَجْهِ الصَّالِحَةِ.

إِنَّ فَاقِدَ الْعَقْلِ مَعْذُورٌ، لِأَنَّهُ لَا عَقْلَ لَهُ، وَالْجَاهِلُ بِإمكانِهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ وَيَسِيرَ عَلَى هَدَى الْعَقْلِ، وَلَكِنْ كَيْفَ يُعْذَرُ مَنْ يَمْتَلِكُ الْعَقْلَ وَيَتَصَرَّفُ وَيَمَارِسُ خِلَافَهُ؟

وَحَيْثُ أَنَّ مَعَامَلَةَ النَّاسِ تُشْتَلُّ جِزَاءً كَبِيرًا لَا يُسْتَهَانُ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْإِنْسَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ وَالتَّصَرُّفَاتِ لَا يَصْلُحُ حَالُهَا إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ، فَإِنَّ مَعَامَلَةَ النَّاسِ - بِدَوْرِهَا - لَا تُصْلَحُ وَلَا تُحَسَّنُ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِهِ أَيْضًا. إِذْ أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِي يَضْمَنُ إِنْصَافَ الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ، وَإِنْصَافَ الْآخَرِينَ يَحْفَظُ حَقُوقَهُمْ وَعَدَمَ التَّعْدِي عَلَيْهَا، وَهُوَ الَّذِي يَضْمَنُ حُبَّ الْإِنْسَانِ لِأَخِيهِ الْإِنْسَانِ، وَاحْتِرَامَهُ وَوُدَّهُ لَهُ، وَالتَّزَامَ الْأَدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُ، وَبِالتَّالِي إِحْسَانَ مَعَامَلَتِهِ.

يَقُولُ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«رَأْسُ الْعَقْلِ - بَعْدَ الدِّينِ - التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ، وَاصْطِنَاعُ الْخَيْرِ إِلَى كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ»^(١).

إِنَّ مَقْدَمَةَ الْعَقْلِ، التَّزَامَ الدِّينِ، لِأَنَّ الدِّينَ هُوَ الَّذِي يَضْمَنُ لَهُ أَنْ يَكُونَ قَوِيمًا وَمُؤَدَّبًا، إِذْ الدِّينُ هُوَ الْقَانُونُ وَالنِّظَامُ وَالْمَنْهَجُ الْإِلَهِيُّ، فَإِذَا شَدَّ الْعَقْلَ عَنْهُ لَمْ تُضْمَنْ اسْتِقَامَةُ الْعَقْلِ نَفْسَهُ، وَبَاتَ عَلَى طَرِيقِ الْإِنْحِرَافِ. وَلِضَرُورَةِ حَسَنِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ وَأَهْمِيَّتِهِ، اعْتَبَرَهُ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص) مَقْدَمَةَ الْعَقْلِ بَعْدَ الدِّينِ، مُعْبِّرًا عَنْ ذَلِكَ بِالتَّوَدُّدِ، وَهُوَ التَّقَرُّبُ مِنَ النَّاسِ وَإِظْهَارُ الْحُبِّ الْمَخْلُصِ

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤٠١.

لهم. كما اعتبر اصطناع الخير إلى الأبرار والفجَّار حُجَّةً عليهم لكي ينيبوا إلى حديقة الدِّين والعقل.

ويقول الإمام علي (ع):

«رَأْسُ الْعَقْلِ - بَعْدَ الْإِيمَانِ - التَّحَبُّبُ إِلَى النَّاسِ»^(١).

وهكذا فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - حينما خلق العقل بهذه العظمة، فإنَّه - جَلَّ وَعَلَا - حَوَّلَهُ دوراً يتلاءم وعظمته، بجعله أساساً وقواماً ونظاماً تقوم عليه حياة الإنسان وجميع أموره، ومصيره في الدَّار الآخرة.

فَلِكَيْ يضمن الإنسان صلاح جميع أموره، ومنها: حسن تعامله مع النَّاس، واجبه أن يقيمها على أساس العقل، واستعماله في «الوجوه الصَّالحة».

١. المصدر السابق، ج ١، ص ١٣١.

❖ الْأَسَاسُ الثَّلَاثُ: الْعِلْمُ

قال الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص): «الْعِلْمُ رَأْسُ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَالْجَهْلُ رَأْسُ الشَّرِّ كُلِّهِ»^(١).
كما هو معروف، العلم هو: إدراك الشَّيْءِ بحقيقته، وهو المعرفة والتَّيَقُّنُ، وضدُّه الجَهْلُ. ويحصل العلم والمعرفة للإنسان باستعمال العقل، وتُعَبَّرُ الأحاديث الشَّرِيفَةُ عن العلم لأنَّه مصباح العقل.
ويكفي للتَّدْلِيلِ على عظمة العلم أنَّه:

- أصلُ كُلِّ خير.
- رأسُ كُلِّ الفضائلِ وغايتها.
- السَّبَبُ إلى المنازل الرَّفِيعَةِ والشَّرَفِ.
- دليلُ الإنسان في الحياة، وهَادِيَةٌ فيها.
- «حِجَابٌ مِنَ الْآفَاتِ».
- مَنْجِدُ الْإِنْسَانِ.
- مُؤْنِسُهُ.
- ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، وشَيْئُهُ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْهُ.
- عِمَادُ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ.
- الْحَيَاةُ، وبه تكون.
- حَيَاةُ النَّفْسِ، وإنَّارَةٌ للعقل، وأمانة من الجهل.
- بِهِ يُطَاعُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَيُعْبَدُ، وَيُعْرَفُ، وَيُوحَّدُ، وبه يُعْرَفُ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ.
- خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ.
- وَسِيلَةُ التَّقَدُّمِ وَالرُّقْيِ وَالْحَضَارَةِ.

١. المصدر السابق، ج ٧٧، ص ١٧٥.

ولمَّا كان العلم بهذه العظمة فإنَّ أنجح النَّاجِحِينَ هو من يملكه، كما أنَّ أخسر الخاسرين هو من حُرِمَ منه. إنَّ ما من خُطوةٍ يخطُوها الإنسان، أو عمل يقوم به إلَّا وهو بحاجةٌ ضروريَّةٌ إلى العلم، سواء كان ذلك العمل صغيراً أو كبيراً، وفي أيِّ زمان، وفي أيِّ مكان.

إنَّ العِلْمَ هو هادي الإنسان في هذه الحياة، وبدونه يصبح كالأعمى الذي يتخبَّط هنا وهناك. ولكن أيُّ علم هو الهادي له؟ لا شكَّ أنَّه العلم الحقُّ الذي يؤيِّده الدِّين والعقل المؤدَّب، والذي يُحقِّقُ شرط مرضاة الله، أمَّا العلم الذي لا يُحقِّقُ هذا الشرط، فهو جهل في حقيقته. ومن هنا فإنَّ العلم يجب أن يكون دينياً لا بمعنى أن ينحصر في علوم الدِّين كالفقه وغيره، وإمَّا بمعنى أن يكون تحت إمامة الدِّين لكي يُضمَّنَ له سلامة السَّير واستقامته، ولكي لا يستعمل في الوجوه غير الصَّالحة.

والإنسان لا غنى له في أيِّ عمل يقوم به عن العلم والمعرفة الحقَّة، إذ هما بمثابة الثُّور الذي يضيء له طريق العمل والسُّلوك، ومن هنا فالوعي والبصيرة والثَّقافة والعلميَّة هي أمور ضروريَّةٌ له في كلِّ شأن من شؤون حياته، ومنها تعامله مع بني البشر.

وقد يتساءل المتسائل:

ما علاقة التَّعامل مع النَّاس بالعلم وبالمعرفة وبالعلميَّة؟

إنَّ العلميَّة المطلوبة في التَّعامل مع النَّاس لا يقصد بها أن يكون الإنسان حائزاً على درجة كبرى في الجانب الأكاديمي لكي يحسن معاملة النَّاس. وإمَّا المقصود أن يكون بعيداً عن الجَّهْل والأُميَّة، وممتلكاً حدّاً كافياً من العلم والمعرفة والوعي والبصيرة والثَّقافة التي تمكِّنه من إحسان معاملة النَّاس.

ومن هنا تجدر الإشارة إلى أنَّ مَنْ النَّاس من هم على درجة لا بأس بها من العلم والمعرفة والثَّقافة، ولكنهم لا يُحسنون معاملة النَّاس، فكم هم الاختصاصيُّون والأطباء والمديرون والمهنيُّون والموظَّفون و... الذين هم على درجة علميَّة لا بأس بها، إلَّا أنهم يُسيئون التَّعامل معهم!. وذلك يرجع إمَّا إلى

تَكْبُرُهُمْ عَلَى النَّاسِ وَتَعَامَلُهُمْ مَعَهُمْ بِأَسْلُوبٍ فَوْقِيٍّ، وَإِمَّا إِلَى ضَعْفٍ وَعِيْهِمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ. وَكَمْ هُنَاكَ مِنْ أَنْاسٍ أُمِّيِّينَ، وَلَكِنَّهُمْ يَمْتَلِكُونَ بَصِيصًا مِنَ النُّورِ، وَنِيَّةً صَادِقَةً، وَوَجْدَانًا وَضَمِيرًا مُخْلِصَيْنَ، فَتَجِدُهُمْ يَحْسِنُونَ مَعَامَلَةَ النَّاسِ وَمَعَاشِرَتَهُمْ وَمَخَالَطَتَهُمْ! إِلَّا أَنَّ الْجَهْلَ وَالْأُمِّيَّةَ يَقُودَانِ إِلَى سُوءِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، فِي الْغَالِبِ، بَلْ إِنَّهُمَا مَشْكَلَتَانِ تَقُودَانِ أَصْحَابَهُمَا إِلَى الْعَمَلِ وَالتَّصَرُّفِ وَالسُّلُوكِ فِي شَتَّى الْمَجَالَاتِ وَالْمِيَادِينِ الَّتِي يَدْخُلُونَهَا أَوْ يَشَارِكُونَ فِيهَا. وَمِنْ هُنَا فَلَا غَرَابَةَ مِنْ انْتِشَارِ الْغِيْبَةِ وَالتَّمِيمَةِ، وَعَدَمِ حِفْظِ اللِّسَانِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ فِي التَّجْمُّعَاتِ الْجَاهِلَةِ وَالْأُمِّيَّةِ.

وَعَلَيْهِ فَلِكِي يُحْسِنَ الْإِنْسَانُ تَعَامُلَهُ مَعَ النَّاسِ، خَلِيقٌ بِهِ أَنْ يُقِيمَ هَذَا التَّعَامُلَ عَلَى أَسَاسِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الْحَقِّينِ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَالْحَدُّ الْأَدْنَى مِنْ ذَلِكَ امْتِلَاكُ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَضْمَنُ إِحْسَانَ هَذَا التَّعَامُلِ.

❖ الأساس الرابع: الوجدان والضمير الصالحان

قال الإمام علي (ع):

«صَلَّاحُ الظَّوَاهِرِ عِنْدَ صِحَّةِ الضَّمَائِرِ»^(١).

«طُوبَى لِمَنْ صَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ عَلَانِيَتُهُ، وَعَزَلَ النَّاسَ شَرُّهُ»^(٢).

«مَنْ حَسُنَتْ سَرِيرَتُهُ، حَسُنَتْ عَلَانِيَتُهُ»^(٣).

أغلبنا قد سمع أو يسمعُ شخصاً يصف آخر بأنَّ له وجداناً صالحاً وضميراً حياً، وقد يسمع شخصاً ينعت آخر بأنه عديمُ الوجدان أو الضمير.

فما هو الوجدان^(٤)؟

وما هو الضمير^(٥)؟

وما علاقتهما بسلوك الإنسان وتعامله مع الناس؟

المعلوم أنَّ لكلَّ إنسان واقعين: داخلي، وخارجي. فالواقع الداخلي هو الجانب السريُّ أو الباطنيُّ منه، والواقع الخارجيُّ هو الجانب الظاهر أو العلنيُّ، وفيه تظهر تصرُّفاته وأعماله وسلوكياته باستعمال الجوارح والحواس. والوجدان والضمير لفظان يتوجَّهان للتعبير عن الواقع الداخلي للإنسان.

ولو راجع كلُّ منَّا نفسه لوجد أنَّ هناك نِيَّاتٍ وقُصُوداً وأفكاراً وتصوُّرات وأحكاماً ومواقف تعمل في داخله، تشكِّل مساحة من وجدانه وضميره ونفسه، هذه النِّيَّات والقُصُود والأفكار والتَّصوُّرات والأحكام والمواقف التي ينبغي لها أن تُقام على أساس الحقِّ والخير، وأن تكون متطابقة مع ظاهر الإنسان وتصرُّفاته في الواقع الخارجي، مع العلم بأنَّ هناك بعض الظروف الاستثنائية تتطلب من

١. الغرر والدرر.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

٤. وجدان في عرف البعض هو النَّفْس وقواها الباطنة، والوجداني: ما يجده كلُّ أحد من نفسه، أو ما يُدرك بالقوى الباطنة.

٥. الضمير: باطن الإنسان.

الإنسان أن يظهر خلاف ما يبين لضرورة^(١).

وكثيراً ما تناول القرآن الكريم والسنة الشريفة مسألة إصلاح وإخلاص النية والوجدان والضمير، وتطابق ذلك مع ظاهر الإنسان في كثير من الآيات والأحاديث، وذلك لأن النفس - وبالتحديد باطن الإنسان - هي نقطة الانطلاق - فإذا صلح داخلها صلح واقعها الخارجي، وعكس ذلك صحيح تماماً.

يقول الإمام الصادق (ع):

«إِنَّ السَّرِيرَةَ إِذَا صَحَّتْ قَوِيَتْ الْعَلَانِيَةُ»^(٢).

ويقول الإمام علي (ع):

«لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنٌ عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ، طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبَثَ ظَاهِرُهُ، خَبَثَ بَاطِنُهُ»^(٣).

بل إن فساد الظاهر وحده قد يؤدي إلى فساد الباطن والوجدان والضمير للارتباط الوثيق بينهما.

يقول الإمام علي (ع):

«عِنْدَ فَسَادِ الْعَلَانِيَةِ تَفْسُدُ السَّرِيرَةُ»^(٤).

ومهما حاول الإنسان أن يخفي باطنه وضميره ووجدانه، فإن تصرفه وسلوكه في الواقع الخارجي، ترجمة حقيقية لذلك الباطن، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

يقول الإمام علي (ع):

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَاتٍ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»^(٥).

١. كمثال على هذه الظروف: لو أن عاملاً في سبيل الله ابتلي بالمصائب والمحن ووجهت إليه تهم لها أساس من الصحة، فإن عليه أن ينفذها، ويظهر خلاف ما يُبين لبُعد الأذى عن نفسه وعن غيره، وعن مسير العمل عموماً.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٨٩.

٣. الغرر والدرر.

٤. المصدر السابق.

٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٨، ص ١٢٣.

ويقول الشاعر:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ *** وَإِنْ خَالَهَا تُخْفَى عَلَى النَّاسِ، تُعَلِّمَ

إِنَّ مِنْ أَمِّهِمْ أَسَسَ وَدَعَائِمَ التَّعَامُلِ مَعَ أُمُورِ الْحَيَاةِ، وَمِنْهَا التَّعَامُلُ الصَّالِحُ وَالضَّمِيرُ الْحَيُّ، وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى: الْبَاطِنُ الصَّالِحُ. وذلك لأنَّ الإنسان إذا كان وجدانه وضميره صالحين، ظهرت آثار ذلك بالإيجاب على معاملته للنَّاسِ في الظَّاهِرِ والواقع الخارجيّ، أمَّا إذا كان باطنه سيئاً تجاههم فإنَّ معاملته لهم تُمسي سيئةً، حتى وإن تظاهر بأنَّها حسنة.

يقول الرَّسُولُ الأعظمُ (ص):

«مَنْ أَصْلَحَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ جُورَانِيهِ أَصْلَحَ اللَّهُ بَرَأْنِيهِ، وَمَنْ أَرَادَ وَجْهَ اللَّهِ أَنَالَهُ اللَّهُ وَجْهَهُ وَوُجُوهَ الْخَلْقِ»^(١).

وإصلاح النَّفْسِ - كما مرَّ ذِكره - يعتمد على إصلاح العلاقة مع الله - سبحانه وتعالى - فإذا صلحت هذه العلاقة صلاحاً حقيقياً، انعكست آثار ذلك بالإيجاب على باطنه وواقعه الدَّاخِلِيِّ، وبالتالي على ظاهره وواقعه الخارجيّ، هذا الواقع الذي يُمثِّلُ التَّعَامُلَ مَعَ النَّاسِ مساحةً كبيرةً منه.

وهكذا فَلَئِكِي يضمن الإنسان توجُّهَهُ للخير والحقِّ والفضيلة، ويحسن تعامله مع النَّاسِ، يتوجَّب عليه بعد إصلاح علاقته بالله، أن يصلح وجدانه وضميره (الواقع الباطني)، أن يكون مع فطرته^(٢) التي فطره الله عليها، إذ أنَّ هذه الفطرة كفيلة بأن تحافظ على صلاح وجدانه وضميره، وبالمحافظة على الفطرة وإصلاح الوجدان والضَّمِير تحسن معاملة النَّاسِ في الواقع الخارجيّ.

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٦٥.

٢. الفطرة التي فطر الله - سبحانه - الناس عليها هي معرفته، لأنه خالقهم وبارئهم من العدم. وجاء في الأحاديث الشريفة بما مضمونه: «أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَأَبَوَاهُ هُمَا اللَّذَانِ يَهُودَانِيَهُ أَوْ يُنَصْرَانِيَهُ أَوْ مُجَسَّسَانِيَهُ».

❖ الْأَسَاسُ الْخَامِسُ: الْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ

قال الرسول الأعظم (ص):

«الْخُلُقُ وَعَاءُ الدِّينِ»^(١).

وقال (ص) أيضاً:

«الْخُلُقُ الْحَسَنُ نِصْفُ الدِّينِ»^(٢).

وقال (ص):

«الْإِسْلَامُ حُسْنُ الْخُلُقِ»^(٣).

وقال (ص):

«الْخُلُقُ الْمَحْمُودُ مِنْ ثَمَارِ الْعَقْلِ»^(٤).

وقال (ص):

«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَالْقُوْهُمْ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَحُسْنِ الْبِشْرِ»^(٥).

وقال (ص):

«ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلَا يُعْتَدُ بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ: تَقْوَى تَحْجِزُهُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَحِلْمٌ يَكْفِي بِهِ السَّيِّئَةَ، وَخُلُقٌ يَغِيْشُ بِهِ فِي النَّاسِ»^(٦).

ما هي الأخلاق؟

ولم كانت أساساً أولياً في معاملة الناس؟

١. كنز العمال ، خ ٥١٣٧.

٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٨٥.

٣. كنز العمال ، خ ٥٢١٥.

٤. الغرر والدرر.

٥. جامع السعادات، ج ١، ص ٣٤٤.

٦. المصدر السابق، ص ٣٤٤.

الأخلاق الحسنة هي الفضائل والمناقب والخصال الناجمة عن استثمار العقل، والتي جاء الدِّينُ لكي يدعو إليها وَيُشَيِّعَهَا بين النَّاسِ كوسيلة تعامل - سليمة - فيما بينهم. وقد تُعرَّفُ بأنَّها السَّجَايا والطُّبَاعُ الحسنة. ويدخل ضمن مفهوم الأخلاق، والعادات والتقاليد الحسنة المؤيِّدة عقلاً وشرعاً.

والخُلُقُ الحَسَنُ هو حدُّ التَّوَسُّطِ والاعتدال بين رذيلتين حسب نظرية الوسط^(١)، ومثال ذلك: الإنفاق المعتدل، وهو وسط بين رذيلة التَّقْيِيدِ، ورذيلة الإسراف. والشَّجَاعَةُ وسط بين الجُبْنِ والتَّهَوُّرِ، والتَّوَاضُعُ وسط بين ذُلَّةِ النَّفْسِ المنهيِّ عنها، والتَّكَبُّرُ، وحسب هذه النُّظَرِيَّةِ تتبيَّنُ النسبيَّةُ في الأخلاق والتزامها، بمعنى أنَّ المرء المتواضع - على سبيل المثال - يمتلك نسبة معينة من التَّوَاضُعِ، ليست ضمن رذيلة التَّفْرِيطِ ولا ضمن رذيلة الإفراط.

وفي تناولها لموضوع الأخلاق، تُوضَحُ الأحاديث الشَّريفة أنَّ الأخلاق على ضربين بالنَّظَرِ إلى الطَّبَعِ والتَّطْبُعِ: منها ما يُجَبِّلُ الإنسان عليه، ويُدعى سَجِيَّةً، أو طَبْعاً، ومنها ما يكتسبه ويتصبَّرُ عليه، ويُدعى نِيَّةً، أو تَطْبَعاً^(٢).

يقول الإمام الصَّادق (ع):

«الْخُلُقُ مَنَحَةٌ يَمْنَحُهَا اللَّهُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، فَمِنْهُ سَجِيَّةٌ، وَمِنْهُ نِيَّةٌ، قُلْتُ: فَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: صَاحِبُ النِّيَّةِ أَفْضَلُ، فَإِنَّ صَاحِبَ السَّجِيَّةِ هُوَ الْمَجْبُودُ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُهُ، وَصَاحِبُ النِّيَّةِ هُوَ الَّذِي يَتَصَبَّرُ عَلَى الطَّاعَةِ، فَهَذَا أَفْضَلُ»^(٣).

والعقل والدِّين يرشدان الإنسان ويدعوانه إلى التَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَالتَّطَبُّعِ بِهَا، لِأَنَّ فِيهَا مَصْلَحَتَهُ الْأَكِيدَةَ، وَالْأَوَّلَى بِهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِإِرْشَادِهِمَا وَدَعْوَتِهِمَا، فَإِنْ

*١. يرى بعض علماء الأخلاق أنَّ نظرية الوسط ذات أصلٍ إغريقي، ولا يَرَوْنَ أَنَّ الأخلاق هي حدود التَّوَسُّطِ والاعتدال بين الرَّذَائِلِ، محتجين لذلك بأنَّ بعض الفضائل - كالعدل والصِّدْق - ليس وسطاً بين رذيلتين. راجع: فلسفة الأخلاق، للشَّيْخِ مُحَمَّدٍ جَوَادٍ مَغْنِيَّةٍ.

*٢. من الأمثلة السَّائِرَةِ: «الطَّبْعُ أَغْلَبُ» و «الطَّبْعُ يَغْلِبُ التَّطْبُعَ». ويعني أنَّ الطَّبْعَ حالة موجودة في الإنسان وهو متعود عليها. أما التَّطْبُعُ فهو محاولة أيجاد تلك الحالة لدى الذات، أو تكلفها وتصنعها بَغْيَةِ التَّعَوُّدِ عليها. وبديهة أنَّ العادة تغلب ما يُراد التَّعَوُّدُ عليه، والآخر هو الأصعب لأنه يحتاج إلى التَّصَبُّرِ.

**٣. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٩٥.

كانت الأخلاق سجايا فيه فهو متحلٌّ بها، وإلا فليتطبَّع بها وليتخلَّق، حتى تصبح طبعاً فيه وخُلُقاً وعادةً.

وقد يسأل السائل:

ما علاقة الأخلاق بالدين والعقل؟

إذا مثَّلَ العقل بالشَّجرة الطَّيِّبَةِ العظيمة، فإنَّ الأخلاق الحسنة من ثمارها، وبناءً عليه فعلاقة الأخلاق^{***} بالعقل هي علاقة الفرع بالأصل، والنتيجة بالسَّبَب. ولأنَّ العقل - كما تقدَّم ذِكرُهُ - هو أوَّل وأحسن وأكرم مخلوق خلَّقه الله - سبحانه وتعالى - ولأنَّه المعيار الذي به يعرف الخير من الشرِّ، والمخلوق الذي على أساسه يُثاب الإنسان ويعاقب، كانت الأخلاق ثمرة له. إنَّ الأخلاق الحسنة حقٌّ وخير، لأنها نابعة من مصدر الحقِّ والخير، وميزان معرفتهما والداعي إليهما هو العقل.

وبناءً عليه فمَن يُقيم أمور حياته على أساس العقل، يَضمَن لها أن تقوم على أساس الأخلاق، فواجِدُ العقل ومستعملُهُ في الوجوه الصَّالحة يعطي الأخلاق الحسنة، وفاقده ومستعمله في غير الوجوه الصَّالحة، لا يعطيها بطبيعة الحال.

وإذ أنَّ العقل هو أقوى الأسس والدين يقوم عليه، كانت الأخلاق الحسنة من صميم الدين ومن أبرز أهدافه. ومن هنا يقول الرَّسُولُ الأعظمُ (ص): «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ». وبتمثيل الدين بالجَوْهَرَةِ النَّفِيسَةِ، فإنَّ الأخلاق يمكن تمثيلها بالطَّرْفِ النَّفِيسِ الحسن الذي تُوَضَّع فيه ويتلاءم وقيمتها. ولذلك فإنَّ الأخلاق الحسنة هي المحيط الصَّالح، أو البيئة الصَّالحة لوجود الدين وغموه، كما أنَّ الدين هو الطَّرِيق إلى المحيط الصَّالح، وبه تُستصلح البيئة الاجتماعية الفاسدة.

إنَّ بعض الأحاديث الشَّرِيفة تصف الأخلاق بأنَّها الدين، أو نصفه، لأنَّها من صُلْبِ أهدافه، وأمور أساسية فيه، وتشكل مساحة كبيرة منه، ولذا فالمُعْتَنِقُ

*** لفظه «أخلاق» المطلقة، تعني الأخلاق الحسنة لزيادة استعمالها وتداولها في هذا السَّبيل. وأوَّل ما يتبادر إلى ذهن الإنسان حين سماع لفظ «أخلاق» هو الأخلاق الحسنة.

لِلدِّينِ لَابَدً أَنْ تَكُونَ الْأَخْلَاقُ أَمْرًا طَبِيعِيًّا فِيهِ، وَعنواناً لَهُ، إِذْ لَا قِيَمَةَ لِدِّينِ الْإِنْسَانِ إِذَا لَمْ تَكُنِ الْأَخْلَاقُ نَتِيجَةً طَبِيعِيَّةً لَهُ، مَقْرُونَةً بِهِ.

وحيث أَنَّ الْأَخْلَاقَ ثَمَرَةٌ لِلْعَقْلِ الْعَظِيمِ، وَمِنْ صِلَابِ أَهْدَافِ الدِّينِ الْعَظِيمِ، كَانَتْ عَظِيمَةً لِعَظَمَتِهَا. وَيَكْفِي لِلتَّذَلُّلِ عَلَى عَظَمَةِ الْأَخْلَاقِ، أَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُوضَعُ فِي مِيزَانِ الْمَرءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ أَنَّهَا ضَرُورَةٌ لَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْهَا، يَحْتَاجُهَا فِي التَّعَامُلِ مَعَ رَبِّهِ، وَمَعَ نَفْسِهِ، وَمَعَ النَّاسِ، بِاعْتِبَارِهَا قَوَاعِدَ لِنَتْنِظِيمِ السَّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ. فَمِنْ يَمْتَلِكُ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ يَضْمَنُ أَسَاساً هَاماً مِنْ أَسَاسِ النَّجَاحِ وَالسَّعَادَةِ، وَمَنْ لَا يَمْتَلِكُهَا يَعِيشُ الْفَشْلَ وَالشَّقَاءَ وَالْعَذَابَ.

يَقُولُ الْإِمَامُ عَلِيُّ (ع):

«بِحُسْنِ الْخُلُقِ يَطِيبُ الْعَيْشُ»^(١).

وَيَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ (ع):

«مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ»^(٢).

وَبِالْأَخْلَاقِ يُسَعِّدُ النَّاسَ، فَقَدْ لَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ مَالاً، أَوْ قَدْ يَكُونُ الْمَالُ الَّذِي يَمْلِكُهُ لَا يَغْطِي جَمِيعَ مُتَطَلِّبَاتِهِ، وَمِنْهَا الْمُتَطَلِّبَاتُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ، كَأَنْ يَسَاعِدَ هَذَا، وَيُؤَاسِي ذَاكَ، وَيَتَصَدَّقَ عَلَى ثَالِثٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ لِلْمَالِ دَوْرَ كَبِيرَ فِي الْحَيَاةِ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ. فَحِينَمَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ أَنَّ مَالَهُ لَا يَسَعُّ الْآخَرِينَ، فَهَنَّاكَ جَانِبَ آخَرَ يُمْكِنُ أَنْ يَسْعَهُمْ بِهِ، وَهُوَ جَانِبُ ذُو إِطَارٍ وَاسِعٍ، أَلَا وَهُوَ الْجَانِبُ الْأَخْلَاقِيُّ. فَبِإِسْرَارِهِ الصَّادِقَةِ، وَظَاهِرِهِ الْأَخْلَاقِيِّ، وَكَلِمَاتِهِ الْمُؤَدِّبَةِ، وَأَدَابِهِ السَّمْحَةِ، وَنَفْسِهِ الْمُهَذَّبَةِ، وَتَصَرُّفَاتِهِ السَّوِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ يَحْسِنَ مَعَامَلَةَ النَّاسِ، وَيَجْمَعَهُمْ مِنْ حَوْلِهِ.

إِنَّ جِزَاءً كَبِيراً مِنَ الْحِكْمَةِ فِي تَشْرِيعِ الْأَخْلَاقِ يَتِمَثَّلُ فِي تَقْوِيمِ وَتَسْوِيَةِ تَعَامُلِ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِشَكْلِ يُحَقِّقُ لَهُمُ السَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالرَّضْوَانَ فِي دَارِ السَّلَامِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ قِسْماً مِنَ النَّاسِ يَتَصَوَّرُ الْأَخْلَاقَ وَيَتَعَامَلُ مَعَهَا عَلَى أَنَّهَا «تَكْتِيكَاتٌ»

١. الغرر والدرر.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٤٦.

مُؤَقَّتَةً لِلزَّحِكِ عَلَى دُقُونِ النَّاسِ، والانتفاع منهم والحصول على المصالح. ولكنَّ الأخلاق تأبى أن تكون كذلك، فهي - إن صَحَّ التَّعبير - «استراتيجية» دائمة، تتطلَّب - مبدئيًّا - هدم الخُلُقِيَّاتِ السيِّئة، وكُنسِ الشَّوَابِهِ والرُّوَاسِبِ النَّفْسِيَّةِ العالقة، ثُمَّ أَنَّهَا عمليَّةُ عطاء للنَّاسِ قبل أن تكون عمليَّةُ أخذ، سواء كان العطاء والأخذ معنويَّين أو ماديَّين.

ومن هنا فإنَّ مَنْ يعتبر الأخلاق مجردَ مقدِّماتٍ للأخذ من النَّاسِ فقط، هو واقع في الفهم الخاطئ لحقيقة الأخلاق والحكمة والغاية منها، والواجب عليه أن يعيد النَّظَرَ في ذلك الفهم، لكي تأتي ممارساته أخلاقيَّةً خالصة لوجه الله تعالى، مقبولة لدى عقلاء النَّاسِ، نابعة من نفس مُزَكَّاة.

ولا تتحقَّقُ الأخلاق في الإنسان من دون صلاح الوجدان والضَّمير والنيَّة، فإذا كانت السَّريرة غير صالحة، والظَّاهر صالح، فإن ممارسات الإنسان تصبح مُتكلِّفة، إذ أَنَّهَا متناقضة مع داخله، وقد تؤدي به إلى النَّفاق، وهو آفةُ فردِيَّةٍ واجتماعيَّةٍ خطيرة، وكذلك إذا كانت السَّريرة صالحة، والظَّاهر غير صالح، فإن ممارساته تكون خلاف سريته. وفي كلِّتي الحالتين يحتاج سلوك الإنسان إلى تقويم وتسوية، لكي لا يصاب بالتناقض بين ظاهره وباطنه.

يقول الإمام عليُّ (ع):

«طَوَّبَ لِمَنْ ذَهَلَ فِي نَفْسِهِ، وَطَابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسَنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، وَوَسَعَتْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى الْبِدْعَةِ»^(١).

إنَّ الأخلاق مقدِّمة أعمال البرِّ والخير، وهي أساس ضروريٌّ لمعاملة النَّاسِ، وبدونه ترتبك هذه المعاملة وتضطربُ ومن ثم تنحرف. وبالأخلاق تثبتُ مودَّة الإنسان لأخيه الإنسان، وبها يكثرُ المحبوب له، وتأنس النفوس به، وهذا هو السِّرُّ في أنَّ الأخلاقِيَّينَ يتمتعون بحبِّ النَّاسِ وودِّهم، واجتماعهم عليهم، بينما ينفضُ النَّاسُ من حول سيِّئِي الأخلاق، وينفرون منهم.

١. نهج البلاغة، ص ٤٩٠.

يقول تعالى:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)^(١)

ولو تأمل المرء، الأخلاق لوجد أن غالبيتها - أو قسماً كبيراً منها - يأخذ الطابع الاجتماعي المعاملاتي. خذ على سبيل المثال: البشاشة، وطلاقة الوجه، وحُسن البشر، والتبسم، وطيب الكلام، والتواضع، والصدق، والعدل، والوفاء بالوعد والعهد، وأداء الأمانة، إنَّ كلاً منها معتمد على الاجتماع والاتصال والتّماس. فالبشاشة تظهر في شخص يتعامل مع طرف آخر، وطلاقة الوجه تعبير من طرف مقدّم إلى طرف آخر، وهكذا الحال بالنسبة لحُسن البشر، والتبسم، وطيب الكلام، والتواضع، وكذلك بالنسبة إلى كل الأخلاق الاجتماعية بلا استثناء.

وإذ أن الأخلاق الاجتماعية أو أخلاق التّعامل تعتمد على التّماس مع النّاس، فإن المرء تبتلى خَلِيقَتُهُ ليس حينما يكون معزّل عن النّاس، وإنما عندما يكون في تّماس معهم، وهذا هو المقصود من الخُلُق الذي يعيش به الإنسان في النّاس كما تتطرّق إليه الأحاديث الشّريفة، الأمر الذي يوجب عليه أن يجعل أخلاقه تماس.

وهكذا فليكني يجعل الإنسان تعامله مع النّاس حَسَنًا، خَلِيقٌ به أن يُقِيمَه على أساس الأخلاق المحمودّة، وأن يجعل الأخلاق الحسنة دِيْنَهُ الذي لا يحيد عنه، وقرينه المُلَازِم له، إذ الأخلاق خير طريق، وخير قرين للمرء، وحدها - كما في الأحاديث الشّريفة - تليّن الجانب (التّواضع)، وتطيب الكلام، ولقاء الإخوان والنّاس بِبَشَرٍ حَسَنٍ.

❖ الْأَسَاسُ السَّادِسُ: الْعَدْلُ وَإِعْطَاءُ النَّاسِ حَقُّوْقَهُمْ

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)^(١)

ويقول الإمام عليّ (ع): «الْعَدْلُ أَقْوَى أَسَاسٍ»^(٢).

«اسْتَعْدَى رَجُلٌ عَلَى أَبِي طَالِبٍ (ع)، عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعَلِيٌّ جَالِسٌ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ فَاجْلِسْ مَعَ خَصِمِكَ. فَقَامَ فَجَلَسَ مَعَهُ، وَتَنَاطَرَا، ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ وَرَجَعَ عَلِيٌّ إِلَى مَحَلِّهِ، فَتَبَيَّنَ عُمَرُ التَّغْيِيرَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ مَا لِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرًا؟ أَكْرَهْتَ مَا كَانَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: كَتَيْتَنِي بِحَضْرَةِ خَصِمِي، هَلَّا قُلْتُ: قُمْ يَا عَلِيُّ فَاجْلِسْ مَعَ خَصِمِكَ؟! فَاعْتَنَقَ عُمَرُ عَلِيًّا، وَجَعَلَ يَقْبَلُ وَجْهَهُ، وَقَالَ: بَأبي أَنْتُمْ! بِكُمْ هَدَانَا اللَّهُ، وَبِكُمْ أَخْرَجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»^(٣).

العدل: إعطاء كل ذي حق حقه، وهو الانصاف، وهو وضع الشيء في موضعه. وتعتبر العدالة أمًّا لكثير من الفضائل والصفات الأخلاقية، أي عن طريق إحلالها في النفس يتمكّن الإنسان من التحلّي بالعديد الكثير من المناقب والفضائل والخصال الجميلة. ويُعرّفها بعض الفقهاء بأنها الملكة الباعثة على ملازمة تقوى الله وخشيته والخوف منه. وهناك من يرى أنّ العدالة هي كمال القوى العملية (قوة الغضب، وقوة الشهوة)، كما أن هناك من يُعرّف العدل بالحكمة، إذ كلّ منهما يصدّق عليه وضع الشيء في موضعه.

والعدل ليس أساساً أوليّاً للتّعامل مع النّاس فحسب، بل هو أساس أوّلٍ للعالم وأموره كلّ، وأبرز وجوه ذلك أنّه الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الدّول

١. ٩٠ / النحل.

الاحسان: فعل الحَسَن، وجعل الشيء حسناً، والعلم علماً حسناً. يقال: سعيد يُحسن القراءة، أي يعرفها معرفة حسنة. أحسن إليه وبه: عمل معه حسناً، وأعطاه الحسنة. ويرى بعض مفسري القرآن الكريم أنّ الإحسان هو الإعطاء بأكثر من الاستحقاق.

٢. الغرر والدرر.

٣. قصص الأبرار.

والحكومات والحضارات، لكي تسوي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وتتقوّم وتنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين الرّئيس والمَرؤوس ولا صلاح للنّاس والجَمَاهير إلّا باستعمال الحاكم للعدل^(١)، وإيفاء الحقوق.

ومن هنا صحّ القول أنّ من الأزمات الحادّة التي تعصف بالعالم، أزمة الابتعاد عن العدالة من قبل القائمين على الأمور، هذه هي الأزمة التي هي سبب أوّلٍ نشوء أغلب الأزمات والمشكلات الأخرى على اختلاف صورها وأشكالها.

يقول الإمام عليّ (ع):

«العدلُ أساسُ به قِوامُ العالَمِ»^(٢).

ويقول (ع) أيضاً:

«بالعدلِ تُصلَحُ الرِّعيَّةُ»^(٣).

والعدالة ليست مطلوبة من الحاكم وواجبة عليه فحسب، بل إنّ كلّ إنسان هو مأمور من قِبَلِ الله تعالى بالتَّوَسُّلِ بالعدل واستعماله وعلى كلّ الأصعدة والمواضع: في علاقته بخالقه وبنفسه، وببني البشر وهم النّاس. ولو أنّ كلّاً منا أعطى كلّ شيءٍ - في الحياة - حقّه، وأعطى الآخرين حقوقهم بصورة عادلة، وأحسن إليهم، لانتظمتْ أمور حياته، واستطاع أن يحرز النّصيب الوافي فيما يرتبط بالتّعامل الحسن مع النّاس، وكسبهم والتّأثير فيهم.

وهنا ذكر للحقوق، كما وردت في «رسالة الحقوق»^(٤) المروية عن الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام.

*١. إنّ من أهم مجالات التّعامل فيما بين النّاس: التّعامل بين الحاكم والمحكوم وبالعكس، فمن واجب الحاكم أن يوفّي النّاس حقوقهم، ومن أبرز تلك الحقوق: حقّ الحياة، والأمن، والسّلام، والحرية، وإبداء الرّأي: ... كما من واجب الرّعية أن تطيع الحاكم فيما يرضي الله تعالى. ومن طبيعة النّاس أنهم يميلون إلى من يعدل معهم ويعطيهم حقوقهم، ويحسن إليهم، ويكف الأذى عنهم، ويحيّونه. وينفرون ممن يظلمهم ويهضمهم حقوقهم، ويسيء إليهم، وهذه من أبرز الأسباب الموضوعيّة لقيام المحكومين بوجه الحاكمين.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٨٣.

٣. الغرر والدرر.

*٤. جدير بالمرء أن يعرف هذه الحقوق، ويتأمّلها، وتفصيلاتها، ويحولها إلى واقع ملموس في حياته.

يقول (ع):

«حَقُّ اللَّهِ الْأَكْبَرِ عَلَيْكَ: أَنْ تَعْبُدَهُ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، فَإِذَا فَعَلْتَ بِإِخْلَاصٍ جَعَلَ لَكَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكْفِيكَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

«وَحَقُّ نَفْسِكَ عَلَيْكَ: أَنْ تَسْتَعْمِلَهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

«وَحَقُّ اللِّسَانِ: إِكْرَامُهُ عَنِ الْخَنَى، وَتَعْوِيدُهُ الْخَيْرَ، وَتَرْكُ الْفُضُولِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ لَهَا، وَالْبِرَّ بِالنَّاسِ وَحَسْنَ الْقَوْلِ فِيهِمْ».

«وَحَقُّ السَّمْعِ: تَنْزِيهِهِ عَنِ سَمَاعِ الْغَيْبَةِ وَسَمَاعِ مَا لَا يَحِلُّ سَمَاعُهُ».

«وَحَقُّ يَدِكَ: أَلَّا تَبْسُطَهَا إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ».

«وَحَقُّ رَجْلِكَ: أَنْ لَا تَمْشِيَ بِهِمَا إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَبِهِمَا تَقِفُ عَلَى الصَّرَاطِ، فَانْظُرْ أَلَّا تَزَلَّ بِكَ فَتَتَرَدَّى فِي النَّارِ».

«وَحَقُّ بَطْنِكَ: أَنْ لَا تَجْعَلَهُ وَعَاءً لِلْحَرَامِ، وَلَا تَزِيدَ عَلَى الشَّبْعِ».

«وَحَقُّ فَرْجِكَ: أَنْ تَحْصِنَهُ عَنِ الزِّنَا، وَتَحْفَظَهُ مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ».

«وَحَقُّ الصَّلَاةِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا مَرْقَاةٌ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَإِذَا عَلِمْتَ، قَمْتَ مَقَامَ الدَّلِيلِ، الْحَقِيرِ، الرَّاغِبِ، الرَّاهِبِ، الرَّاجِي، الْخَائِفِ، الْمُسْكِنِ، الْمُسْتَكِينِ، الْمُتَضَرِّعِ، الْمُعْظَمِ مَنْ كَانَ بِيَدِهِ بِالسُّكُونِ وَالْوَقَارِ، وَتُقْبَلُ عَلَيْهَا بِقَلْبِكَ، وَتَقِيمُهَا بِحُدُودِهَا وَحُقُوقِهَا».

«وَحَقُّ الْحَجِّ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ وَقَادَةٌ إِلَى رَبِّكَ، وَفِرَارٌ إِلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِكَ، وَفِيهِ قَبُولُ تَوْبَتِكَ، وَقَضَاءُ الْفَرْضِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ».

«وَحَقُّ الصَّوْمِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ حِجَابٌ، صَرَبَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى لِسَانِكَ، وَسَمْعِكَ، وَبَصَرِكَ، وَبَطْنِكَ، وَفَرْجِكَ، لِيَسْتَرِكَ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنْ تَرَكْتَ الصَّوْمَ خَرَقْتَ سِتْرَ اللَّهِ عَلَيْكَ».

«وَحَقُّ الصَّدَقَةِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا دُخْرُكَ عِنْدَ رَبِّكَ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَوَدِيعَتِكَ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْإِشْهَادِ عَلَيْهَا، وَكَنتَ بِمَا تَسْتَوِدِعُهُ سِرّاً وَتَوَقَّ مِنْكَ بِمَا تَسْتَوِدِعُهُ عَلَانِيَةً، وَتَعْلَمُ أَنَّهَا تَدْفَعُ الْبَلَاءَ وَالْأَسْقَامَ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا، وَتَدْفَعُ عَنْكَ النَّارَ فِي الْآخِرَةِ».

«وَحَقُّ الْهَدْيِ: أَنْ تَرِيدَ بِهِ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلَا تَرِيدَ بِهِ خَلْقَهُ، وَلَا تَرِيدَ بِهِ إِلَّا التَّعَرُّضَ لَوَجْهِ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَنَجَاةَ يَوْمٍ تَلْقَاهُ.

«وَحَقُّ السُّلْطَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ جُعِلْتَ لَهُ فِتْنَةً، وَأَنَّهُ مُبْتَلَى فِيكَ بِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُ عَلَيْكَ مِنَ السُّلْطَانِ، وَأَنَّ عَلَيْكَ أَلَّا تَتَعَرَّضَ بِسَخْطِهِ^(١) فَتُلْقَى بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَتَكُونَ شَرِيكًا لَهُ فِيمَا يَأْتِي إِلَيْكَ مِنْ سَوْءٍ.

«وَحَقُّ سَائِسِكَ بِالْعِلْمِ: التَّعْظِيمُ لَهُ، وَالتَّوْقِيرُ لِمَجْلِسِهِ، وَحَسَنُ الْاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَأَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِ، وَلَا تَجِيبَ أَحَدًا يُسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَجِيبُ، وَلَا تَحْدِثْ فِي مَجْلِسِهِ أَحَدًا، وَلَا تَغْتَابَ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَأَنْ تَدْفَعَ عَنْهُ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَكَ بِسَوْءٍ، وَأَنْ تَسْتَرِ عِيُوبَهُ، وَتُظْهِرَ مَنَاقِبَهُ، وَلَا تُجَالِسَ لَهُ عَدُوًّا، وَلَا تَعَادِيَ لَهُ وَلِيًّا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ شَهِدْتَ لَكَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ بِأَنَّكَ قَصِدْتَهُ، وَتَعَلَّمْتَ عِلْمَهُ لِلَّهِ - جَلَّ اسْمُهُ - لَا لِلنَّاسِ^(٢).

«وَأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بِالْمُلْكِ: فَأَنْ تَطِيعَهُ، وَلَا تَعْصِيهِ إِلَّا فِيمَا يُسَخِطُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

«وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالسُّلْطَانِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُمْ صَارُوا رَعِيَّتَكَ لضعفهم وقوتك، فيجب أن تعدل فيهم، وتكون لهم كالوالد الرحيم، وتغفر لهم جهلهم، ولا تعاجلهم بالعقوبة، وتشكر الله - جَلَّ وَعَلَا - على ما آتاك من القوة عليهم.

«وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالْعِلْمِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِنَّمَا جَعَلَكَ قِيَمًا لَهُمْ فِيمَا آتَاكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَفَتَحَ لَكَ مِنْ خَزَائِنِهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ فِي تَعْلِيمِ النَّاسِ، وَلَمْ تَخْرُقْ بِهِمْ، وَلَمْ تَتَجَبَّرْ عَلَيْهِمْ، زَادَكَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَإِنْ أَنْتَ مَنَعْتَ النَّاسَ عِلْمَكَ، أَوْ خَرَقْتَ بِهِمْ عِنْدَ طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْكَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَسْلُبَكَ الْعِلْمَ وَبِهَاءَهُ، وَيُسْقِطَ مِنَ الْقُلُوبِ مَحَلَّكَ.

*١. إِنْ مِنَ التَّعَرُّضِ بِسَخْطِ السُّلْطَانِ: السُّكُوتُ عَلَى ظُلْمِهِ، وَفِي ذَلِكَ الْقَاءُ بِالْيَدِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَمِشَارَكَةٌ لَهُ فِيمَا يَرْتَكِبُ مِنْ مَسَاوِيءٍ.

*٢. لِلْإِطْلَاقِ عَلَى تَفَاصِيلِ فِي التَّعَامُلِ الْمُبْتَادِلِ بَيْنَ الْمَعْلُومِ وَالطَّالِبِ، يَرِاجِعُ مَنِيَّةَ الْمُرِيدِ فِي آدَابِ الْمَفِيدِ وَالْمُسْتَفِيدِ. لِلشَّيْخِ الْمَفِيدِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ النِّعْمَانِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ الْبَغْدَادِيِّ. الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٤١٣هـ.

«وَأَمَّا حَقُّ الزَّوْجَةِ: فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - جَعَلَهَا لَكَ سَكَنًا وَأُنْسًا، فَتَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكَ، فَتَكْرَمُهَا، وَتَرْفُقُ بِهَا. وَإِنْ كَانَ حَقُّكَ عَلَيْهَا أَوْجِبَ فَإِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَرْحَمَهَا لِأَنَّهَا أَسِيرُكَ، وَتَطْعَمُهَا وَتَسْقِيهَا وَتَكْسُوهَا، وَإِذَا جَهِلَتْ عَفَوْتَ عَنْهَا.

«وَأَمَّا حَقُّ مَمْلُوكِكَ: فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهُ خَلَقَ رَبِّكَ، وَأَبْنَى أَيْبَكَ وَأَمَّكَ، وَمَنْ لِحِمِّكَ وَدَمِّكَ، وَلَمْ تَمْلِكْ لِأَنَّكَ صَنَعْتَهُ دُونَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلَا خَلَقْتَ شَيْئًا مِنْ جَوَارِحِهِ، وَلَا أَخْرَجْتَ لَهُ رِزْقًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - كَفَاكَ ذَلِكَ، ثُمَّ سَخَّرَهُ لَكَ، وَاتَّمَنَكَ عَلَيْهِ، وَاسْتَوْدَعَكَ إِيَّاهُ، لِيَحْفَظَ لَكَ مَا تَأْتِيهِ مِنْ خَيْرٍ إِلَيْهِ، فَأَحْسِنَ إِلَيْهِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ اسْتَبَدَّلْتَهُ، وَلَا تُعَذِّبْ خَلْقَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

«وَأَمَّا حَقُّ أُمِّكَ: فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهَا حَمَلَتْكَ حَيْثُ لَا يَحْتَمِلُ أَحَدٌ أَحَدًا، وَأَعْطَتْكَ مِنْ ثَمَرَةٍ قَلْبَهَا مَا لَا يُعْطِي أَحَدٌ أَحَدًا، وَوَقَّتْكَ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهَا، وَلَمْ تُبَالِ أَنْ تَجُوعَ وَتُطْعَمَكَ، وَتَعَطَّشَ وَتُسْقَى، وَتَعَرَّى وَتَكْسُوكَ، وَتَضْحَى وَتُظْلَكَ، وَتَهْجُرَ النَّوْمَ لِأَجْلِكَ، وَوَقَّتْكَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ لِتَكُونَ لَهَا، وَأَنَّكَ لَا تُطِيقُ شُكْرَهَا إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

«وَأَمَّا حَقُّ أَبِيكَ: فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَصْلُكَ، وَأَنَّهُ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ، فَمَهْمَا رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ مَا يَعْجَبُكَ، فَأَعْلَمْ أَنَّ أَبَاكَ أَصْلُ النُّعْمَةِ عَلَيْكَ فِيهِ، فَاحْمَدِ اللَّهَ، وَأَشْكِرْهُ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

«وَأَمَّا حَقُّ وَلَدِكَ: فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْكَ، وَمُضَافٌ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَأَنَّكَ مَسْئُولٌ عَمَّا وَلَّيْتَهُ بِهِ مِنْ حَسَنِ الْأَدَبِ وَالذَّلَالَةِ عَلَى رِيئِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَالْمَعُونَةِ لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ. فَاعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلٌ مِنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُثَابٌّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، مُعَاقِبٌ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ.

«وَأَمَّا حَقُّ أَخِيكَ: فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهُ يَدُكَ، وَعِزُّكَ، وَقُوَّتُكَ، فَلَا تَتَّخِذْهُ سِلَاحًا عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا عَدَّةً لِلظُّلْمِ بِخَلْقِ اللَّهِ، وَلَا تَدْعُ نُصْرَتَهُ عَلَى عَدُوِّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لَهُ، فَإِنْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَإِلَّا فَلْيَكُنِ اللَّهُ أَكْرَمَ عَلَيْكَ مِنْهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

«وَأَمَّا حَقُّ مَوْلَاكَ الْمُنْعَمِ عَلَيْكَ: فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِيكَ مَالَهُ، وَأَخْرَجَكَ مِنْ ذُلِّ الرِّقِّ

ووحشيته إلى عزِّ الحرية وأنسها، فأطلقك من أسرِ المُلْكِيَّةِ، وفكَّ عنك قيد العُبودِيَّةِ، وأخرجك من السَّجْنِ، وملَّكَكَ نَفْسَكَ، وفرَّغَكَ لعبادة ربك، وتعلم أنَّه أولى الخلق بك في حياتك وموتك، وأنَّ نصرتَه عليك واجبة بنفسك، وما احتاج إليه منك، ولا قوَّة إلا بالله.

«وَأَمَّا حَقُّ مَوْلَاكَ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - جَعَلَ عِتْقَكَ لَهُ وَسِيلَةً إِلَيْهِ، وَحِجَاباً لَكَ مِنَ النَّارِ، وَأَنَّ ثَوَابَكَ فِي الْعَاجِلِ مِثْرَاهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ رَحِمٌ مَكَافَأَةً بِمَا أَنْفَقْتَ مِنْ مَالِكَ، وَفِي الْآجِلِ الْجَنَّةُ.

«وَأَمَّا حَقُّ ذِي الْمَعْرُوفِ عَلَيْكَ: فَأَنْ تَشْكُرَهُ، وَتَذْكُرَ مَعْرُوفَهُ، وَتُكْسِبَهُ الْمَقَالَةَ الْحَسَنَةَ، وَتُخْلِصَ لَهُ الدُّعَاءَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ قَدْ شَكَرْتَهُ سِرّاً وَعَلَانِيَةً، وَإِنْ قَدِرْتَ عَلَى مَكَافَأَتِهِ يَوْماً، كَافَيْتَهُ^(*).

«وَأَمَّا حَقُّ الْمُؤَدَّنِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ مَذْكُرٌ لَكَ رَبِّكَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَدَاعٍ لَكَ إِلَى حَظِّكَ، وَعَوْنِكَ عَلَى قِضَاءِ فَرْضِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَاشْكُرْهُ عَلَى ذَلِكَ شُكْرَكَ لِلْمَحْسَنِ إِلَيْكَ.

«وَأَمَّا حَقُّ إِمَامِكَ فِي الصَّلَاةِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ يَقْلُدُ السَّفَارَةَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَتَكَلِّمَ عَنْكَ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ عَنْهُ، وَدَعَا لَكَ وَلَمْ تَدْعُ لَهُ، وَكَفَاكَ هُوَ الْمُقَامَ بَيْنَ يَدَيِّ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَإِنْ كَانَ نَقْصٌ كَانَ بِهِ دُونَكَ، وَإِنْ كَانَ تَمَامٌ كُنْتَ شَرِيكَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْكَ فَضْلٌ، وَحَفِظْتَ نَفْسَكَ بِنَفْسِهِ، وَصَلَاتَكَ بِصَلَاتِهِ، فَتَشْكُرْ لَهُ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ.

«وَأَمَّا حَقُّ جَلِيسِكَ: فَأَنْ تَلِينَ لَهُ جَانِبَكَ، وَتَنْصِفَهُ فِي مَجَارَاةِ اللَّفْظِ، وَلَا تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَنْ يَجْلِسُ إِلَيْكَ يَجُوزُ لَهُ الْقِيَامُ عَنْكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ، وَتَنْسَى زَلَّاتِهِ، وَتَحْفَظُ خَيْرَاتِهِ، وَلَا تُسْمِعَهُ إِلَّا خَيْراً.

«وَأَمَّا حَقُّ جَارِكَ: فَحِفْظُهُ غَائِباً، وَإِكْرَامُهُ شَاهِداً، وَنَصْرَتُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُوماً، وَلَا تَتَّبِعْ بِهِ عَوْرَةَ، فَإِنْ عَلِمْتَ عَلَيْهِ سُوءاً سَتَرْتَهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَقْبَلُ نَصِيحَتَكَ نَصَحْتَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَلَا تُسَلِّمَهُ عِنْدَ شَدِيدَةٍ، وَتُقِيلُ عَثْرَتَهُ، وَتَغْفِرَ ذَنْبَهُ، وَتُعَاشِرْهُ مَعَاشِرَةَ كَرِيمَةٍ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

*١. كَافَيْتَهُ: مَخَفَّفَ كَافَاتِهِ، أَيْ أَعْطَيْتَهُ مَكَافَأَةً عَلَى صَنِيعِهِ لَكَ.

«وَأَمَّا حَقُّ الصَّاحِبِ: فَإِنْ تَصَحَّبَهُ بِالتَّفَضُّلِ وَالْإِنْصَافِ، وَتُكْرِمَهُ كَمَا يُكْرِمُكَ، وَلَا تَدْعُهُ يَسْبِقُ إِلَى مَكْرُمَةٍ، فَإِنْ سَبَقَ كَافَأْتَهُ، وَتَوَدَّهُ كَمَا يُوَدُّكَ، وَتَزْجُرُهُ عَمَّا يَهْمُ بِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ. وَكَنْ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَلَا تَكُنْ عَلَيْهِ عَذَابًا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

«وَأَمَّا حَقُّ الشَّرِيكِ: فَإِنْ غَابَ كَافِيَتَهُ، وَإِنْ حَضَرَ رَعِيَتَهُ، وَلَا تَحْكُمَ دُونَ حُكْمِهِ، وَلَا تَعْمَلْ بِرَأْيِكَ دُونَ مَنَازِلَتِهِ، وَتَحْفَظْ عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ، وَلَا تَخُونَهُ فِيمَا عَزَّ أَوْ هَانَ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِنْ يَدُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَعَ الشَّرِيكِينَ مَا لَمْ يَتَخَاوُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

«وَأَمَّا حَقُّ مَالِكٍ: فَإِنْ لَا تَأْخُذْهُ إِلَّا مِنْ حِلِّهِ، وَلَا تُنْفِقْهُ إِلَّا فِي وَجْهِهِ، وَلَا تُؤْثِرْ عَلَى نَفْسِكَ مَنْ لَا يَحْمَدُكَ، فَاعْمَلْ فِيهِ بِطَاعَةِ رَبِّكَ، وَلَا تَبْخُلْ فِيهِ فَتَبْوءَ بِالْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ مَعَ السَّيِّئَةِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

«وَأَمَّا حَقُّ غَرَمِكَ الَّذِي يَطْلُبُكَ: فَإِنْ كُنْتَ مُوسِرًا أَعْطَيْتَهُ، وَإِنْ كُنْتَ مُعْسِرًا أَرْضَيْتَهُ بِحَسَنِ الْقَوْلِ، وَرَدَدْتَهُ عَنْ نَفْسِكَ رَدًّا لَطِيفًا.

«وَحَقُّ الْخَلِيطِ^(*): أَنْ لَا تَغْرَهُ، وَلَا تَغْشَهُ، وَلَا تَخْدَعَهُ، وَتَتَّقِيَ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي أَمْرِهِ. «وَحَقُّ الْخَصْمِ الْمُدَّعِي عَلَيْكَ: فَإِنْ كَانَ مَا يَدَّعِي عَلَيْكَ حَقًّا، كُنْتَ شَاهِدَهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تَظْلِمُهُ، وَأَوْفِيْتَهُ حَقَّهُ، وَإِنْ كَانَ مَا يَدَّعِي عَلَيْكَ بَاطِلًا رَفَقْتَ بِهِ، وَلَا تَأْتِي فِي أَمْرِهِ غَيْرَ الرِّفْقِ، وَلَا تُسْخِطَ رَبَّكَ فِي أَمْرِهِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

«وَحَقُّ خَصْمِكَ الَّذِي تَدَّعِي عَلَيْهِ: فَإِنْ كُنْتَ مُحِقًّا فِي دَعْوَاكَ، أَجْمَلْتَ مَعَامِلَتَهُ، وَلَا تَجْحَدَ حَقَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ مُبْطِلًا فِي دَعْوَاكَ، اتَّقَيْتَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَتُبَّتْ إِلَيْهِ وَتَرَكْتَ الدَّعْوَى.

«وَحَقُّ الْمُسْتَشِيرِ: إِنْ عَلِمْتَ لَهُ رَأْيًا حَسَنًا، أَشَرْتَ عَلَيْهِ بِهِ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ أَرشَدْتَهُ إِلَى مَنْ يَعْلَمُ.

«وَحَقُّ الْمُشِيرِ عَلَيْكَ: أَنْ لَا تَتَّهِمَهُ فِيمَا لَا يُؤَافِقُكَ مِنْ رَأْيِهِ، وَإِنْ وَافَقَكَ حَمَدْتَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ -.

«وَحَقُّ الْمُسْتَنْصَحِ: أَنْ تُوَدِّيَ إِلَيْهِ النَّصِيحَةَ، وَلِيَكُنْ مَذْهَبُكَ الرَّحْمَةُ وَالرِّفْقُ بِهِ.

*. الْخَلِيطُ: الْمُخَالِطُ، كَالْجَلِيسِ وَالْمُجَالِسِ.

«وَحَقُّ النَّاصِحِ: أَنْ تُلِينَ لَهُ جَنَاحَكَ، وَتُصْغِيَ إِلَيْهِ بِسَمْعِكَ، فَإِنْ أَتَى بِالصَّوَابِ حَمَدَتِ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَإِنْ لَمْ يُوقِفْ رَحِمَتَهُ، وَلَمْ تَتَّهَمْهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ أَخْطَأَ، وَلَمْ تَتَّخِذْهُ بِذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُسْتَحَقًّا لِلتُّهْمَةِ فَلَا تَعْبَأْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى حَالٍ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

«وَحَقُّ الْكَبِيرِ: تَوْفِيرُهُ لَشَيْئِهِ، وَإِجْلَالُهُ لِتَقَدُّمِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَكَ، وَتَرْكُ مُقَابَلَتِهِ عِنْدَ الْخِصَامِ، وَلَا تَسْبِقْهُ إِلَى طَرِيقٍ، وَلَا تَتَقَدَّمْهُ، وَلَا تَسْتَجْهِلْهُ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْكَ احْتِمَلْتَهُ وَأَكْرَمْتَهُ لِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحُرْمَتِهِ.

«وَحَقُّ الصَّغِيرِ: رَحِمَتُهُ فِي تَعْلِيمِهِ، وَالْعَفْوُ عَنْهُ، وَالسَّتْرُ عَلَيْهِ، وَالرِّفْقُ بِهِ، وَالْمَعُونَةُ لَهُ.

«وَحَقُّ السَّائِلِ: إِعْطَاؤُهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ.

«وَحَقُّ الْمَسْئُولِ: أَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ فَاقْبَلْ مِنْهُ الشُّكْرَ، وَالْمَعْرِفَةُ بِفَضْلِهِ، وَإِنْ مَنَعَ فَاقْبَلْ عُدْرَهُ.

«وَحَقُّ مَنْ سَرَّكَ بِشَيْءٍ لِلَّهِ تَعَالَى: أَنْ تَحْمَدَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَوَّلًا، ثُمَّ تَشْكُرْهُ.

«وَحَقُّ مَنْ سَاءَكَ: أَنْ تَعْفُو عَنْهُ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّ الْعَفْوَ يَضُرُّ، انْتَصَرْتَ، قَالَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - (وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ).

«وَحَقُّ أَهْلِ مِلَّتِكَ: إِضْمَارُ السَّلَامَةِ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةُ بِهِمْ، وَالرِّفْقُ بِمُسِيئِهِمْ، وَتَأْلُفُهُمْ، وَاسْتِصْلَاحُهُمْ، وَشُكْرُ مُحْسِنِهِمْ، وَكُفُّ الْأَذَى عَنْهُمْ، وَأَنْ تَحِبَّ لَهُمْ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَنْ يَكُونَ شِوْخُهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَبِيكَ، وَشَبَابُهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَخِيكَ، وَعَجَازُهُمْ بِمَنْزِلَةِ أُمِّكَ، وَالصَّغَارُ بِمَنْزِلَةِ أَوْلَادِكَ.

«وَحَقُّ أَهْلِ الذِّمَّةِ: أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا قَبِلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْهُمْ وَلَا تَظْلِمَهُمْ مَا وَفُوا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى عَهْدِهِ»^(١).

وهكذا فَلْيَكُنِ الْيُحْسِنُ الْمَرْءُ مُعَامَلَةَ النَّاسِ، وَاجِبُهُ أَنْ يَقِيمَهَا عَلَى أُسَاسِ الْعَدْلِ وَإِعْطَائِهِمْ حَقُّوْقَهُمْ بِشَكْلِ عَادِلٍ، وَإِنْ أَحْسَنَ فَذَلِكَ نُورٌ عَلَى نُورٍ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَحِبُّ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ وَيَأْمُرُ بِهِمَا.

١. مكارم الأخلاق، ص ٤١٩ - ٤٢٤.

❖ الْأَسَاسُ السَّابِعُ: مَعْرِفَةُ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ

قال الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«أَلَا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ: أَلَا وَإِنَّ مِنْهُمْ الْبَطِيءُ الْغَضَبِ السَّرِيعُ الْفَيءُ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيءِ، فَتِلْكَ بَيْتُكَ، أَلَا وَإِنَّ مِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيءِ، أَلَا وَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيءِ»^(١).

وقال الإمام عليُّ (ع):

«النَّاسُ كَالشَّجَرِ، شَرَابُهُ وَاحِدٌ، وَمَمَرُّهُ مُخْتَلِفٌ»^(٢).

وقال الإمام الصَّادِق (ع):

«النَّاسُ مَعَادِنٌ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . . .»^(٣).

تَقَدَّمَ ذِكْرُ أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى التَّأَلُّفِ مَعَ بَنِي نَوْعِهِ وَالتَّائُسِ وَالْاجْتِمَاعِ بِهِمْ، بَلْ حَتَّى الطِّفْلُ الرُّضِيعُ الَّذِي هُوَ فِي الْأَطْوَارِ الْأُولَى لِلنُّمُو الْعَقْلِيِّ يَشْعُرُ بِالْأُنْسِ بِأُمِّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ النَّاسِ، وَيُحَسُّ أَنَّهُ يَفْقَدُ شَيْئاً ضَرْوياً حِينَمَا لَا يَجِدُ أُمَّهُ أَوْ أَحَدًا آخَرَ مِنَ النَّاسِ، فَيَشْعُرُ بِالْوَحْشَةِ فَيَبْكِي. وَأَغْلِبُنَا - بَلْ رُبَّمَا كُلُّنَا - قَدْ شَاهَدَ طِفْلاً رَضِيعاً يَبْكِي لِعَدَمِ وَجُودِ مُؤَنِّسٍ مِنْ نَوْعِهِ مَعَهُ، وَمَعَ مَجِيءِ الْمُؤَنِّسِ وَوُجُودِهِ يَشْعُرُ الطِّفْلُ بِالْأُنْسِ وَالسُّرُورِ. وَمَعَ تَقَدُّمِ الْإِنْسَانِ فِي النُّمُو الْعَقْلِيِّ وَالبَدْنِيِّ، تَزْدَادُ حَاجَتُهُ إِلَى الْآخَرِينَ، وَيَزْدَادُ إدْرَاكُهُ وَمَعْرِفَتُهُ بِطَبِيعَتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ، وَحَالَتِهِمُ النَّفْسِيَّةِ.

وهنا سؤال:

إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مَفْطُوراً عَلَى الْاجْتِمَاعِ مَعَ بَنِي الْبَشَرِ وَالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ، وَأَنَّهُ بِحَكْمِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ذُو مَعْرِفَةٍ - إِلَى حَدٍّ مَا - بِطَبِيعَتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ، هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنَ التَّعَاطِي وَالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ، فَمَا الدَّاعِي إِلَى مَعْرِفَةِ طَبِيعَتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ؟

١. صحيح الترمذي.

٢. الغرر والدرر.

٣. فروغ الكافي، ج ٨، ص ١٧٧.

وللإجابة على ذلك يمكن القول:

مع أنَّ الإنسان يمتلك مؤهلات التَّعامل مع الآخرين من بني نوعه، إلَّا أنَّه لا غنى له عن معرفة^(*) طبيعتهم البشريَّة بشكل كافٍ لكي يضمن لتعامله معهم أن يكون في حدود الحَسَن والمَعْقُول، خصوصاً وأنَّ البيئة والتَّربية والثَّقافة الذاتِيَّة لها دور في تحقُّق هذا الأساس أو في عدمه.

مما ينبغي للمرء معرفته عن طبيعة النَّاس البشريَّة هو معرفة القَدْرِ الكافي عن نفسيَّاتهم، وهو ما يمكن تسميته بـ«سيكولوجيَّة التَّعامل مع النَّاس». إنَّ معرفة القدر الكافي من الجانب النَّفسيِّ أو السَّيكولوجيِّ للنَّاس يُعين المرء كثيراً في تعامله معهم، وإحسان هذا التَّعامل، والنَّجاح فيه. ومن هنا نجد الأفراد الذين يعرفون شيئاً ما عن الصِّفَات النَّفسيَّة لمن يتعاملون معهم، هم قادرون على التَّعامل معهم بصورة حسنة. بخلاف الأفراد الذين يجهلون الصِّفَات النَّفسيَّة للآخرين، إذ يكون تعاملهم معهم صعباً مشوباً بالتَّوتر، وربما سيئاً.

فعلى سبيل المثال: إنَّ المُدِيرِينَ والقادة والرُّؤساء الذين يعرفون الطَّبيعة البشريَّة لمُدَارِيهِمْ ومَقُودِيهِمْ ومَرْؤُوسِيهِمْ ويعرفون حالاتهم النَّفسيَّة، أو أسرار التَّأثير فيهم، يمكنهم التَّعامل معهم بصورة لائقة وناجحة. أمَّا المُدِيرُونَ والقادة والرُّؤساء الذين لا يعرفون تلك الطَّبيعة، غالباً ما يكونون في توتُّر وسوء معاملة مع مَرْؤُوسِيهِمْ، الأمر الذي يترك الآثار السَّلبِيَّة على علاقاتهم مع المَرْؤُوسِينَ وعلى سير العمل. ولذا فإنَّ من الصِّفَات والمهارات الإداريَّة التي ينبغي توفرها في شخصية المدير والقائد والرئيس، معرفة الطَّبيعة البشريَّة، والنَّاحية النَّفسيَّة أو السَّيكولوجيَّة للمُدَارِينَ والمَقُودِينَ والمَرْؤُوسِينَ.

والإنسان أينما وُجد مع النَّاس في تعامل أو معاملة، هو بحاجة إلى معرفة نفسيَّة عنهم، سواء كان في بيته وفي تعامله مع زوجته وأبنائه و... أو كان في عمله، أو في المجلس، أو في الدَّائرة، أو في الشَّارع، أو في أيِّ مكان آخر. وهو قَبْل أن يتعامل مع عقولٍ، يتعامل مع أنفُسٍ ومشاعرٍ وعواطفٍ، وأهواءٍ، وحالاتٍ نفسيَّةٍ مختلفةٍ.

*١. بديهة أنَّ الدُّنْيَ والعقل والعلم هي وسائل لا غنى عنها في معرفة الطَّبيعة البشريَّة للنَّاس وحالاتهم النَّفسيَّة. ولعلَّ من النَّفس دور كبير في هذا السَّبِيل.

إِنَّ النَّاسَ - كما تُعبِّرُ عنهم الأحاديث الشَّريفة - ليسوا نسخة واحدة في الصِّفات النفسِيَّة والأخلاقيَّة، وإنما هم كالشَّجرة ذات الشَّرَاب الواحد - وهو الماء - ولكنَّ ثمرها مختلف، إذ منه الحلو، والحامض، والمالح، والمرُّ، والأحمر، والأصفر، و... . وهم كالمعادن المختلفة، فمنهم: الذهب والفضَّة، و... .

وحيث أنَّ النَّاسَ كذلك فمن الأوَّل والأصلح التَّعامل معهم بما يتوافق وطبيعتهم، ومعدنهم وصفاتهم النَّفسِيَّة، وخصوصاً إذا كانت تلك الصِّفات واقعاً فيهم لا يمكنهم التَّخلص منه^(٢١). فعلى سبيل المثال: أنَّ الشَّخص المعروف بسرعة الغضب، ينبغي مراعاة هذه الخصلة فيه، بتجنُّب إثارته، واستعمال أسلوب تعامليٍّ مناسب معه، وبهذا الأسلوب يمكن التَّعامل معه بشكل حسن، وكسبه، وكذلك الشَّخص البطيء الغضب، يُستعمل معه الأسلوب الذي يلائم بطء غضبه، ولا يعني ذلك تعمُّد إثارة غضب النَّاس، بل المطلوب احترام مشاعرهم وحفظها، وحسب نوع مشاعر الطَّرَف الآخر، كان من ذوي المشاعر الرَّقِيقة أو المتحمِّلة، ينبغي التَّعامل معه بالأسلوب الذي يتلاءم ومشاعره.

وتعتمد معرفة الطَّبيعة البشريَّة^(٢٢) للشَّخص الآخر - في جزء كبير منها - على معرفة درجة الجُلْم وتحمُّل الغضب التي هو عليها، ومعاملته بما يتناسب وهذه الدَّرَجَة. إِنَّ القوَّة الغضبيَّة للإنسان تُمثِّل إحدى القوى العمليَّة فيه، وعن طريقها يُبدي التَّفاعل ورد الفعل، ويُدافع عن نفسه وعن كلِّ ما يخصُّه ويتعلَّق به، ويشجُّب ويستنكر، والنَّاس على درجات في امتلاك هذه القوَّة وفي كَيْفِيَّة استعمالها. ومراعاة درجة الجُلْم التي يمتلكها الشَّخص الآخر، ودرجة الحالة الغضبيَّة له، وعموم حالته النَّفسِيَّة، تُحسن معاملته.

كذلك من معرفة الطَّبيعة البشريَّة للشَّخص الآخر، معرفة ميوله ورغباته النَّفسِيَّة وغيرها، وبعبارة أخرى: معرفة ما يحبُّه ويميل إليه. وتبليية هذه الميول

٢١. تعتبر الصِّفات النَّفسِيَّة اللاإيجابِيَّة المتوارثة عن طريق النُّسل، الأصعب من حيث قابليتها للتَّغْيِير والتَّعْيِير، بالقياس إلى الصِّفات النَّفسِيَّة اللاإيجابِيَّة الأخرى النَّاجمة عن التَّربِيَّة والبيئة المحيط. السُّبُتَيْن.

٢٢. معرفة الطَّبيعة البشريَّة للشَّخص الآخر تتضمَّن جانبين: أحدهما معرفة المشتركات المعنويَّة والنفسِيَّة التي يشترك فيها مع أفراد النُّوع البشري، والآخر: الصِّفات النَّفسِيَّة التي يمتلكها، والحالة النَّفسِيَّة التي هو فيها.

وَالرَّغَبَات - ما أمكن - للشَّخْص الآخر، تحسن معاملته، شريطة أن لا يكون إشباع الميول والرغبات يُحلُّ حراماً، أو يحرمُ حلالاً. ومن أوجه التَّعامل مع الشَّخْص الآخر بالنَّظَر إلى طبيعته البشريَّة: التحدُّث فيما يُسرّه ويُطيب له، وتشجيعه، وامتداحه على إجاداته، وحفظ كرامته، و

وكثيرون هم الذين يحسنون معاملة النَّاس، لأنَّهم يعرفون طبيعتهم البشريَّة، وحالاتهم النَّفسيَّة، ويتعاملون معهم على أساس ذلك. وكثيرون - أيضاً - هم الذين يحدث بينهم وبين الآخرين نوع من التَّوتر في التَّعامل لا لأنهم ليسوا أخلاقين، ولا لأنهم لا يُعطون الآخرين حقوقهم، وإنما لضعفٍ في معرفة أو في مراعاة الجانب البشريِّ والنَّفسيِّ لمن يتعاملون معهم، ولو أنَّهم امتلكوا معرفة سيكولوجيَّة عمَّن يتعاملون معهم لكان تعاملهم سليماً وعلى ما يُرام.

وهكذا فليكني يجعل الإنسان تعامله مع النَّاس سليماً، ينبغي له أن يكون عارفاً بطبيعتهم البشريَّة، عالماً بالقدر الكافي عن صفاتهم النَّفسيَّة التي لها ارتباطٌ وثيقٌ بالتَّعامل^(١).

*١. من الأمور التي لا غنى للمرء عنها في حياته: التَّجربة، إذ أنَّ التَّجربة درس وعبرة وموعظة وعلم مستفاد مستحدَث. وكما أنَّ التَّجربة مهمة في مختلف مجالات حياة الإنسان كذلك هي مهمة في مجال التَّعامل مع النَّاس، باعتباره من أوسع المجالات. فهو عن طريق التَّجربة التَّعَامُليَّة يستطيع أن يحاسب نفسه، ويَقْوَمَ تعامله مع النَّاس، فإذا كان قد ارتكب خطأ فيما مضى، أو أساء معاملة فإِنَّه يتفادى ذلك في معاملاته المستقبلية، وبذلك يكون قد استفاد من تجربته في هذا المجال. كذلك عن طريق الاستفادة من تجارب الآخرين في هذا السبيل، سواء كانت التَّجارب ناجحة أو فاشلة، يستطيع أن يهتدي بها في تعامله مع النَّاس فيما يأتي.

القِسْمُ الثَّانِي: الْأُسُسُ الفَنِّيَّةُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ

كما أنَّ لمُعَامَلَةِ النَّاسِ أُسُسٌ أَوَّلِيَّةٌ تقوم عليها وتضمن حُسْنَهَا وسلامتها، كذلك لها - إن صحَّ التَّعْبِيرُ - أُسُسٌ فَنِّيَّةٌ لا غنى عنها، وهذه الأسس - في حدِّ ذاتها - تأتي كنتائج طبيعيَّة لالتزام الأسس الأوَّلِيَّة.

إنَّ الدِّينَ، والعقل، والعلم، والوجدان الصَّالح، والأخلاق، والعدالة، ومعرفة الطَّبِيعَةِ البشريَّة، هي أكبر رأسِّمَال للإنسان، وهي الرُّكائز الرَّاسِخَةُ التي يجب أن يُقيم عليها بِنِيان حياته، وتعامله مع بني نوعه، وبغِيَاب أيِّ منها ترتبكَ حياته، وتَضَطَّرِبُ معاملاته، وعليه فإنَّ تلك الأسس يجب أن تقوده إلى فنِّ مُعَامَلَةِ النَّاسِ وحسنها وجمالها.

وفنُّ مُعَامَلَةِ النَّاسِ يُوحي بأمرين: أولهما: إحسان المُعَامَلَةِ وجعلها جميلة، استناداً إلى معرفةٍ بَقِيَم ومبادئٍ صالحةٍ والتزامها، والآخر كونها بحاجة إلى الفُنِّ والدَّوق والمهارة. فَلِكِ يُحَسِّنَ المرءُ مُعَامَلَةَ النَّاسِ خَلِيقٌ به التَّزَامُ وإِتْقَانُ أُسُسِهَا الفَنِّيَّة، وهي كما يلي:

❖ تركُّ اللُّومِ والعِتَابِ

قال الإمام عليُّ (ع):

«عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ»^(١).

وقال (ع) أيضاً:

«احْتَمِلْ أَخَاكَ عَلَى مَا فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِ الْعِتَابَ فَإِنَّهُ يُورِثُ الصَّغِيَّةَ، وَيَجْرُ إِلَى الْبُغْضَةِ، وَاسْتَعْتَبْ مَنْ رَجَوْتَ عُتْبَاهُ»^(٢).

وقال (ع):

«الْإِفْرَاطُ فِي الْمَلَامَةِ يُشِبُّ نَارَ اللَّجَاجَةِ»^(٣).

١. نهج البلاغة، ص ٥٠٠.

٢. ميزان الحكمة، ج ١، ص ٥٦.

٣. شرح الغرر والددر، ج ٧، ص ٣٥٩.

وقال (ع):

«لَا تُكْثِرَنَّ الْعِتَابَ فَإِنَّهُ يُورِثُ الصَّغِينَةَ، وَيَدْعُو إِلَى الْبَغْضَاءِ»^(١).

وقال (ع):

«الْعِتَابُ حَيَاةُ الْمَوَدَّةِ»^(٢).

وقال (ع):

«لَا تُعَاتِبِ الْجَاهِلَ فَيَمْقُتَكَ، وَعَاتِبِ الْعَاقِلَ يُحِبُّكَ»^(٣)

يقول أحد الكتّاب:

«عندما كنتُ فتىً يافعاً، حاولتُ جاهداً أن ألفتَ الأنظار إليَّ إرضاءً لغيروري، وأنايتي، فكتبت يوماً رسالةً إلى شخص أعرفه وكان يومئذٍ مؤلفاً ذائع الصيت، قلتُ له فيها:

«إنني أعدُّ مقالاً لإحدى المجلات عن مشهوري المؤلفين، ثم رجوتُ أن يفضي إليَّ بطريقته في التأليف، وكنتُ قد تلقَّيتُ قبل ذلك رسالةً من كاتبٍ شهيرٍ ذُكِّتُ بهذه الحاشية: «أُمليتَ ولم تُراجِعْ». فوقعَت هذه الحاشية من نفسي موقعاً عميقاً، وأحسست أن الكاتب لابد أن يكون كثير العمل، عظيم الشأن، ولم أكن كثير العمل، ولا عظيم الشأن، ولكن أردتُ أن أقع من نفس هذا الرجل هذا الموقع، فختمت رسالتي إليه بهذه الحاشية: «أُمليتَ، ولم تُراجِعْ»!.

«ولم يتكلَّف الرجلُ عناء الردِّ على رسالتي، واكتفى بأن ردّها إليَّ برجوع البريد، وعليها هذه العبارة: «إِنَّ سُوءَ أَدَبِكَ لَا يَقُوقُهُ إِلَّا سُوءُ أَدَبِكَ». ولا شكَّ أنني كنتُ أستحقُّ هذا التَّأنيب، ولكنِّي بشر، ولهذا امتعضتُ، وثُرتُ ثورةً مُضْرية، حتَّى أنَّني حين قرأت نعي هذا الرجل بعد ذلك بعشر سنوات - وكم يُخجلني أن أقول هذا! - لم استشعر غير الألم الذي سبَّبته لي عبارته!».

١. المصدر السابق، ص ٢٣١.

٢. المصدر السابق، ص ٢٣١.

٣. المصدر السابق، ص ٢٣١.

سؤال يُطرح فيما يتعلق باللُّوم والعِتَاب:

كيف يجب أن نتعامل مع النَّاس بالنَّظَر إلى اللُّوم والعِتَاب؟
هل المطلوبُ مِنَّا أن نعاتِب الآخرين على أخطائهم وتقصيراتهم، أم نسكُت ونرضى عليها؟

أم المطلوبُ أن نكون معتدلين وسطيَّين في العِتَاب، طَبَقاً لقاعدة «لا إفراط ولا تفريط»؟

أم المطلوبُ أن نُحسن إلى الآخرين بدلاً من أن نعاتِبهم، ونلومهم؟
وهل كُلُّ خطأ يصدر من الآخرين، يستحقُّ النَّقْدَ واللُّومَ والعِتَاب؟

ومحاولة في الاجابة على هذه الاسئلة ينبغي القول:

إنَّ المرءَ - قَبْلَ كُلِّ شيء - عليه أن ينتقد نفسه ويلومها ويعاتبها، وينشغل بعيوبها لكي يُصلحها، لأن إصلاح النَّفْس - كما تقدَّم ذكره - هو نقطة الانطلاق في معاملة النَّاس. إنَّ نفس الإنسان باعتبارها أحبَّ المحبوبيِّين وأقرب المُقَرَّبِينَ إليه، قد لا يلومُها ولا يعاتبُها، ويلوم الآخرين ويعاتبهم دفاعاً عن نفسه، أو تبريراً لموقفه، أو ذوداً عن كبريائه وعزَّته، أو استصغاراً لأخطائه وتقصيراته وعيوبه، واستعظاماً لأخطاءه وتقصيرات وعيوب الآخرين، وهذا ليس صحيحاً، وخلاف العقل والحكمة. ومشكلة النَّاس أن نسبة كبيرة منهم لا يلومون أنفسهم على شيء بالغاً ما بلغ من الخطأ، وأن المُخْطِئَ منهم يلومُه كُلُّ امرئٍ إلَّا نفسه.

وكمثال على ذلك يذكر احد المؤلِّفين قصَّته فيقول:

«في السَّابع عشر من شهر مايو عام ١٩٣١ اعتُقِل في مدينة نيويورك سَفَّاح طاغية لم تشهد المدينة منذ نشأتها مجرماً في مثل عتوه وجبروته: ذلك هو «كرولي ذو المُسدَّسَيْن».

«في ذلك اليوم، ضرب خمسمائة رجل من رجال الشُّرطة الأشدَّاء سياجاً صارماً حول منزل عشيقتة، وحاولوا إجلاء «كرولي» عنه بواسطة الغازات المسيلة للدموع. فلما خابت هذه المحاولة، صعدوا بمدافعهم الرشَّاشة إلى أسطح المنازل

المجاورة وجُعِلَ حيَّ «وست اند» الأنيق، في قلب نيويورك، يهتز لهزيم المدافع ساعة كاملة!

«وعندما اعتقل كرولي، صرَّح قائد الشرطة بقوله. إِنَّ ذَا المُسَدَّسَيْنِ مِنْ أخطر المجرمين الذين عرفتهم نيويورك. لقد كان يقتل لمجرّد قذفه بريشة طائر! ولكن كيف كان كرولي ينظر إلى نفسه؟!

«بينما كان رجال الشرطة منهمكين في إطلاق النَّار على المنزل الذي احتفى به، كان كرولي عاكفاً على كتاب خطاب موجّه إلى «كلّ من يهّمهُ الأمر» وقد جاء فيه: إِنَّ بَيْنَ جَوَانِحِي قَلْباً مُحَيِّراً، ولكنّه رحيماً، قلباً لا يحمل ضغينة لأحد ولا يبغى شراً لمخلوق!.

«وقد حُكِمَ على كرولي بالإعدام على الكرسيّ الكهربائيّ. فلمّا جيء به إلى غرفة الإعدام في سجن «سجن سنج» لم يقل: هذا جزائي على ما سفكت من دماء بريئة، وإمّا قال: هذا هو جزائي على دفاعي عن نفسي».

وإذا كان الأشرار والمجرمون والقتلة لا يلومون أنفسهم، فكيف نتوقّع من النَّاسِ الطَّيِّبِينَ والمحترمين الذين نتصل بهم ونجتمع ونتعامل معهم أن يقبلوا اللّومَ والعتاب؟

قد يكون في ذهن الإنسان شخص يريد من صميم قلبه أن يُقوِّم طباعه، ويهدِّب خُلُقَهُ، ويهديه إلى سواء السَّبِيل. إذا كان كذلك فهو أمر جميل يُشكر عليه ويُثاب. ولكن لِمَ لا يبدأ المرء من نفسه أولاً، هذا المحبوب الذي هو من وجهة النّظر الغريزيّة أحبُّ بكثير من الاهتمام بالغير؟ وكما يقال: عندما تبدأ معركة المرء بينه وبين نفسه فهو عندئذٍ شخص يستحقُّ الدُّكْرَ. وكما قال كونفوشيوس: «لا تَتَبَرَّحْ بِالْجَلِيدِ المتراكِم على عَتَبَةِ جَارِكَ قَبْلَ أَنْ تُزِيلَ ما تراكِمَ على عَتَبَةِ ذَارِكَ أَوَّلًا».

ولكن إذا كان لابدّ من اللّوم والعتاب فكيف يجب التّصرّف؟

إِنَّ اللُّؤْمَ والعتاب تارةً يكون من أجل إهانة الطَّرَف الآخر، أو تحطيم شخصيَّته، وتارة أخرى من أجل تقويم سلوكه وتصرفه. فالنُّوع الأوَّل مرفوض أساساً، والنُّوع الثَّاني هو الجَدِير بالدراسة، والتَّقديم بالكيفيَّة الفضلى.

إِنَّ المرءَ ينبغي له أن يتذكَّر في معاملته النَّاس أَنَّهُ لا يُعَامِل - في الغالب - أَهْلَ منطق بل أَهْلَ عواطفٍ، ومشاعرٍ، وأنفُسٍ مليئةٍ بالأهواءِ والكبرياءِ والغرورِ. واللُّؤْمُ والعتاب - وخصوصاً فيه - شرارةٌ خطيرةٌ تؤدِّي إلى التَّمادي في العناد إلى الفعل المَرْجُورِ عنه^(١) أو إلى الشَّيء مَورِدِ العتابِ، وقد تؤدِّي إلى العناد في الخصومة، وتوريث الحقد والعداوة، وفي وسعها أن تضرَم النَّار في وَقُود الكبرياء. وهناك من النَّاس من هم حَسَّاسُونَ جداً لسماع اللُّؤْم والعتاب، ويُبْدُونَ رَدَّات فعل قويَّة حيال ذلك.

وينبغي للمرء أن يتذكَّر دائماً أَنَّ كثيراً من التَّصرفات الصَّغيرة الخاطئة التي تَصْدُر من الآخرين، هي ليست بحاجة إلى لوم أو عتاب، ويمكن له تحملها أو تجاوزها وكأنها شيئاً لم يكن. وإذا ما لام المرءُ الآخرين على كلِّ شيء مهما كان صغيراً وعاتبهم عليه، فلا غرابة أن يَدُقَّ إسفيناً في جسم معاملته لهم، ويجدهم ينفرون منه، ولا يتقرَّبون إليه، وحينها لا يلومَنَّ إلا نفسه.

أمَّا في القضايا الأكبر، فيجب أن لا ينسى المرء الطَّريقة المثلى في تقديم اللُّؤْم والعتاب، على اعتبار أنهما - والحال هذه - وسيلة للنَّقد البناء، وتقويم التَّصرفات وتصحيحها.

ولكن بأيَّ طريقة يجب أن يكون؟

هل بالكلماتِ اللَّاذعة، الجَّارحة لمُشاعرِ الآخرين؟!

هل بالأسلوبِ الهجوميِّ؟!

أم بالأسلوبِ اللَّيِّق، الإيجابيِّ، غير المباشر جهد الامكان؟

١. يجب أن لا يُفهم من هذا أن يكفَّ المرء عن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، بل عليه أن يلتزمه كفرع من فروع الدِّين، بتقدمه بصورة فنيَّة مؤثِّرة.

حقيقة، لا شيء أفضل من تحاشي اللوم أو العتاب الصّادر من الأهواء، أو ذلك الذي هو لأمر تافهٍ صغير. ولا أفضل من الاعتدال المرفق بالطريقة الفنيّة لتقديم اللوم والعتاب في القضايا التي تستدعي نوعاً منه. إنّ المرء بدلاً من أن يعاتب الآخرين ويلومهم بكلمات جافّة لاذعة، يمكنه أن يحسن إليهم بعمل يذكّرهم بخطئهم، وبذلك يضمن أمرين: حسن معاملتهم، والإشارة الحسنة لهم لكي يعترفوا بخطئهم، ويصحّحوا ممارساتهم.

وعليه فليكن لومنا أو عتابنا للآخرين عامل تقريب لهم منّا، وتشجيع، لا عامل تنفير وتثبيط وتحطيم، وليكن كريشة الفنّان التي تداعب اللوحة الفنيّة برفق ورعاية، ولنعلم أنّ وطأ اللوم على الآخرين ليس شيئاً بسيطاً، وأنّ من كثّر لومه وعتابه، انفضّ الناس من حوله، وعاش وحيداً.

من جهة أخرى إنّ الناس كأصابع اليد الواحدة، متفاوتون في الصّفات والمشاعر والعواطف، وفي تقبّل اللوم والعتاب. فالعقلاء وأقوياء النّفس يعتبرون العتاب البناء وسيلة للحبّ لأنّ فيه توجيهاً وتقويماً لهم، وهنا يكون العتاب حياة للحبّ. أمّا الجهلاء والحمقى فإنّك إنّ عاتبتهم كرهوك ومقتوك، وأحسوا وكأنّ جبلاً إنهار فوق رؤوسهم.

إنّ من طبيعة النّاس أنّهم لا يميلون إلى أن يلاموا ويعاتبوا، ولا إلى من يلومون ويعاتبون ويوبّخون، ولكي يحسن المرء معاملتهم، خليك به أن يعاتبهم بالإحسان إليهم، وأن لا يكثر من اللوم والعتاب، ويتجنّبهما على التّوافه والجزئيّات. وأن يتوجّه في البدء إلى لوم نفسه وعتابها على الأخطاء، وأن ينشغل بعيوبه ليصلحها قبل أن ينتقد الآخرين ويلومهم.

قال بعض الشعراء:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا *** صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صَلِّ أَخَاكَ فَإِنَّهُ *** مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ

❖ التَّوَاضُّعُ لِلنَّاسِ

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١)

وقال الإمام عليّ (ع):

« التَّوَاضُّعُ زَكَاةُ الشَّرَفِ »^(٢)

وقال (ع) أيضاً:

« التَّوَاضُّعُ يَنْشُرُ الْفَضِيلَةَ »^(٣)

وقال (ع):

« التَّوَاضُّعُ أَنْ تُعْطِيَ النَّاسَ مَا تُحِبُّ أَنْ تُعْطَاهُ »^(٤)

وسئل الإمام الرضا (ع): ما حدُّ التَّوَاضُّعِ الذي إذا فعله العبدُ كان مُتَوَاضِعاً. فقال:

« التَّوَاضُّعُ درجَاتٌ: منها أَنْ يَعْرِفَ المرءُ قَدْرَ نَفْسِهِ فَيُنْزِلَهَا مِنْزِلَتَهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، لَا يُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا مِثْلَ مَا يُؤْتَى إِلَيْهِ، إِنْ رَأَى سَيِّئَةً دَرَأَهَا بِالْحَسَنَةِ، كَاطِمْ الْعَيْظِ، عَافٍ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »^(٥).

وقال الرسول الأعظم (ص):

« أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ تَوَاضَعَ عَنْ رِفْعَةٍ »^(٦).

وقال الإمام عليّ (ع):

١. ٥٤ / المائة.

٢. الغرر والدرر.

٣. المصدر السابق.

٤. أصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٤.

٥. المصدر السابق، ص ١٢٤.

٦. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٧٩.

«ثَلَاثُ هُنَّ رَأْسُ التَّوَاضُّعِ: أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلَامِ مَنْ لَقِيَهُ، وَيَرْضَى بِالذُّوْنِ مَنْ شَرَفِ الْمَجْلِسِ، وَيَكْرِهَ الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ»^(١).

وقال (ع):

«ثَمَرَةُ التَّوَاضُّعِ الْمَحَبَّةُ، ثَمَرَةُ الْكِبَرِ الْمَسَبَّةُ»^(٢).

ذات يوم مر الإمام موسى بن جعفر (ع) برجل من أهل السَّوَادِ، دَمِيمٌ الْمُنْظَرِ، وكان الإمام راكباً فزل من على ظهر فرسه، وجلس عنده، ودخل معه في حديث طويل، وعندما أراد الابتعاد عنه، قال له:

«هل لك حاجة نقضيها لك؟»

فاستغرب بعض الحاضرين، وقالوا: يا ابن رسول الله! أتزل هذا رغم منزلتك، وشرفك وعلمك؟!

فقال الإمام لهم:

«ولم لا؟! إِنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ، وَأَخٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَجَارٌ فِي بِلَادِ اللَّهِ، يَجْمَعُنَا وَإِيَاهُ خَيْرُ الْأَبَاءِ، آدَمُ، وَأَفْضَلُ الْأَدْيَانِ، الْإِسْلَامُ».

ويُروى أَنَّ الإمام الرضا (ع) دعا إلى سَفَرَةٍ فِي خِرَاسَانَ، فَجَمَعَ عَلَيْهَا مَوَالِيَهُ وَعَبِيدَهُ مِنَ السُّودِ وَغَيْرِهِمْ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُ الْمَدْعُودِينَ مِنَ الْأَثَرِيَاءِ:

جُعِلْتُ فِدَاكَ، لَوْ عَزَلْتَ هَؤُلَاءِ (يعني المَوَالِيَ وَالْعَبِيدَ).

فقال الإمام (ع):

«صه يا هذا! إِنَّ الرَّبَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَاحِدٌ، وَالْأُمُّ وَاحِدَةٌ، وَالْأَبُّ وَاحِدٌ، وَ...».

١. كنز العمال ، خ ٨٥٠٦.

٢. الغرر والدرر.

قد يسأل السائل فيقول:

ما التَّوَاضُّعُ؟ ولِمَن التَّوَاضُّعُ؟

وما دور التَّوَاضُّعِ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ؟.

التَّوَاضُّعُ هُوَ التَّذَلُّلُ، وَهُوَ ضِدُّ الْكِبَرِ وَالتَّكَبُّرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ. وَهُوَ الْخُضُوعُ التَّابِعُ مِنَ الشُّعُورِ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، وَطِيبِ الْبَاطِنِ، وَتَقْدِيرِ الْآخَرِينَ وَاحْتِرَامِهِمْ. وَلَيْسَ هُوَ الدَّلَّةُ النَّابِغَةُ مِنَ الشُّعُورِ بِالنَّقْصِ، وَالضَّعْفِ وَالْحَقَارَةِ، وَالْحَاجَةِ إِلَى الْآخَرِينَ، وَإِنْ كَانَ مِنَ التَّوَاضُّعِ مَعْرِفَةُ قَدْرِ النَّفْسِ. أَنَّ الْمَرْءَ حِينَمَا يَشْعُرُ أَنَّهُ عَبْدٌ كَرِيمٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ تَوَاضُعَهُ لِإِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَمُومِ النَّاسِ الطَّيِّبِينَ أَمَّا هُوَ تَوَاضُّعٌ لِلَّهِ، فَإِنَّهُ يَشْعُرُ بِالْعِزَّةِ وَالرَّفْعَةِ، لَا بِالذَّلَّةِ وَالضَّعَةِ.

إِنَّ قِسْمًا مِنَ النَّاسِ يَتَصَوَّرُ أَنَّ التَّوَاضُّعَ إِذْلالٌ لِلنَّفْسِ لَا يَنْبَغِي إِيْتَانَهُ، وَهَذَا تَصَوُّرٌ خَاطِئٌ وَهَنَاقَ قِسْمٌ آخَرُ مِنْهُمْ يَتَكَبَّرُونَ، وَيَسْتَعْلُونَ إِذَا تَذَلَّلَ الْآخَرُونَ لَهُمْ بَلْ وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْمِيقِ الشُّعُورِ بِالضَّعَةِ فِي الْآخَرِينَ، وَقَدْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ أَرْفَعُ مَنْزِلَةً مِنَ الْآخَرِينَ، وَأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ تَوَاضُّعَ النَّاسِ لَهُمْ، وَهَذَا لَيْسَ مِنَ الصَّحَّةِ فِي شَيْءٍ. إِنْ التَّوَاضُّعُ - فِي حَدِّ ذَاتِهِ - رَفْعَةٌ لِلْمَرْءِ، وَمَرْقَاةٌ إِلَى الْوَقَارِ وَالشَّرَفِ، أَمَّا أَصْحَابُ الْكِبَرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَى النَّاسِ فَهُمْ الَّذِينَ يَسْقُطُونَ مِنْ أَعْيُنِهِمْ، وَيَفْقِدُونَ تَوْقِيرَهُمْ. وَهَلْ يَمِيلُ النَّاسُ إِلَى مَنْ يَتَكَبَّرُ وَيَسْتَعْلِي عَلَيْهِمْ؟!

أَمَّا مَنْ نَتَوَاضَّعُ؟ فَالتَّوَاضُّعُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ أَوَّلًا، لِأَنَّهُ الْخَالِقُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْعَزِيزُ، وَبَارِئُنَا مِنَ الْعَدَمِ، وَنَحْنُ عِبِيدُهُ الْأَذَلَّةُ لَهُ، إِنْ مِنْ تَوَاضُّعٍ لِلَّهِ يَرْفَعُهُ، وَمَنْ يَتَكَبَّرُ عَلَيْهِ يَضَعُهُ، وَهَذِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِهِ - جَلَّ وَعَلَا - . ثُمَّ التَّوَاضُّعُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْأَئِمَّةِ، وَالْقِيَمِ وَالْمُبَادِئِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي نَذَرُوا حَيَاتَهُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ لَهَا ثُمَّ لِنَعْمِ اللَّهِ وَآلَاتِهِ، ثُمَّ لِلْإِخْوَانِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَعَمُومِ النَّاسِ.

وهنا يبرز سؤال:

هل كلُّ النَّاسِ جَدِيرُونَ بِالتَّوَاضُّعِ لَهُمْ؟

كلا!

إنَّ الجديرين بالتَّواضع لهم هم الإخوان المؤمنون وعموم النَّاس الطيبين أياً كان دينُهم، ولغتهم ولونهم، وطبقتهم، وقوميتُهم. أما الظَّالمون، والمستكبرون، والمتكبرون، ومن هم في دائرتهم فليسوا خليقين بالتَّواضع لهم، بل إنَّ التَّكَبُّرَ على المُتَكَبِّرِ عبادةٌ في الإسلام، لا لذات التَّكَبُّر، وإنَّما إلى الحالة الاجتماعية السَّليمة.

ويعتبر التَّواضع من الأسس الضَّروريَّة الهامَّة والفنِّيَّة في معاملة النَّاس، وعن طريقه يدخل الإنسان إلى قلوبهم، ويكسبهم، ويجعلهم يحبُّونه وينجذبون إليه كما تنجذب الفراشات إلى نور الصُّباح. أما المُتَكَبِّرُ والمُسْتَعْلِي فلا ينجذب النَّاس إليه، وينفرون منه كما تنفر الأغنام المجتمعة من وحشٍ غريبٍ مدهمٍ لها.

وأن يتواضع المرء للنَّاس، هذا يعني أموراً كثيرة، منها: أن يجعل باطنه - كما ظاهره - متواضعاً، إذ لا قيمة من الظَّاهر المتواضع مع وجود الضَّمير المُستَعْلِي. وأن يجعل نفسه كأحدهم، فهم كما تقدَّم يرغبون وينجذبون إلى من يتواضع لهم ويتذلَّل، ويتعبدون وينفرون عمن يتكَبَّر عليهم ويستعلي. ومن التَّواضع أن يقوم المرء بما يقومون به، وأن لا يتميَّز على أقرانه، فمقياس التَّميَّز هو التَّقوى والعمل الصَّالح، وأن يعطي الناس ما يُحبُّ أن يُعطى، وأن يعرف قدر نفسه فلا ينسب إليها ما لا تتمتَّع به من خصال وكفاءات وقُدَّرات، وأن لا يحبُّ أن يأتي إلى أحدٍ إلا بمثل ما يُؤتَى إليه، وأن يردَّ العمل السيِّء بالعمل الحسن، وأن يكون حليماً هادئاً لا يعصب، يعفو عن الناس، ويبدأهم بالسَّلام والتَّحيَّة، ويجلس حيثما انتهى به المجلس، وأن يكون كارهاً للرياء والسُّمعة في العمل، مقتدياً بعظماء التَّاريخ ورموزه...

إنَّ أعظم الرُّموز والقُدوات للإنسان في التَّواضع، هم الأنبياء والأئمَّة - عليهم السَّلام - والصَّالحون. فرسول الإسلام محمد (ص) - وهو النَّبيُّ العَظيم - كان في قومه كأحدِهِم، يَعمَلُ البَعيْرَ، ويكنسُ المَنزِلَ، ويحبِّبُ الشَّاةَ، ويخففُ النُّعلَ، ويرفُّعُ الثَّوبَ بيديه، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا تعب، ويشترى من السُّوق، ولا يمنعُه الحياء أن يلحق الطَّعام بيده.

«عن الحسن الصَّيقل قال: سمعتُ أبا عبد الله (الإمام الصَّادق) (ع) يقول: مرَّت امرأةٌ بدويَّة (بذيَّة) برسول الله (ص) يأكل وهو جالس على الحضيض^(١)، فقالت: يا محمد، والله إنَّكَ لتأْكُلُ أكل العبد وتجلس جلوسه، فقال لها رسول الله (ص): وَيَحَا! أَيُّ عبد أعبد. قالت: فناولني لقمةً من طعامك، فناولها، فقالت: لا والله، إلَّا التي في فمك، فأخرج رسولُ الله (ص) اللُقمةَ من فمه، فناولها، فأكلتها»^(٢).

ومع النَّاس كان (صلوات الله وسلامه عليه) يصادف الغنيَّ والفقير، والكبير والصَّغير، والاسود والأبيض، وكان هو المبادر بالسَّلام عليهم. ولم تكن له حُلَّةٌ لمدخله وأخرى لمخرجه، وإذا ما دُعِيَ ولو من قِبَلِ شخصٍ أشعث أغبر، كان يستجيب لدعوته، ولا يُحَقِّر ما دُعِيَ إليه أبداً، وإن كان خبزاً، أو ماءً.

والإمام عليُّ بن أبي طالب (ع) - وهو الحاكم على خمسين ولاية - كان على عَظَمَتِهِ وسُلْطَانِهِ وشرفه، يمشي في الأزقة، ويساعد المحتاجين، ويتفقَّد المساكين، ويلبس الملابس المتواضعة، ويحمل حاجيَّاته على كتفيه، وكان النَّاس يأتون إليه، ويقولون:

يا أمير المؤمنين، دعنا نحمل عنك.

فيردهم قائلاً:

«صَاحِبُ الْعِيَالِ أَحَقُّ بِحِمْلِهِ».

«وكان (ع) يأبى التَّرفع عن رعاياه في المخاصمة والمقاضاة، بل إنَّه كان يسعى إلى المقاضاة إذا وجِبَتْ لثُشْبَعِه من روح العدالة. من ذلك أنَّه وجَدَ درعه عند عربي مسيحي من عامة النَّاس، فأقبل به إلى أحد القضاة واسمه شريح، ليخاصمه ويقاضيه.

*١. الحضيض: القرار من الأرض عند أسفل الجبل.

٢. الصباغة الجديدة، ص ٥٠.

«ولما كان الرَّجُلَانِ أمامَ القاضي، قال عليٌّ: إِنَّهَا دِرْعِي وَلَمْ أُبِعْ وَلَمْ أَهَبْ! فسأل القاضي الرَّجُلَ المَسِيحِيَّ: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال العربيُّ المَسِيحِيَّ: ما الدَّرْعُ إِلَّا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب! وهنا التفت القاضي شريح إلى عليٍّ، وقال: أصاب شريح، بما بيَّته! ففضى شريح بالدَّرْعِ للرَّجُلِ المَسِيحِيَّ، فأخذها، ومشى أمير المؤمنين ينظر إليه!

«إِلَّا أَنَّ الرَّجُلَ لم يخط خطواتٍ قلائل، حتَّى عاد يقول: أَمَا أنا فأشهد أَنَّ هذه أحكام أنبياء! أمير المؤمنين يُدِينُنِي إلى قاضٍ يقضي عليه! ثمَّ قال: الدَّرْعُ - والله! - درعك يا أمير المؤمنين، وقد كنتُ كاذباً فيما أدَّعيتُ! وبعد زمن شهد النَّاسُ هذا الرَّجُلَ وهو من أصدق الجُنود وأشدَّ الأبطال بأساً وبلاءً في قتال الخوارج يوم النَّهْرَوَانِ»^(١).

وفي رواية:

« قال عيسى بن مريم (ع) للحواريَّين: لي إليكم حاجة، إقضوها لي.

فقالوا: قُضِيَتْ حاجتك يا رُوحَ الله.

فقام فغسل أقدامهم، فقالوا: كُنَّا أحقُّ بهذا منك.

فقال: إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِدْمَةِ، الْعَالِمُ، إِنَّمَا تَوَاضَعْتُ هَكَذَا لِكِي تَتَوَاضَعُوا بَعْدِي فِي النَّاسِ كَتَوَاضَعِي لَكُمْ.

ثم قال عيسى (ع):

«بِالتَّوَاضُعِ تَعْمُرُ الْحِكْمَةُ لَا بِالتَّكَبُّرِ وَكَذَلِكَ فِي السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعُ لَا فِي الْجَبَلِ»^(٢).

والإمام الحسين (ع) ذلكمُ الرَّمزُ التَّارِيخِيُّ الخالدُ، كان - ولا يزال - قدوةً وأُسوةً للنَّاسِ فِي الاخْلَاقِ الكَرِيمَةِ، وَمِنْهَا التَّوَاضُعُ وَلِئِنْ الْجَانِبَ. وَينقلُ التَّارِيخُ أَنَّهُ

١. جورج جرداق: علي وحقوق الإنسان، ص ٨٧، ٨٨.

٢. الإمام الشيرازي: الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام، ص ٦٦١.

(ع) «مَرَّ عَلَى فَقْرَاءٍ يَأْكُلُونَ كَسْرًا مِنْ أَمْوَالِ الصَّدَقَةِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَدَعَوْهُ إِلَى طَعَامِهِمْ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ، وَقَالَ: لَوْلَا أَنَّهُ صَدَقَةٌ لَأَكَلْتُ مَعَكُمْ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَأَطْعَمَهُمْ، وَكَسَاهُمْ، وَأَمَرَ لَهُمْ بِدَرَاهِمٍ»^(١).

وهكذا فَلِكِيْ يَضْمَنُ الْمَرْءُ أَسَاسًا هَامًا مِنْ أَسَسِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، وَلِكِيْ يَدْخُلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَيَصْبَحُ مَحْبُوبًا مَحْشُودًا، مَرْفُوعًا بَيْنَهُمْ، عَلَيْهِ بِهَذَا الْأَسَاسِ، وَالْمَبْدَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي طَبَّقَهُ وَالتَّزَمَهُ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُئِمَّةِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَالصَّادِقُونَ وَالصَّالِحُونَ، أَلَا وَهُوَ: «التَّوَاضُّعُ».

❖ تَقْدِيرُ النَّاسِ وَالْاهْتِمَامُ الْمُخْلِصُ بِهِمْ

قال الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حَبٍّ مِّنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَبُغِضَ مَنِ أَسَاءَ إِلَيْهَا»^(٢).

هَلْ جَرَّبَتْ اصْطِيَادَ الطُّيُورِ بِالْفِخَاخِ؟

إِذَا كُنْتَ قَدْ جَرَّبْتَ، مَاذَا كُنْتَ تَفْعَلُ؟

لَا شَكَّ أَنَّكَ - فِي الْبَدَايَةِ - تَنْصَبُ الْفِخَّ فِي مَكَانٍ مُّغَرٍّ آمِنٍ، وَتَضَعُ فِيهِ طُعْمًا مُّغْرِيًّا لِلطَّيْرِ، ثُمَّ تَقُومُ بِحَرَكَاتِكَ الْهَادِئَةِ الْحَانِيَةِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الطَّيْرِ، وَتُوجِّهِهُ بِرَفْقٍ، وَاهْتِمَامٍ إِلَى مَصِيدَتِكَ، فَتَصْطَادُهُ. وَلَوْ أَنَّكَ فَعَلْتَ خِلَافَ ذَلِكَ، لَرَأَيْتَ أَنَّكَ كُلَّمَا وَجَّهْتَ الطَّيْرَ إِلَى الْمَصِيدَةِ، وَهَدَيْتَهُ إِلَيْهَا، كُلَّمَا نَفَرَ، وَطَارَ بَعِيدًا عَنْهَا.

وهكذا الْحَالُ بِالنَّسْبَةِ لِلنَّاسِ، فَهَمُّ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالطُّيُورِ الْحَامِيَّةِ، فَلَا يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ اصْطِيَادَهُمْ، وَتَكْوِينُ عِلَاقَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَصِدَاقَاتٍ مُّوَفَّقَةٍ مَعَهُمْ إِلَّا إِذَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَقَدَّرَهُمْ، وَاحْتَرَمَهُمْ، وَأَظْهَرَ الْاهْتِمَامَ الْمُخْلِصَ بِهِمْ. وَبَدِیْهَةٌ أَنَّ الْمَقْصُودَ - هُنَا - مِنْ اصْطِيَادِ النَّاسِ لَيْسَ كَسِبِهِمْ مِنْ أَجْلِ الضَّحْكَ عَلَى ذُقُونِهِمْ، وَلَا بِهَدَفٍ

١. باقر شريف القرشي: حياة الإمام الحسين، ج ٢، ص ١٢٥.

٢. ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٢٥١.

كسب المنافع والمصالح الماديَّة من ورائهم، وإِنَّمَا المقصود: التَّعامل معهم كَبَشَرٍ بما يستتبع ذلك من أخذ وعطاء، على أساس صدق النِّيَّة والإخلاص.

وقد يسأل السَّائل:

كيف يقدَّر المرءُ النَّاسَ، وكيف يظهر اهتمامه المخلص بهم؟

يجيب على ذلك أحد الكُتَّاب فيقول:

«منذ سنوات مضت، كنت أدرس فنَّ كتابة القِصَّة في أحد معاهد الآداب والفنون. ورغبنا - نحن الطُّلبة - في أن نستدرج مجموعة من أعلام القِصَّة، ذوي الأوقات الثَّمينة الضَّيقة لِنُفِيدَ من تجاربهم. فكتبنا لهم نُبُثُهم إعجابنا بفنُّهم، وشرح شغفنا بقصصهم، ولهفتنا على سماع نصائحهم الغالية، وتعلم أسرار نجاحهم. وقد وقَّعَ هذه الخطابات أكثر من مائة وخمسين طالباً. ولم ننس أن نذكر في خطاباتنا تلك، أنَّا نعلم سلفاً كثرة مشاغلهم، الأمر الذي قد يتعذَّر عليهم الحضور شخصياً. ومن ثم أرفقنا قائمة تتألف من عدة أسئلة لكلِّ منهم، تتعلق بحياته الشَّخصيَّة، وطريقته في الكتابة، راجين الإجابة عنها. فماذا تظن كانت النتيجة؟

لقد ترك هؤلاء المشاهير، أعمالهم، وانصرفوا عن أبراجهم العاجيَّة، وحضروا بأنفسهم إلى المدينة التي بها المعهد ليمدوا لنا يد المساعدة».

هكذا إذن هي قلوب النَّاس، إذا قدَّرها المرءُ واحترمها واهتم بها بإخلاص، أقبلت عليه برغبة وشوق، كما يُقبل النَّحل على رحيق الأزهار، وإن لم يقدِّرها أو إن ازدهراها أو أساء إليها، ولم يقدِّم لها الاهتمام، نفرت منه كما تنفر الطُّيور من فَرَّاعة منصوبة في مزرعة.

والتَّقدير وإظهار الاهتمام المُخلص هو خُلُق عظماء التَّاريخ في معاملة النَّاس. إِنَّ أُمَّة أهل البيت (ع) كانوا يهتمون حتى بأعدائهم - فضلاً عن مُحبِّيهم،

وأنصارهم، ومُرِيدِيهم - رفقاً بهم، وتحنُّناً عليهم، ومن أجل إصلاحهم، ولكي لا يدخلوا النَّارَ بسببهم.

ويذكر التاريخ أنَّه حينما خرج أبو الأحرار الإمام الحسين (ع) من مكَّة متوجّهاً إلى العراق، مع أهل بيته، وأنصاره، مر على منطقة يقال لها «شراف»، وعند السَّحَر أمر فتيانه أن يملؤوا بالماء ما لديهم من القُرْب والأوعية، ويكثرُوا ففعلوا، ثم واصلوا المسير.

وفي منتصف النهار قال له بعض اصحابه: سيِّدِي أبا عبد الله!

إنَّنا لنرى من بعيد سعفات النَّخل وهي تتمايل. فقال الإمام الحسين (ع)، وأنعمَ النَّظْر، ثمَّ قال للرَّجَال: بل هي حركات الرِّمَاح والأسِنَّة!

فأراد الإمام الحسين (ع) أن يلتجئ إلى مكان ليستريح، فالتجأ إلى جبل يقال له «ذو حسم» وحينما وصل إلى الجبل وضرب أبنيته، فوجئ بألف فارس، يقودهم الحرُّ بن يزيد الرِّياحي. وكان الحرُّ قد كلَّفه عبيد الله بن زياد - والي يزيد بن معاوية على الكوفة - بأن يجعجع بالإمام الحسين إلى مكة، ولا يُرجعه إلى مكة، ولا يُوصله إلى الكوفة.

والشَّاهد المنظور في هذه القِصَّة، أنَّ الحرَّ وفرسانه قد أصابتهم حالة من الظَّما الشَّدِيد، فأمر الإمام الحسين (ع) أصحابه بأن يسقَوْهم، ورشَّفوا خيولهم، فشرَّبوا، ورشَّفوا خيولهم، حتى أنَّ مَنْ ضمنهم علي بن طعَّان المحاربي، لم يكن ليستطيع أن يمسك بالقِرْبَة ليشرب، لاهتزاز في يديه من شِدَّة ما أجهدته الظَّما، فجاء إليه الإمام الحسين (ع) بنفسه - بأبي وأمي - وسقاه الماء حتَّى ارتوى^(١)!

وكثيراً ما كان الإمام الحسين (ع) يُظهر الاهتمام بأعدائه ويُسِّفك عليهم، ويتقطع المألاً لحالهم، حتى إنَّه بكى في يوم عاشوراء، ولما سُئل عن السبب في بكائه أجاب:

«أَنْنِي أَبْكِي عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِسَبَبِي»!

١. مقتل الحسين، ص ٢١٣ - ٢١٤، بتصرف في العبارة

وإذا كان تقدير الأعداء والاهتمام بهم هو أسمى درجات التَّقدير والاهتمام،
أليس من الأولَى بالمرء أن يقدِّرَ النَّاسَ الطيبين ويهتم بهم؟.

إنَّ التَّقدير المخلص المنزَّه والبعيد عن المَلَقِ هو من أهمِّ الأسس والأساليب
في معاملة النَّاسِ وكسب ودِّهم والتأثير فيهم، ذلك لأنَّ قلوب النَّاسِ ونفوسهم
مجبولة على حُبِّ من يقدِّرها ويهتم بها ويحسن إليها، وعلى كُره من لا يقدِّرها
ولا يهتم بها، ويسيء إليها، وأنها مجبولة على التَّقرب ممن تألَّفها.

يقول الإمام عليّ (ع):

«قُلُوبُ الرِّجَالِ وَخَشِيَّةٌ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ»^(١).

ومن وجوه التَّقدير والاهتمام بالنَّاسِ الشُّعور بأهميتهم، واشعارهم بهذه
الأهميَّة، وإنَّ إشعارهم بأهميتهم يفعل فيهم الشَّيء الإيجابيَّ الكثير.

وفي هذا السَّبيل يذكر أحد علماء النَّفس قصَّة فيقول:

«لديَّ مريضة تحوَّل زواجها قُبيل مرضها إلى مأساة مُفجِعة. كانت تنشدُ الأبناء،
والمركَز الاجتماعيَّ، والسَّعادة في حياتها، ولكنَّ الحياة ضربت بأمانيتها عرض
الحائط!، لم يكن زوجها يحبُّها، وأبَتْ عليها الأقدار أن تنجب أطفالاً. فلمَّا أصيبت
بالجُنون، أصبحت تتصوَّر في تخيلاتها أنَّها طُلِّقت من زوجها وتزوَّجت من رجل
عظيم، وأصرَّت على أن تُنادي باسم آخر. أمَّا عن الأطفال فهي تتخيَّل الآن أنَّها
تنجب مولوداً في كلِّ ليلة. وفي كلِّ مرة أزورها فيها، تقول لي: هل علمتَ يا
دكتور أنني رزقتُ بمولود ليلة أمس؟!»

أتظنُّ أنَّ جنون هذه السيِّدة فاجعة أليمة؟

«لو وسعني أن أردَّ لهذه السيِّدة عقلها لمَّا فعلتُ! لقد حصلتُ الآن على السَّعادة
التي كانت تنشدُها، وأرضتُ إحساسها بالأهميَّة الذي لم تُرضهِ دُنيا الحقيقة.

١. نهج البلاغة، ص ٤٧٧.

«فإذا كان بعض النَّاسِ يتلهَّفون على العظمة والأهمية حتَّى يَرِدُوا موارد الجُنون، فأني معجزات تلك التي نستطيع أنت وأنا أن نأتي بها لو أشبعنا في الناس تلك الرِّغبة؟!»

وما أشبه قلوب النَّاسِ بالوحوش التي لا تَأَلَّفُ! ولكن ما أن يبدأ المرءُ باستئناسها، حتَّى تتحوَّل إلى حمائم أليفة، تتحشَّد من حوله حبًّا فيه، ورغبة إليه.
يقول الإمام علي (ع):

«قُلُوبُ الرِّجَالِ وَخَشِيَّةٌ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ»^(١).

وإذ أن الأمر كذلك، فمن غير المعقول أن يكسب المرءُ إنساناً ويجعله يميل إليه، ويرغب فيه، من دون أن يُشعره بأهميته.

وهل يمكن للمرء أن يسمع أن إنساناً كَسِبَ وَدَّ آخر بتجاهله له؟!

إنَّ من يتجاهل النَّاسِ، ولا يَشْعُرُ بأهميتهم، ولا يُشعرهم بهذه الأهميَّة، لن يجني إلَّا عدم شعورهم بأهميته، وعدم اشعارهم له بتلك الأهميَّة، وذلك لأنَّ من طبيعة الإنسان أنه يريد أن يُصبح شيئاً مذكوراً.

وفي هذا الصَّد يقول «جون ديوي»:

«إنَّ أعمقَّ دافعٍ للإنسان إلى العمل هو الرِّغبةُ في أن يكونَ شيئاً مذكوراً».

ولا شكَّ أنَّ هناك دوافع للعمل أقوى من الدَّافع الذي ذكره «ديوي»، وهي الدوافع الدِّينيَّة، أو الدَّافع الدينيُّ، إذ أنَّ مقولة «ديوي» تنطبق على المجتمع المادي الذي تنعدمُ أو تضمحلُّ فيه الرُّوح الدِّينيَّة، والدَّافع الدينيُّ. أمَّا في المجتمع الدِّينيِّ الإيمانيِّ، فإنَّ أعمقَّ دافع للإنسان إلى العمل هو الامتثال لله، والشَّعور بالواجب المُلَقَّى عليه، هذا الواجب الذي يحدد مصيره وعاقبته في الدَّار الآخرة، وليس رغبته في أن يكونَ شيئاً مذكوراً. وبعبارة أخرى: إنَّ ابتغاء

١. شرح الغرر والدرر، ج ٧، ص ١٤.

رضا الله - سبحانه وتعالى - هو أكبر دافع للإنسان المؤمن إلى العمل، سواء فيما يرتبط بالعبادات، أو فيما يرتبط بالأعمال والمعاملات الأخرى.

ومع الإيمان بأنَّ أكبر دافع للإنسان إلى العمل هو الدَّافع الدينيُّ - وهو الدَّافع الذي يجب أن تقام البنية التَّحتيَّة للإنسان عليه باعتباره الدَّافع السَّليم والعقلانيُّ والفقريُّ - فإنَّه لا يُنكر أبداً دور الوجدان الدَّخليِّ، ورغبة الإنسان في أن يكون شيئاً مذكوراً حتى في ظلِّ المجتمع الإيمانيِّ. فلا ترديد في أنَّ تقدير الآخرين، ومعرفة قَدْرهم، والاهتمام بهم، وإشعارهم بأهميَّتهم ورغبتهم في أن يكونوا شيئاً مذكوراً، هي أمور هامة في دفعهم إلى العمل، وفي كسبهم والتأثير فيهم.

ومن أوجه تقدير المرء للآخرين وأشعارهم بأهميَّتهم، احترامهم وتعدد الصِّفات الطَّيبة فيهم من دون مَلَق، وهو بذلك لن يخسر شيئاً، بل إنَّه لن يَجني إلاَّ الوُدَّ والكسب والتأثير في الطَّرَف الآخر حينما يُقدِّره ويُسعره بأهميَّته، ويعدِّد الصِّفات الطَّيبة فيه بإخلاص.

قد يلتقي المرءُ عامل التَّنظيفات - على سبيل المثال -، فيقولُ له بإخلاص بعد تقديم السَّلام عليه: إنَّ الدَّور الذي تقوم به لهُوَ دورٌ اجتماعيٌّ جديرٌ بالتَّقدير، إذ يكفي أنَّك تنثر رائحة ورود النَّظافة في شوارع المدينة - أو القرية - وتجعل النَّاس يتنفَّسون هواء طيِّباً طَلَقاً، وبذلك تُسهم في محافظتهم على صحتهم. ثمَّ يعدِّد فيه أخلاقه الحسنة، وصفاته الطَّيبة، وإخلاصه في عمليَّة التَّنظيف.

إنَّ هذه الكلمات التي يقولها المرء لعامل التَّنظيفات، تجعل الأخيرَ يشعر بأهميته، واحترام مهنته، ويزداد ثقة بنفسه، ويشعر أنَّ المجتمع مشجِّعٌ له، متكافلٌ معه. بل ربَّما لو كان كسولاً أو مقصراً - فإنَّ هذه الكلمات الطَّيبة تجعل منه فرداً نشِطاً، وفِعْلاً في أداء مَهْمَّتِهِ، ومن الممكن أن يتحوَّل إلى صديق لمن يُقدِّره ويُسعره بأهميَّته، ويقدم له التَّقدير والاحترام، ويذكره بخير في حياته وبعد مماته. إنَّ كثيراً من النَّاس يصيبهم المرض إذا أعجزهم اكتساب عطف النَّاس عليهم واهتمامهم بهم.

وهذا يقود إلى أنَّ تشجيع الآخرين، ومدحهم وإطرائهم والثناء والعطف عليهم

من الأمور الضَّرورية الهامّة في تقديرهم، وإحسان التَّعامل معهم وكسبهم والتَّأثير فيهم. مع العلم بأنَّ التَّشجيع يجب أن يكون مخلصاً نابعاً من القلب، وأنَّ الإطراء أو المديح يجب أن يكون متوازناً^(١)، مخلصاً بعيداً عن التَّمَلُّق، وبإمكان المرء أن يمتدح أقلَّ إجادة بما يناسبها.

يقول الإمام علي (ع):

«الثَّنَاءُ بِأَكْثَرِ مِنَ الْإِسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الْإِسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ»^(٢).

إنَّ بَثَّ الحماسة في نفوس النَّاس أمر عظيم في معاملتهم، والسَّبيل إلى ذلك: إجزالُ التَّقدير والإنصاف في الثَّنَاء والمديح، وليس أَقْتَلُ لِلرُّوحِ المعنويَّة للمرء من عَدَمِ تقديره، وعدم إشعاره بأهميَّته، ونقده ولومه، وتجاهل مدح إجادته. وهكذا فليكني يُحَسِّن الإنسان معاملته مع النَّاس، خليقٌ به أن يقيمها على أساس التَّقدير المُخلص النَّابع من القلب، ومنه:

- احترامُ الطرف الآخر والعطف على رغباته المشروعة.
- الاهتمامُ بالمخلص بالنَّاس.
- الشُّعورُ بأهميَّتهم.
- إشعارُهم بتلك الأهميَّة.
- تعديدُ الصِّفات الطَّيبة فيهم.
- الابتعادُ عن المَلَقِ والتَّمَلُّق في معاملتهم.
- تشجيعُ الآخرين، وبَثُّ روح الحماس والإيجاب فيهم.
- الاعتدالُ في الإطراء والثَّنَاء والمديح، والإنصاف في ذلك، معهم.

*١. إنَّ الإجزال في المديح مطلوب من الذين لا يمدحون مطلقاً، أو يُقَصِّرون في المديح، لأنَّهم إن مدحوا رُبَّمَا لم يبلغوا حدَّ الاعتدال.

٢. نهج البلاغة، الحكم.

❖ خُلِقَ الرَّغْبَةُ الْجَامِحَةُ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ

قال الإمام عليُّ (ع):

« رَغْبَةُ الْعَاقِلِ فِي الْحِكْمَةِ، وَهَمَّةُ الْجَاهِلِ فِي الْحِمَاكَةِ »^(١).

وقال الرسولُ الأعظمُ (ص):

« إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »^(٢).

لو أَنَّ امرءًا يزاوِلُ صيدَ السَّمَكِ باستخدامِ الشَّصِ^(٣) (السَّنَارَةِ) وَضَعَ فِي شَصِّهِ الطَّعَامَ الَّذِي يَحِبُّهُ هُوَ وَيَرْغَبُ فِيهِ وَيَشْتَهِيهِ، وَلَمْ يَضَعْ فِيهِ الطَّعْمَ الَّذِي يَرْغَبُ فِيهِ السَّمَكُ كَالْجُمْبَرِيِّ وَالذَّيْدَانِ، وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ، أَتَرَاهُ يَكُونُ مُوقِّفًا فِي صِيْدِهِ؟! بِطَبِيعَةِ الْحَالِ، كَلَّا!.

إِنَّ السَّمَكَ يَنْجَذِبُ إِلَى الطَّعْمِ الَّذِي يَرْغَبُ فِيهِ هُوَ، لَا إِلَى مَا يَرْغَبُ فِيهِ الصَّيَّادُ. وَإِذْ أَنَّ النَّاسَ يَنْجَذِبُونَ إِلَى مَا يَرْغَبُونَ فِيهِ وَيَحْبُونَهُ - كَمَا السَّمَكُ -، أَلَيْسَ مِنَ الْأَوَّلَى أَنْ نَسْتَعْمَلَ مِثْلَ هَذَا «الْمُنْطِقِ» فِي التَّعَامُلِ مَعَهُمْ، وَفِي كَسْبِهِمْ وَالتَّأَثُّرِ فِيهِمْ؟

لَا شَكَّ أَنَّ النَّاسَ يَرْغَبُونَ فِيمَا يَحْبُونَهُ، وَحَيْثُ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَحَدَّثَ لَهُمْ لِهَمِّ عَمَّا يُحْبُونُ، أَمَّا إِذَا حَدَّثَهُمْ بِمَا يَحِبُّ هُوَ فَقَدْ لَا يُشَاطِرُونَهُ هَذَا الْحَبَّ. وَمِنْ هُنَا فَمِنْ الطَّرَائِقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى التَّأَثُّرِ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ، تَحْدِيثُهُ فِيمَا يَحِبُّ هُوَ وَيَرْغَبُ فِيهِ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَصُولِ عَلَيْهِ.

وهذه من القواعد المهمة في محاولة حمل الشخص، أو الطرف الآخر على فعل شيء، مع ضرورة التنبيه إلى كون الشيء الذي يرغب فيه الناس ويحبونه والفعل

١. شرح الغرر والدرر، ج ٧، ص ٧٨.

٢. ميزان الحكمة، ج ١٠.

٣. الشَّصُّ: حديدة عقفاء يصاد بها السمك، وتُسمى السَّنَارَةُ.

الذي يريدهم المرء أن يقوموا به موافقين للشَّرع وللعقل المُؤدَّب وللحقِّ وللخير وللفضيلة لا مناقضين لها. إذ ليس من الصَّحيح أن ينساق المرء في الكلام عمّا يحبه النَّاسُ كيفما كان، وليس من الصَّحيح أيضاً أن يفعل ما هو خلاف الشَّرع والعقل. وإذا كان هذا الأمر يتَّبَع في المجتمعات الماديَّة وغير الدِّينيَّة فإنَّه غير جائز في المجتمعات الإيمانية وفق النُّظرة الدِّينيَّة، إلّا لاضطرار، أو لضرورة، والضرورة تُقدَّر بِقَدَرِهَا.

إنَّ خُلُقَ الرِّغبة الجَّامحة في الطَّرَف الآخر لكي يفعل ما يريده المرء عن طريق الدُّخول إليه ممّا يحبه ويرغب فيه، طريقة فَنِّيَّة هامة في التَّعامل مع النَّاس، كبارهم وصغارهم، بل حتّى مع بعض الحيوانات كالعُجول والقردة. فإذا كان امرؤ يزعم أن يُفَنِّع صديقاً له - مثلاً - بضرر التَّدخين، فالأفضل أن لا يُحدِّثه بما يرغب فيه هو، وإمّا بما يرغب فيه صديقه المُدخِّن، كأن يُبيِّن له أنَّ التدخين يُعيِّقُه من صعود الجبال الذي يهواه مثلاً، وبذلك قد يقتنع بالكفِّ عن التَّدخين.

وعن التَّأثير في سلوك الحيوانات، يقول أحد الكُتَّاب:

«أراد (ر. و. ا) وابنه الصَّبِيُّ - ذات يوم - أن يحملًا عجلاً صغيراً على العودة إلى زرييته، ولكنَّهما أخطأ إذ وضعا نصب أعينهما ما يرغبان فيه وحسب: ظلَّ الرَّجل يدفع العجل، وظلَّ ابنه يجرُّ على غير طائل! فقد فعل العجل الصَّغير مثلهما فعلاً تاماً، وضع نصب عينيه ما يرغب هو فيه، فثبَّت قوائمه في الأرض، وأبى أن يتزحزح عن مكانه قيد شعرة!

«وشاهدت زوجة الرَّجل هذا المشهد من نافذة دارها، ولم تكن - كزوجها - تكتب الفصول، وتؤلِّف الكتب. ولكنَّها كانت تعرف ما يريده صغار العجول، فأسرعت إلى العجل الصَّغير، ووضعت إصبعها بحنان الأمومة في فمه، وتركته يمتصه راضياً».

يقول «هاري ا. أوفرستريت» في كتابه «التأثير في التصرف الإنساني»^(١):

كُلُّ نشاط إنشائيٍّ مصدره رغبة متأصلة في النَّفس. ومن ثم فأفضل نصيحة للذين يشتغلون بإقناع النَّاس، سواء في العمل، أو في البيت، أو في المدرسة، أو في ميدان السياسة هي هذه: اُخْلُقْ أولاً في «الشَّخْصِ الآخَرِ» رغبةً جامحةً في أن يفعل ما تُريد.

إنَّ هذه القاعدة وإن كانت مُهمَّةٌ في التَّعامل مع كُلِّ النَّاس بلا استثناء، فهي ضروريَّةُ الاستعمال مع من لا يُبدون موافقة أو طاعة مباشرة بفعل ما يريده المرء منهم أن يفعلوا.

وعن التأثير العملي لهذه القاعدة، كتب أحد المؤلِّفين:

«اعتدتُ أن استأجر الرُّدهة^(٢) المطلَّة على الحديقة في فنادق إحدى المدن، مدَّةَ عشرين ليلة في كُلِّ موسم، لألقي فيها سلسلة من المحاضرات. وفي بداية أحد المواسم، فوجئتُ بإخطار من الفندق، يطالبُني بإيجار يبلغ ثلاثة أضعاف ما اعتدت أن أدفع، وقد أتاني هذا الإخطار بعد أن وزَّعتُ تذاكر الدَّعوة وظهرتُ الإعلانات في الصُّحف.

«ولم أرغب - طبعاً - في الزَّيادة، ولكن ما فائدة أن أُحدِّث أصحاب الفندق فيما أرغب فيه؟»

وذهبتُ إلى مدير الفندق، وقلت له: لقد صُدمتُ - حقيقةً - عندما وصلني إخطاركم، ولكنِّي لا ألومكم على الإطلاق، بل ربَّما لو كنت في مكانكم لفعلت بالضبط ما فعلتموه، فإنَّ من واجبك كمدير لهذا الفندق، (أن تجني أكثر ما يمكن من الأرباح)، فإذا توانيت في ذلك فرمأ أُقِلَّت من وظيفتك، ولكن أرجوكم أن تسمح لي بتعديد الفوائد، والمضارَّ التي قد تعود عليكم إذا أصريتم في طلب زيادة في الإيجار.

١. Harry A. Oyerstreet. "Influencing Human Behaviour".

٢. الردهة: أوسع مكان في البيت، وتدعى بلفظ معرب «صاله» من لفظة «saloon» الانكليزية.

«قلت هذا، ثم تناولت ورقة وقلماً، ورسمت بالقلم خطاً عمودياً يقسم الورقة إلى قسمين، وكتبتُ في أعلى القسم الأول كلمة «الفوائد»، وفي أعلى القسم الثاني كلمة «المضار» وكتبت تحت الفوائد هذه العبارة: «الاحتفاظ بالرُدْهَة خالية».

«ثم تابعت حديثي للمدير:

«وطبعاً يفيدُكم أن تحتفظوا بالرُدْهَة خالية، لتؤجِّروها للحفلات، مما يعود عليكم بربح يفوق ما تعود به عليكم سلسلة من المحاضرات.

«والآن لننتقل إلى المضار، فأولاً بدلاً من أن تزيدوا دخلكم، ستقلُّونه، بل الحقيقة أنكم ستفقِدونه تماماً، لأنني لا أعتزم أن أدفع هذا الأجر الباهظ. ثم إنَّ هناك «فائدة» أخرى لكم، تلك هي أنَّ المحاضرات سوف تجتذب إلى فندقكم طائفة من المثقِّفين، ذوي المراكز والوجاهة، وهذا فيما أخال خير إعلان للفندق، أليس كذلك؟ بل في الحقيقة أنكم إذا أنفقتُم ٥٠٠٠ ريال على الإعلان عن فندقكم، في الصُّحف، لما أمكنكم أن تأتوا بمثل هذه النُّخبة من النَّاس ليشاهدوا فندقكم.

«ثم سلَّمتُ الورقة للمدير قائلاً:

«كم أُقدِّرُ أن تُقدِّروا هذه الفوائد، والمضار، حقَّ قدرها، ثم تعطوني كلمتكم الأخيرة.

«وفي اليوم التالي، تسلَّمتُ خطاباً من المدير، يخبرني فيه أنَّه قرر زيادة الإيجار بمقدار ٥٠ بالمئة فقط، بدلاً من ٣٠٠ في المئة!!

«والمُهمُّ في هذا كلُّه أنَّني حصلت على هذا التَّخفيض دون أن أنبَسَ بكلمة مما أرغب فيه، وما حضرت لأجله، بل كنت أتكلم - على طول الخط - عمَّا يرغب فيه محدِّثي، وأريه كيف يحصل عليه!

«ولنفترض أنَّني فعلت مثلما يفعل سائر النَّاس.. هَبْ أنَّني اندفعتُ إلى مكتب مدير الفندق قائلاً: ماذا تعني برفع الأجر بنسبة ٣٠٠ في المئة، في حين أنَّك تعرف أنَّ تذاكر الدَّعوة قد وُزِّعت، وأنَّ الإعلانات قد نُشرت في الصُّحف.. ثلاثمئة في المئة؟! هذا ابتزاز.. هذه سرقة.. لن أدفع شيئاً من هذا، فما الَّذي كان

يحدث عندئذٍ سينشِب - بالطَّبْع - جدال عنيف وأنتم تعلمون كيف ينتهي الجِّدال عادة! وحتى لو أقنعتَه بأنَّه مخطئ، لمنعه كبرياءه عن الإقرار بخطئه!». .

وربما يقول قائل:

إِنَّ مِنَ اللَّفِّ والدَّورَانِ أَنَّ المرءَ إذا أراد اقناع شخص آخر بفعل عمل خيرٍ ما، أن ينطلق معه من الشَّيْء الذي يرغب فيه ويحبُّ، ويكفي أن يقول ما يريد بصورة مباشرة، ولا داعي للحشو.

والحقُّ أَنَّ النَّاسَ ليسوا على درجة واحدة بالنَّظر إلى اقتناعهم بفعل ما يريده الآخرون منهم من أعمال، بل إِنَّ كبرياء الإنسان - وربما عناده - قد يمنعه من القيام بالعمل المراد منه حتَّى وإن كان مقتنعاً به داخلياً. ومن هنا فإنَّ من أسرار النَّجاح في معاملة النَّاس: القدرة على إدراك وجهة نظر الشَّخص الآخر، والنَّظر إلى الأشياء بالمنظار الذي ينظر به إليها، مع التَّأكيد على أَنَّ الأعمال المراد أن يفعلها الشَّخص الآخر، ورغباته هو يجب أن تكون في إطار الشَّرْع والعقل والحكمة والحقِّ والخير والفضيلة، إذ ليس من الشَّرْع والعقل حتُّ الشخص الآخر على عمل خلافهما، والانطلاق من رغبات له تناقضُ الشَّرْع والعقل.

ويقول الكاتب السَّابق:

«كان أحد طلبتي شديد القلق على طفله الذي كان معتلَّ الصَّحَّة، فاقد الشَّهيَّة للطَّعام، واستعمل زوجته الطَّريقة المعتادة: نَهَرًا الطُّفْل ولاماه، «أُمُّكَ تريد أن تأكل هذا» .. «أبوك يرغب في أن تنمو وتصبح رجلاً» .. فهل أهتم الطُّفْل بهذه «الرَّغبات»؟! كلاً! وهل يتوقَّعُ إنسان - بالغاً ما بلغ من الغباء - أن يستجيب طفلاً في الثَّالثة لوجهة نظر أبٍ في الثَّلاثين؟!

«وقد أدرك تلميذي (أبو الطُّفْل) خطأ تفكيره أخيراً، فجعل يُسائل نفسه:

«ماذا يريد الطُّفْل؟ وكيف أوفق بين ما أريد وما يريد؟».

«وحين بدأ يفكِّر على هذا النَّحو، سرَّعان ما حُلَّت المشكلة. فقد كان للطُّفْل

درّاجة يحلو له أن يركبها ويذرع بها الطُّرُقَ الممتدّة أمام بيته، ولكنّه كان يهاب صبيّاً يكرّه سنّاً يقطن بالقرب منه، ويلدُّ له دائماً أن يُنَجِّي الطِّفْلَ عن درّاجته ليركبها هو عُنوة واقتداراً، فكان صاحبنا الصَّغير يهرع إلى أمه باكياً، فتخرج للصَّبي وتستخلص منه الدَّرَاجَة!.

«فماذا كان الطِّفْل يريد؟ لقد كان يريد - طبعاً -^(١) الانتقام من هذا الصَّبيّ الذي طالما جرح كبريائه، وأذلَّ إحساسه بالأهمّيّة!.

«وعرف أبوه هذا، فأقبل عليه يُمْنِيه بأنّه يسعّه أن ينتقم من غريمه هذا لو أنّه أكل ما تريده أمّه أن يأكله، وعندئذٍ حُلَّتِ المُشكلة! فقد أبدى الطِّفْل استعداداه لأن يتناول أصناف الطَّعام بلا استثناء لكي ينمو ويكبر، ويتسنّى له أن يؤدّب ذلك (الصَّبيّ) الذي طالما أصاب عرّة نفسه في الصَّميم».

وكما أنّ خلق الرَّغبة في الشَّخص مفيد في اقناعه بفعل ما يُراد منه، فإن تجاهل تلك الرَّغبة، أو عدم أخذها بعين الاعتبار قد يجعل الشَّخص الآخر نافرّاً رافضاً.

وعن هذا يقول نفس الكاتب السَّابق:

«... كنتُ أدخل عيادة اختصاصيّ شهير في أمراض الأنف والأذن والحنجرة. وقبل أن يفحص الطَّبيب حنجرتي، سألتني: ما عملي؟، إنّ اهتمامه لم يكن منصبّاً على مرضي بقدر ما كان منصبّاً على «مقدرتي الماليّة»! ولم يكن شاغله مدى المساعدة التي يمكنه أن يسديها لي، بل مدى ما يستطيع أن يحصل عليه مني. وماذا كانت النتيجة؟.

لقد غادرت عيادته وكُلِّيَ ازدراء له. والعالمُ غاصَّ بمثل هذا الطَّبيب... .
أناسٌ يسيطر عليهم الجشع، والأنانيّة ومن ثمّ فالذي يسعى مُخْلِصاً لخدمة غيره، لديه ميزة عظيمة، ألا وهي أنّ منافسيه ليسُوا من الوِفْرةِ هَكَانَ».

*١. من التَّربية الصَّالحة تعويد الطِّفْل الصَّغير على العفو والصَّفح والتَّسامح مع نظرائه، لا على الانتقام، مع تعويده على الدِّفاع عن نفسه.

ومن الأمور التي تساعد في ترغيب الشَّخص الآخر أو الطَّرَف الآخر - وإقناعه بفعل ما يُراد منه، وتؤدِّي دوراً في كسب ودّه وحُبّه، وضَع النَّفْس موضَعه، وفهم عقليَّته ومخاطبته على قدرها.

وأن يضع المرء نفسه موضع الطَّرَف الآخر، وفهم عقليَّته، هذه الكلمة تحمل أكثر من معنى، من ذلك: أن يتصوَّر المرء نفسه كما لو أنّه في موقع الطَّرَف الآخر، كيف كان يتصرّف. وهنا بعض الأمثلة البسيطة:

قد يشاهد المرء موظّفاً من موظفي البريد، وهو يؤدّي معاملات لآخرين بانفعالٍ، وكَدَرٍ، وعدم راحة بال، فيقول المرء: كيف يتصرّف هذا الإنسان؟! إنَّ تصرّفه غير صحيحٍ ولا عقلايَّ. ولو أنّه وضع نفسه مكانه، لربّما تصرّف مثله أو أسوأ منه. ولا يعني هذا عدم وجود أخطاء في التصرّفات، بصرف النّظر عن متاعب الشَّخص الآخر ومعاناته في العمل.

وقد يدخل الشَّخص بقائيّة، لشراء بعض المستلزمات، ويحدث أن صاحب البقائيّة يعاني من مشكلات خاصة، فينهره الأخير ولا يتعامل معه بشكل لائق.

ولو أنّ الشَّخص كان مكان صاحب البقائيّة لكان يعاني مثلما يعاني، ولربّما تعامل مع الآخرين بنفس الطريقة.

وقد يقوم المرء بزيارة إلى مستشفى لتلقّي علاج، أو لعيادة صديق، ويحدث أن يطلب خدمة أو مساعدة من ممرّضة ألّمّ بها التّعب والنّصب من جَرَاء عملها الإنسانيّ المزدحم المتعب، فيحصل أن تحدّثه بأسلوب جافّ، ولو أنّه كان في مكانها لربّما فعل أكثر مما فعلت. ولا يعني هذا أن يلتمس المرء الأعذار للنّاس في كلّ تصرّف خاطئ يقومون به، وإن كان إيجاد الأعذار والتماسها، من الطّرائق التي تساعد على تلافي أخطائهم، مع العلم بأنّ اختلاق الأعذار للنّاس لتبرير أخطائهم - وخصوصاً الكبيرة منها - قد تجعلهم يُصرّون على ممارسة الأخطاء، ويتمادون فيها، ويتشجّعون عليها.

وعليه فالمعنى الآخر لوضع النَّفس موضع الطَّرَف الآخر وفهم عقليَّته، أن لا يُبرّر المرء أخطاء النَّاس وتجاوزاتهم غير العاديّة، ويختلق لهم الأعذار، من أجل

السُّكُوت على أخطائهم، وعدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، أو من أجل أن يضحك على ذقونهم، ويحصل منهم على مكاسب ماديَّة، كما يحدث في الغرب، وفي المجتمعات غير الإيمانيَّة الأخرى، وإيَّما المطلوب تقدير وضع الشَّخص، وفهم عقليَّته، ومخاطبته بمستواها ليس إلَّا.

والمعنى الثَّالث لهذه الكلمة أن يخاطب المرء النَّاس، ويتعامل معهم على قدر عقولهم، فحَتَّى الأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية البشر أَمَرَهُمْ - سبحانه وتعالى - بمخاطبة النَّاس على قدر عقولهم. وكمثال على مخاطبة الشَّخص الآخر على قدر عقله^(*) قد يكون المرء طبيباً، ويأتي إلى عيادته شخص أُمِّي، لم يَنَلْ درجة من الوعي والعلم والمعرفة، فعَلَى الأوَّل أن لا يزدريه، وأن لا ينظر إليه بنظرة فوقيَّة، وأنَّه دُونَه، بل عليه أن يتواضع له، ويتعامل معه على قدر عقله، وسيَجِدُ الطَّبيب أنَّ هذا الشَّخصَ ينجذب إليه، ويكونُ هو قد كَسَبَهُ.

وقد يكون المرء مُديراً أو مسؤولاً أو موظِّفاً في إدارة، أو في شركة، أو في أيِّ موقع آخر، ويزوره شخص ما لإجراء معاملة ما، فإنَّ على المرء أن يتعامل معه على قدر عقله.

وهكذا فَلِكِي يُحَسِّنَ المَرْءُ مُعَامَلَةَ النَّاسِ ويكسبهم إلى جانبه، خَلِيقٌ به أن يَخْلُقَ فيهم الرِّغْبَةَ الجَّامِحَةَ في أن يفعلوا ما يريد، و:

- أن يُحَدِّثَهُمْ فيما يطيب لهم من الحقِّ والخير، ويدلهم على طريقة الحصول عليه.
- أن يُقَدِّرَ وجهة نظرهم، وينظر إلى الأشياء من المنظار الذي ينظرون به إليها، شريطة أن تكون نظراتهم محقة ومشروعة وعقلائيَّة.
- وأن يضع نفسه موضعهم، ويفهم عقليَّتهم، ويتعامل معهم ويخاطبهم على قدرها.

*١. هذه القاعدة مفيدة حتى على صعيد الأحاديث الطَّبيَّة بين طرفين، فليس من اللائق أن يتحدث اخصائي الدَّرة والإلكترونيات - مثلاً - عن أمور علميَّة دقيقة ضمن تخصصه مع رجل أُمِّي أو عديم المعرفة بتلك الأمور.

❖ تَحَاشِيُ الْجِدَالِ

قال الله - سبحانه وتعالى:

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(١)

ويقول الإمام عليُّ (ع):

«لَا مَحَبَّةَ مَعَ كَثْرَةِ مِرَاءٍ»^(٢)

ويقول (ع) أيضاً:

«مَرَّةُ الْمِرَاءِ: الشَّحْنَاءُ»^(٣)

كما أنَّ الجدل في الله وآياته بغير علم يُورِثُ الشَّكَّ والضَّلالةَ وفساد اليقين، كذلك فإنَّه في معاملة النَّاسِ يُفسدها ويدقُّ إسفيناً فيها. ولا يعني هذا أنَّ الجدل منهيٌّ عنه مطلقاً، ولكن المنهيُّ عنه هو الجدل بغير التِّي هي أحسن. ومن هنا فالمطلوب، هو الجدل «بالتي هي أحسن».

إنَّ ما من إنسانين يجتمعان، ويتبادلان الآراء، إلّا ويحصل بينهما تفاوت فيهما. وليس المقصود من هذا أنَّ المطلوب من النَّاسِ أن تختلف مع بعضها، لأنَّ الاختلاف وإن كان قضية موجودة في الحياة، فإنَّ الدِّينَ لا يدعو لها إذا كانت مدعاة إلى عدم الائتلاف، وهدم الآراء، وشقَّ الوحدة. إنَّ من آداب الاختلاف: الاحترام المتبادل بين الشخصين أو الجهتين المختلفتين.

وقد يلتقي شخصان ويتحادثان في موضوع ما، فيتصلَّب أحد الطرفين لرأيه، بصرف النَّظر عن كونه على الصواب، أو على الخطأ.

وقد يشترك المرء في جلسة تشاورية مع بعض إخوانه وأصدقائه، لمناقشة موضوع

١. ١٢٥.١ / النحل.

٢. الغرر والدرر.

٣. المصدر السابق.

معين، فليعلم أنه عقل، وإخوانه مجموعة عقول، ومن هنا فإنَّ مسألة الاختلاف في الآراء ووجهات النَّظر تكون واردة، وإن كان هناك اتِّفاق على الأطر العامَّة. وتبادل الآراء ووجهات النَّظر بشكل موضوعيٍّ، هادئ، هادف، هو من المجادلة بالتي هي أحسن، المذكورة في القرآن الكريم. أما أن يتحول الحوار، أو النَّقاش، أو تبادل الآراء إلى حلبة مصارعة، وينشب التعصُّب الفكريُّ، فهذا من الجدل السَّلبيِّ . . الجدل الذي لا تُحمد عواقبه، ولا يؤيده الإسلام والقرآن، والجدير بأن يُتجنَّب. ولا يعني هذا أنَّ المرء يترك الجدل العقيم يتنازل عن آرائه إذا كان محقاً، بل ما فائدة التعصُّب للفكرة المحقَّة مع مجادلة الطَّرف الآخر وإصراره على صِحَّة فكرته أو رأيه؟. إن المرء بدل أن يصرف الوقت والجهد في إيصال أفكاره وآرائه المحقَّة إلى إنسان مجادلٍ، عليه أن يتوقَّف عن الجدل، ويوصل أفكاره وآراءه إلى من هو أهل لها، ومن يتقبَّلها.

هَبْ أُنْكَ اختلفت في الرَّأي مع طرف آخر في قضية ما. فهنا يحدث أمرٌ من أمرين: إمَّا أن يكون هو المخطيُّ وأنت المحقُّ، وإمَّا العكس. فإذا كنت أنت المخطيُّ فسَلِّمْ بخطئك، وإذا كنت أنت المحقُّ، فلا بأس أن تبين له رأيك بشكل محدَّد، واضح، وبالتي هي أحسن. وإذا أصرَّ الطَّرف الآخر على أنَّ فكرته هي السَّليمة، وأنت تعلم يقيناً أنَّها ليست كذلك، وجادل من أجل إخضاعك لآرائه، فإنَّ أفضل طريقة لإنهاء هذا الجدل، هو أن تتجنَّبَه. لأنَّ هذا الجدل سيتحول إلى نقاش عقيم من جهة، ومن جهة أخرى إن معاملتك للطَّرف الآخر، وعلاقتك الاجتماعيَّة لا يُستبعد أن يَدقَّ فيها إسفين الشُّحناء والتَّباعد، فضلاً عن أنَّ شخصيتك قد تُهان، أو تسقط إذا استمررت في الجدل.

إنَّ الجدل العقيم، أو المرء هو الرَّاوية الحادَّة التي يَخْلُق بالمرء أن يتجنَّبها، وهو مدعاةٌ إلى أمور غير محدودة منها:

- إِمراضُ القلوب على الإخوان أو الأصدقاء أو الأس.
- نُشوبُ الخصومة.
- إفسادُ الصَّداقة القديمة.

- تحليلُ العلاقاتِ الوثيقة.
- حدوثُ القطيعة.
- ذهابُ بهاءِ الشَّخصيَّة.
- الحقدُ.
- الوقوعُ في الغلط والخطأ.
- سقوطُ الحجَّة.
- الإيِّاقُ (الوقوعُ في الموبق).
- انبذارُ الشرِّ في النَّفس.

وكثيرة هي الأحاديث الشَّريفة التي تدعو الإنسان إلى ترك الجدل والمرء سواء كان محقاً أو مُبطلًا. إِنَّ من حقيقة الإيمان أن يترك الإنسان المرءَ وإن كان محقاً، كما أن من التَّواضع ذلك. والمرء مذموم سواء كان مع العلماء أو الجهلاء أو الحلماء أو السُّفهاء، أو مع أيِّ طبقة أو فئة أخرى من النَّاس.

يقول أحد خبراء علم النَّفس الاجتماعي:

«منذ سنوات مضت التحق بمعهدِي رجل مولع بالجدال والتَّحدي. كان يشتغل وسيطاً لإحدى شركات سيارات النُّقل، ولكنه لم يُصادِف نجاحاً يُذكر، ولهذا لجأ إليّ، فاستكشف أن سرَّ إخفاقه هو طول باعه في اللَّجاجة، والجدال! وعندئذ لم يكن همِّي الأوَّل أن أُعلِّمَ هذا الرَّجل كيف يتكلَّم، بل كان همِّي الأوَّل أن أدربَه على ألا يتكلَّم! والرَّجل الآن في القمَّة بين وسطاء شركة (س) للسيَّارات، في مدينة «ن»، فكيف تأتَّى له ذلك؟.

«ها هي قصته كما رواها:

«دخلت يوماً مكتب عميل كنت أرغب في أن أبيعه سيَّارة جديدة، فما إن علم بمهمتي حتَّى صاح: ماذا؟! سيَّارة من (س)، إنَّها أسوأ السيَّارات جميعاً، بل إنَّني

لا أقبلها لو أعطيتني إيَّها بدون مقابل! إنَّني سأشتري سيَّارة من شركة (ص)! وعندئذ قلت له: خيراً ما تفعل يا سيَّدي! إنَّ شركة (ص) شركة طيِّبة، وبائعوها رجال طيِّبون.

وسرعان ما زالت عن الرِّجل حدَّته الأولى، فلم يبق هناك مجال للجدل ما دُمْتُ قد أقررتُه على وجهة نظره! إنَّه لن يقضي طول اليوم يقول: إنَّ سيَّارة (ص) أحسن ما دمْتُ أنا قد وافقتهُ على ذلك. وانتهزت فرصة سكوته، فرحَّضْتُ أطرق نواحي القُوَّة في سيَّارة (س)، والفروق الدَّقيقة بينها وبين سيارات (ص)، فلم أغادر مكتبه ذلك الصُّباح حتى كنت قد بعتهُ سيَّارة جديدة.

«وقد مرَّ بي زمن كانت فيه عبارة جارية كتلك التي فاه بها العميل، تجعل الدَّم يغلي في عروقي، فأشُنُّ على العميل حرباً عَوَاناً، وأهاجم سيَّارات (ص) في قسوة عنيفة، وكَّما ازدادت هجوماً على (ص)، كلما استمسك المشتري برأيه في أفضلِّيَّتها، وكلَّما أمعن المشتري في الجدل، كلما كان أدنى إلى شراء بضاعة منافسي!

وأنا إذ أنظر اليوم إلى الماضي، أعجب كيف وسعني أن أبيع شيئاً على الإطلاق! لقد ضيعت سنين من عمري، على غير طائل في الجدل والشَّجار».

إنَّ الجدل أو المرء العقيم غير محمُود، سواء كان المرء المجادل محقاً أو مبطلاً.

والأخطر في المرء في الباطل أنَّه لا يزيد المرء إلا انحرافاً عن الحقِّ، وعمى عنه.

يقول الإمام عليُّ (ع):

«مَنْ كَثُرَ مِرَاءُهُ بِالْبَاطِلِ، دَامَ عَمَاؤُهُ عَنِ الْحَقِّ»^(١).

والجدل العقيم ليس مذموماً فقط في المعاملات اليوميَّة بين النَّاس، بل حتى في مجال الدعوة إلى الإسلام، والعمل الإسلاميِّ، يلزم أن يكون العمل منظماً ومقنَّناً، وأن تكون المجادلة بالتي هي أحسن هي الأسلوب المثبَّع في ذلك. وعليه فليس

١. الغرر والدرر.

المطلوب من المؤمنين أن يدخلوا في نقاشات، وحوارات، ومجادلات عقيمة سواء مع الكفار، أو مع المتعصبين لأفكارهم الباطلة، أو مع غيرهم. بل الأفضل أن يصرفوا أوقاتهم وجهودهم إلى إيصال الدِّين إلى من هو أهل له.

إِنَّ المرءَ قد يُقنع كافرًا، أو معاندًا، أو متعصبًا، أو غيره عن طريق الإخضاع بالجدال والمرء، ولكن لِيُثَقِّ المرءَ تمامًا أن ذلك الاقتناع (كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)^(١).

والإنسان إذا جادل، وتحدَّى، وناقض، ربَّما استطاع أن ينتصر أحيانًا، ولكنَّ هذا الانتصار كالعَصَى الجوفاء التي نخرتها دَابَّةُ الأرض. والانتصار الأجوف إن هو إلا خسارة لحسن العلاقة بالطَّرَف الآخر، ولا شكَّ أنَّ حفظ العلاقة الحسنة بالنَّاس أفضل من انتصارٍ أجوفٍ.

إِنَّ من النَّاسِ من يجادل ومُجَارِي وهو جاهل لم يستتر بالعلم. ومنهم من أصبح الجدال العقيم أو المرءَ عادةً فيه وتقليدًا، فهو مُجَارِي في كُلِّ شيءٍ مهما كان صغيرًا، مُحَقِّقًا كان أو مُبْطِلًا. ومن تعود على الجدال العقيم لن يجني إلَّا المتاعب، وانفضاض النَّاس عنه. وهل يجني زارع الشُّوك إلا الشُّوك نفسه؟.

وقد يجادل المرء في شيء يظنُّه حقيقةً، وهو في حقيقته وهم، والأفضل ترك الجدال، وإن كان المرء محقًا.

يقول أحد الدَّارسين:

كنتُ ومجموعة من زملائي نتباحث في مادة من موادِّنا الدراسيّة، وذات يوم وبينما كنّا في وقت الاستراحة تعرضنا إلى ذكر حيوان الحُقَّاش: هل يبيض أم يلد؟ وحدث بيني وبين زميل لي حادُّ الطَّبع، اختلاف في الرّأي، قلت: إِنَّ الحُقَّاش حيوان ثديٍّ، ويطير، وهو يلد ولا يبيض. فقال الزَّمِيل: بل هو يبيض ولا يلد. ثم

١٨٠ / إبراهيم.

أَكَّدْتُ لَهُ مَرَّةً أُخْرَى - وَأَنَا وَاثِقٌ مِنْ صِحَّةِ مَا أَقُولُ - أَنَّ الحُقَافَشَ يَلِدُ وَلَا يَبْيِضُ، وَاسْتَشْهَدْتُ بِآرَاءِ الزَّمَلَاءِ الْآخَرِينَ، وَلَكِنَّهُ أَصَرَ عَلَى رَأْيِهِ الْأَوَّلِ. فَقُلْتُ: حَسَنًا، سَوْفَ أَتَوَقَّفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، وَأَطْلُبُ مِنْكَ التَّأَكُّدَ مِنْ صِحَّةِ مَا أَقُولُ. وَبِذَلِكَ أَنْهَيْتُ الْجِدَالَ بِأَنِّ اجْتَنَبْتَهُ، وَحَافَظْتُ عَلَى عِلَاقَتِي الْأَخَوِيَّةِ بِزَمِيلِي.

وَتَرَكْتُ الْجِدَالَ، لِاجْتِنَابِ الزَّوَايَا الْحَادَّةِ الْمُتَسَبِّبَةِ عَنْهُ، أَمْرٌ يَحْتَاجُهُ الْمَرْءُ أَيْنَمَا جَمَعَهُ الْمَقَامُ مَعَ النَّاسِ وَتَعَامَلَ مَعَهُمْ، سَوَاءً فِي بَيْتِهِ، مَعَ زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ وَوَالِدَيْهِ، وَ . . . أَوْ فِي عَمَلِهِ، أَوْ فِي الشَّارِعِ، أَوْ فِي الْمَجْلِسِ، أَوْ فِي الْمَحْفَلِ، أَوْ فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ. فَلِكِي يُحَسِّنَ الْمَرْءُ مُعَامَلَةَ النَّاسِ، وَيَحْفَظُ حَالَةَ الْحَبِّ الْمُتَبَادِلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ قَاعِدَةَ تَحَاشِي الْجِدَالِ الْعَقِيمِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ أَفْضَلَ السُّبُلِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْجِدَالِ، تَجَنُّبُهُ.

❖ حِفْظُ كَرَامَةِ الطَّرْفِ الْآخَرِ

قَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«أَذَلُّ النَّاسِ مَنْ أَهَانَ النَّاسَ»^(١).

يَنْقُلُ التَّارِخُ أَنَّ فَقِيرًا جَاءَ إِلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَسَأَلَهُ شَيْئًا لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِ، فَأَعْطَاهُ الْإِمَامُ، ثُمَّ بَكَى (ع). فَتَسَاءَلَ أَصْحَابُهُ بِغَرَابَةِ عَنْ سَبَبِ بَكَائِهِ، فَقَالَ الْإِمَامُ بِمَا مَضْمُونُهُ: بَكَيتُ لِأَنَّهُ أَرَأَى مَاءَ وَجْهِهِ بَاضِطِرَارِهِ إِلَى السُّؤَالِ، وَأَخَافُ أَنْ لَا يَكُونَ لِي أَجْرٌ عِنْدَ اللَّهِ.

١. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٩٢.

لكل إنسان شخصية وكرامة وعزّة وماء وجه، يريد لها أن تبقى محفوظة محترمة. والإسلام - هو الدِّين الذي يصون كرامة الإنسان - لا يُجيزُ لنا أن نُرِيْقَ ماء وجوهنا لأحد، لأنّ كرامتنا ليست مُلكاً لنا، وإِنَّمَا هي مُلكٌ لله، فكيف بإِراقتنا لماء وجوه الآخرين؟!

إنَّ إِراقة ماء وجوه الآخرين ليست بالأمر البسيط، لأنَّها إِذلال لهم، وكسر لخواطرمهم، وخلاف تكريمهم واعطائهم وزَنَّهُم. ومن هنا فإنَّ الإسلام لا يجيز لنا أن نريق ماء وجوه النَّاس، وبأمرنا بالمحافظة على شخصيَّاتهم، بأن نُقدِّرَها، ونحترمها، وأن لا نُهينَها، ولا نُحرِّجَها، وأن نحافظ على مشاعرهم وعواطفها.

والأمر الذي يجب أن يدركه الإنسان: أنَّ مشاعر النَّاس وأحاسيسهم ليست من الحديدِ الصُّلبِ، ولا من الخرسانة المسلَّحة، بل هي كالزُّجاج الذي يتكسَّر على إثر صدمة صغيرة، وإذا ما أنكسر الزُّجاج، صَعِبَتْ إِعادته إلى حالته الأصليَّة.

يقول الإمام عليّ (ع) في الشُّعْرِ المنسُوبِ إليه:

وَاحْرِضْ عَلَى حِفْظِ الْقُلُوبِ مِنَ الْأَذَى *** فَرُجُوعُهَا بَعْدَ التَّنَافُرِ يَصْعَبُ

إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَ وَدُّهَا *** مِثْلَ الزُّجَاجَةِ كَسَرُهَا لَا يُشْعَبُ

وأيُّنما جَمَعْتَ المرءَ مع غيره من النَّاس معاملَةً، في بيته مع زوجته ووالديه وإخوانه، أو في عمله، أو في أي مكان آخر ينبغي له أن يصون ماء وجوه الآخرين.

بل حتَّى الطِّفْل - هذا الكائن الضَّعيف - لا ينبغي لنا أن نجرح مشاعره، ونريق ماء وجهه، سواء كان بمفرده، أم كان أمام آخرين، لأنَّ ذلك يُحدث فيه جرحاً داخلياً، قد لا يلتئم بيُسْر. ولقد كان رسول الله محمد (ص) يقول لبعض الآباء حينما يأتون إليه بأطفالهم ليُؤدَّنَ في آذانهم، فيبُولون على ثياب النَّبِيِّ، فكان الآباءُ ينهرونهم، كان (ص) يقول لهم بما معناه:

دَعُوهُ يُكْمِلْ بَوْلَهُ، فَإِنَّ هَذَا الثَّوْبَ يُطَهَّرُهُ الْمَاءُ، وَمَاذَا يُطَهَّرُ نَفْسِيَّةَ الطِّفْلِ؟^(١).

إِنَّ إِيذاءَ مشاعر الآخرين، يُحدث فيهم جُرْحاً غائراً، ولو فُكِّرْنَا ملياً في هذا الأمر، ولم ننتصر لَأَنفَانَا، لما سعينا إلى إيذاء تلك المشاعر، وسعينا إلى حفظها من الإهانة والأذى. وفي هذا السَّبِيل يذكر أحد الكتَّاب قصَّة، فيقول:

«كانت شركة أجهزة كهربائية، كبيرة تواجه مهمة دقيقة، هي إقالة مسؤول من رئاسة أحد أقسامها.

«كان هذا الرَّجُل عبقرياً في الكهرباء، ولكنه ما إن عُيِّنَ رئيساً لقسم الحسابات بالشركة حتى أظهر عجزاً فاضحاً، وبرغم ذلك لم تجرؤ الشركة على انتقاده أو الإساءة إليه، لم يكن لها غنى عنه، وكان هو شديد الحساسية مُرْهَفُ الشُّعُور، فكيف حسموا هذه المشكلة الدَّقيقة؟ لقد خلعوا عليه لقباً جديداً، جعلوه: المهندس المستشار للشركة، ثم نصبوا شخصاً آخر لرئاسة قسم الحسابات. وقد سَرَّ الرَّجُل بهذا اللقب، وسَرَّ كذلك مدير الشركة، فقد حلَّوا مشكلة دقيقة حساسة دون جَلَبَةٍ ولا ضَوْضَاءٍ!». «ولو أَنَّهُمْ جاءوا إلى الرَّجُل وأراقوا ماء وجهه، كأن قالوا له: إِنَّكَ لا تصلح لرئاسة قسم الحسابات، فإنه سيشعر بِذَلَّةٍ وانكسارٍ كَبِيرَيْن، وربما تصَلَّبَ في أن يبقى رئيساً لقسم الحسابات!».».

من الأمور التي تعمل على إراقة ماء وجوه الآخرين: الملامة، والعتاب، والتوبيخ، والنقد الجَّارح، والمنُّ على الآخرين بالخدمات والمساعدات المقدَّمة لهم، وخصوصاً أمام المَجْمُوع، إِنَّ إراقة ماء وجه الطرف الآخر حينما يكون بمفرده أمر مهين، والأشدُّ إهانة منه إراقة ماء وجهه بين الناس.

*١. جاء في كتاب مكارم الأخلاق، ص ٢٥:

«وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. يُؤْتَى بالصَّبِيِّ الضَّعِيفَ ليدعو له بالبركة، أو يُسمَّيه، فيأخذه فيضعه في حجره تكرمته لأهله، فرمى بال الصَّبِيِّ عليه، فيصبح بعض من رآه حين يبول، فيقول صلى الله عليه وآله وسلم. لا تَزْرِمُوا الصَّبِيَّ «لا تقطعوا بوله» فيدَّعه حتى يقضي بوله، ثم يفرغ له من دعائه أو تسميته، ويُبَلِّغُ سرور أهله فيه، ولا يرون أَنَّهُ يتأذى ببول صبيهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده».

يقول الإمام علي (ع):

«إِيَّاكَ أَنْ تُكَرِّرَ الْعُتْبَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُغَيِّرُ بِالذَّنْبِ، وَيُهَوِّنُ الْعُتْبَ»^(١).

فحينما تكثر العتاب لشخص، فإن ذلك قد يدعوه إلى الاستهانة بالمُعاتبَة، وقد يجعله يقع في ممارسة الذنوب والأخطاء، بسبب ما أريق من ماء وجهه.

ويقول (ع) أيضاً:

«طَعَنُ اللَّسَانِ أَمْضَى مِنْ طَعْنِ السَّانِ»^(٢).

وربَّ كلمةٍ تقولها لشخص - وقد تتصور أنها عاديّة - تجرحه، وتغيّر ألوانه، وقد تُمرضه، وربَّ رمزٍ أو إشارة تفعل فيه كما تفعل الكلمة المهينة الجارحة، أو كما يفعل الفعل المُحرج.

وكما يقول الشاعر:

جَرَاحَاتُ السَّنَانِ لَهَا التِّيَامُ *** وَلَا يَلْتَأَمُ مَا جَرَحَ اللَّسَانُ

وحفظ كرامة النَّاسِ، وتلافي إراقة ماء وجوههم، علاوة على أنها تضمن ودّهم وحُبّهم للمرء، فهي وسيلة جيّدة للإصلاح بينهم. إنَّ بإمكان المرء أن يوفّق بين شخصين يوشك كلّ منهما أن يطبق على عنق الطرف الآخر، إذ بإمكانه أن يسعى بحكمة وراء نقطة أو نقاط الاتفاق بين الطرفين المتنازعين، فيؤكد لها ويزيدها وضوحاً وجلاءً، وليعمل على أن يصون لكلّ منهما ماء وجهه، وأن يدعّه يحتفظ به.

وفي مجال النّقاش، ومحاولة إقناع الشّخص بالفكرة الدّاتيّة، تكون قاعدة حفظ كرامة الطّرف الآخر، وصيانة ماء وجهه من الأهميّة بمكان. إذ ينبغي للمرء حينما يريد كسب شخص آخر إلى وجهة نظره الصّحيحة، أن يقدّر وجهة نظر الشّخص الآخر، وأن لا يُسَفِّهَهَا، لكي لا يُراق ماء وجه هذا الشّخص، حتّى وإن كانت وجهة نظره خاطئة. وهكذا فليُحَسِّنِ المرء معاملة النَّاسِ خَلِيقٌ به أن يحفظ لهم كرامتهم، وأن يجعلهم يحتفظون بماء وجوههم، فلا يُرِيْقُهُ.

١. الغرر والدرر.

٢. المصدر السابق.

❖ التَّوَسُّلُ بِالرَّفْقِ وَاللِّينِ وَالتَّسَامُحِ وَالرَّحْمَةِ

قال الله - جَلَّ وَعَلَا - مَبِينًا لِرَسُولِهِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ (ص)، وللإنسانية جمعاء،
منهاج التَّعامل مع النَّاسِ: (وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا غَلِيظًا لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ)^(١)

وقال الإمام عليُّ (ع):

«الرَّفْقُ مِفْتَاحُ النَّجَاحِ»^(٢).

وقال (ع) أيضاً:

«مَنْ عَامَلَ بِالرَّفْقِ غَنِمَ»^(٣).

وقال (ع):

«مَنْ رَفَقَ لِصَاحِبِهِ وَافَقَهُ، وَمَنْ أَعَنَفَ أَحْرَجَهُ وَفَارَقَهُ»^(٤).

وقال (ع): «لَا يَجْتَمِعُ الْعُنْفُ وَالرَّفْقُ»^(٥).

وقال الله - سبحانه وتعالى:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)^(٦)

من القواعد الأساسية في معاملة النَّاسِ، والدُّخُولُ إلى قلوبهم، وكسبهم، والتَّأثير فيهم: استعمال الرَّفْقِ وَاللِّينِ وَالتَّسَامُحِ معهم. وذلك لأنَّ الإنسان يعيش مع بَشَرٍ - مُكْرَمِينَ من الله (سبحانه) - لهم مشاعرٌ، وعواطفٌ فضلاً عن عقولٍ، وإراداتٍ، لا مع حيواناتٍ، وبَهَائِمٍ. بل حتَّى هذه الأخيرة، لا تُفْضَلُ أن يتعامل معها النَّاسُ بالعنف، وإمَّا تُفْضَلُ الرَّفْقُ، وَاللِّينُ، وَالرَّحْمَةُ.

١. ١٥٩ / آل عمران.

٢. الغرر والدرر.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق.

٥. المصدر السابق.

٦. ١٥٩ / آل عمران.

خذ على سبيل المثال: القطط، هذه إنْ عاملتَها بالعنف والقسوة، فلربما واجهتك بالخدش والتكشير عن أنيابها، ولكنك لو قُمْتَ - عوضاً عن ذلك - بتمرير راحة يدك على شعرها بعطف ورحمة وشفقة، لأحسَّت بالأمن والأمان منك، وراحت تُداعبك في هدوء وارتياح، فرحة مسرورة بك، وبتعاملك. بل حتَّى القطط المتوحشة، وغير الأليفة، حينما تُعامل معاملةً ليّنة رفيقة، وتتعوّد على ذلك، تتحوّل تدريجياً من قطط غير أليفة، إلى قطط أليفة! وإذا كان الأمر هكذا بالنسبة للحيوانات والبهايم، فكيف بالناس الذين هم مكرّمون على كل الخلائق؟

يقول أحدُ المزارعين:

ذات يوم أردتُ أخذ بقرةٍ لي إلى زريبتها في آخر النهار، ولكنها كانت ترفض التّحرك من مكانها، فقمّت أجُرّها من رَسْنها بقوة، وولدي يدفعها من الخلف، ولكن من دون جدوى، إذ أبْتُ أن تبرح مكانها. وفي الأثناء تنبّهت زوجتي إلى الأمر، فقالت: دعوها، سأفعل ما يجعلها تذهب إلى زريبتها بسهولة ويسر. ثم أنها عمدت إلى تناول كمّيّة قليلة من البرسيم، وجاءت وألقت بها أمامها. فجعلت البقرة تأكل من البرسيم، وزوجتي تقودها برفق ولين، وبسهولة ويسر حتى أدخلتها إلى الزّريبة.

وإذ أن البهايم التي سخرها الله لخدمة الإنسان ومصلحته تُفَضَّل التّعامل معها برفق ولين ورحمة. أليس خليقاً بالمرء أن يتعامل مع النَّاس، مستعملاً معهم الرّفق واللّين والرحمة؟

إنَّ النَّاسَ - بطبيعتهم - لا يميلون إلى العنف والعنيفين في التّعامل، بل يميلون إلى الرّفقاء اللّينين الرّحماء، ولا يميلون إلى الغليظين الغضبيّين، بل إلى الرّؤفاء الحُلماء الذين يجعلونهم يشعرون بالاستقرار والوثام والسّعادة.

وفي هذا يقول العلامة محمد مهدي الرّاقِي:

«ثُمَّ التَّجَرُّبَةُ شَاهِدَةٌ بِأَنَّ إِمْضَاءَ الْأُمُورِ، وَإِنْجَاحَ الْمُقَاصِدِ، مَوْقُوفٌ عَلَى الرَّفْقِ وَاللِّينِ مَعَ الْخُلَاقِ، فَكُلُّ مَلِكٍ كَانَ رَفِيقًا بِجُنْدِهِ وَرِعِيَّتِهِ انْتِظَمَ أَمْرُهُ وَدَامَ مُلْكُهُ، وَإِنْ كَانَ فَظًّا غَلِيظًا اخْتَلَّ أَمْرُهُ وَأَنْفَضَ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ، وَزَالَ مُلْكُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي أَسْرَعِ زَمَانٍ. وَقِسْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَمْرَاءِ وَغَيْرِهِمَا، مِنْ ذَوِي الْمَنَاصِبِ الْجَلِيلَةِ، وَأَرْبَابِ الْمُعَامَلَةِ وَالْمَكَاسِبَةِ، وَأَصْحَابِ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ»^(١)

ومن الأساطير التي تُنقل في باب حسن اللين والرفق، وفائدتها في التعامل، الاسطورة التالية:

يقال أَنَّ الشَّمْسَ وَالرِّيَّاحَ اخْتَلَفَتَا. هَذِهِ تَقُولُ أَنَّهَا أَقْوَى وَأَفْعَلُ، وَأَشَدُّ بَأْسًا، وَتَلِكُ تَزْعُمُ هَذِهِ الصِّفَاتَ لِنَفْسِهَا دُونَ الْآخَرَى. وَأَخِيرًا قَالَتِ الرِّيَّاحُ لِلشَّمْسِ:

- أَتَرِينَ ذَلِكَ الْعَجُوزَ الْمَتَدَثِّرَ بِمِعْطَفِهِ؟ أَتَحَدَّاكَ أَنْ تَجْعَلِيهِ يَخْلَعُ مِعْطَفَهُ بِأَسْرَعٍ مِمَّا اسْتَطِيعَ!.

فَقَبِلَتِ الشَّمْسُ التَّحْدِيَّ، وَأَهَابَتِ بِالرِّيَّاحِ أَنْ تُثَبِّتَ قَوْلَهَا، وَأَسْرَعَتِ الشَّمْسُ فَاخْتَبَأَتْ وَرَاءَ غِمَامَةٍ ثَقِيلَةٍ، بَيْنَمَا زَمَجَرَتِ الرِّيَّاحُ، وَوَرَّاحَتْ تَصُولُ، وَتَجُولُ. وَلَكِنَّهَا كَلَّمَا إِزْدَادَتْ عَصْفًا، كَلَّمَا أَحْكَمَ الرَّجُلُ مِعْطَفَهُ حَوْلَ جَسَدِهِ، وَتَشَبَّثَ بِهِ. فَلَمَّا يَبَسَّتِ الرِّيَّاحُ بِإِخْفَاقِهَا، أَلْقَتْ سِلَاحَهَا، وَهَنَّاكَ بَزَغَتِ الشَّمْسُ مِنْ وَرَاءِ الْغِمَامَةِ، وَابْتَسَمَتْ فِي دَعَاةٍ وَرَفْقٍ، فَمَا لَبِثَ الْعَجُوزُ أَنْ تَخَلَّصَ مِنْ مِعْطَفِهِ!

وَعِنْدَئِذٍ قَالَتِ الشَّمْسُ لِلرِّيَّاحِ:

- إِنَّ لِلرَّفْقِ وَاللِّينِ قُوَّةً تَفُوقُ مَا لِلْغِلْظَةِ وَلِلْعُنْفِ!

١. محمد مهدي الرّاقِي: جامع السَّعَادَات، ج ١، ص ٣٤٠، الطبعة الرابعة. الشيخ الجليل الرّاقِي من أعلام المجتهدين، ولد في نراق وهي قرية من قرى كاشان بإيران عام ١١٢٨ هـ وتوفي عام ١٢٠٩ هـ في النجف الاشرف بالعراق.

إِنَّ الرُّفْقَ مَقْدَمَةُ النَّجَاحِ، ومفتاحه، وهو السَّبِيلُ الحَسَنُ إِلَى كَسْبِ النَّاسِ وَالتَّأَثُّرِ فِيهِمْ. ومن هنا فالرُّفْقَاءُ بِالنَّاسِ اللَّيِّنُونَ معهم، هم الذين يدخلون إلى قلوب الناس، فيجِبُّهُمْ النَّاسُ، ويأْنَسُونَ بهم، ويكونون على استعداد من أجل خدمتهم ومساعدتهم، بخلاف العَنِيفِينَ والغَلِيظِينَ معهم. وإذا شَبَّهَ المرءُ الرُّفِيقَ بِالنَّاسِ اللَّيِّنِ معهم بنقطة العَسَلِ، فَإِنَّ هَذِهِ النُّقْطَةَ قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَجْذِبَ أَفْوَاجاً مِنَ النَّمْلِ، وإذا شَبَّهَ المرءُ الغَلِيظَ مَعَ النَّاسِ العَنِيفِ معهم بِرَمِيلٍ مِنَ الْمُرِّ^(*)، فَإِنَّ هَذَا الْبَرْمِيلَ لَنْ يَقْدِرَ عَلَى جَذْبِ نَمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَهَلَّا يَجْعَلُ المرءُ مِنْ نَفْسِهِ نَقْطَةَ الْعَسَلِ؟

إِنَّ اسْتِعْمَالَ الرُّفْقِ وَاللَّيْنِ - بَدَلاً مِنَ الْغِلْظَةِ وَالْعُنْفِ - هُوَ الَّذِي جَعَلَ أَحَدَ الْمُسْتَأْجِرِينَ يَكْسِبُ وَدَّ الْمُؤَجَّرِ، وَيُخَفِّضُ الْآخِرُ قِيَمَةَ الْإِيجَارِ، فَمَاذَا كَانَتِ الْقِصَّةُ؟ «حَدَّثَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَسْتَأْجِرُ شُقَّةً فِي بَنِيَّةٍ، وَكَانَ جِرَانُهُ يَسْعَوْنَ لِتَخْفِيزِ الْإِيجَارِ، وَلَكِنَّهُمْ جَمِيعاً أَخْفَقُوا فِي ذَلِكَ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ صَاحِبَ الْبَنِيَّةِ شَدِيدُ الْبَخْلِ. يَقُولُ الرَّجُلُ: فِي الْبَدَايَةِ كَتَبْتُ لَهُ رِسَالَةً، وَأَخْبَرْتُهُ بِأَنِّي سَأُخْلِي الْمَسْكَنَ بِمَجَرَّدِ أَنْ يَنْتَهِيَ عَقْدُ الْإِيجَارِ، إِذَا لَمْ يُخَفِّضْ سَعْرَهُ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَحَاوَلَةَ بَدَتْ مَيُوساً مِنْهَا، لِأَنَّ سَكَّانًا آخَرِينَ جَرَّبُوا مِثْلَ هَذَا التَّهْدِيدِ مِنْ دُونِ أَنْ يَنْفَعُ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَمْ لَا أَسْتَعْمَلْ أَسْلُوباً آخَرَ؟ فَفَرَّرْتُ أَنْ أَسْتَخْدِمَ اللَّيْنَ بَدَلَ الْعُنْفِ، وَالرُّفْقَ بَدَلَ الْغِلْظَةِ، وَالْمَدِيحَ بَدَلَ الذَّمِّ.

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي الْأَمْرِ، دَخَلَ عَلَيَّ صَاحِبُ الشُّقَّةِ، وَمَعَهُ أَمِينٌ سَرَّهُ وَالرَّسَالَةَ الَّتِي فِيهَا التَّهْدِيدُ. فَرَحَّبْتُ بِهِ بِاحْتِرَامٍ بَدَلَ أَنْ أَكْبَلُ لَهُ كَلِمَاتِ التَّجْرِيعِ، وَلَمْ أَتَحَدَّثْ عَنْ إِيجَارِ السَّكَنِ، بَلْ بَدَأْتُ أَتَحَدَّثُ عَنْ جَمَالِ شُقَّتِهِ وَامْتِيَازَاتِهَا، وَنِقَاطِ الْجَوْدَةِ فِيهَا، وَأَبْدَيْتُ لَهُ التَّقْدِيرَ الْمَخْلَصَ، ثُمَّ أَرْدَفْتُ قَائِلًا:

إِنَّ مَا أَحْصَلَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّائِبِ لَا يَكْفِينِي لِكِي أَسْتَمِرَّ فِي اسْتِئْجَارِ هَذِهِ الشُّقَّةِ. وَفَوْجئِ الْمَالِكِ بِهَذَا الْمَوْقِفِ الرَّقِيقِ، لِأَنَّهُ - كَمَا يَبْدُو - كَانَ يَتَوَقَّعُ التَّجْرِيعَ، وَقَدْ هَيَّأَ رَدًّا عَلَى ذَلِكَ.

*١. المرءُ: الحَنْظَلُ، العَلَقَمُ.

ولكنَّه ماذا يفعل وقد واجهته برفقٍ ولينٍ؟

فماذا كانت النتيجة؟

إنَّه ومن دون أن أطلب منه خفض قيمة الإيجار بدأ يتحدث لي عن الأخلاق غير الحسنة لبقية المستأجرين، وقال: إنني تلقيت أربعة عشر خطاباً في شهر واحد، بعضها جارح ومهين، ولم أخضع لها إطلاقاً.

ثم أردف قائلاً:

فيا لها من سعادة هائلة، أن أجد مُستأجراً مثاليّاً راضياً مثلك!

وحينما أراد أن يخرج من باب الشُّقَّة، التفت إليّ، وسألني في حنان: أَمِنْ زَحَرَفَةٍ استطيعُ أن أزيّن بها مسكنك؟».

ويقال أنَّه حينما صنعوا عجلات للسيارة، كان جُلُّ تفكيرهم ينصبُّ على أنَّ السيارة التي تزن قرابة طنٍّ واحد، تحتاج إلى عجلات قويَّة جداً لتحملها. ولكنَّهم نسوا أنه حينما تكون العجلات قويَّة وصلبة، فستقاومها الأرض، فكانت العجلات تتصدَّع وتتمزَّق. وفي نهاية المطاف توصَّلوا إلى حل يعتمد على الرِّقِّ بدل الشُّدة، فاستعملوا الهواء المضغوط في إطار الكاوتشوك (المطاط)، لكي تستطيع العجلات أن تتحمَّل ثقل السيارة وقوَّة الأرض معاً، وهكذا تخلصوا من خطر تمزُّق السيارة، كما تخلصوا من الارتجاجات، والأصوات الصَّاخبة التي تنبعث من العجلات الحديدية القاسية.

إنَّ الغِلظة والعنف يُؤلِّدان في الطَّرَف الآخر الحَنَق والبغضاء. فإذا كان قلب الشَّخص الآخر مفعماً بالحَنَق على المرء والبغضاء له، فإنَّ هذا الأخير لن يسعَّه أن يكسب وده، ويقنعه بوجهات نظره وآرائه. ومن هنا فإنَّ الآباء والأزواج، والمُديرين، و... إذا أرادوا كسب أولادهم وأزواجهم ومروِّسيهم، ... والوصول إلى الأغراض التي يُريدونها منهم، فإنَّ عليهم أن يتوسَّلوا بالرِّقِّ، واللِّين، واللُّطف.

والدِّينُ لا يطالبنا بالرِّفْقِ واللِّينِ في معاملة النَّاسِ فحسب، بل حتَّى في العِقَابِ. إنَّ المرءَ في تعامله مع النَّاسِ، وفي الحالة العاديَّة من الاقتدار، قد يرفق بهم، ولكنَّه حين يكون مُقْتَدِرًا فقد يغلظ حين يعاقب، ومن هنا فالرِّفْقُ محمود حتَّى في العِقَابِ.

يقول الإمام عليّ (ع): «إِذَا عَاقَبْتَ فَارْفَقْ»^(١).

وبالإضافة إلى التَّوَسُّلِ بالرِّفْقِ واللِّينِ في الحالة الطبيعيَّة وحين العقاب، ينبغي للمرء في معاملته النَّاسِ أن يستعمل التَّسامح وتقدير التَّنَازُلَاتِ. إنَّ المواطنَ كلُّها لا تحتاج من المرء إلى أن يُدافع عن نفسه، بتصلُّبٍ في آرائه، بل إنَّ هناك الكثير من المَواطنِ يفضِّل فيها للمرء أن يتسامح ويتنازل. ولا يظنُّ أنَّه بتسامحه وتنازله سيكون مُقْصِرًا أو خاسرًا، بل سيكون ناجحًا ومُخْتَارًا للأسلوب الصَّحيح.

وبالإضافة إلى التَّسامح والتَّنازل، يَخْلُقُ بالمرء أن يكون - في تعامله مع إخوانه والنَّاسِ - رؤوفاً رحيماً. إنَّه بحاجة إلى أن يتأدَّب بِآداب خالقه الرؤوف الرَّحيم، وإلى أن يتأسَّى بالرَّسول الكريم محمد (ص) الذي كان رؤوفاً رحيماً بالنَّاسِ عطوفاً عليهم، وهكذا كان المؤمنون معه. ففي الوقت الذي كانوا فيه شديدين على من أعلنوا الحرب على الإسلام، كانوا فيما بينهم رُحَمَاءَ، رُؤُفَاءَ، أَذِلَّةً، متواضِعِينَ.

إنَّ المرءَ في تعامله مع النَّاسِ عليه أن يُحيي ضميره ووجدانه بالرِّفْقِ بهم واللِّينِ والتَّسامح والرَّحمة معهم. وإنَّها لكارثة كبرى حينما يُمِيتُ الإنسانَ ضميره ووجدانه، ويُمِيت فيه أخلاق الرِّفْقِ، واللِّينِ، والتَّسامح مع النَّاسِ، إذ حينما لا يفكر إلَّا في المصالح والمنافع الماديَّة والسعي للحصول عليها، ولو باستخدام العنف وعدم الرَّحمة وظلم الآخرين. وإنَّه - والحال هذه - يتحوَّل إلى سُبُعٍ ضارٍّ، لا يهْمُه أن يقتل في سبيل تلك المصالح والمنافع والمطامع، ومُحَصِّلُهُ ذلك أن تصبح عاقبته سيِّئة في الدُّنيا والآخرة، كما حدث للرَّجل الذي قتل وَلَدَيْ مُسلم بن عَقيـل - دون أدنى لِيْنٍ ورِفْقٍ ورَحْمَةٍ - طَمَعاً في المال والفرس، فما الَّذِي جرى؟

١. نهج البلاغة.

يقول المؤرِّخ والراوي أبو مخنف:

«لَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ - عَلَيْهِ السَّلَام - أُسِرَ مِنْ عَسْكَرِهِ غَلَامَانِ صَغِيرَانِ، فَأُتِيَ بِهِمَا إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ (لَعَنَهُ اللَّهُ)، فَدَعَا بِسَجَّانٍ لَهُ، وَقَالَ لَهُ: خُذْ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ، وَاسْجُنْهُمَا، وَمَنْ طَيَّبَ الطَّعَامَ فَلَا تُطْعِمُهُمَا، وَمَنْ بَارِدَ الْمَاءِ فَلَا تَسْقِيَهُمَا، وَضَيِّقْ عَلَيْهِمَا سِجْنَهُمَا.

«قَالَ: فَأَخَذَهُمَا السَّجَّانُ، وَوَضَعَهُمَا فِي السُّجْنِ إِلَى أَنْ صَارَ لَهُمَا سَنَةٌ كَامِلَةٌ، ضَاقتْ صُدُورُهُمَا، فَقَالَ الصَّغِيرُ لِلْكَبِيرِ: يَا أَخِي! يُوشِكُ أَنْ تَفْنَى أَعْمَارُنَا، وَتُبْلَى أَبْدَانُنَا فِي هَذَا السُّجْنِ، أَقْلَمْتَ تَخْبِرَ السَّجَّانَ بِخَبْرِنَا، وَنَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمُحَمَّدِ الْمُصْطَفَى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: هَكَذَا يَكُونُ:

«فَلَمَّا جَنَّهُمَا اللَّيْلُ، أَتَى السَّجَّانُ إِلَيْهِمَا بِقُرْصَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ، وَكُوْزٍ مِنْ مَاءٍ، فَقَامَ إِلَيْهِ الصَّغِيرُ، فَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ! أَتَعْرِفُ مُحَمَّدَ الْمُصْطَفَى؟ قَالَ: وَكَيْفَ لَا أَعْرِفُهُ، وَهُوَ نَبِيِّي، وَشَفِيعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ! أَتَعْرِفُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ؟ قَالَ: وَكَيْفَ لَا أَعْرِفُهُ، وَهُوَ إِمَامِي، وَابْنُ عَمِّ نَبِيِّي. قَالَ لَهُ يَا شَيْخُ! أَتَعْرِفُ مُسْلِمَ بْنِ عَقِيلٍ؟ قَالَ: بَلَى أَعْرِفُهُ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ يَا شَيْخُ! نَحْنُ مِنْ عِتْرَةِ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ، نَسْأَلُكَ مِنْ طَيِّبِ الطَّعَامِ فَلَا تُطْعِمُنَا، وَمِنْ بَارِدِ الْمَاءِ فَلَا تَسْقِينَا، وَقَدْ صَيَّقَتْ عَلَيْنَا سِجْنَنَا، فَمَا لَكَ وَمَا لَنَا لَصِغَرٍ سَنًا؟ أَمَا تَرَعَانَا لِأَجْلِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ؟.

«فَلَمَّا سَمِعَ السَّجَّانُ كَلَامَهُمَا، بَكَى بَكَاءً شَدِيدًا، وَانْكَبَ عَلَى أَقْدَامِهِمَا يَقْبُلُهُمَا، وَيَقُولُ: نَفْسِي لِنَفْسِكُمَا الْفِدَاءَ، وَرُوحِي لِرُوحِكُمَا الْوَقَاءَ، يَا عِتْرَةَ مُحَمَّدِ الْمُصْطَفَى! وَاللَّهِ لَا يَكُونُ مُحَمَّدٌ خَصْمِي فِي الْقِيَامَةِ: هَذَا بَابُ السُّجْنِ مَفْتُوحٌ، فَخُذُوا أَيَّ طَرِيقٍ شِئْتُمَا يَا حَبِيبَيَّ! سِيرُوا بِاللَّيْلِ وَاكْمُنَا بِالنَّهَارِ.

«قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَا، لَمْ يَدْرِيَا إِلَى أَيِّ جِهَةٍ يَمْضِيَانِ. فَلَمَّا جَهَّجَهُ الصُّبْحُ عَلَيْهِمَا، دَخَلَا بُسْتَانًا، وَصَعِدَا عَلَى شَجَرَةٍ، وَاکْتَنَّا بِهَا. فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ، وَإِذَا بِجَارِيَةٍ قَدْ رَأَتْهُمَا، فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِمَا، وَسَأَلَتْهُمَا عَنْ حَالِهِمَا، وَطَيَّبَ قَلْبِيهِمَا، وَقَالَتْ لَهُمَا:

«سِيرَا مَعِيَ إِلَى مَوْلَاتِي فَإِنَّهُمَا مُحِبَّةٌ لَكُمَا» فَسَارَا مَعَهَا، فَسَبَقَتْهُمَا الْجَارِيَةُ، فَأَعْلَمَتْ مَوْلَاتِهَا.

«فلما سمعتُ بهما، قامتُ حافيةً إليهما، واستقبلتهما بالبُشْرَى، وقالتُ لهما: ادخلا على رُحْبٍ وسعة. فلما دخلا أنزلتهما في مكانٍ لم يدخل إليه أحدٌ من الناس، وخدمتهما خدمةً تليق بهما.

»ثم إنَّ ابنَ زيادٍ نادى في شوارع الكوفة، أنَّ من جاءني بأولاد مسلم بن عقيل فله الجائزة العظمى. فلما جنَّ الليل، أقبل اللعين إلى داره، وهو تعبان من كثرة الطلب.

فقال له زوجته الصالحة: أين كنتَ، فإنِّي أرى في وجهك آثار التَّعب؟!

قال: إنَّ ابنَ زيادٍ قد نادى بأزقة الكوفة، أنَّ من جاءه بأولاد مسلم بن عقيل، كان له عنده الجائزة العظيمة، وقد خرجتُ في الطلب فلم أجد لهما أثراً ولا خبراً.

»فقال له زوجته: يا ويلك! أما تخاف من الله؟! ما لك وأولاد رسول الله تسعى إلى الظَّام بقتلهم!، فلا تَعُرَّنَّكَ الدُّنيا. فقال: أطلبُ الجائزة من الأمير. قالت: تكون أقلُّ الناس، وأحقرهم عنده، إنَّ سعيت بهذا الأمر. فبينما هو بين النَّائم واليقظان، إذ سمع الهمهمة من داخل البيت. فقال لزوجته: ما هذه الهمهمة؟ فلا تردُّ عليه الجواب، كأنها لا تسمع. فقعد وطلب مصباحاً فتناوم أهل البيت كأنهم لم يسمعوا، فقام وأشعل المصباح، وأراد فتح الباب، فقالت له زوجته: ما تريد من فتح الباب؟! وما نَعَتْهُ، فقاتلها، ومانعها وفتح الباب، وإذا بأحد الولدين قد انتبه، فقال لأخيه: يا أخي اجلس فإنَّ هلاكنا قد قَرُبَ. فقال له أخوه: وما رأيتَ يا أخي؟!

»قال: بينما أنا نائم، وإذا بأبي واقف عندي، وإذا بالنَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وعليّ، والحسن والحسين (عليهم السلام) وقوف، وهم يقولون لأبي: ما لك تركتَ أولادك بين الكلاب والملاعين؟ فقال لهم أبي: وها هما بإثري قادمين.

»فلما سمع الملعون كلامهما، جاء إليهما وقال لهما: من أنتما؟! قالوا: من آل الرسول. ومن أبوكُمَا؟ قالوا: مسلم بن عقيل. فقال الملعون: إنِّي أتعبتُ اليوم فرسي ونفسي في طلبكما وأنتما عندي.

»ثم إنَّه لطم الأكبر منهما لكمة أكَّبه على الأرض، حتى تهشَّم وجهه وأسناناه من شدة الضربة، وسال الدَّم من وجهه وأسناناه! ثم إنَّه كتَفهما كتافاً وثيقاً!

فلَمَّا نظرا إلى ما فعل بهما اللعين، قالوا: ما لك يا هذا! أتفعل بنا هذا الفعل، وامراتك قد أضافتنا، وأكرمتنا؟! أما تخاف الله فينا؟! أما تراعي يَتَمَنَّا وُقْرَبَنَا من رسول الله؟!

«ولم يعبأ اللعين بكلامهما، ولا رحمهما، ولا رَقَّ لهما، ثُمَّ دفعهما إلى خارج البيت، وبقيا مكتئبين إلى الفجر، وهما يتوادعان، ويبكيان لما جرى عليهما.

«وَأَمَّا الملعون، فلما أصبح الصُّبح أخرجهما من داره، وقصد بهما جانب الفرات ليقتلهما، وزوجته وولده وعبدُه خلفه، وهم يخوِّفونه بالله تعالى، ويلومونه على فعله. فلم يرتدع اللعين، ولم يلتفت إليهم حتى وصل إلى جانب الفرات.

«وأشهر اللعين سيفه ليقتلهما، فوقعت زوجته على يديه ورجليه تَقَبُّلُهُما وتقول له: يا رَجُل! اعف عن هذين الولدين اليتيمين، واطلب من الله ما تطلبه من أميرك عبيد الله بن زياد، فَإِنَّ الله يرزقك عَوْضَ ما تطلبه منه أضعافاً مضاعفة! فَرَزَقَ الملعون عليها زعقة الغضب حتَّى طار عقلها، وذهل لُبُّها.

«ثُمَّ قال للعبد: يا أسود! خذ هذا السَّيف، وأقتل هذين الغلامين، وأتني برأسيهما حتَّى أنطلق بهما إلى عبيد الله بن زياد، وأخذ جائزتي منه، ألفي درهم وفَرَسٍ.

«فلَمَّا هَمَّ بقتلها قال أحد الغلامين: يا أسود! ما أشبه سوادك بسواد بلال مؤذن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا أسود! مالك وما لنا تقتلنا؟! امضْ عَنَّا حتَّى لا نُطالِبَكَ بدمنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال لهما العبد: يا حبيبيَّ من أنتما؟ فَإِنَّ مولاي أمرني بقتلكما. فقالا: يا أسود! نحن من عترة نبيِّك محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونحن من أولاد مسلم بن عقيل، أضافتنا عجوزُكم هذه اللَّيلة، ومولاك يريد قتلنا!

«قال: فانكَبَّ العبد على أقدامهما يَقْبُلُهُما، ويقول: نفسي لنفسكما الفداء، وروحي لروحكما الوقاء، يا عترة محمد المصطَفَى! والله لا يَكُون محمد خصمي يوم القيامة، ثم رمى سيفه من يده ناحيةً، وطرح نفسه في الفرات، وعبر إلى الجانب الآخر، فصاح به مولا: عَصَيْتَنِي؟! فقال: أطعْتُك ما دُمْتُ لا تعصي الله، فلما عَصَيْتَ الله، عَصَيْتُكَ، أَحَبَّ إِلَيَّ من أن أعصي الله وأطيعك.

«فقال اللّعين: والله! ما يتولى قتلَكُما أحدٌ غيري. فأخذ السّيف، وأتى إليهما وسلّ السّيف من جَفْنِهِ. فلمّا همّ بقتلهما، جاء إليه ولده، قال له: يا أباه، قدّم حِلْمَكَ، وأخّر غَضَبَكَ، وتفكّر فيما يُصيبُكَ في القيامة.

«قال: فضربه بالسّيف فقتله، فلما رأت الحرمة ولدها مقتولاً، أخذت بالصّياح والعويل، فتقدّم الملعون إلى الولدين، فلما رآياه، تابكيا، ووقع كلّ منهما على الآخر يودّعه، ويعتنقه، والتفتا إليه، وقالا له: يا شيخ! لا تدعنا نطالبُكَ بدمائنا عند جدّنا يوم القيامة. خذنا حيّين إلى ابن زياد يصنع بنا ما يريد. فقال: ليس إلى ذلك سبيل. فقالا له: يا شيخ! بعنا في السّوق وانتفع بأثماننا، ولا تقتلنا، فقال: لا بُدّ من قتلكما. قالا له: يا شيخ! ألا ترحم يُتَمَنّا، وصغّر سنّنا؟! فقال لهما: «ما جعل الله لكما في قلبي من الرّحمة شيئاً!» فقالا: يا شيخ! دعنا نصلي كلّ منّا ركعتين. قال: صليّا ما شئتما إن نفعتكما الصّلاة.

«قال: فصليّا أربع ركعات. فلما فرغا رفعاً طرفيهما إلى السماء وبكيا وقالا: يا عدل! يا حكيم! أحكم بيننا وبينه بالحقّ. ثم قالا له: يا هذا! ما أشدّ بغضك لأهل البيت! فعندها عمد الملعون وضرب عنق الأكبر، فسقط إلى الأرض يخور في دمه. فصاح أخوه، وجعل يتمرّع بدم أخيه، وهو ينادي: وا أخاه! وا قلّة ناصراه! وا غربتاه! هكذا ألقى الله وأنا متمرّع بدم أخي! فقال له الملعون: لا عليك سوف ألحقك بأخيك في هذه السّاعة، ثمّ ضرب عنقه، ووضع رأسيهما في المخلّة^(١)، ورمى ببديئيهما في الفرات.

«وسار بالرّأسين إلى عبيد الله بن زياد. فلما مثّل بين يديه وضع المخلّة، فقال له: ما في المخلّة يا هذا؟ قال: رؤوس أعدائك، أولاد مسلم بن عقيل. فكشف عن وجهيهما، فإذا هُما كالأقمار المشرقة، فقال: لم قتلتهما؟ قال: بطمع الفرس والسّلاح. فقام ابن زياد ثمّ قعد ثلاثاً وقال: ويلك! وأين ظفرت بهما؟

قال: في داري، وقد أضافتهم عجوز لنا. فقال ابن زياد: أفلا عرفت لهما حقّ الضّيافة، وأتيت بهما حيّين إليّ؟! فقال: خشيتُ أن يأخذهما أحد منّي، ولا أقدر على الوصول إليك.

*١. المخلّة: ما يُجعل فيه العلف، ويعلّق في عنق الدّابة.

«وأمر ابن زياد أن يغسلوهما من الدم، فلما غسَلوهما وأُتِيَ بهما إليه، ونظرَهما، فتعجَّب من حُسْنِهِمَا وقال له: يا ويلك! حين أردت قتلَهُمَا ما قالَا لك؟ قال: قالَا لي: يا شيخ ألا تحفظ قِرابَتنا من رسول الله؟! قال: فما قلت لهما؟ قال: قلت لهما: ما لكما من رسول الله قِرابَة. قال: فماذا قالَا لك أيضاً؟ قال: قالَا لي: ألا ترحم صغر سنِّنا؟ فقلت لهما: «ما جعل الله لكما في قلبي من الرَّحمة شيئاً». قال فما قالَا لك أيضاً؟ قال: قالَا لي: امض إلى السُّوق فَبِعْنَا، وانتفع بأثماننا، فقلت لهما لابدَّ من قتلكما. قال: فماذا قالَا لك أيضاً؟ قال: قالَا لي: ألا تمضي بنا إلى ابن زياد يحكم فينا بأمره؟ فقلت لهما: ليس إلى ذلك سبيل. قال: فماذا قالَا لك أيضاً؟ قال: قالَا لي: دعنا نصلي كُلَّ واحدٍ مِنَّا ركعتين، فقلت لهما: صلِّا إن نفعتكما الصَّلَاةُ، فصلِّا أربع ركعات، فلما فرغا من الصَّلَاة.. رفعَا طَرَفَيْهِمَا إلى السَّمَاء، ودَعِيَا وقالَا: يا حيُّ! يا حكيمُ! احكم بيننا وبينه بالحقِّ.

«ثمَّ نظر ابن زياد إلى نُدَمَائِهِ، وكان فيهم محبٌّ لأهل البيت، وقال له: خذ هذا الملعون وسِرْ به إلى الموضع الذي قتل فيه الغلامين، واضرب عنقه، ولا تَدَعَنَّ دمه يختلط بدمهما، وخذ هذين الرَّأْسَيْنِ، وأرمهما في موضع رَمَيَ بَدَنَيْهِمَا.

«قال: فأخذه، وسار به، وهو يقول: والله، لو أعطاني ابن زياد جميع سلطته ما قبلت هذه العطية! وكان كلُّما مر بقبيلة أراهم الرَّأْسَيْنِ، وحكى لهم القصة، وما يريد أن يفعل بذلك اللَّعِين.

«ثمَّ سار به إلى موضع قتل الغلامين، فقتله بعد أن عَذَّبَهُ بِقَلْعِ عَيْنَيْهِ، وقَطَعَ أذنيه ويديه ورجليه ورمى بالرَّأْسَيْنِ في الفرات.

«قال: فخرجت الأبدان، وركبت الرُّؤُوس عليها بقدرة الله (تعالى) ثم تحاصَّنَا، وغاصا في الفُرات. ثمَّ إِنَّ ذاك الرَّجُلَ المُحِبُّ أَتَى برأس ذلك اللَّعِين، فنصبه على قناة^(١)، وجعل الصَّيَّان يَرجُمونه بالحجارة»^(٢).

إِنَّ من أَهمِّ الأخلاق التي تضمن للمرء استعمال الرُّفْقِ واللِّينِ والتَّسامحِ والرَّحمةِ

*١. قناة: رُمح، أو عصا.

٢. فخر الدِّين الطريحي النجفي: المنتخب.

مع النَّاسِ، الْحِلْمُ. وخِلافُهُ الْغَضَبُ، هَذِهِ الْأَقَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْمَرْءَ طَائِشًا، وَتُفْسِدُ عَقْلَهُ، وَتُبْعِدُهُ عَنِ الْحَقِيقَةِ، وَقَدْ تَجْعَلُهُ غَلِيظًا عَنيفًا، لَا لِيَنَّا رَفِيقًا. يَقُولُ الْإِمَامُ عَلِيُّ (ع) فِي دَمِّ الْغَضَبِ وَمَدَحِ الْحِلْمِ:

«الْغَضَبُ مَرْكَبُ الطَّيْشِ»^(١).

«الْغَضَبُ يُفْسِدُ الْأَلْبَابَ، وَيُبْعِدُ عَنِ الصَّوَابِ»^(٢).

«الْعَاقِلُ: مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ إِذَا غَضِبَ، وَإِذَا رَغِبَ، وَإِذَا رَهَبَ»^(٣).

«ضَادُّوا الْغَضَبَ بِالْحِلْمِ»^(٤).

«بِلَيْنِ الْجَانِبِ تَأْنَسُ النَّفُوسُ»^(٥).

«كُنْ لِيَنَّا مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ، شَدِيدًا مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ»^(٦).

«مَنْ لَانَتْ عَرِيكَتُهُ، وَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ»^(٧).

وهكذا فَلِكُلِّ يَزَيْنَ الْمَرْءُ تَعَامُلَهُ مَعَ النَّاسِ، وَيَكْسِبُهُمْ إِلَى جَانِبِهِ، عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَسَّلَ بِالرَّفْقِ وَاللَّيْنِ وَالتَّسَامُحِ وَالرَّحْمَةِ مَعَهُمْ، وَيَدْعِ الْغُلْظَةَ وَالْعُنْفَ وَالتَّصَلُّبَ وَالشَّدَّةَ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الرَّفْقَ وَسِيلَتَهُ إِلَى النَّجَاحِ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ، هَذَا النَّجَاحُ الَّذِي يَشْكَلُ جَانِبًا هَامًّا مِنْ جَوَانِبِ السَّعَادَةِ فِي حَيَاتِهِ.

❖ اللَّيَاقَةُ وَالْبَاقَةُ فِي التَّحَدُّثِ

قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ (ع): «اللِّسَانُ سَبْعٌ، إِنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ»^(٨).

١. الغرر والذُرر.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق.

٥. المصدر السابق.

٦. المصدر السابق.

٧. المصدر السابق.

٨. نهج البلاغة، الحكم، خُلِّيَ عَنْهُ: تَرَكَ وَشَأْنَهُ. عَقَرَ: جَرَحَ. قَتَلَ، افْتَرَسَ.

وقال (ع) أيضاً: «مَنْ حَسَنَ كَلَامُهُ، كَانَ النُّجْحُ أَمَامَهُ»^(١).

قيل أنه في معرض للألعاب البهلوانية، بدا مدرب ومعه مجموعة من الأسود المستأنسة المدربة، في قفص حديدي كبير ومتين مُحْكَم. ثم أخذ المدربُ يُري المتفرجين والمشاهدين: كيف أنه يقترب من الأسود ويلعبها دون أن تمسه بسوء. وبينما هو كذلك، إذ انقضَّ عليه واحد من الأسود، فَعَقَرَهُ، وأرداهُ صريعاً حتَّى فارق الحياة. ثمَّ إنَّ إدارة المعرض أرجعت الأسود إلى مكانها الأول، وقامت بإحضار طعام طيب للأسد الذي قتل المدرب، ولكنَّه لم يأبه به من فرط ما أصابه من الندم حسب رأي إدارة المعرض، ثم أحضروا لبوة وقربوها إليه فأنقضَّ عليها وقتلها. وبعد ثلاثة أيام فارق الأسدُ الحياة.

والشاهد المراد في هذه القصة ليس أنَّ الوحش لا يُمكنُ استئناسه وإيلافه، وإمَّا الشاهد: الوحشية ذاتها، إذ الوحش حينما يُخلَّى عنه ويُترك، ويجرح، وينخر، ويفترس. والكلُّ ممَّا يعلم أنَّ لغة السَّبَاع والوحوش ليست هي اللُّطْف والرَّفْق واللَّيْن، وإمَّا هي الجرح والعقر والافتراس.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ في فم كلِّ واحد ممَّا يرقد سُبُعٌ كاسرٌ له أنياب حادة قاطعة، ولكنَّه من نوعٍ آخر.

وربَّما يسأل السَّائل - وهو يعرف الإجابة مُسبقاً: ما هو هذا السَّبُع؟

إنَّه اللِّسَانُ!

إنَّ لسان الإنسان، هذا العضو الذي لا يتعدى كونه قطعة لحم ذات وزن قليل محدود، يمكن أن يتحول إلى سبع ضارٍ، يجرح، ويعقر، ويفترس فيما إذا خلَّى عنه وترك شأنه: يجرح الآخرين ويعقرهم، وفي محصلة الأمر يتفرَّغ لصاحبه فيعقره ويرديه.

ولأنَّ اللِّسَانَ وحشٌ كاسرٌ، وسبع ضارٍ، فإنَّ الأسلوب الموضوعي للتعامل معه يتمثل في

١. الغرر والدرر. النجاح.

حفظه، ومنعه من جرح النَّاسِ وعقرهم، وتوجيهه في طريق الخير والحقِّ والصَّلاح والفضيلة^(١). وليس من نافلة القول: أنَّ كثيراً من الأذى الذي يصيب النَّاسَ هو بسبب أَلْسِنَةٍ من يتعاملون معهم. إِنَّ قِسْماً من النَّاسِ قد يُطْلَقُونَ لألسنتهم أَعْتَتَهَا، ويجعلونها لا تلوي على شيء، وبالتالي فإمَّا يقعون في جانب جرح النَّاسِ وإيذائهم بكلماتهم النَّابية والجافة، وإمَّا يقعون في وحل الثَّروة وفُضُول الكلام، فيتحوَّلون إلى مصانع لإنتاج الكلمات بشكل مذهل، وإمَّا أَنَّهُمْ يقعون في الجَانِبَيْنِ معاً، وهنا يكون الأمر أدهى وأمرُّ وبذلك يخسرون وُدَّ النَّاسِ لهم بإساءتهم معاملتهم، وليس من العقل والحكمة في شيء أن يوجه المرء لسانه في أيٍّ من الجَانِبَيْنِ، ولا في أي جانب من جوانب السُّوء والشَّرِّ الأُخْرَى. وإمَّا العقل والحكمة يقتضيان أن يجعل المرء من لسانه مركباً للخير، وواسطة له، وأن يتحكَّم فيه ويخزِّنه كما يخزِّن دراهمه ودنانيره، وأن يتكلم في الموقع المناسب، ويسكت في الموقع المناسب، فإذا كان الكلام في بعض المواطن من فضة، فإنَّه من ذهب في مواطن أُخْرَى.

إِنَّ اللِّسَانَ يجب أن يُجْعَلَ صانع الكلمة الحسنة التي هي عنوان النَّجاح ووسيلته. وحسن الكلام يجب أن ينظر إليه من ناحيتين:

- توجيه اللِّسان في طريق الخير والفضيلة، وجعله واسطةً لذلك.
- تحسين الكلام بحيث يكون لائقاً لبقاً، وهو ما يمكن أن يدعى باللياقة واللباقة في التَّحدُّث.

إِنَّ اللِّيَاقَةَ^(٢) هي المُنَاسَبَةُ والحُسْنُ، واللباقة - عموماً - هي اللِّيُونَةُ في الأخلاق، واللطافة، والظَّرافة. وأن يكون الكلام لائقاً يعني أن يكون مُنَاسِباً وحَسَناً، وأن يكون لِبِقاً يعني أن يكون لِيناً، ولطيفاً وظريفاً.

*١. ومن أوجه الخير والفضيلة: احترام الناس، وتشجيعهم على الخير ولدلائهم عليه، وبثُّ روح الإيجاب فيهم، والدِّفاع عن حقوق الإنسان.

*٢. لياقة الكلام: كونه أخلاقياً وعقلانياً.

ومن لياقة الكلام ولباقته أن يكون فصيحاً بليغاً، وهذه من مهمات علم الأدب، وبالتحديد علم البلاغة بفروعه الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

ومن المهمَّ التَّنَبُّهُ إليه أَنَّ اللياقة واللباقة في الكلام مع النَّاسِ يجب أن تكون منبعثة من الإخلاص، والنيَّةُ الصَّادِقة، والسَّريَّة الصَّالحة. لا كما يفعل بعض التُّجَّار حيث يُحَسِّنُونَ الكلام للنَّاسِ عن بضائعهم المغشوشة من أجل أن يقبضوا ثمناً جيِّداً عنها. ولا كما يفعل أولئك الذين يواجهون النَّاسَ بلسان لائقٍ لبقٍ، لكنَّهم يَرُوغُونَ منهم كما تروغ الثَّعَالِبُ، لسوء نيَّاتهم وضمائرهم.

يقول الإمام عليّ (ع) في الشُّعر المنسوب إليه، بشأن هذا النوع من النَّاسِ:

وَإِذَا الصَّدِيقُ رَأَيْتَهُ مُتَمَلِّقًا *** فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُتَجَنَّبُ

لَا خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَمَلِّقٍ *** حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ

يَلْقَاكَ يَخْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَائْتِقُ *** وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ خَلَاوَةً *** وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

واللياقة واللباقة في الكلام من القواعد الفنِّيَّة التي يحتاجها المرء في تعامله مع النَّاسِ، وفي كَسْبِهِمْ إلى وجهة نظره إذ أنَّ لسانه هو الوسيَّة الأولى، أو الأكثر استعمالاً في التَّعامل معهم. فالإنسان الذي يجيد كيف ومتى يتكلم، ومتى يسكت، وكيف يختار الكلمات اللَّائِقَةَ، وكيف يحاور أو يناقش الشَّخص الآخر، لا شكَّ أنَّه يجيد جانباً هاماً من جوانب التَّعامل مع النَّاسِ، وكسب ودِّهم، والتَّأثير فيهم.

ومن اللياقة واللباقة في الكلام، البدء في النَّقاش بنقاط الاتِّفاق وتأكيدِها، والحصول من الطَّرَف الآخر على موافقات.

يقول أحد الكتَّاب:

«قال «ج. ا» وسيط شركة «و. ه» للمنتجات الكهربائية:

«كان في بلدنا عميل تتلهَّف شركتنا على معاملته، وبعد ثلاثة عشر عاماً من المحاولات المتكرِّرة، والمساعي الدَّائبة، أفلحنا في أن نبيعه شيئاً من منتجاتنا، على أنَّني ما إن زرتُه بعد هذه الصَّفقة بقليل حتَّى فاجأني العميل بقوله: «ج. ا»! إنَّني لن أشتري منكم شيئاً ما حيَّيتُ.

«- لماذا؟

«- لَأَنَّ مُحَرِّكَتِكُمْ شديدة الحرارة، لا أستطيع حتَّى أن ألمسها بيدي أثناء اشتغالها!

«- إذا كان ما تقوله صحيحاً، يا سيِّد «س» فلا ينبغي أن تشتري مِنَّا شيئاً بعد اليوم. إِنَّ من حَقِّكَ أن تحصل على محركات لا تزيد حرارتها عن المعدَّل الذي حدَّده اتِّحَادُ المُنْتَجاتِ الكهربائيَّةِ الوطنيِّ. أليس كذلك؟

«- نعم.

«- لقد قرَّر اتِّحَادُ المُنْتَجاتِ الكهربائيَّةِ الوطنيِّ ألا تزيد درجة حرارة المحرك على ٧٢ درجة فهرنهايت فوق درجة حرارة الغرفة التي يُدار فيها المحرِّك. أليس كذلك؟.

«- نعم. ولكنَّ محركاتِكُمْ تزيد عن ذلك بكثير.

«ولم أجادله، بل سألتُه:

«- كم درجة حرارة الغرفة؟

«- ٧٥ درجة فهرنهايت، على وجه التَّقريب.

«- حسناً، إذا كانت درجة حرارة الغرفة ٧٥ درجة وأضيف إليها ٧٢ درجة أخرى، لأصبح المجموع ١٤٧ درجة فهرنهايت.

«- نعم.

«وعندئذ قلتُ مُقْتَرِحاً:

«- أفلا يحسُن بك - إذن - أن تبعد يديك عن المحرِّك أثناء دورانه؟

«فقال أخيراً:

«- أَظُنُّكَ على صواب!

« وقبل أن أنصرف في ذلك اليوم، أوصاني بما قيمته ٣٥٠٠٠ ريال من الآلات».

إن اللياقة واللباقة في الحديث يجب أن لا تُستعمل بحال للاحتيال على النَّاس، وجَنِّي المصالح منهم، بل يجب أن تكون خُلُقاً يعتمد على الإخلاص والنيَّة الصادقة. ويتلزَم على من يستعمل اللياقة واللباقة من أجل المادَّة والمصالح بعيداً عن مبادئ الدِّين والعقل المُؤدَّب، أن يعيد النَّظر في فهمه لمعنى اللياقة واللباقة، وإن كانت المصالح المتبادلة المشروعة، البعيدة عن الاستغلال والانتهاز والاحتتيال. لا بأس بها.

واللياقة واللباقة - كَخُلُقٍ وَادَّبٍ - مطلوبة في الحديث العاديِّ، وفي الحوار الكلاميِّ، وفي المباحثة، والنُّقاش. ومن اللباقة إعطاء الطَّرَف الآخر فرصة التَّحدُّث الكافية، وإبداء الآراء.

ومن الحالات غير الإيجابية التي تحدث في هذا المجال: أن يرى المرء قسماً من النَّاس إذا تحدَّثوا، أو تحاوروا، أو تناقشوا مع غيرهم، ينظر إليهم وكأنَّهم في غابة، فلا مراعاة لآداب الكلام والحديث عندهم، فهذا يتكلَّم، والآخرين يتكلَّمون في نفس الوقت، ومُحَصِّلُهُ ذلك: حدوثٌ غوغاء كلاميَّة مُتَّعِبة، وربما مصحوبة بالانفعال والصِّيَاح، والغضب والتَّعَصُّب.

ومما يؤسِّف له بشدة أن قِسْماً من النَّاس في مجتمعاتنا، ينقصهم عنصر اللياقة واللباقة في التَّحدُّث والحوار، مع أنَّ الإسلام أرشدنا إلى خُلُقِ اللياقة واللباقة منذ أكثر من ١٤٠٠ عام. ولو أنَّ أولئك التزموا نظاماً في الحديث، واستعملوا اللياقة واللباقة، لوَفَّروا على أنفسهم جهداً ووقتاً، ولتوصَّلوا إلى ما يُراد الوصول إليه بكل سهولة ويسر، مضافاً إلى هذا تحقُّق حسن التَّعامل مع الآخرين.

واللياقة واللباقة يعينان المرء على التَّحدُّث بسهولة ويسر، وتوضيح ما يراد توضيحه بقدرة وكفاءة. كما أنَّهما تفيدان المرء في تبيين ما يريد تبيانه بصورة فنيَّة، يكون لها وقعاً إيجابياً على الطَّرَف الآخر.

ومن طريف ما ينقل عن اللياقة واللباقة في التَّحدُّث وبيان الآراء، أن ملكاً من الملوك حلم ذات يوم بأنَّ أسنانه كُلُّها تساقطت، فانزعج ولم يعلم ماذا يكون

ذلك، فاستدعى مُفَسِّرًا للأحلام، فقال المُفَسِّرُ: إِنَّ جميع أقبائك يموتون قبلك، فَقَتَلَهُ، ثم أُخْضِرَ له آخَرَ، فَقَتَلَهُ كذلك، ثم أُخْضِرَ له ثالث فقال: إِنَّ تفسير رؤياك يا سيادة الملك أنك أطول أقبائك عُمرًا إن شاء الله تعالى. فأمر له بجائزة. مع العلم بأن مضمون الآراء الثلاثة واحد.

وهكذا فَلِكِيَّ يكون المرء على طريق النّجاح في تعامله مع النّاس، واجبه أن يحفظ لسانه، وأن يستعمله في وجوه الخير والفضيلة، وأن لا يستعمله في إيذاء الآخرين وجرح مشاعرهم والإساءة إليهم، وَخَلِيقٌ به أن يتوسّل باللياقة واللباقة - وبإخلاص - في الحديث العاديّ والحوار، وفي المباحثة والمناظرة، وفي النقاش وبيان الآراء، وفي غير ذلك.

❖ مُخَاطَبَةُ دَوَافِعِ الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ فِي النَّاسِ

قال الإمام علي (ع):

«كَفَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ حُسْنُ عَادَةٍ»^(١).

في داخل كلّ إنسان نفخة من الرُّوح، وَطِئَةٌ من الحِمَا المَسْنُون، خَيْرٌ كان أو شَرِّيراً. فَحَتَّى ذلك الشَّرِّيرُ حينما تُخَاطَبَ جذور الخير والدّوافع النّبيلة فيه، وَيَتَوَسَّلَ بها في التّعامل معه، فَإِنَّهُ يشعر في قرارة نفسه أن مُخَاطَبَهُ ذو فضل عليه، وأن مُخَاطَبَهُ يقدّره، ويحترّمه، وبالتالي فَإِنَّهُ يَجْهَلُ من أن لا يتعامل مع مُخَاطَبِهِ بطريقة لائقة. هذا بالنّسبة للإنسان الشَّرِّير، فكيف بالخَيْرِ؟

بلا ترديد، إِنَّ الدوافع النّبيلة، ودوافع الخير والفضيلة^(٢) أكثر استيقاظاً في الإنسان

١. المصدر السابق.

٢. مما هو جدير بالإشارة إليه أَنَّ التّوسّل إلى دوافع الخير والفضيلة لدى أصحاب الصّماثر الحيّة، من الأساليب المهمة والمؤثّرة في الدّفاع عن حقوق الإنسان، وإيقاف الانتهاكات لتلك الحقوق.

الْخَيْرِ، مِنْهُ فِي الشَّرِّيرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْبَيْئَةُ الصَّالِحَةُ لِلْخَيْرِ. وَحَيْثُ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ التَّوَسُّلَ بِالذَّوَابِعِ النَّبِيلَةِ وَالْخَيْرَةِ فِي النَّاسِ وَمَخَاطَبَتِهَا، قَاعِدَةٌ لَا يُسْتَهَانُ بِهَا فِي جَذْبِهِمْ، وَكَسْبِهِمْ، وَالتَّأَثُّرِ فِيهِمْ، وَتَغْيِيرِ طَبَاعِهِمْ. وَكَمْ مِنْ أَنْاسٍ أَشْرَارَ انْتَقَلَوْا مِنْ جَحِيمِ الشَّرِّ، إِلَى جَنَّةِ الْخَيْرِ بِفِعْلٍ مِنْ تَوَسُّلِ دَوَابِعِ الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَالتُّبُلِ فِيهِمْ! فَكَانَ هَذَا التَّوَسُّلُ هُوَ مَثَابَةُ إِنْقَازِ الْغَرِيقِ مِنْ أَحْضَانِ الْمَوْتِ.

وَقَدْ يَسْأَلُ السَّائِلُ: كَيْفَ التَّوَسُّلُ بِدَوَابِعِ الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ فِي النَّاسِ؟

إِنَّ ذَلِكَ يَتِمُّ بِمَخَاطَبَةِ جَانِبِ الْخَيْرِ فِي الْإِنْسَانِ وَإِثَارَتِهِ.

وَمِثَالٌ عَلَى ذَلِكَ: أَنْ يَقُولَ الْمَرْءُ لِشَخْصٍ: أَنَّنِي أَثْقَى بِكَ، وَأَصْدُقُ وَعُودُكَ، فَإِنَّهُ حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا الشَّخْصُ مِمَّنْ لَيْسُوا بِثِقَةٍ وَغَيْرِ صَادِقِي الْوَعُودِ، لِابْدَأَ أَنَّهُ سَيَحَاوِلُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِتِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي ارْتَسَمَتْ لِلْمَرْءِ عَنْهُ. وَكَمَا يُقَالُ: حِينَمَا تَبْنِي لِلْإِنْسَانِ قَصْرًا مِنَ الرَّجَاجِ فِي قَلْبِكَ، فَلَنْ يَحَاوِلَ أَنْ يَرْمِيَهُ بِحَجَرٍ!

وَحِينَمَا تَطْلُبُ مِنْ إِنْسَانٍ الْقِيَامَ بِعَمَلٍ، وَتَبْدَأَ طَلَبَكَ بِأَنْ تَقُولَ لَهُ: إِنَّنِي أَتَوَسَّمُ فِيكَ الْخَيْرَ، وَإِنِّي لَوَاثِقٌ مِنْ أَنَّكَ لَنْ تَرُدَّ طَلْبِي، فَإِنَّهُ سَيَقُومُ بِالْعَمَلِ لَكَ، وَلَنْ يَرُدَّكَ خَائِبًا.

وَقَدْ تَسْأَلُ: لِمَاذَا؟

وَالْجَوَابُ: لِأَنَّكَ رَسَمْتَ لَهُ صُورَةً جَمِيلَةً فِي ذَهْنِكَ وَقَلْبِكَ، وَتَوَسَّلْتَ بِدَوَابِعِ الْخَيْرِ وَالتُّبُلِ وَالتَّجَابَةِ فِي أَعْمَاقِهِ.

وَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا وَيَحِبُّ الْخَيْرَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ، خَيْرًا، أَوْ بِالْغَا مَا بَلَغَ مِنَ الشَّرِّ. وَالتَّعَامُلُ مَعَهُ عَلَى أُسَاسِ اسْتِشَارَةِ دَوَابِعِ الْخَيْرِ وَالتُّبُلِ، لِابْدَأَ وَأَنْ يُثِيرَ فِيهِ الرَّغْبَةَ فِعْلًا، وَيَجْعَلَ كُلَّ خَلِيَّةٍ مِنْ خَلَايَاهُ تَتَّجِهَ نَحْوَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ. بَلْ إِنَّ قِسْمًا مِنْ الْأَشْرَارِ لَا يَحْتَاجُونَ فِي إِصْلَاحِهِمْ سِوَى تَقْدِيرِهِمْ، وَالتَّوَسُّلِ بِدَوَابِعِ الْخَيْرِ فِيهِمْ. وَالْإِنْسَانُ حَتَّى لَوْ كَانَ شَرِّيرًا فَقَدْ لَا يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ كَذَلِكَ، وَلَرَمَا يَعْتَقِدُ أَوْ يَدَّعِي بِأَنَّهُ يَتَوَسَّلُ فِي مُعَامَلَاتِهِ مَعَ النَّاسِ بِطَرِيقَةٍ صَالِحَةٍ، أَفَلَا تَكُونُ مَخَاطَبَةُ أَصْلِ الْخَيْرِ فِيهِ وَسِيلَةً لاثِقَةٍ لِإِصْلَاحِهِ، وَإِصْلَاحِ مُعَامَلَتِهِ النَّاسِ؟

وعن تأثير هذا الأسلوب في الشَّخص الآخر، يُقال أنَّ صُحُفِيًّا أراد أن يلتقط صورة فوتوغرافيَّة لأحد المشاهير في حالة غير لائقة، فالتفت إليه الأخير، وقال له: إنَّ مثل هذه الصُّورة لن تُروِّق لأُمِّي، ولن تُرضيها. وسَرَتْ هذه الكلماتُ في مسامع الصُّحفيِّ، وحركت مشاعره، فامتنع عن التقاط الصُّورة. والسَّبَبُ أنَّ الآخرَ توسل بدافعٍ خيِّرٍ ونَبِيلٍ في الإنسان، وهو حُبُّه لأُمِّه، ومحاولته جلب رضاها.

إنَّ النَّاسَ منهم الأَمَنَاءُ المُخْلِصُونَ، ومنهم مَنْ لِيُسُوا كذلك. وحَتَّى هؤلاء الأخيرين يستحيلون إلى أناس من نوعٍ آخرٍ حينما يُعَامَلُونَ على أَنَّهُمْ منصفُونَ مُخْلِصُونَ. وكم من أناسٍ مشاكسين عنيدين تحولوا إلى منصفين بفعل مخاطبة دوافع الخير والفضيلة والنُّبْلِ فيهم، والتَّوَسُّلِ إليها! ومن أولئك: المُسْتَأْجِرُ المُشَاكِسُ، فماذا كانت قِصَّتُه؟

«يُقال بأنَّه كان لدى صاحب شركة كبيرة مُسْتَأْجِرٌ مُشَاكِسٌ، لا يفتأ يهدِّده بإخلاء مسكنه بين آن وآخر. وقبل انقضاء عقد الإيجار بأربعة شهور، أُنذر هذا المُسْتَأْجِرُ بأنَّه سيخلي مسكنه، بغضِّ النَّظَرِ عن العقد المُبرم بينهما.

قال السَّيِّدُ صاحب الشَّرْكة وهو يروي القِصَّة:

«قضى هذا الرَّجُلُ في بيتي فصل الشَّتَاءِ بطُوله، وهو أسوأ فصول السَّنة، وأكثرها ازدحاماً براغبي السَّكن، ومن ثَمَّ أيقنْتُ أَنَّهُ إذا أخلى مسكنه، فسيتعذَّر عليَّ إيجاد بديلٍ عنه قبل حلول الشَّتَاءِ الثَّاني. ورأيت بعين خيالي مِئتين وعشرين دولاراً - هي المبلغ المتبقي في عقد الإيجار - تذرّوها الرياح. وكنتُ في حالة كهذه أهرعُ إلى المُسْتَأْجِرِ، وأنصحه ساخراً، أن يقرأ العَقْدَ مرَّةً ثانية، فإذا اعتزم إخلاء المسكن، وجب أن يدفع باقي الإيجار نقداً وعداً!

«ولكنني بدلاً من تمثيل هذا المشهد، قرَّرتُ أن أجربَ أسلوباً آخر، فذهبت إلى المُسْتَأْجِرِ العنيد، وبدأتُ حديثي معه كالتالي:

«لقد استمتعْتُ إلى قِصَّتِكَ، ولكنني ما زلتُ مستريباً في أنك تنوي الانتقال حقاً. إنَّ خبرة أعوامٍ طويلة في تأجير المنازل قد علَّمتني شيئاً عن الطَّبِيعَةِ الإنسانيَّةِ،

وقد تَوَسَّمتُ فيكَ - من البداية - رجُلًا يحافظ على وعده، وما زلت عند حسن ظنِّي بك. ولهذا أقترح عليك أن تَنَحِّيَ قرارَكَ جانباً لبضعة أيام، وتَفَكَّرَ في الأمر، فإذا أَتَيْتَ إلَيَّ في أوَّلِ الشَّهرِ المُقبل - عندما يَحِينُ موعدُ الإيجار - وأخبرتني أَنَّكَ ما زلتَ مصرّاً على الانتقال، فأبَيُّ أَعِدُّكَ أن أَتنازلَ عن حقوقي كافّة، وأُسَلِّمَ بِأَيِّ كُنْتُ مُخْطِئاً في ظنِّي! على أَنّني ما زلتُ أَعْتَقِدُ أَنَّكَ رجلٌ يحافظ على كلمته، ويقوم بتنفيذ وعده، إذ نحن آخِرَ الأمرِ، إما آدميُونَ أو قردة، والخيار عادةً متروكٌ لنا.

« فلمّا أَقبلَ الشَّهرُ التَّالِي، أتى الرَّجُلُ ودفعَ الإيجارَ، ثمَّ حَدَّثَنِي بأنّه تناقشَ وزوجتُهُ في الموضوع، فقرَّرَ رَأْيُهُمَا على أَنّه أَكرمَ لهما وأَشْرَفَ أن يُوفِيا بتعهُداَتهما لي!».

وَهَذِهِ نَقْطَةُ مِنَ المَهْمِ ذَكَرْهَا، أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ تحتَ تأثيرِ ظروفٍ خاصّة - كتحقيقِ منافع، أو كسبِ رضا السُّلطان، أو التزوّفِ له - قد يُطْفِئُ جذوةَ الخيرِ وُجُمِيتَ دوافعَ النُّبْلِ فيه، فيُؤَمِّسِي يخالِفَ عقله مهما تَوَسَّلَتِ بالدَّوافعِ النُّبيلةِ فيه، فلا يستجيبُ لنداءِ العقلِ ويُصِرُّ على عناده وتعنُّته. وهذا كما مرَّ في قِصَّةِ وَلَدَيِّ مُسلم بن عَقيـل، الصَّغِيرَيْنِ اليَتِيمَيْنِ، فَكَلَّمَا تَوَسَّلَ الغلامان بدوافعِ الخيرِ والفضيلةِ والنُّبْلِ في ذلك الجَلَادِ، واستلطفاه واسترفقاه، أَصرَّ الأخيرُ على تنفيذِ القتلِ، حتّى قتلَهُمَا صَبْرًا: ظُلَمًا وَعُدْوَانًا.

والآن إذا شاء المرءُ تَغْيِيرَ طَباعِ النَّاسِ إلى الأَفْضَلِ، وجعلِهِم يفعلون ما يَريْدُهُم أن يفعلوه من أَعْمالِ الخيرِ، خَلِيقٌ بِهِ أن يَخاطِبَ دوافعَ الخيرِ والفضيلةِ والنُّبْلِ فيهِم، وأن يَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا، فهذه قاعدة هي من الأَهميَّةِ بِمَكانٍ في مُعاملةِ النَّاسِ واستِصلاحِهِم.

القِسْمُ الثَّالِثُ: كَيْفَ يَكْسِبُ الْمَرْءُ وَدَّ النَّاسِ وَحُبَّهُمْ لَهُ؟

❖ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ

قال الإمام عليُّ (ع):

«بِالتَّوَدُّدِ تَكُونُ الْمَحَبَّةُ»^(١).

وقال (ع) أيضاً:

«أَقْرَبُ الْقُرْبِ مَوَدَّاتُ الْقُلُوبِ»^(٢).

وقال الإمام الصادق (ع):

«رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا اجْتَرَّ مَوَدَّةَ النَّاسِ إِلَى نَفْسِهِ فَحَدَّثَتْهُمْ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَتَرَكَ مَا يُنْكِرُونَ»^(٣).

وقال (ع) أيضاً:

«ثَلَاثٌ تُورِثُ الْمَحَبَّةَ: الدِّينُ، وَالتَّوَاضُّعُ، وَالبَدْلُ»^(٤).

التَّوَدُّدُ: طلب المودَّة، واجتلاب الودِّ، والتَّحُبُّب، فأن يتودَّد المرء إلى أن يُحَبَّبَ المرءُ النَّاسَ إليه، ويصبح محبوباً بينهم، تلك رغبةٌ وغايةٌ يَجِدُ في طلبها كُلُّ النَّاسِ واهتمامٌ من الاهتماماتِ الْأَسَاسِيَّةِ لِكُلِّ مِنْهُمْ، فما من إنسانٍ إِلَّا وَيُحِبُّ جَمًّا أَنْ يحوز على حبِّ عائلته، وإخوانه، وأصدقائه، وزملائه في العمل، وعموم النَّاسِ، لأنَّ «الْمَرْءَ بِأَخِيهِ» وَبَيْنِي نَوْعِهِ.

إنَّ كَسْبَ وَدِّ النَّاسِ وَحُبِّهِمْ بُعْدٌ عَظِيمٌ مِنْ أَعْبَادِ النَّجَاحِ، وَالسَّعَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. فهل هناك أعظم سعادة من أن يكون المرء محبوباً، مودوداً، محفوداً محشوداً بين بني البشر؟ وهل هناك أمرٌ وأشقى من أن يُمَسِّيَ غيرَ مُتَمَتِّعٍ بِحُبِّ النَّاسِ ووُدِّهِمْ، ويعيش بعيداً عنهم وخارج ألبابهم وقلوبهم؟

١. الغرر والدرر.

٢. المصدر السابق.

٣. وسائل الشَّيْخَةِ، ج ١١، ص ٤٧١.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٣٩.

لقد أعطى الدِّينُ للحُبِّ اهتماماً عظيماً، إذ أنَّه القاعدة العريضة والمُتينة التي يقوم عليها صرح الاجتماع الحضاريِّ النَّاجح، وفي سبيل ذلك جاء الدِّينُ بمجموعات كثيرة من النُّصوص التي تهتم بشؤون المحبَّة والمودَّة المتبادلة بين النَّاس، تلك النُّصوص التي يَخْلُقُ بالمرء أن يُنشِئَ بنيان معاملته النَّاس على أساسها وهذاهـا «وهل الدِّينُ إلَّا الحُبُّ»؟

ومن أجل أن يحبَّ المرءُ النَّاسَ إليه، جاءت القواعد الثَّالِية:

النَّاسُ، يعني: أن يطلب مودَّتَهم، ويتحبَّبَ إليهم، كي يصبح محبوباً إلى النَّاس، يعني: أن يطلب مودَّتَهم، ويتحبَّبَ إليهم، كي يصبح محبوباً من قِبَلِهِمْ، مودوداً بين ظَهْرَانِهِمْ. إن التودُّد والتحبُّب إلى النَّاس، يقود إلى كسب مودَّتَهم ومحبَّتَهم، وبهذه المحبَّة يكون قريباً منهم إلى قلوبهم. وعليه فَمِنْ أبرز ثمار المحبَّة: القُرْبُ، والقِرابَة من النَّاس. قد يكون المرء بعيداً عن النَّاس بالنَّظر إلى النَّسَبِ، ولكنَّ المحبَّة تجعله قريباً منهم، وقد يكون قريباً منهم من جهة النَّسَبِ ولكنَّه لا ويتحبَّبُ إليهم ولا يُحبُّهم، فَيُفْسِدُ عَبيداً عنهم. ومن هنا كانت المودَّة أقرب الأرحام بالنَّسبة للإنسان، وأنَّ لا قِرابَة أقرب من مَحَبَّات القلوب. بل حتَّى القِرابَة هي أحوَج إلى الحُبِّ والودِّ، من الحُبِّ والودِّ إلى القِرابَة.

يقول الإمام عليُّ (ع):

«القِرابَة إلى المودَّة أحوَجُ من المودَّة إلى القِرابَة»^(١).

وقد يتساءل المرء: كيف التودُّد والتحبُّب إلى النَّاس لِكسبِ مَحَبَّتِهِمْ ومودَّتِهِمْ؟

بطبيعة الحال إنَّ التودُّد إلى النَّاس والتحبُّب إليهم عملية تفاعل، لا تَنشُج من لا شيء، وإمَّا تعتمد على عطاء يقدمه الإنسان إليهم، فهي عطاءٌ يستتبعه أخذٌ ويتمثَّل العطاء في التَّواضع للنَّاس، وحُسْنُ الخُلُقِ معهم، والرِّفقَ بهم، حُسْنُ البِشْرِ وطلاقةِ الوُجْهِ مَعَهُمْ، وخدمتهم والبذل لهم، والإنصاف في معاشرتهم، والوفاء لهم، وتحديثهم بما يعرفون ويؤمنون به، وترك ما ينكرونه.

١. نهج البلاغة، الحكم.

وهنا سؤال: هل المطلوب من الإنسان أن يتحَبَّبَ إلى النَّاسِ وَيُحِبَّهُمْ بصورة مطلقة، أم أن هناك معايير وحدود تنظم هذا الحب؟

لا شكَّ أنَّ الإنسان في حُبِّه للنَّاسِ ينبغي له أن ينظر إلى مناظرتهم له في الخِلْقَةِ، ويتعامل معهم على أساس ذلك. وفي الطَّرَفِ الآخَرِ ينبغي له أن يحفظ المقاييس المبدئيَّة في الحبِّ، فيجعل حُبَّه في الله، وبغضه في الله أيضاً، بمعنى آخر: الحبُّ على أساس حُبِّ الله والإيمان والالتزام بمبادئه.

يقول تعالى:

(لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ)^(١)

ومن هنا فالإنسان حينما يُقَيِّمُ حُبَّه للنَّاسِ وفق معايير سليمة، يَتَقَوَّمُ حُبُّه وبغضه، فيعرف ما وَمَنْ يحب، وما وَمَنْ يبغض. أمَّا إذا ضاعت المعايير السليمة للحبِّ فيه، اختلطت عليه الأمور، وأصبح الخير والشرَّ عنده سواء، ولم يعد يفرِّقُ بين حقٍّ وباطلٍ، وخيرٍ وشرٍّ، وحسنٍ وقبحٍ، وفضيلةٍ ورذيلةٍ، وعليه، فهل المُبْطِلُون، والأشرار، وأتباع الرَّذيلة، ومن هم على شاكلتهم، جديرون بالحبِّ والودِّ؟

بطبيعة الحال، كلا!

بل إنَّ من الحكمة ووضع الشَّيء في موضعه، أن يضع المرء تودُّده وتحبُّبه، ومودَّته ومحبَّته في موضعها، فيتحبَّبُ إلى من هو أهل للتحبُّبِ فيحُبُّه، ولا يتحبَّبُ إلى من ليس أهلاً لذلك. ومنَ الجديرين بالتحبُّبِ لهم: الأخُ {يارُ، والأَكِيَّاسُ (الْقَطِينُ)، العلماءُ، المؤمنونَ، المتَّقونَ، العُقلاءُ، أولياءُ الله، الأوفياءُ. ومنَ غير الجديرين بالتحبُّبِ لهم: أضداد المتقدِّمين.

يقول الإمام الصادق (ع): «مَنْ وَضَعَ حُبَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْقَطِيعَةِ»^(٢).

١. ٢٢ / الْمُجَادَلَةُ، حَادَّ: عَادَى وَغَضَبَ. يُوَادُّونَ: يُحَابُّونَ، يُحِبُّونَ، يُؤَدُّونَ.

٢. بحار الأنوار، ج٧٤، ص ١٨٣.

ويقول الإمام علي (ع): «لَا تَبْذِلَنَّ وَدَّكَ إِذَا لَمْ تَحِدْ مَوْضِعًا»^(١).

ويقول (ع) أيضاً:

«إِيَّاكَ أَنْ تُحِبَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ، أَوْ تُصْفِيَ وَدَّكَ لِغَيْرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهُمْ»^(٢).

وبعد أن يعلم المرء وضع الحب في موضعه المناسب، عليه أن يتخلَّق بالتَّوَّاضِعَ مَنْ هُمْ جَدِيرُونَ بِالْحَبِّ وَالْوُدِّ، إذ التَّوَّاضِعُ هُوَ الْعَنْصَرُ الْأَسَاسُ لِنُمُو الْحَبِّ فِي مَا بَيْنَ النَّاسِ، وَالتَّوَّاضِعُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّقَرُّبِ وَالدُّنُو مِنْهُمْ، أَمَّا التَّكَبُّرُ وَالْإِبْتِعَادُ فَهُمَا يُوَدِّيَانِ إِلَى نَفورِهِمْ وَابْتِعَادِهِمْ.

ومما يُؤَسِّفُ لَهُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَبْتَغِدُ عَنِ النَّاسِ وَلَا يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ، وَيَنْتَظِرُ مِنْهُمْ أَنْ يَحْبُوهُ، بَلْ رِمَا يَفْتَخِرُ الْبَعْضُ بِأَنَّ النَّاسَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ وَيَتَوَدَّدُونَ، وَهُوَ يَبْتَغِدُ عَنْهُمْ، وَهَذَا مِنَ اللَّوْمِ وَالْحِمَاقَةِ. إِنَّ الْمَرْءَ خَلِيقٌ بِهِ أَنْ يَتَوَدَّدَ إِلَى النَّاسِ، وَيَغْتَنِمَ فُرْصَةَ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ، وَمَنْ يَبْتَغِدُ حِينَ التَّقَرُّبِ مِنْهُ، لَيْسَ جَدِيرًا بِأَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ. يقول الإمام علي (ع):

«زُهْدُكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نَقْصَانُ حَظٍّ، وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلٌّ نَفْسٍ»^(٣).

وهكذا فَلِكَيْ يَكْسِبَ الْمَرْءُ وَدَّ النَّاسِ وَحُبَّهُمْ لَهُ، جَدِيرٌ بِهِ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ وَيَتَوَدَّدَ وَيَتَحَبَّبَ، مَعَ جَعْلِ التَّحَبُّبِ وَالْحَبِّ وَفَقِّ الْمَعَايِيرِ الْمَبْدِئِيَّةِ.

❖ اسْبَاغُ التَّقْدِيرِ الْمُخْلِصِ

قال الإمام علي (ع): «مَنْ أَحْسَنَ إِلَى النَّاسِ اسْتَدَامَ مِنْهُمْ الْمَحَبَّةَ»^(٤).

١. الغرر والدرر.

٢. المصدر السابق.

٣. نهج البلاغة، الحكم.

٤. الغرر والدرر.

يقول أحد الكتّاب:

«كنتُ أنتظر دوري في الصّف المنتظم أمام مكتب البريد لأُسجِّل خطاباً، فلاحظت أنّ الموظّف المنوّط به التّسجيل متبرّم بعمله، مالٌ منه: يَرْنُ المظاريف ويتناول الطّوابع، ويردُّ باقي النقود، ويحرّر الإيصالات.. حلقة مُفرغة من العمل المتشابه الذي عهده سنة بعد أخرى. فقلت في نفسي: فلأحاول التّحبّب إلى هذا الشاب.

«وبديهي أنني إذا أردت أن اتحبّب إليه، فيجب أن أقول له قولاً لطيفاً لا عن نفسي، وإمّا عنه هو! وسألت نفسي: تُرى ما الذي يستحقُّ أن أُبدي إعجابي به؟.

«والإجابة عن هذا السُّؤال عسيرة أحياناً، خصوصاً حيال الغرباء، ولكنها في تلك المناسبة بالذّات كانت ميسورة، فرعان ما ملحت شيئاً اعترمت أن أُبدي له إعجابي به.

«وبينما الشاب يزن مطروفي، قلّت له في لهجة مُخلّصة: «لكم أمتنى لو كان لي مثْلُ شعرك الفاحم اللّماع!». فنظر إليّ الشاب وهو نصف ذاهل، وقد أشرق وجهه سروراً، وقال في تواضع: «حقاً إنّه ليس في بهائيهِ الأوّل». فأكدت له أنّه ما زال جميلاً أخذاً. وقد سرّ لذلك أيّما سرور، وقال: إنّ كثيرين قبلي أبدوا إعجابهم بشعره!

«وأراهن أن هذا الشاب قد ذهب إلى منزله ظهرَ ذلك اليوم وهو يكاد يسير على الهواء! وأراهن أنّه ما أن دلف إلى منزله حتّى قصّ ما جرى بيني وبينه إلى زوجته، وأراهن أنّه تطلّع إلى صورته في المرآة، وقال لنفسه: «حقاً! إنّه شعْرٌ جميل!»

ثم يضيف الكاتب:

«تسألني: ماذا جنيْتُ من وراء ذلك؟ أو يتحتّم عليّ أن أجني شيئاً؟ أفترضى أن تمثّل للأنانيّة البغيضة، فلا تهبّ شيئاً من السّعادة لغيرك من النّاس دون أن تنتظر جزاءً ولا شكوراً؟ أفترضى أن تطلّ نفسك مُطبّقةً بعضها على بعض، كالثمرة الفجّة التي تضرّ ولا تنفع؟ إذن لاستحققت الخيبة والإخفاق في الحياة!

«بلى. لقد جنيْتُ شيئاً، ولم أَتكلَّف في سبيله مالاً وجهداً: جنيْتُ الإحساس بأنِّي وهبتُ هذا الشَّابَّ شيئاً دون أن يكون في طوقه هو أن يهيني شيئاً في مقابله، وهذا - ولا شك - إحساس يرضيك، ويظل ماثلاً بذاكرتك أمداً طويلاً».

إنَّ كُلَّ ملاطفةٍ تقديريَّة، وكلَّ قولٍ أو فعلٍ أو إحسانٍ من شأنه تقدير الشَّخص الآخر وجعله يحسُّ بأهميته هي أمور حسنة، فامتداح الكاتب المتقدِّم لشعرٍ موظَّف البريد جعل الأخير يشعر بالأهميَّة والسُّرور، وإن كان الأفضل للكاتب أن يقدَّر فيه هذا العمل الخَيْر، وهذه الخدمة التي يقدمها للنَّاس. إنَّه بهذه الخدمة يكون واسطة في تواصل النَّاس بالتَّكاتب والتراسل البريديِّ، أفلاً تَكونُ خدمته الخَيْرُ هذه محطاً للتَّقدير، بقطع النَّظر عن أنَّه يتقاضى في مقابلها مستحقَّات ماليَّة؟

حقاً إنَّ إسباغ التَّقدير المخلص على الآخرين، وجعلهم يحسُّون بأهميَّتهم، مبدأ على جانب عظيم من الأهميَّة في السُّلوك الإنسانيِّ، وفي التَّعامل مع النَّاس وكسب ودِّهم وحبِّهم، والدُّخول إلى قلوبهم. إنَّ التَّقدير مأخوذٌ من معرفة القَدْر وما من إنسان إلا ويمتلك ما يُقدَّر به، ويحبُّ أن يُقدَّر عليه، بل إنَّ كونه بَشِراً، هذا في حدِّ ذاته يستحقُّ التَّقدير والإحساس بأهميَّته.

وما أكثر وجوه التَّقدير التي يمكن للمرء أن يهبها للآخرين، وتجعله محبوباً بين النَّاس! ومن تلك الوجوه:

- احترام مشاعر وأحاسيس الشَّخص الآخر.
- تقدير وظيفته ومهنته.
- تقدير كفاءاته وخبراته.
- تطيبب الكلام معه.
- حفظ ماء وجهه.

- العطف على رغباته الْخَيْرَةِ.
- تقدير أفكاره، وآرائه ووجهات نظره.
- إخباره بالحبِّ له، والاهتمام به.

حدَّثني صديق وقال:

كان لي صديق أعزُّه كثيراً في نفسي، وأجلُّه وأحترمُه، وكان كثيراً ما يُظهر تقديره واحترامه الْمُخْلِصِينَ لي، وفي المقابل كنتُ أَقْدَرُه وأجلُّه وأحترمُه بإخلاص، إلَّا أَنَّهُ لم يحدث لي أن زرتَه في منزله لكي أَعْبُرَ له عملياً عن تقديري المخلص له وإحساسي بِأَهَمِّيَّتِهِ، ومن الأسباب في ذلك التَّأْجِيلُ والتَّسْوِيفُ في زيارته، كون منزله بعيداً عن منزلي نسبياً.

ويضيف الصَّدِيقُ قائلاً:

وذاثَ عَصْرِيَّةٍ كنتُ خارجاً من منزلي متوجِّهاً شطراً جارٍ لي لأزوره، فصادف أن التقيت بهذا الصَّدِيقِ الذي يقدِّرُنِي وأقدِّره عند إحدى زوايا البيوت، فتوقَّفتُ عنده وسلَّمْتُ عليه، ودخلتُ معه في حديثٍ وُدِّيٍّ قصير، ثم قلتُ له من كلِّ قلبي: «إِنَّكَ محفوظٌ في قلبي، وإِنِّي لأُكِنُّ لك كلَّ التَّقْدِيرِ الْمُخْلِصِ والاحترامِ المُنَزَّه، ولكم فَكَّرْتُ في زيارتك، ولكنَّ التَّأْجِيلَ كثيراً ما منعني من ذلك». وما أن قلتُ له هذه الكلمات المخلصة النَّزيهة، حتى أشرق وجهه، وتفتحت أساريره، خصوصاً وأنَّه معروف بالدُّعابة والمطايبة مع النَّاسِ، وشعرتُ أن كلماتي التَّقْدِيرِيَّةَ قد حرَّكتُ كلَّ خلية من خلاياه. ثم أعرب لي أَنَّهُ يشاطرنِي نفس التَّقْدِيرِ والاحترام والشُّعُور، ودخل معي في حديثٍ أخويٍّ امتدَّ زهاءَ عشرين دقيقةً بالرَّغم من أَنَّهُ كان على موعد مع شخص آخر في ذلك الوقت، وسأل عن موقع بيتي بالضبط لكي يزورني في المستقبل.

وإذ أسأل نفسي: ما الذي جعل هذا الصَّدِيقَ يُقْبِلُ عَلَيَّ بَكلِّه، ويحبُّني ويودُّني؟ فيكون الجواب: إِنَّهُ التَّقْدِيرُ الْمُخْلِصُ النَّزِيهُ، والإشعار بالاهتمام به، وبأَهَمِّيَّتِهِ.

إِنَّ النَّاسَ يَقْبَلُونَ عَلَى مَنْ يَحِبُّهُمْ، وَيَحُبُّونَ مَنْ يَقْدَرُهُمْ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَلَكِي يَجْعَلَ الْمَرْءَ - نَفْسَهُ - مَحْبُوباً بَيْنَهُمْ، خَلِيقَ بِهِ أَنْ يَعْجَى هَذِهِ الْقَاعِدَةُ السُّلُوكِيَّةُ الْبَالِغَةُ الْأَهْمِيَّةُ. وَلَقَدْ صَدَقَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع) حِينَما قَالَ:

«جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا»^(١).

وَالآنَ، هَلْ تَرُغِبُ فِي أَنْ يَحَبَّكَ النَّاسُ وَيُودُّوكَ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ، وَإِنَّ الْأَمْرَ فِي غَايَةِ الْبَسَاطَةِ، وَهُوَ أَنْ تُحَبِّهْمُ وَتُودَّهْمُ، وَتَقْدِّرَهُمْ بِإِخْلَاصٍ فَإِذَا قَدَّمْتَ لِلرَّجُلِ طَبَقاً مِنْ سُكَّرٍ، فَلَنْ يَقُومَ إِلَّا بِشُكْرِكَ عَلَيْهِ، أَوْ بِتَقْدِيمِ طَبَقٍ مِمَّاثِلٍ لَكَ، أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ. وَإِسْبَاغُ التَّقْدِيرِ الْمَخْلُصِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَاسِطَةً الْإِنْسَانِ فِي كَسْبِ وَدِّ النَّاسِ وَحُبِّهِمْ لَهُ أَيْنَمَا كَانَ، سِوَاءَ كَانَ فِي مَنْزِلِهِ: فِي تَعَامُلِهِ مَعَ زَوْجَتِهِ، وَأَوْلَادِهِ، وَ... ، أَوْ فِي عَمَلِهِ، أَوْ فِي الْمَطْعَمِ، أَوْ فِي الشَّارِعِ، أَوْ ...

فَمَثَلًا: لَكِي يُسَعِدُ الْمَرْءُ حَيَاتِهِ الزَّوْجِيَّةَ، فَلْيَعْمَلْ عَلَى أَنْ يَقْدَرَ هَذَا الْمَخْلُوقَ الَّذِي رُبِطَ مَصِيرُهُ بِمَصِيرِهِ. فَحَتَّى لَوْ وَجَدَ وَجِبَةً مَا أَعَدَّتْهَا زَوْجَتُهُ لَمْ تَكُنْ بِالْصُّورَةِ اللَّائِقَةِ أَوْ الْمَطْلُوبَةِ، فَلَا يَتَبَرَّمُ وَلَا يَمْتَعِزُّ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَقْدَرَ بِإِخْلَاصٍ هَذِهِ الْخِدْمَةَ الَّتِي قَامَتْ بِهَا لَهُ، وَمَا تَقُومُ بِهِ مِنْ سَائِرِ الْخِدْمَاتِ الْأُخْرَى. وَلَا سَبِيلَ إِلَى كَسْبِ وَدِّ الزَّوْجَةِ وَحُبِّهَا كَمَا التَّقْدِيرُ الْمَخْلُصُ الْمُنَزَّهَ.

وَقَدْ يَدْخُلُ الْمَرْءُ مَطْعَمًا لِتَنَاوُلِ وَجِبَةٍ، وَيَحْدُثُ أَنْ يَتَأَخَّرَ خَادِمُ الْمَطْعَمِ فِي إِحْضَارِ الطَّعَامِ لَهُ، أَوْ يَأْتِيهِ بِطَعَامٍ هُوَ غَيْرُ مَا يَرِيدُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَمْتَعِزُّ، وَأَنْ لَا يَهِينِ الْخَادِمَ. وَبِإِمَّاكَانِهِ أَنْ يَقُولَ لَهُ: آسَفُ لِإِزْعَاجِكَ، حَبِّدًا لَوْ تُسْرِعَ قَلِيلًا فِي إِحْضَارِ الطَّعَامِ إِذَا سَمَحْتَ، أَوْ عَذْرًا أَنَّنِي أُرِيدُ الْأَكْلَةَ الْكَذَائِيَّةَ الَّتِي طَلَبْتُهَا.

وَهَكَذَا، فَلِكِي يَحَبِّبَ الْمَرْءُ النَّاسَ إِلَيْهِ، حَرِيٌّ بِهِ أَنْ يَقْدِّرَهُمْ بِإِخْلَاصٍ وَنَزَاهَةٍ، وَأَنْ يَظْهَرَ اِهْتِمَامُهُ بِهِمْ وَيَجْعَلُهُمْ يَشْعُرُونَ بِأَهْمِيَّتِهِمْ.

١. نهج البلاغة، الحكم.

❖ كَيْفَ يُصْبِحُ الْمَرْءُ مَحْبُوبًا؟

قال الرسول الأكرم (ص):

«صَغَّ عَيْنَكَ عَلَى مَنْ شِئْتَ، وَأَحَبَّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ»^(١).

لو قُذِّمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا هَذَا السُّؤَالُ:

هل تريد استحسان النَّاسِ لك، واعترافهم بِقُدْرِكَ وَقِيَمَتِكَ؟ لكان الجواب: نعم.

ولو قُذِّمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا هَذَا السُّؤَالُ الْآخَرُ:

هل تكره لنفسك أن تستمع إلى من يداهِنُك، ويتملِّقُ لك دون تقديرِكَ؟

لكان الجواب: نعم، أيضاً.

وإذا كان المرء يريد استحسان النَّاسِ له، واعترافهم بقدره وقيمته، ويأبى لنفسه أن لا يقدرَه النَّاسُ، أَلَيْسَ النَّاسُ - أَنْفُسُهُمْ - يَحُبُّونَ أَنْ يُعَامَلُوا بِاعْتِرَافِ الْمَرْءِ بِقُدْرِهِمْ وَقِيَمَتِهِمْ، وَيَأْبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ لَا يَقْدَرَهُمْ؟.

لا شَكَّ فِي ذَلِكَ أَبَدًا، فَالنَّاسُ يَحُبُّونَ أَنْ يُعَامَلُوا كَمَا يُعَامِلُونَ، فَهُمْ يَحُبُّونَ مَنْ يَحِبُّ لَهُمُ الْخَيْرَ وَيَكْرَهُ لَهُمُ الشَّرَّ، كَمَا يَحِبُّ هُوَ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهَا الشَّرَّ.

إِنَّهُ لِمَبْدَأٍ عَظِيمٍ جَدًّا، مَا أَنْ يَلْتَزِمَهُ الْمَرْءُ حَتَّى يَدْخُلَ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ سَرِيعًا، فَيَحْبُبُونَهُ مِنْ كُلِّ أَعْمَاقِهِمْ، كَمَا يَحِبُّهُمْ هُوَ مِنْ كُلِّ أَعْمَاقِهِ. وَهَلْ هُنَاكَ حُبٌّ أَسْمَى مِنْ أَنْ يَحِبَّ الْمَرْءُ لِلنَّاسِ مَا يَحِبُّهُ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لَهَا؟. مَبْدَأُ ظَلَّ الْحُكَمَاءُ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ يَبْحَثُونَ عَنْهُ، كَأَنَّهُ ضَالَّتْهُمْ، وَوَجَّهَ النَّاسُ إِلَيْهِ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ: أَرْشَدْ إِلَيْهِ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَبْلَ تِسْعَةِ عَشَرَ قَرْنًا، وَنَادَى بِهِ رَسُولُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ) قَبْلَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا.

١. ميزان الحكمة.

فما أجمل الإنسان حينما يحبُّ للنَّاس ما يحبُّه لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها! إنَّه يصبح محبوباً بينهم، يذكرونه بكل خير، ويفرحون مسرورين حين ملاقاته، ويشعرون بالوحشة حين مفارقتة، مَثْلُهُ كَمَثَلِ العنديل: لا يملُّ النَّاس من جماله، ومن ألحان تغريده. يُسَبِّحُ الحُبَّ والتَّقْدِيرَ على من يلقاه من بني البشر، ويشاركهم آمالهم، وآلامهم، وقضاياهم، ويسعى في خدمتهم، وفي قضاء حوائجهم.

وما أخسر ذلك الإنسان الذي يسيطر عليه حُبُّ الذات، والروح الأنايَّة، والجشع، فلا يهتمُّ أن يشقى النَّاس جميعاً، ويظُلُّ هو سعيداً - وأين هو من السَّعادة؟! وأن يصبحوا في عناء وتعب، ويكون هو في راحة ورفاه! وما أبعد حُبَّ النَّاس ووُدَّهم له، ذلك الذي لا يفكر إلَّا في أناه، وفي منافعه الشخصية حتى لو كانت على حسابهم!

من هنا لكي يصبح المرء محبوباً بين النَّاس خَلِيقٌ به أن يَعِيَ جيِّداً وَيُطَبِّقَ هذه القاعدة السلوكية الإنسانية: « أَحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا ».

ولينظر المرء في معاملاته التي يجريها مع النَّاس في يومه وليلته، ليرى هل هو في تماسٍّ مع هذه القاعدة أم بعيد عنها؟ فإذا كان من المطبِّقِينَ لها فَلْيَسَّحْ للأفضل، وإذا لم يكن، فليعمل على تقويم سلوكه على صَوْنِهَا. وليعلم أنَّ عظماء التَّاريخ أخذوا مكانهم في أفئدة مُحبِّبِهِم من النَّاس، لأنَّهم - إضافةً إلى أبعاد عَظَمَتِهِم الأُخْرَى - كانوا يطبِّقون هذا المبدأ العظيم.

وفي جميع الجوانب الحيائيَّة ينبغي للمرء أن يستعمل هذه القاعدة، إن أراد كسب وُدَّ النَّاس وحبَّهم، وحتَّى في الأمور الصَّغيرة، لأنَّ تطبيقه لهذه القاعدة في الأمور الصَّغيرة، يؤهله إلى أن يطبِّقها في الأمور والقضايا الأكبر، فمن لا يحبُّ لأخيه - على سبيل المثال - أن يكون مقدَّراً بين النَّاس، لا يستطيع أن يحبَّ له أن يكون مصيره إلى الجَنَّة. ومن لا يستطيع أن يكره لأخيه - على سبيل المثال - أن يكون سيِّئ المظهر، لا يستطيع أن يكره له أن يمسي فقيراً مُعْدِماً في حياته.

ومن الأمثلة البسيطة. أنَّ بعضاً من النَّاس إذا أرادوا أن يشربوا الماء، تجدهم يهتمون جيداً بغسل كؤوسهم، وتنظيفها، ولكن حينما يطلب منهم الآخرون، الماء لا يُعَيِّرُونَ اهتماماً لنظافة الكؤوس، طالما أنَّهم لن يشربوا الماء الذي بها، ويكتفون بصبِّ الماء فيها، وتقديهما كيفما كانت. وقسَّ على ذلك الكثير من التَّصرفات الصَّغيرة، والكبيرة التي يهتم الإنسان بها حينما تكون تخصُّه هو، ولا يُعيرها أيُّ اهتمام - أو يعيرها حدّاً أدنى منه - حينما تخصُّ الآخرين. وهذه هي الرُّوح الأنانيَّة، النَّابعة من الإفراط في حُبِّ الدَّات والتَّقصير في حُبِّ الآخرين، تلك الروح التي يَمُقُّها الإسلام أشدَّ المقت، والتي يعجُّ بها الغرب، حيث المجتمعات الرأسماليَّة، وحيث أنَّ قيمة المرء ومكانته بما يملك من رأسمال، إذ لا يهتم الفرد أن يبيت الآخرون فقراء، ويصبح هو رأسمالياً مليونيراً.

وأن يحبَّ المرء لأخيه وللنَّاس ما يحبُّ لنفسه، وأن يكره له ولهم ما يكره لنفسه، فضلاً عن أنَّها قاعدة تفعل فعل السَّحر في قلوب النَّاس لكسب مودتهم، ومحبتهم، فهي خُلِقَ يقوم على العدل والإنصاف.. إنصاف الآخرين من نفسه. وبهذا الخلق يتعامل النَّاس فيما بينهم وهم متعاونون، متكافلون، مشتركون في الآمال والآلام، كأنَّهم أفنان في شجرة واحدة، أو أوراق في غصن واحد.

وفي مجال التَّعامل مع النَّاس، كما يحبُّ المرء أن يقدره النَّاس، ويهتموا به، فهم أيضاً يحبُّون أن يقدرَهم، ويهتم بهم، ويُسَّعِرُهُم بأهميَّتهم، ومن هنا فتقدير النَّاس، وجعلهم يشعرون بأهميَّتهم من الأمور التي يجب أن تُدرج في الحبِّ للناس كما الحبُّ للنَّفْس، ومن الأمور التي تجعل المرء محبوباً بين إخوانه، وبين البشر عموماً.

إنَّ المرء ليحبُّ أن يقدرَ، وتُحترم وظيفتُهُ، وهكذا فإنَّ عليه في المقابل أن يقدر النَّاس ويحترم وظائفهم. فعلى سبيل المثال: إنَّ تقديم السَّلام، وإسداء الشُّكر لساعي البريد، هذا الموظَّف الذي يقوم بخدمة طيبة للناس، يجعله منشرح الصدر، مسرور النفس، وسعيداً ويعطيه ثقة بنفسه، ويحفزه على الإخلاص في العمل، والإحسان للآخرين، وكل ذلك بسبب التَّقدير والاهتمام به.

وكلمة مديح مخلصة نزيهة يقولها المرء لزوجته، كأن يقول لها: أَقَدَّرُ فِيكَ أَخْلَاقَكَ الْحَسَنَةَ، أو يقول لها: أَقَدَّرُ الْخِدْمَاتِ الْجَلِيلَةَ الَّتِي تَقُومِينَ بِهَا فِي الْمَنْزَلِ. إِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ، وَأَمْثَالَهَا تَجْعَلُ الزَّوْجَةَ مَسْرُورَةً تَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ، وَتُعَمِّقُ حَالَةَ الْحُبِّ بَيْنَهُمَا، وَكُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّ زَوْجَهَا مَنَحَهَا التَّقْدِيرَ، وَأَعْرَبَ لَهَا عَنْ أَهْمِيَّتِهَا، أَيْ أَحَبَّ لَهَا كَمَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ، إِذْ قَدَّرَهَا كَمَا يَحِبُّ أَنْ تُقَدَّرَ.

وكثيرة هي العبارات الطيبة التي تجعل الشخص الآخر سعيداً، يشعر بالتقدير، والاحترام، والأهميَّة، تجعله يميل إلى حبِّ القائل وودِّه، نحو:

«أُسِفَ لِإِزْعَاجِكَ...»، «هَلْ أَطْمَعُ فِي...»، «هَلْ تَتَفَضَّلُ بـ...»، «هَلْ تَسْمَحُ لِي أَنْ...»، «إِنِّي أَشْكُرُكَ...»، «أَقَدَّرُ فِيكَ...»، «يَعْجِبُنِي فِيكَ...»، «أَرْجُو الْمَعْذِرَةَ...»، «لَوْ تَكْرَمْتَ...»، «أَمِنْ خِدْمَةِ أَقْدَمَهَا لَكَ...»، «مَا تَقُومُ بِهِ كَخِدْمَةِ إِنْسَانِيَّةٍ...»، «أَنْتِ شَخْصٌ لَكَ دَوْرٌ هَامٌّ فِي...».

وعن آثار إظهار التقدير للشخص الآخر كتب صاحب معهد للعلاقات الإنسانية:

«ارتحل السيِّد (س) عقب انضمامه إلى معهدي بِمَدَّةٍ وَجِيزَةٍ إِلَى إِحْدَى الْمَدَنِ، بِصَحْبَةِ زَوْجَتِهِ، لِيَزُورَا بَعْضَ أَقَارِبِهِمَا، وَهَنَّاكَ قَصْدًا عَمَّةً لَزَوْجَتِهِ عَجُوزَ، حَيْثُ تَرَكْتَهُ زَوْجَتَهُ، وَخَرَجْتَ لِتَزُورَ بَعْضَ أَقَارِبِهَا الْآخَرِينَ. وَلَمَّا كَانَ يَتَحَتَّمُ عَلَى السَّيِّدِ (س) أَنْ يَنْهِيَ إِلَى طَلَبَةِ فَصْلِهِ بِنَتِيجَةِ تَطْبِيقِهِ لِمَبْدَأِ «إِظْهَارِ التَّقْدِيرِ لِلنَّاسِ» فَقَدْ فَكَّرَ فِي أَنْ يَبْدَأَ بِالْعَمَّةِ الْعَجُوزِ.

«وَأَلْقَى السَّيِّدُ (س) نَظْرَةً فِي أَرْجَاءِ الْبَيْتِ فَاحْصَةً، لِيَرَى أَيُّ الْأَشْيَاءِ فِيهِ يَسْعَهُ أَنْ يَبْدِيَ تَقْدِيرَهُ لَهُ. وَمَا لَبَثَ أَنْ سَأَلَ الْعَمَّةَ الْعَجُوزَ: أَلَمْ يَشَيْدْ هَذَا الْبَيْتَ فِي نَحْوِ عَامِ ١٨٩٠؟، فَأَجَابَتْهُ الْعَجُوزُ: بَلَى، هَذَا عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ هُوَ الْعَامُ الَّذِي بُنِيَ فِيهِ.

«فَقَالَ: إِنَّهُ يَذْكُرُنِي بِالْبَيْتِ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ. إِنَّهُ جَمِيلٌ، قَوِيُّ الْبِنَاءِ، فَسِيحُ الْأَرْجَاءِ، مُتَعَدِّدُ الْغُرَفِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ سَوَاءِ الْحِظِّ أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الْبُيُوتِ لَمْ تَعُدْ تُشِيدُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ. وَأَقْرَبَتْهُ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ قَائِلَةً: نَعَمْ، فَإِنَّ شَبَابَ هَذِهِ الْأَيَّامِ لَا يَهْتَمُونَ بِالْبُيُوتِ الْجَمِيلَةِ، وَكُلُّ مَا يَرِيدُونَهُ هُوَ شَقَّةٌ ضَيْقَةٌ، وَثَلَاجَةٌ كَهَرَبَائِيَّةٍ،

وسَيَّارة يسرحون بها طيلة اليوم. ثمَّ أردفتُ في صوتٍ مرتجفٍ لفرط ما تحمل من الذِّكريات السَّعيدة: لقد قام هذا البيت على الحبِّ، حلُمنا به: زوجي وأنا، وظللنا نحلم به مدى سنوات، قبل أن نخرجه إلى حَيِّزِ الوجود، ولم نستخدم مهندساً، بل وضعنا تصميمه بأنفسنا.

«ثم طافت به العمَّة العجوز حول المنزل، فأبدى تقديره الصَّادق للتذكارات الجميلة التي جمعتها خلال رحلاتها مع زوجها: من أوان خزفيَّة، ولوحات وستائر حريريَّة.

«يقول السَّيِّد (س): فلماً فرغنا من جولتنا في أنحاء المنزل، اقتادتني العمَّة إلى الحديقة، حيث المربأ، وهناك وجدتُ سيَّارة فخمة تكاد تكون جديدة لم تُمس، وقالت لي العمَّة في لهجة رقيقة:

«لقد اشترى زوجي هذه السيَّارة الدَّقيقة قبل أن يقضي نحبه بمدة قصيرة!، ولم أركبها قط منذ وفاته. إنَّك يا سيد (س) تقدِّر الأشياء الجميلة ذات الذِّكرى العزيرة، فَخُذْ هذه السيَّارة، إنَّها لك مع أخلص تحيَّاتي. وأُخذتُ بهذه المفاجأة - وقلت: كيف يا عمَّتي؟ إنَّني أقدر كرمك طبعاً ولكنِّي لا أستطيع أن أقبل عطيتك. إنَّني لست حتَّى قريباً لك، ولديك أقارب كثيرون، يودُّون أن تكون لهم هذه السيَّارة. فهتفت السَّيِّدة العجوز في ازدراء: أقارب؟! نعم، لديَّ أقارب لا همَّ لهم سوى انتظار موتي، كي يظفروا بهذه السيَّارة! ولكن بُعداً لهم! فعُدْتُ أقول لها: حسناً، إذا كنت لا تريدين أن تعطيتها لأحد منهم، فلماذا لا تبيعها؟ فهتفت مرَّة أخرى: أبيعها؟! أتريدني أن أبيع هذه السيَّارة؟! أو تظنُّ أنني أطيق أن أرى الغرباء يروحون أمامي، ويغدون بها، وهي التي اشتراها زوجي أنا؟! إنَّني سأهديها لك يا سيِّد (س)، فأنت تقدِّر التذكارات حقَّ قدرها. وحاولتُ التَّخلص بشئى السُّبل من قبول السيَّارة، ولكنِّي كففتُ خشية أن أؤذي مشاعرها!».

والآن، فَلِيكِي يصبح المرء محبوباً بين النَّاس، كاسباً لمودَّتْهم ومحَبَّتْهم منصفاً لهم من نفسه، عليه أن يلتزم هذه القاعدة العظيمة: «أحبَّ للنَّاس ما تُحبُّ لنفسك وأكره لهم ما تكره لها».

❖ لِكَيْ يُسِرَّ النَّاسُ بِالْمَرْءِ

قال الإمام عليُّ (ع):

«السُّرُورُ يَبْسُطُ النَّفْسَ، وَيُثِيرُ النَّشَاطَ»^(١).

وقال (ع) أيضاً:

«مَا أَوْدَعَ أَحَدٌ قَلْبًا سُرُورًا، إِلَّا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفًا»^(٢).

لو راقب الواحد منّا نفسه حينما يكون مسروراً، فماذا يشعر؟

بلا ترديد إنّه يشعر بانبساط في نفسه، وبانشراف في صدره، وبانفتاح في آفاقه، ويتحفّز في نشاطه، وتنعكس آثار ذلك النشاط على جسمه وعلى أعماله. ويحدث خلاف ذلك فيما إذا لم يكن مسروراً.

وحيث أنّ الأمر كذلك، فماذا يكافئُ النَّاسُ، المرءَ حينما يعمل على إدخال السُّرور إلى قلوبهم، وما يستتبع ذلك من بسط أنفسهم وإثارة النشاط فيهم؟ أليُسُوا يكافئونه بالموَدَّة والمحبة؟

أجل! إنّ النَّاسَ لَا يُقَدِّمُونَ إِلَّا الْحُبَّ وَالْوُدَّ لِمَنْ يُسِرُّهُمْ، ويبسط نفوسهم، ويثير النشاط فيهم، لأنّه - والحال هذه - يكون كالوردة التي تقدّم لمشاهدها جمالها وألوانها وعطرها، وليس للمشاهد ألا أن يقدم لها انجذابه وحبّه ووُدّه. أليس كذلك؟

والآن هل يريد كلّ واحدٍ منّا أن يصبح وردةً بين الناس؟

لاشكّ في تلك الإرادة. ولذا ليس على الواحد منّا إلا أن يسرّ قلوب النَّاسِ، لأنّ إدخال السُّرور عليهم من المفاتيح السَّحرية التي تفتح قلوبهم له، وتجعلهم يودُّونه ويحبُّونه. وإذا ما أدخل المرء السُّرورَ إلى قلوب النَّاسِ، فلن ينبثق من هذا السُّرور إلا اللُطْفُ والوُدُّ والحبُّ من قِبلهم.

١. الغرر والدرر.

٢. المصدر السابق.

ومن أهِمَّ الأمور التي تجعل الآخرين مسرورين وسعداء، أن يجدوا من يتحدث لهم في الأمور التي يحبونها وتسُرُّهم وتلذُّ لهم^(١).

وهنا سؤال:

هل هناك حدود يلتزمها المرء حينما يتحدث للآخرين في الأمور التي تسُرُّهم وتلذُّ لهم؟ أم أن له أن يتكلم فيما يسُرُّهم ويلذُّ لهم كيفما كان ذلك الكلام، وبصورة مطلقة؟

بديهة أن المطلوب من المرء - لكي يسرَّ به الناس - أن يتحدث لهم في المشروع مما يسُرُّهم ويلذُّ لهم، وليس في أيِّ حديث. بعبارة أخرى: ليس المطلوب من المرء لكي يسرَّ الناس ويسرُّون به، أن يتنازل عن رسالة الحق في حياته، ويدوس على القيم والمبادئ، فيتكلَّم فيما يطيب لهم ويُرْضي شهواتهم وغرائزهم حتَّى لو كان ذلك على حساب الإلتزام بقيمة الحق، إذ «لا يُطَاعُ اللهُ مِنْ حَيْثُ يُعْصَى».

وفي مجال إحقاق الحق والدعوة إليه يمكن للمرء في البدء أن ينطلق من الطرف الآخر من القضايا التي يحبها ويرغب إليها، بحيث لا يحلُّ حراماً، ولا يُحرِّمُ حلالاً، ثمَّ يعرِّجُ بأسلوب فَنِّيٍّ على ما يريد تبيانَه من الحق له، ودعوته إليه، لأنَّه حينما يتكلَّم فيما يسرُّ الطرف الآخر، يكون قد قطع مرحلة من مراحل دخوله إلى قلبه، وبالتالي كسبه، والتأثير فيه.

يقول الإمام علي (ع): «سُرُّوا الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، وَحُزْنُهُ عَلَى ذَنْبِهِ»^(٢).

ومع الحديث مع الطرف الآخر بما يسرُّه ويطيب له من أهِمَّ الأمور التي تجعله يسرُّ بالمُحدِّث، فإنَّ هناك قِسْماً من الناس ينتظرون من غيرهم أن يحبَّونهم، ولكنَّ أفراد ذلك القِسْم حينما يتحدثون، ينصبُّ حديثهم على أنفسهم وقرباتهم وعلى الأمور التي تسُرُّهم ويحبُّونها هم ويميلون إليها، دون أن يُحدِّثُوا الطرف الآخر بما يُحبُّ، وبما يسرُّه ويلذُّ له ويطيب، الأمر الذي يجعله يشعر بالضرر

*١. ومن الأمور الأخرى التي تُدخل السُّرور إلى قلوب الآخرين: بئ روح الإيجاب فيهم، وتشجيعهم فيما يقومون به من أعمال خَيْرَةٍ، وامتنادح إجاداتهم، وحُسْنُ البَشْرِ، وطلاقة الوجه، والابتسام.

٢. المصدر السابق.

منهم، وضعف الميل إليهم، والبرود في حبه لهم. ومن هنا فالتحدث فيما يسر الشخص الآخر ويلد له، من الأمور اللطيفة التي تساعد في الدخول إلى قلبه.

في مقال له عن «الطبيعة الإنسانية» كتب أحد أساتذة الأدب:

«عندما كنت في الثامنة من عمري، اعتدت أن أمضي عطلة نهاية الأسبوع في ضيافة عمّتي. وذات مساء حضر لزيارة عمّتي رجل في منتصف العمر، لم أكن رأيته من قبل، وكنت في ذلك الحين شغوفاً بالقوارب، فما أن عَلِمَ الزائر بذلك، حتى صَبَّ حديثه معي عن القوارب، وكلّ ما يتّصل بها.

«وقد ترك حديثه في نفسي أحسن الأثر وأبقاه. فلما انصرف، سألت عمّتي: من هو؟ وما سبب اهتمامه بالقوارب؟ فأنبأتني عمّتي أَنَّهُ مُحَامٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَهَوَّ القوارب في يوم من الأيام! فسألتها: لماذا - إذن - صَبَّ حديثه كلّهُ عن القوارب؟ فقالت: لأنّه رجل لطيف الشّماثل، رأى أَنَّك مهتمٌّ بالقوارب، فتكلّم عن الشّيء الذي عرف أَنَّهُ يهتمُّ أكثر من سواه».

وهكذا فإذا جَمَعَ المَجْلِسُ المَرْءَ مع شخص، أو جماعة، وكانوا يتحدّثون في موضوعٍ خَيْرٍ يميلون إليه، ويرغبون فيه، فلا يَزْدَرِ فيهم ذلك الميل والرغبة، بل لِيُشَجِّعَهُمْ على ذلك، وإن استطاع أن يشاركهم فلا بأس بذلك، شريطة أن يكون الحديث في الحدود المشروعة، وسيجد أَنَّهُمْ يُسْرُونَ به، ويحبُّونه، وينجذبون إليه كما ينجذب النحل إلى رحيق الأزهار.

وحيث أن إدخال السُرور على النَّاسِ وسيلة مؤثّرة في مجال كسب ودّهم وحبّهم، فإنَّ من الخلق بالمرء لكي يكون محبوباً، أن يتوسّل بكلّ ما من شأنه إدخال السُرور إلى قلوبهم، ومن ذلك: استعمال المداعبة والمفاكهة والمطايبة^(*)، فبديهة أن النَّاسَ تنجذب إلى المَرْءِ الدَّعِبِ الْفَكِهِ الْمُطَايِبِ، وتجنّبه.

والآن فَلِكِي يُسِّرَ النَّاسَ بالمرءِ، ويصبح محبوباً بينهم، لِيَكُنْ حكيماً في أن يُدْخِلَ

*١. راجع القسم الرابع، فصل: مداعبة النَّاسِ ومطايبتهم. ومن الأمور التي تُدْخِلُ السُرور إلى قلب الشّخص الآخر: طرائف الحكم، والنواتر والفكاهات والطرائف، والمزح المعقول، وعموم المداعبات والمطايبات المعقولة والمشروعة.

السُّرُورَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَنْ يَتَحَدَّثَ فِيمَا يَسْرُهُمْ وَيَلِدُّ لَهُمْ وَيَطِيبُ وَأَنْ يَعْلَلَ طَبْعَهُ وَمَعَامَلَتَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّعَابَةِ وَالْمُطَايَبَةِ.

❖ الْإِبْتِسَامُ

قال الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«إِنَّ بَشَرَ الْمُؤْمِنِ فِي وَجْهِهِ، وَقُوَّتُهُ فِي دِينِهِ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ»^(١).

وقال الإمام الصَّادِق (ع):

«صَحِيحُكَ الْمُؤْمِنِ تَبَسُّمٌ»^(٢).

وقال الإمام عليّ (ع):

«الْبَشَرُ يُؤْنِسُ الرَّفَاقَ»^(٣).

وقال (ع) أيضاً:

«حُسْنُ الْبَشَرِ مِنْ عَلَائِمِ النَّجَاحِ»^(٤).

وقال الإمام الصَّادِق (ع):

«الْبَشَرُ الْحَسَنُ، وَطَلَاقَةُ الْوَجْهِ، مَكْسَبَةٌ لِلْمَحَبَّةِ، وَقُرْبٌ مِنَ اللَّهِ، وَعَبُوسُ الْوَجْهِ، وَسُوءُ الْبَشَرِ مَكْسَبَةٌ لِلْمَقْتِ، وَبُعْدٌ مِنَ اللَّهِ»^(٥).

وقال (ع) أيضاً:

«ثَلَاثٌ مَنْ آتَى اللَّهَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ: الْإِنْفَاقُ مِنْ إِقْتَارٍ، وَالْبَشَرُ لِجَمِيعِ الْعَالَمِ، وَالْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ»^(٦).

١. المصدر السابق.

٢. ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٤٨١.

٣. الغرر والدرر.

٤. المصدر السابق.

٥. تحف العقول، ص ٢١٧.

٦. جامع السَّعَادَات، ج ١، ص ٣٤٥، الطبعة الرابعة.

الأمر الذي ينبغي أن يعرفه كلُّ إنسان أنَّ الأشياءَ المُضْمَرَةَ في داخل المرء تظهر في الواقع الخارجي عن طريق أفعاله التي يمارسها، أو كلماته التي ينطقها، أو قَسَمَاتِ وجهه التي تعبر عن حالته النفسيَّة. إنَّ قَسَمَاتِ وجه المرء ربَّما هي أكثر تعبيراً عن حالته النفسيَّة من الثَّياب التي يرتديها، والملابس التي يتزيَّن بها. ومن هنا فإنَّ النَّاسَ تستكشف سرور المرء وفرحه، أو حزنه وتجهُّمه، من خلال تعبيرات وجهه، فالسُّرور والفرح والانشرح عنوانها القَسَمَاتُ المُنبَسِّطَةُ، والحزن والتَّجهُّم والعبوس عنوانها القَسَمَاتُ المنقبِضة. ولا شكَّ أنَّ كَلاً مِمَّا شاهد وجهاً طلقاً، وآخر عبوساً ولاحظ تقاسيم الوجه في كلِّ من الحالتين.

وحيث الأمر كذلك، فهل المطلوب من المرء في معاملته النَّاسَ أن يكون حَسَنَ البَشْرِ، طليق الوجه، أم أن يكون سيِّئ البَشْرِ، عابس الوجه؟

بديهية أنَّ طلاقة الوجه و حُسْنَ البَشْرِ هما الخُلُقُ الذي ينبغي للمرء أن يقابل النَّاسَ به في معاملته لهم، بل إنَّ الأحاديث الشَّريفة توجِّه الإنسان إلى أن يكون طليق الوجه، حَسَنَ البَشْرِ، وإنَّ كان في داخله محزوناً، وهذه من صفات المؤمنين بالله، المُخْلِصِينَ له، إذ أنَّ المؤمن يسوءه أن يكون محزوناً في داخله فيشرك إخوانه والنَّاسَ في حزنه، ويسعده أن يبقى النَّاسَ مسرورين وإنَّ كان حزيناً^(١).

والابتسام أو التَّبَسُّم هو عنوان حُسْنِ البَشْرِ، وطلاقة الوجه، هذا العنوان الذي ينبغي أن يكون طَبَعاً وعادةً في المرء في معاملته، النَّاسَ، سواء كان في منزله، أو في عمله، أو في أيِّ مكان آخر. إنَّ المرء حينما يتبسَّم أو يتبسَّم يبدو كالشَّمس المشرقة التي ترسل على الكون ضياءها ودفئها وجمالها. ولا معبر عن سرور المرء وحُسْنِ بَشْرِهِ وطلاقة وجهه كما الابتسام.

١. حينما يكون المرء حزيناً لسبب ما ويظهر - رغم ذلك - بِشْرُهُ وطلاقة وجهه للنَّاس، فهو بذلك يقصر حالة الحزن على نفسه، ويشع السُّرور - وهو حالة الإيجاب - بينهم.

وفي هذا الشَّانِ حِكْيَ بَعْضُهُمْ فَقَالَ:

دُعِيَتْ ذات لَيْلَةٍ إِلَى وجبة عِشَاءٍ، وكان من ضمن المدْعُوِّينَ رجلٌ غَنِيٌّ، كان يحاول جاهداً أن يطبخ في المدعوين أثراً حسناً. وكان قد أنفق الكثير على ملبسه التي كان يرتديها على ما بدا واضحاً، ولكن قَسَمَاتِ وجهه ظَلَّتْ على منأى من زينة المحبَّة الخالِصَة، والمودَّة الصَّافِيَة. كانت تعبيرات وجهه تنطق بالجمود والأنايَّة، وقد غاب عن باله أن التعبير الذي يرتسم على قسَمَات وجه المرء أكثر تعبيراً من الملابس والثياب التي يرتديها.

هل يرغب المرء اشاعة السُّرور والسَّعادة في نفس من يلقاه؟

إنَّ من أبسط الأمور التي تعود بالخير الكثير، وتُشجِّع السُّرور والسَّعادة في المنزل، وفي العمل، وفي كل مكان: الابتسامَة. إنها فعلٌ من غير مَوْنَة، وصنِيعٌ من دون تكاليف.

فما أجمل الإنسان، وما أسعده بين النَّاس حينما يمنح الابتسامات المُخلِصة لمن يلقاه، كما تمنح الوردَة العِطريَّة النَّضِرَة، رائحتها الأريجَة، وألوانها المنسَّقة مُشاهديها!

وما أجمل ابتسامَة الطُّفل، البرينة النَّزيهة!

وما أجملنا حينما نبتسم كما يبتسم!

أجل! ليس من المبالغة في شيء، إذا قيل: إنَّ تعبيرات الوجه تتكلم بصوتٍ أعمق أثراً من صوت اللِّسان، إنها تخاطب المرء المقدَّمة إليه - نيابة عن صاحبها - قائلة: إني أظهرُ لك الحُبَّ والوُدَّ المُخلِصين، وإنَّك تمنحني السَّعادة، وتُشعِّرني بالحُبِّ والأنس.

حقاً أنَّ الابتسام يفعل الشيء الكثير في الشَّخص الآخر، ومن هنا فهو قاعدة أكثر من هامَّة في حياة الإنسان، وفي تعامله مع النَّاس، وفي كسب مودَّتهم ومحبتهم. فهم ينجذبون ويندفعون إلى ذلك الإنسان الحَسَن البِشْرِ، الطَّليق الوجه، البَسَّام،

لا إلى ذلك الْعَبُوس، السيِّءِ الْبِشْرِ، المنقبض الوجه، الْمُتَجَهِّم، ويندفعون إلى قَسَمَات الوجه الْمُنْبَسِطَة، الْمُنْشَرَحَة التي يتقاطر منها ندى حُسْنِ الْبِشْرِ وَالطَّلَاقَة والابتسام، لا إلى قَسَمَات الوجه المنقبضة العابِسة التي يُخَيِّمُ عليها ثقل الْهَمِّ والغضب والامتعاض.

والابتسام فنُّ لا غنى للمرء عنه مهما كانت وظيفته أو حِرْفَتُهُ. حاكماً كان، أو مُديرًا، أو موظفًا، أو ... أو ... تاجرًا. وعن الدَّورِ الْحَسَنِ الذي يلعبه الابتسام، وأهمِّيَّتُهُ في الجانب الاقتصادي، والاجتماعي على وجه الْعُموم، قال أهل الصِّين الْقَدَامِي:

«إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْتَسِمُ، لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْتَحَ مَتَجَرًّا».

وبالفعل فَإِنَّ الْأَخْلَاقِيَّيْنَ، والاجْتِمَاعِيَّيْنَ، وَحَسَنِي الْبِشْرِ، وَطَلَيْقِي الْوَجْهِ، والبَسَامِينَ من أصحاب الدَّكَاكِين والحوانيت والمتاجر الذين يُرْحَبُونَ بِالزُّبَّانِ والمُشْتَرِينَ وَيَبْشُونَ لَهُمْ وَيَبْتَسِمُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُحْبُوبُونَ، والذين يتهافت النَّاسُ ويتزاحمون على محلاتهم ودكاكينهم وحوانيتهم. وبالعكس فَإِنَّ النَّاسَ تنفر من الباعة الذين هم أشبه بقنابل على أهبة الانفجار، بِقُصْرِ النَّفْسِ، وضيق الصَّدْر، وسُوء الْبِشْرِ، وَعَبُوس الوجه، والانقباض والغضب! ولا غرابة إذا وَجَدَ زبون اعتزم على أن لا يُكْرَرَ دخوله إلى أحد المحلات، لِسُوءِ بَشْرِ صاحبه. ولا غرابة أيضاً أن يعود الابتسام بالنَّجَاح والسَّعادة على صاحبه.

يقول أحد أساتذة علم النَّفْس عن دور الابتسام في نجاح الإنسان وسعادته:

«سألت عشرات من رجال الأعمال - من طَلَبَتِي - أن يبتسموا لشخص معين طوال اليوم لمدة أسبوع، ثم يُحَدِّثُوا زملاءهم في الفصل عن النَّتَاجِ، وإليك عَيِّنَةٌ من هذه النَّتَاجِ:

قال «و. ب. ش» الذي يعمل وسيطاً في سوق الأوراق المالية:

إنَّني متزوج منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً، وقلَّما ابتسمتُ لزوجتي خلال هذا

العمر الطويل! بل قلّما حدّثتها أكثر من بضع عبارات، ابتداء من الساعة التي أضحو فيها حتّى اغادر البيت قاصداً إلى عملي. لقد كنت أسوأ ممثّل للرجل العبّوس، المُتجهم. فلمّا طُلِيتُ أن أحدّث زملائي عن تجاربي في الابتسام فكّرتُ أن أجرب الابتسام مع زوجتي.

ففي الصّباح الثّالي، بينما أنا أمشّط شعري أمام المرأة، تطلّعت إلى صورتي، وقلت لنفسني / اسمع يا «و. ب. ش» إنّك ستمحو اليوم هذا العبّوس المخيم على سُحنك، ستبتسم دائماً وستبدأ في الثّو واللّحظة. وإذ جلستُ إلى مائدة الإفطار، حيّيت زوجتي بهذه الكلمات:

صباح الخير يا عزيزتي، وابتسمتُ وأنا أقول ذلك.

ووعدها أن تنتظرَ مني هذه التحيّة على الدّوام. وقد جرّ هذا الموقف الجديد على بيتنا، في خلال الشّهرين الماضيين، سعادة لم ندقّ مثلها خلال العام الماضي كلّهُ.

والآن إذ أقصد إلى مكنتي، أُحيّي عامل المصعد بقولي: «صباح الخير»^(*)، وأُشْفِع هذه التّحيّة بابتسامة مشرقة، وأبتسمُ للصّراف في شُبّاك المحطّة، وعندما أقف على قاعة البورصة أبتسم لرجالٍ، لم يروني أبتسم من قبل. وسرعان ما وجدتُ كلّ إنسان يبتسم لي بدوره، وأعجب من هذا، أنّ الابتسامات أصبحت تُدرّ عليّ مزيداً من المال في كلّ يوم!

وبشركتي - في مكنتي - وسيط آخر، لديه كاتب شابٌّ، مرّحُ النّفس، منبسط الأساير دائماً. وإذ رأى مدى التّغيّر الذي طرأ عليّ - لأوّل مرّة - ظنّني جامداً، عبوساً، لا تُطاق عِشرته، ولكنّه غيّر ظنّه بي!

وأنا الآن أهب كلمات التّقدير والمديح لكلّ من ألقاه، كما أمتنعت عن التّحدّث إلى النّاس فيما أرغب فيه، وأصبحتُ أحاول - دائماً - الوقوف على وجهه نظر الشّخص الآخر. فأنا الآن شخصٌ مرّحٌ سعيدٌ، كثيرُ الأصدقاء.

*١. الأفضل أن تكون التّحيّة هكذا: «السّلام عليكم».. وتُشَفّع بالقول: صَحّحَكم الله بالخير، أو صباح الخير، أو ... إن كان الوقت صباحاً، أو تشفع بالقول: مساكم الله بالخير، أو مساء الخير، أو ... أن كان الوقت مساءً.

وَحُسْنُ الْبَشْرِ وَالتَّبَسُّمِ علاوة على أنه الخُلُقُ الذي يعمل على كسب المرء لمودة النَّاسِ ومحبتهم، فهو من علامات نجاح الإنسان، سواءً على صعيد كسب محبة الناس، وإنشاء العلاقات، وتكوين الصِّداقات، أو على صعيد النَّجاح في الأعمال والمشاريع، وتحقيق الأرباح، ومن هنا فإدخال السُّرور على النَّاسِ وكسب محبتهم بإخلاص من علائم نجاح الإنسان في الحياة على كافة الأصعدة الاجتماعيَّة.

وفي هذا الصِّدد يقول أحد الكتَّاب:

«قال لي مدير إحدى شركات المطاط الكبرى: إِنَّ الرَّجُلَ قَلَّمَا يَنْجَحُ في عمله ما لم يُقْبَل عليه بروح الدَّعابة والمرح. إذن فهذا الرَّجل الذي يُعَدُّ من أقطاب الصِّناعة، لا يُؤْمِن بالحكمة القديمة القائلة أَنَّ الجهد وحده وسيلة النَّجاح! ثُمَّ استطرد يقول: «عرفتُ رجالاً نجحوا في أعمالهم لأنَّهم كانوا يُقْبَلون عليها كإقبالهم على وسائل التَّسلية والتَّرفيه عن النَّفس، ثُمَّ رأيت هؤلاء الرَّجال أنفُسَهم وقد حصروا همَّهم كُلَّه في العمل، فإذا هو قد امتلأ غضاظة، وإذا هُمُ قد فقدوا استمتاعهم به فأخفقوا».

ولأهمِّيَّة حُسْنِ الْبَشْرِ، وطلاقة الوجه، والابتسام في معاملة النَّاسِ، فلا غرابة أن يختار رجال الأعمال والرؤساء والمديرون معاوينهم، أو أمناء سرِّهم من طليقي الوجه، وحسني الْبَشْرِ، لأنَّ هؤلاء فضلاً عن أنَّهم يقومون بالأعمال المطلوبة منهم، فهم يُسِرُّون النَّاسَ ويكسبون ودَّهم وحبَّهم، الأمر الذي من شأنه إنجاح العمل، وتَحَقُّقُ الرِّيح، وذيوع الصِّيت^(*).

إلا أنَّ أمراً يجب التَّنَبُّه إليه، وهو أنَّ الابتسامة سواء كانت من أجل كسب ودِّ النَّاسِ وحبِّهم، أو من أجل النَّجاح في الأعمال ينبغي أن تكون مُخْلِصَةً نزيهةً نابعةً من القلب.

فالابتسامة النَّائِيَّة عن الإخلاص، والتي لا تتعدَّى كونها تحريكاً للشِّفَتَيْنِ أو وسيلةً لَدَرِّ المصالح، هي ليست ابتسامة حقيقيَّة، وهي بالتَّالي لا تنطلي على أحد. أمَّا

*١. إنَّ حسن تعامل أصحاب المحلَّات التجاريَّة وموظفيهم مع الزبائن وحسن بِشْرِهِم معهم وابتسامهم لهم من أحسن أنواع الدَّعابة لتلك المحلَّات.

الابتسامة الحقيقية فهي النابعة من القلب، وهي التي تترك الآثار الطيبة في نفوس الناس، وتأتي بالنجاح في ميادين المشاريع والأعمال.

وقد يقول امرؤ: إنني أرغب في أن أكون بسوماً، ولكنني لا أجد حافزاً على الابتسام فما العمل؟

الأمر كما يلي:

ليتعوّد أن يبتسم، فالخير - ومنه الابتسام المخلص - عادة، كما أن الشر عادة أيضاً. وليبدأ بفتح نوافذ قلبه، ويترد ما أَلَمَّ به من ضرر وسأم وحزن إن وُجِدَ، ولا يضيع لحظة في التفكير في خصومه، ثمّ ليحاول أن يبتسم أو أن يقسّر نفسه على ذلك. ولا مانع أن يتكلّف أو يتصنّع الابتسام - في البداية - كمرحلة لخلق عادة التّبسّم، وشيئاً فشيئاً سيتعوّد على الابتسام وسيصبح التّبسّم طبعاً وخلقاً فيه وعادةً.

إنَّ حُسْنَ الْبَشْرِ، وطلاقة الوجه، والابتسام المخلص تؤنس الناس، والرفاق، وتقرب المرء إلى قلوبهم وأفئدتهم، وأعظم من ذلك أنها تقرب المرء من خالقه - عزّ وجلّ -.

أما سوء الْبَشْرِ، وعبوس الوجه، فهي تُكسِبُ مَقَتَ النَّاسِ، والبُعدَ عن الله سبحانه وتعالى، فهلاً يتقرب المرء من الله ومن الناس؟

والآن فَلِكَيْ يحرز المرء علامات هامة من علامات النّجاح على صعيد الأعمال، أو على صعيد كسب ودّ الناس وحبّهم، ينبغي له أن يكون:

- حسن الْبَشْرِ.

- طليق الْوَجْهِ.

- مُبْتَسِماً، وبإخلاص.

وإذا لم يكن من عاداته الابتسام، فليتعلم هذا الفنّ - وليس عيباً أن يتعلّمه - بل العيب أن يبقى عابساً متجهماً طيلة حياته. وما أبسطه من فنٍّ! ليتخلّص

من كل الأغلال، والأوزار الدَّاخِلِيَّةِ، وليجعل الابتسامة تنبُع من قلبه، وتجري من فمه وعلى شفثيه لتبسط قسَمات وجهه، ولن يتكلَّف شيئاً، ولن يخسر، بل هو الرَّابِح والنَّاجِح والسَّعيد على أية حال.

وليعلم المرء أن حسنَ البَشْرِ، وطلاقة الوجه، والابتسام هي من أبرز الأمور التي تجعله يطبع أثراً حسناً في من يلقاه لأوَّل مرَّة، وهي الخُلُق الذي ينبغي أن يتحوَّل فيه إلى عادة في كلِّ لقاء، وبذلك ينجح في أعماله، ويكسب مودَّة النَّاس ومحَبَّتَهم.

❖ الإِصْغَاءُ الطَّيِّبُ، وَتَشْجِيعُ الْمُحَدِّثِ عَلَى الْكَلَامِ

قال الإمام عليُّ (ع):

«مَنْ أَحْسَنَ الاسْتِمَاعَ، تَعَجَّلَ الْاِنتِفَاعَ»^(١).

وقال (ع) أيضاً:

«عَوِّدْ أذُنَكَ حُسْنَ الاسْتِمَاعِ، وَلَا تُصْغِ إِلَى مَا لَا يَزِيدُ فِي صَلَاحِكَ»^(٢).

« في دراسة استغرقت شهرين، جرت في أمريكا، وتناولت الاتِّصَالَات الشَّخْصِيَّة لثمانية وستين شخصاً في مختلف الأعمال، تبَيَّن أن ٧٥ بالمئة من مواضيع النَّهار تتم بالاتِّصَال الشَّفهي، بمعدل ٣٠ بالمئة للحديث، ٤٥ بالمئة للإِصْغَاء والاستماع»^(٣).

«ويقول مدير التَّدريب في أحد المخازن الأمريكيَّة الكبرى: هذه إحدى الصُّعوبات الكبيرة التي تعترضنا عندما يتولَّى البيعُ موظفون لا خبرة لديهم . . يدخلُ الشَّاري فيطلب سترة مقاسها ٣٨ بكُمَّين قصيرين كتلك التي أبصرها في الواجهة. فيهرع البائع إلى الرَّفِّ المعين، ويتناول من فوقه سترة مقاسها ٣٨ ولكن بكُمَّين طويلين.

١. شرح الغرر والدرر، ج ٧، ص ١٦٧.

٢. المصدر السابق، ص ١٦٨.

٣. سمير شيخاني: علم النفس في حياتنا اليوميَّة، ص ١٠٣.

فَيُكْرِّرُ الشَّارِي طَلَبَهُ مَشَدَّدًا عَلَى الْأَكْمَامِ الْقَصِيرَةِ. ويعود البائع ليلبي الطلب. إِنَّ مِثْلَ هَذَا التَّصَرُّفِ يَكْلِفُ مَالًا لِأَنَّهُ يَهْدِرُ وَقْتًا بِلَا فَائِدَةٍ: وَقْتُ الشَّارِي وَوَقْتُ الْبَائِعِ، عِذَا مَا يَسْبِيهِ مِنْ فَوْضَى فِي رُفُوفِ السَّلْعِ وَمِنْ تَكْدِيرِ الشَّارِي. ويمضي مدير التَّدرِيبِ قائلاً: لَذَا فَنَحْنُ فِي الدُّرُوسِ الَّتِي نَقْدُمُهَا عَلَى سَبِيلِ التَّدرِيبِ، نَشْدُدُّ عَلَى الْعِبَارَةِ الثَّالِيَةِ: « أَصْغِ قَبْلَ أَنْ تَتَصَرَّفَ »^(١).

الإصغاء - أو الاستماع - فَنُ يَهْمُلُهُ أَوْ لَا يَجِيذُهُ قِسْمٌ مِنَ النَّاسِ. بَلْ إِنَّ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ يَجِيدُونَ التَّحَدُّثَ أَكْثَرَ مِمَّا يَجِيدُونَ الْإِصْغَاءَ. وهؤلاء قد لَا يَهْمُهُمْ مَا يَقُولُ الطَّرْفُ الْآخَرُ، بِقَدَرِ مَا يَهْمُهُمْ أَنْ يَكُونُوا هُمْ الْمُتَكَلِّمُونَ، وَالْمُتَسَكِّونَ بِدَقَّةِ الْحَدِيثِ. وَلَا يَهْمُهُمْ أَيْضًا أَنْ يَبْقَى الطَّرْفُ الْآخَرُ مُتَابِعًا لِحَدِيثِهِ، وَمُسْتَرَسلاً فِيهِ، بَلْ يَهْمُهُمْ أَنْ يَقَاطِعُوهُ، «وَيَجِدَعُوا أَنْفَهُ» وَيَتَرَوُا حَبْلَ أَفْكَارِهِ أَوْ حَدِيثِهِ. ولو تساءل المتسائل:

هل هناك من علاقة بين كسب محبة الناس ومودتهم، وبين الإصغاء و الاستماع إليهم؟ لكان الجواب: أجل. والقصة التالية دليل على ذلك.

يحي أحد الكتّاب، فيقول:

«جمعتني بأحد علماء النبات البارزين، حفلة عشاء، أقامها أحد النّاشرين المعروفين، ولم أكن قد تحدّثتُ إلى أحد علماء النبات من قبل، لذلك وجدت في الاستماع إليه لذة كبرى، جلستُ على حافة مقعدي، وأصغيت إليه وهو يحدثني عن الحشائش والأزهار، والحدائق المنزليّة، وكان من لُطْفِ الشّمائل بحيث أوضح لي كيف أحلُّ بعض المشكلات المتعلقة بحديثي.

وكنا - كما أسلفت - في حفلة عشاء، ولكنني ضربت بقوانين اللياقة عرض الحائط، وتجاهلت سائر المدعوّين، ومضيت أتحدّث إلى هذا العالم ساعات

١. المصدر السابق، ص ١٠٣، ١٠٤.

بأكملها! وانتصف الليل، فتمنيت للمدعوين ليلة سعيدة، وانصرفت، وعاد عالم النّبات إلى مضيفنا، وأجزل له الشّناء عليّ.. فقد كنتُ على حدّ تعبيره «مثيراً جدّاً» وكنتُ هذا وكنتُ ذاك.

ثم أختتم حديثه للمضيف بقوله: حقّاً أنّ السيّد (..) محدثٌ بارع. محدثٌ بارع؟! أنا؟! وكيف؟! فأنيّ لم أقل شيئاً على الإطلاق. بل ما كان لي أن أقول شيئاً قبل أن أغيّر موضوع الحديث، فلست أعلم من النّبات أكثر مما أعلم عن تشريح طائر «البطريق»^(*)! كلّما فعلته أنني استمعت بشغف، قد فعلت ذلك لأنني كنت شغوفاً حقّاً بما يقول، وقد أحسّ هو بذلك، وسرّه هذا بطبيعة الحال، فالاستماع المشغوف هو أعلى ضروب الشّناء الذي يمكن أن تُضفيّه على محدثك».

وليُجرب المرء أن يلتقي شخصاً، ويدخل معه في حديث، وليتجاهل ما يقوله الشّخص بأن لا يستمع إليه جيّداً، تُرى ما هو الشّعور الذي يتولّد في هذا الشّخص الآخر؟ بلا شك إنّه لا يُسرُّ به، ولا ينجذب إليه. وليجرب أيضاً أن يلتقي شخصاً آخر، ويدخل معه في حديث، وليستمع جيّداً ما يقوله الشّخص. إنّ شعور الشّخص في هذه الحالة يختلف تماماً عن شعور الشّخص في الحالة الأولى. إنّه هنا يُسرُّ بمستمعه وينجذب إليه، ويحبّه.

ومن هنا يظهر السرُّ في أنّ الخطيب، والمحدّث، والمعلم، و... يهتمّون بتركيز نظراتهم وتوجيه كلامهم إلى من يصغي إليهم من الجمهور، أو المحدّثين، أو التلاميذ، أو... لأنّ الأولين يشعرون باحترام وتقدير الآخرين لهم، ويشعرون بأنّ الطّرف الآخر يشجّعهم على الحديث. تصوّر أنّك دُعيت إلى خطاب على جمع، وكان هذا الجّمع غير مستمع إليك، منشغلاً بغير خطابك، فهل تشجّع في الخطابة؟! وهل تنجذب إلى مستمعيك؟! وهل تُثني عليهم؟! كلّاً! بطبيعة الحال. والانطباع الذي يرتسم لك عنهم أنّهم غير مشجّعين لك على الخطابة، لأنّهم لا يلتزمون بالإصغاء.

*١. البطريق: جمعها بطارق وبطريق وبطارقة: رتبة من الطيور ذات غشاء بين الأصابع، تعيش في المناطق الشماليّة من الكرة الأرضيّة، ريشها أسود في الظهر وأبيض في الصّدر، ويسمى بنجوين.

والإصغاء ليس مسألة صعبة، بل هو فنٌ يعتمد على إتاحة الفرصة الكافية للمحدث لأن يتحدث، أو أن يُبدي أفكاره، أو آراءه ووجهات نظره، ويعتمد على الاتِّصاف بإرادة الصَّبر على الصَّمت والتَّحكُّم في أداة المنطق، وعدم مقاطعة الطَّرف الآخر في حديثه، حتَّى يُتِمَّه، أو حتَّى يُتِمَّ القِسْمَ أو الفكرة التي يعطينا بعدها إجازة للتَّحدُّث، أو إبداء الرأْي والتَّعليق، مع العلم بأنَّ استئذان الشَّخص الآخر للتَّحدُّث، أو إضافة تعليق أو شيء اعتراضِيٍّ، من الأمور الحسنة في تنظيم الأحاديث، وفي المحافظة على كرامة الطَّرف الآخر، وتقديره.

وفقدان إجازة فنِّ الاصغاء والاستماع، من الأمور غير الإيجابية في مجتمعاتنا، فقد يصادف أن يحضر المرء مجلساً، فيجد فيه أكثر من شخص يتحدثون، ويبدون الرأْي والتَّعليق في نفس اللَّحظة، وبذلك يتحوَّل المجلس إلى مقاطعات كلاميَّة فوضويَّة، تُذَكِّرُ بالأصوات المتعدِّدة النَّغمات والجرَّهات في سوق من أسواق الخضروات! وهذا الأمر - ويا للأسف - يحدث حتَّى في صفوف المثقَّفين!

وقد يقول قائل: إنَّ فنَّ الإصغاء مطلوب - فقط - في الاجتماعات والجلسات الرسميَّة. ولكنَّ الحقيقة أنَّه مطلوب في غير ذلك: في النَّقاش، بل وحتَّى في الاجتماعات الأخويَّة العاديَّة، و«دردشات» الاستراحة وقضاء الوقت الطَّيِّب. فماذا يُضير المرء - في اجتماع أخويٍّ عاديٍّ - أن يلتزم حالة تنظيميَّة في التَّحدُّث في ذات الوقت، وأن يَنْتظر حتَّى ينتهي من كلامه؟ بل حتَّى في المجالس الشعبيَّة التي لا تُركِّز على موضوع معين - في حالات كثيرة - ينبغي للمرء أن يجعل من نفسه مستمعاً طيِّباً وأن يتكلَّم في الموقع المناسب.

والإصغاء لا يعمل على تنظيم المحادثة بين شخصين أو طرفين فحسب، بل بالإضافة إلى ذلك هو تقدير واحترام للشَّخص الآخر، الأمر الذي من شأنه كسب المرء لمحبة النَّاس ومودَّتْهم. فأن تصغي لمُحدِّثك، هذا يعني: أنكَ تَشْعُرُ وتُشْعِرُهُ بأهميَّته، وتقدِّمُ الاهتمام والتَّقدير له، ولِمَا يطرحه من أفكار وآراء، حتَّى لو كنت تختلف معه في الأفكار والآراء. وليس غريباً أن تجده يرتاح إليك، ويهتمُّ بما تطرحه. وهذا - كما تقدَّم ذِكرُهُ - هو السُّرُّ في أنَّ الخُطباء يهتمُّون في توجيه

نظراتهم، وكلامهم إلى من يعيرهم آذاناً صاغية، واستماعاً طيباً وإلى من يتلقّى الأفكار منهم بكلّ اهتمام.

بل حتّى أولئك النَّاس الذين يتّصفون بالجفاف في الطّباع، والغلظة في الأقوال، يَلِينُونَ أمام مُستمعٍ جيّدٍ، صبورٍ. إنّ هذا الأسلوب هو الذي جعل مشتري الحُلّة يرضى ويقتنع بما استعمله مدير القِسْم في متجر كبير، فماذا كانت القِصّة؟ يقول أحد خبراء علم النّفْس الاجتماعيّ:

اشترى أحد طلبتي - ذات يوم - حُلّةً جديدة من متجر كبير معروف. وبعد أيام اكتشف أنّ صباغ الحُلّة رديء، وأنّ لونها يحيل إذا أصابها شيء من العرق. فأخذ الحُلّة، وعاد بها إلى المتجر، وقصد إلى البائع الذي باعه إيّاها، وقصّ عليه القِصّة. هل قلتُ قصّ على البائع؟ - استغفر الله، بل حاول أن يقصّ عليه، ولكنّه لم يستطع، فقد قطع عليه البائع السّبيل، وقال له: لقد بعنا آلافاً من هذه الحُلل، وهذه أوّل شكاية نسمع بها! تلك كانت كلماته، أمّا لهجته فكانت أقبح بكثير، ولم تكن لها إلّا ترجمة واحدة: أنت تكذب! أتظن أنّك ستحملنا على التّبعة؟ حسناً، فسوف ترى لمن تكون الغلبة!

«وعند احتدام المناقشة تدخل بائع آخر في الموضوع، وقال: كلّ الحُلل ذات اللون القاتم يحيل صباغها في أوّل الأمر، ولا يسعنا أن نفعل شيئاً إزاء ذلك، خاصّة للحُلل التي تباع بمثل هذا الثّمّن الرّخيص!

قال تلميذي:

«وكنت في تلك اللحظة مجرّد غاضب وحسب، فلمّا ألمح البائع الثّاني إلى أنّي اشتريت بضاعة رخيصة، بدأت أغلي كالمرجل! وأوشكت أن أقول لهم: خذوا حُلّتكم، واذهبوا بها إلى الجحيم! ولكنّ رئيس القسم دخل علينا في تلك اللحظة، ووَسَّعَهُ أن يُذهِبَ غضبي ويهدّئ ثورتي، وذلك بأن استخدم ثلاثة أشياء:

«اولاً: استمع إلى قصّتي من البداية إلى النّهاية، دون أن يقاطعني بحرفٍ واحد.

«وثانياً: ما إن أكملت حديثي، حتّى سلّم معي بأنّ لون الصّباغ قد حال فعلاً،

وأنذر البائع ألا يبيع شيئاً أبداً ما لم يستوثق من جودته، ورضى العميل عنه.
«ثالثاً: سألني ماذا أريد أن يَفْعَلَ بالحُلَّة، وأظهر عزمه على أن يفعل حسب ما أشير عليه.

«وكنت إلى بضع دقائق خلت، على استعداد لأن أقول لهم: احتفظوا ببضاعتكم الرديئة لأنفسكم، ولكنني عندئذ أجبت: إني أسألكم النصيحة بدوري، أريد أن أعرف هل ستظلُّ الحُلَّة تفقد لونها، أم أنَّ هذا طارئٌ مؤقت؟! وهنا اقترح عليَّ رئيس القسم أن أجرب الحُلَّة لمدة أسبوعٍ آخر، فإذا لم أرض عنها أرجعتها إليهم.
«وغادرت المتجر راضياً. وقد صلحت حال الحُلَّة في نهاية الأسبوع، واستعدتُ ثقتي التامة ببضاعة هذا المحلِّ . . . وليس بعجيب أن يصبح هذا الرَّجُل رئيساً لقسمه. أمَّا البائعان فإنهما سيظلَّان . . . (وكنت على وشك أن أقول أنَّهما سيظلَّان مجردَّ بائعين طول حياتهما)، كلاً! بل ربَّما أنزلا درجة إلى قسم حزم البضائع، حيث لا تكون لهما صلة بالعملاء على الإطلاق».

إن كثيراً من النَّاس لا يُوفَّقون في طبع أثرٍ طيب في نفوس من يلتقون بهم للمرَّة الأولى، لأنَّهم لا يمنحونهم آذاناً صاغية مستمعة، وأذهاناً متوجَّهة، وإمَّا يكون همُّهم في التَّحدُّث، والكلام الذي سيقولونه. والنَّاس - في الغالب - يفضُّلون من يستمع إليهم^(١) وينجذبون إليه، ويحبُّونه، أكثر ممَّن يتكلَّم إليهم. فعلى سبيل المثال: إنَّ المرضى يفضُّلون أن يصغي الطَّبيب لهم لكي يتحدَّثوا إليه بالتَّفصيل عن حالاتهم، ورحلاتهم مع المرض، أكثر من أن يبقوا مستمعين له، ذلك لأنَّهم علاوة على رغبتهم في الشِّفاء، ينتظرون العَطْفَ، وهكذا الحال بالنَّسبة لطبقات وفئات النَّاس الأخرى.
فالحاجة إلى المستمع الطَّيب أمرٌ لا ينحصر في طبقة أو فئة معيَّنة، بل كلُّ النَّاس على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم يحتاجون إلى من يستمع إليهم ويصغي، وهم ينجذبون ويميلون إلى هذا النوع من النَّاس.

*١. إضافة إلى أنَّ كلَّ النَّاس يرغبون إلى من يستمع إليهم، هناك منهم من يغلب عليه الصَّمْتُ والسُّكُوت والاستماع إلى قول المتحدِّث أثناء الحديث.

ومن الأمور التي هي من الأهميَّة بمكان في كسب وَدَّ النَّاسِ وَحُبِّهِمْ، وترتبط بالإصغاء ولا تقلُّ أهميَّة عنه، تشجيع الشَّخص الآخر على الكلام، وإتاحة الفرصة له في ذلك، وخصوصاً في الكلام عن نفسه^(***). إنَّ من النَّاسِ من إذا تحدَّث مع الآخرين قَصَرَ كلامه على نفسه، وأقاربه، وقضاياه الخاصَّة به، ضارباً عرض الحائط رغبة الطَّرف الآخر في الحديث، وتشجيعه على الكلام عن نفسه، وعمَّا يَخْصُه، من الأمور التي لا يستهان بها في كسب مودتهم، والدُّخول إلى قلوبهم. وهكذا الحال بالنَّسبة لتشجيع المحدث على الكلام عن نفسه وعمَّا يَخْصُه.

إِلَّا أَنَّ ثَمَّةَ أمر هام ينبغي أخذه بعين الجِدِّ والاعتبار، وهو أَنَّ الإصغاء - أو الاستماع الطَّيب - يجب أن يكون لِمَا هو مشروع وعقلائيٌّ، إذ ليس من المشروع ولا من الصَّحيح أن يصغي المرء إلى ما لا يُصلحه، أو إلى ما لا يزيده صلاحاً.

ومن الأمور التي لا تُصْلِحُ المرء: إصغَاؤه إلى اللغو، واللَّهو ومن صَوَّره الغناء، والإصغاء إلى الكلام عن الفحشاء، وتشجيع الرَّذيلة، وكالتَّشجيع على البِغَاء وشرب الخمر، وتناول المخدرات، ولعب القمار، وما إلى ذلك من المُوبقات، وهكذا الحال بالنَّسبة لتشجيع المحدث على الكلام عن السُّوء والشرِّ والرَّذيلة، لأنَّ في تشجيعه - والحال هذه - تشجيعاً على الرَّذيلة ودعوة إليها، وهذا ما لا يوافقُه الدِّينُ والعقلُ.

وقد يسأل السَّائل: كيف الطَّريق إلى حُسْنِ الإصغاء أو الاستماع وخصوصاً بالنَّسبة إلى من لا يُجيده؟

الأمر في غاية البساطة، وهو التَّعود على الإصغاء والاستماع الطَّيبَيْن. فمن يتعوَّد على الاستماع الطَّيب، سيصبح الاستماع عادةً فيه وتقليداً بلا ادنى ترديد.

والآن فَلِكَيْ يَكْسِبَ المرء وَدَّ النَّاسِ وَحُبَّهُمْ، حَرِيٌّ به أن يجعل من نفسه:

- مُسْتَمِعاً طَيِّباً لَهُمْ.
- وَمُشْجِعاً وَمُتَّيِّحاً الفرصة لهم في التَّحدُّث عمَّا هو خير وفضيلة سواء عن أنفسهم أو ما يَخْصُهُمْ أو ما يرغبون إليه.

**1. إذا اتاح المرء للشَّخص الآخر الفرصة للتَّحدُّث عن نفسه، واستمع إليه جيِّداً يكون بذلك قد فعل أمراً طيباً لكسب وَدَّه

❖ تَذَكُّرُ حِفْظِ أَسْمَاءِ النَّاسِ

قال الرسول الأعظم (ص): «إِذَا كَانَ الرَّجُلُ غَائِبًا فَكُنْهُ، وَإِذَا كَانَ حَاضِرًا فَسَمِّهِ»^(١)

وقال (ص) أيضاً:

«أَوَّلُ مَا يَبْرُ الرَّجُلُ وَلَدَهُ أَنْ يُسَمِّيَهُ بِاسْمٍ حَسَنٍ، فَلْيُحْسِنْ أَحَدَكُمْ اسْمَ وَلَدِهِ»^(٢)

حينما يلتقي المرء شخصاً آخر، ويبدأ معه حديثاً ثم يسترسل معه في الحديث، دون أن يبادره بالسؤال عن اسمه، ما هو الشعور الذي في داخل ذلك الشخص؟ إن أدنى ما قد يتولد فيه من شعور هو أن المرء لم يُعِرِه اهتماماً جيّداً، لأنّه تناسى التّعريف على عنوانه العام، وهو اسمه. بينما لو قدّم له هذا السؤال، في أوّل اللقاء - وهو الأفضل - أو في أثناء الحديث: «عفواً، ما هو اسمكم؟» أو «وددت التّعريف^(٣) على اسمكم»، لتحركت خلاياه متّجهة إلى المرء، ولأحسّ الشخص الآخر بتفاعله معه، وذلك يرجع إلى إعارته الاهتمام باسمه^(٤)، وبالتالي به هو، إذ أن الاسم علاوة على أنّه وسيلة لتعريف الإنسان، فهو يشكّل جزءاً - على قدر من الأهميّة - من شخصيّته، والاهتمام باسمه يعني الاهتمام به شخصياً، الأمر الذي يسهم في كسب مودّته ومحبّته، والدخول إلى قلبه.

وإنّه لمن غير اللائق أن يدخل أناسٌ مع آخرين في أحاديث قد تمتد لساعات، دون أن «يُجشِّمُوا» أنفسهم السؤال عن أسمائهم. وذلك يرجع إمّا إلى حالة كِبَرٍ

١. ميزان الحكمة.

٢. المصدر السابق.

٣. راجع القسم الرابع، فصل: التعرف على الناس.

٤. مما تجدر الإشارة إليه أنّ الاسمَ الحَسَنَ هو الذي يوحى إلى مبدأ عظيم، كتوحيد الله والعبودية والحمد له، أو إلى قيمة خُلُقِيَّة فاضلة، كالكرم، والجدود والاحسان، والحلم، والعفو، والرّأفة، والرّحمة، واللطف، والرّفق، والطّلاقة، والبشَر الحَسَن، و... وجاء في الأحاديث الشّريفة بما مضمونه: «خير الأسماء ما حُمِدَ وَعُبِدَ» إنّ إساءة اختيار الاسم للولد قد تسبّب في انعكاسات نفسية غير محمودّة على شخصيته، كالشّعور بالحقارة والضعف، و... ومن هنا تبين أهميّة احسان اختيار الأسماء للأولاد بنيناً وبنات، ومن التّوارد التي تُنْقَل فيما يرتبط بسوء اختيار الآباء لأسماء اولادهم، أنّ أعرابياً سُئِلَ عن اسمه، فقال: صَنَك أي ضيق. فقيل له: لقد صُيِّقَ عليك في اسمك، فقال: إن كان قد صُيِّقَ في الاسم فقد وَسَّعَ في الكُنيّة، فقيل له: وما كُنيّتك؟ فقال: أبو البیداء!

موجودة فيهم، أو إلى انعدام أو ضعف اهتمامهم بالجانب العلاقيّ، أو إلى تقصير أو قُصور في الثقافة المعاملاتية، أو ثقافة التعامل مع الناس. وأيّما كانت الحالة، ينبغي للمرء ويُفَضَّلُ له أن يتعرّف على اسم مُحدّثه.

وقد يتساءل السائل: ما هو الدّاعي للتّعرّف على اسم شخص، سيفارقني، وربّما لن أراه في المستقبل؟ وما الذي اجنيه من ذلك؟

والجواب:

وما الذي يخسره المرء حينما يسأل عن اسم من يلقاه؟ بل لرّبما أصبح هذا صديقاً حميماً للمرء في الحياة. وكم من أفرادٍ أصبحوا أصدقاء حميمين لآخرين، بسبب التّعرّف على أسماء بعضهم البعض!

إنّ التّعرّف على اسم الشّخص الآخر، فضلاً عن أنّه خُلُقٌ حَسَنٌ، فهو يُسهّم في كسب مودّة ذلك الشّخص ومحبّته، والدخول إلى قلبه. وكلّنا - أو أغلبنا - جرّب أن تعرّف على اسم من لاقاه، أو اسم مُحدّثه، وأحسّ بذلك الشّعور اللّطيف الذي يتولّد فيه. أما تجاهل اسم الشّخص والتّعرّف عليه، فهو أمر لا يساعد على التّحبّب إليه، وقد يجعله مُدْبِراً لا مُقْبِلاً.

ويلعب التّواضع دوراً كبيراً في السُّؤال عن اسم الشّخص الآخر، لأنّ المتواضع لا يجد حاجزاً في التّعرّف على الآخرين، بل يكون سعيداً وهو يتعرّف عليهم، بخلاف المتكبّر الذي ينتظر من الآخرين أن يسألوه عن اسمه، وربّما حتّى لو سألوه عنه، لم يُقْبِلْ عليهم.

ينقل أحد المؤلّفين قصّة عن أهميّة حفظ وتذكّر الأسماء فيقول:

«قابلته ذات يوم، وسألته عن نجاحه الباهر، فقال لي: «الجِدُّ والاجتهاد» فقلت: لا تمزح، فسألني ماذا أظنُّ سرَّ نجاحه؟ فقلت: سمعتُ أنّ في وسعك أن تنادي عشرة آلاف شخص باسمهم الأوّل. وكنتُ مصيباً في ظنّي، فقد ساعدت هذه المقدرة «ج. ف. ف.» على أن ينصّب «ف. ر.» رئيساً للجمهورية.

«أَمَّا كَيْفَ خَلَقَ «ج . ف .» هذه القدرة على تذكُّر أسماء النَّاسِ، فَأَمْرٌ هَيِّنٌ.

«كان إذا التقى بصديق جديد، تعرَّفَ على أسمه الكامل، واسماء أولاده، وذويه المقربين، ووقف على طبيعة علمه، ولونه السياسي، وآرائه العامَّة. ومن ثمَّ يحتفظ بهذه المعلومات في ذهنه كجزء من الصُّورة التي اخترنها في مُخَيَّلَتِهِ لهذا الصَّدِيق، فمتى التقاه ثانية، وسِعَهُ أَنْ يَرُبَّتَ على كتفه، ويسأل عن زوجته وأولاده، والأزهار الجميلة التي تنبَّت في حديقة داره. فلا عجب - إذن - أن يكون له على مَرِّ الأعوام، معارف، وأصدقاء، يفوق عددهم الحصر!.

«وقبل أن يبدأ «ف. ر.» حملته الانتخابية بأشهر، عكف «ج. ف.» على كتابة مئات الرِّسائل - كلَّ يوم - لأشخاص يعرفهم في جميع الولايات. ثمَّ استقلَّ القطار، وظلَّ مدى تسعة عشر يوماً يجوب أنحاء الولايات، وقطع في هذه الجولة اثني عشر ألف ميلاً!

«وكان إذا حلَّ ببلد، قابل معارفه على مائدة الإفطار، أو الغداء، أو العشاء، فيقضي معهم زمناً يلقي عليهم فيه تحيةً قلبيةً مُخلصةً، ثمَّ يتركهم ليستأنف رحلته. فلما أبَّ من رحلته، انتقى من كلِّ بلد زاره، رجلاً واحداً وسأله أن يُعِدَّ له قائمة بكل من قابلهم وتحدَّث إليهم. وقد حوت هذه القوائم آلافاً من الأسماء، ومع ذلك فكلُّ اسم ورد في تلك القوائم حظي صاحبه بمحادثة وُدِّيَّة مع «ج. ف.».

«وكانت الرِّسائل التي يكتبها «ج . ف .» تبدأ دائماً بهذه العبارة:

«عزيزي . . . » وكان الإمضاء دائماً «ف . أي باسمه الثاني.

«ولقد اكتشف «ج . ف .» في وقت مبكَّر من حياته أنَّ أحبَّ الأسماء للإنسان هو اسمه! ومتى ذكرت اسم شخص صادقته، وناديت به في المرَّة التَّالية التي تلقاه فيها، فثق أنَّك أدَّيت له مجاملة لطيفة باقية الأثر. أمَّا لو نسيت اسمه، أو نطقت به مغلوطاً فقد لا يشعر الطرف الآخر بأنَّك تهتم به.»

إِنَّ حِفْظَ أَسْمَاءِ النَّاسِ، وَتَذَكُّرَهَا، وَتَنْمِيَةَ الْمُقْدَرَةِ عَلَى تَذَكُّرِهَا مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تَسْهَمُ فِي التَّحَبُّبِ إِلَى النَّاسِ وَالتَّوَدُّدِ لَهُمْ.

وَمِنْ هُنَا فَالْمَرْءُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَنْشُطَ ذَاكِرَتَهُ فِي حِفْظِ أَسْمَاءِ مَنْ يَلْتَقِي بِهِمْ مِنَ النَّاسِ. وَمِنَ الطَّرَائِقِ النَّاجِحَةِ فِي تَذَكُّرِ الْأَسْمَاءِ: أَنْ تَسْتَمَعَ جَيِّدًا إِلَى الشَّخْصِ وَهُوَ يُدْلِي لَكَ بِاسْمِهِ، وَأَنْ تَرُدِّدَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَفِي أَثْنَاءِ الْحَدِيثِ ^(١) لِكَيْ يَرُسِّخَ فِي ذَهْنِكَ، وَأَنْ تَرْبِطَهُ بِصُورَةٍ بَصَرِيَّةٍ، لِأَنَّ الصُّورَ الْبَصَرِيَّةَ تَرُسِّخُ فِي الْمَخِّ أَكْثَرَ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْكَلِمَاتِ. وَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ تَلْتَقِيَ شَخْصًا قَابِلَتَهُ مِنْ قَبْلِ فَتَقُولَ لَهُ: إِنَّ صُورَتَكَ لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَنِّي، وَكَأَنِّي رَأَيْتُكَ مِنْ قَبْلِ وَلَكِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَذَكَّرَ اسْمَهُ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّكَ لَمْ تَرَسِّمْ لَهُ صُورَةً مُتَكَامِلَةً أَوْ قَابِلَةً لِلرُّسُوخِ فِي ذَهْنِكَ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ تِلْكَ الصُّورَةِ بَعْضُ الْأَجْزَاءِ الَّتِي تَجْعَلُكَ تَظُنُّ - دُونَ أَنْ تَوْقِنَ - بِأَنَّكَ التَّقِيْتَهُ مُسَبِّقًا.

وَعَنْ حِفْظِ وَتَذَكُّرِ الْأَسْمَاءِ، يُنْقَلُ عَنْ نَابِلْيُونِ الثَّالِثِ (إِمْبَرَاطُورِ فَرَنْسَا، وَابْنِ عَمِّ نَابِلْيُونِ بُونَابَرْتِ) أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَاجِبَاتِ الْمَلِكِ عَلَى عَاتِقِهِ، كَانَ لِيُسْتَطِيعَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ كُلِّ شَخْصٍ التَّقَى بِهِ.

فَكَيْفَ كَانَ يَفْعَلُ؟

غَايَةُ فِي الْبَسَاطَةِ. كَانَ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ اسْمَ مَحَدِّثِهِ وَاضِحًا، قَالَ لَهُ: آسَفُ، لَمْ اسْتَطِعْ أَنْ أَلْتَقِطَ الْاسْمَ تَمَامًا، فَإِذَا كَانَ الْاسْمُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْغَرَابَةِ، سَأَلَ: كَيْفَ يُتَهَجَّى؟ ثُمَّ يَأْخُذُ عَلَى عَاتِقِهِ - خِلَالِ الْمُنَاقَشَةِ - أَنْ يَكْرِّرَ الْاسْمَ جُمْلَةً مَرَّاتٍ، وَيَحَاوِلُ أَنْ يَرْبِطَهُ فِي ذَهْنِهِ بِصُورَةٍ صَاحِبِهِ، وَمَلَامِحِهِ، وَتَعْبِيرَاتِهِ، وَمَظْهَرِهِ الْعَامِ، وَمَتَى خَلَا لِنَفْسِهِ، كَانَ يُدَوِّنُ الْاسْمَ عَلَى قُرْطَاسٍ، ثُمَّ يَتَأَمَّلُهُ مَلِيًّا، وَيَحْصُرُ ذَهْنَهُ فِيهِ، وَبِهَذَا يَكُونُ فِكْرَةُ «عَيْنِيَّةٍ» عَنِ الْاسْمِ كَمَا كَوَّنَ فِكْرَةَ «سَمْعِيَّةٍ» فَلَا يَعُودُ هُنَاكَ ثَمَّةٌ سَبِيلَ لِنَسْيَانِهِ.

١*. أَنْ تَرْدِيدَ اسْمِ الشَّخْصِ الْآخَرِ فِي أَثْنَاءِ الْحَدِيثِ، عِلَاوَةً عَلَى أَنَّهُ يُسَاعِدُ فِي رُسُوخِ اسْمِهِ فِي الذَّهْنِ وَحِفْظِهِ، يَجْعَلُ الطَّرْفَ الْآخَرَ مُسْرُورًا شَاعِرًا بِأَهْمِيَّتِهِ، وَرَاغِبًا إِلَى مُحَدِّثِهِ وَمُحِبًّا لَهُ.

وإذا كان منَ الْعَرَبِيِّينَ من يهتمُّون بحفظ وتذكُّر أسماء من يلتقون بهم من أجل تحقيق المنافع والمكاسب الماديَّة، مع عدم إهمال الفطرة الإنسانيَّة الموجودة فيهم، والباعثة على التَّعامل الحسن مع النَّاس، ومع العلم بأنَّ الإنسان أيًّا كان، يرغب في أن يكون محبوباً مودوداً، إذا كان كذلك فإنَّ الْمُؤْمِنِينَ هم الأوَّلَى بإحسان تعاملهم مع النَّاس، وخدمتهم، والبذل والعطاء لهم، وحفظ وتذكُّر أسمائهم.

وتذكُّر الأسماء ليست مسألة صعبة، بل هي سهلة. ولكنَّ كثيراً من النَّاس يتعذَّر في سوء حفظه لأسماء من يلقاهم بازدحام الأعمال، وكثرة الانشغالات. ولكن لو علم أولئك أَهْمِيَّة التَّعَرُّف على النَّاس وحفظ وتذكُّر اسمائهم لما قَصَّروا في ذلك. والآن فَلَيْكِي يَكْسِبُ المرء حَبَّ النَّاس له، ينبغي لن أن يعلم أن اسم الشَّخص الآخر هو شيء محبَّب له، وبحفظه لاسم هذا الشَّخص يشعر الأخير بأنَّه يُهْتَمُّ به ويُقَدَّر، وبذلك يدخل المرء إلى قلبه فيحُبُّه.

❖ أُمُور أُخْرَى فِي التَّحَبُّبِ إِلَى النَّاسِ

بالإضافة إلى القواعد السَّابِقة التي بالتزامها المُخْلِص يُصْبِح المرء محبوباً من قبل النَّاس، مودوداً بينهم، هناك أشياء أُخْرَى - هي من الأَهْمِيَّة بِمَكَان - تؤدِّي دورها في التَّحَبُّبِ لهم، وكسب مودبتهم، ومنها:

- التَّوَّاضُعُ.
- الإِقْبَالُ على النَّاسِ.
- الحياءُ الإيجابيُّ.
- الابتعادُ عن التَّكَلُّفِ، والحواجز النَّفْسِيَّةِ غير المحمودة.
- الانفتاحُ، والعيش بين النَّاسِ.
- الإهداءُ.
- التَّقْدِيرُ.
- الاحترامُ والإجلالُ.
- المجاملةُ المعقولةُ.

- الزِّيَارَةُ.
- السَّوَالُ عَنِ الْأَحْوَالِ.
- الْمَكَاتِبَةُ.
- الثَّنَاءُ الْمُخْلِصُ.
- شُكْرُ الْمَعْرُوفِ.
- التَّشْجِيعُ. (تشجيع الطرف الآخر على صنيعه للخير، وتشجيعه على الخير عموماً).
- الإِخْبَارُ بِالْحُبِّ وَالتَّقْدِيرِ وَالاحْتِرَامِ^(*).
- الدَّعْوَةُ إِلَى الْمَنْزِلِ إِلَى حَدِيثِ أَخَوِيٍّ، أَوْ إِلَى طَعَامِ.
- الْأُلْفَةُ وَالْأُنْسُ.
- الْمُجَالَسَةُ.
- الْإِحْسَانُ.
- التَّوْقِيرُ.
- الْحُبُّ.
- التَّرَاحُمُ.
- التَّعَاطُفُ.
- السَّعْيُ فِي حَوَائِجِ النَّاسِ وَخِدْمَتِهِمْ^(**).
- الْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ.
- اجْتِنَابُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ الْعَقِيمِ.
- الْمَدَارَاةُ.

*١. مرَّ رجل في المسجد وأبو جعفر الإمام الباقر. ع. جالس وأبو عبد الله ع. فقال له بعض جلسائه: والله إنِّي لأحب هذا الرجل! قال له أبو جعفر ع.: ألا فأعلمه، فإنه أبقي للمودة وخير في الألفة، بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٨١.

**٢. قال الله عزَّ وجلَّ في حديثٍ قُدسيٍّ: «الخلق عيالي، فأحبُّهم إليَّ الطِّفْهُم بهم، وأسعاهم في حوائجهم» أصول الكافي ج٢، ص١٩٩، وقال الرسول الأعظم ص.: «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً»، المصدر السابق ص١٦٤.

وقال ص. أيضاً: «إنَّ الله خلق عبيداً من خلقه لحوائج النَّاسِ، يرغبون في المعروف، ويعُدُّون الجود مجداً، والله يحب مكارم الأخلاق»، تحف العقول، ص٣٧.

من النَّاسِ من يتميِّزون بالسَّعيِّ في حوائج النَّاسِ وخدمتهم، ويصدق عليهم أنهم أفراد الخدمة الإلهية وهؤلاء محبوبون مودودون في الاجتماع.

القِسْمُ الرَّابِعُ: مِنْ أَخْلَاقِيَّاتِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ

تَقَدَّمَ ذِكْرُ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِحَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ إِلَى الْاجْتِمَاعِ وَالِاتِّصَالِ مَعَ بَنِي نَوْعِهِ، وَذَلِكَ لِلْفِطْرَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَباعتبار أن لا غنى له عن غيره لتلبية عَوَزِهِ وَحَاجَاتِهِ وَمَتَلَبَّاتِهِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّكْمِيلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، لِبُلُوغِ أَهْدَافِهِ، وَأداء رسالته في الحياة، الأمر الذي يجعل تعامله مع غيره من النَّاسِ ضرورةً أكيدة.

وَإِذْ أَنَّ مَعَامِلَةَ النَّاسِ ضَرُورَةٌ لَا مَنَاصَ مِنْهَا، تُمْلِيهَا إِرَادَةُ الْخَالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - وَالْأَهْدَافُ مِنْ خُلُقَةِ الْإِنْسَانِ، وَحَاجَاتِهِ، فَإِنَّ تِلْكَ الْمَعَامِلَةَ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ سَلِيمَةً، وَلِكِي تَكُونَ سَلِيمَةً لِبَدْءٍ أَنْ تُقَامَ عَلَى أَسَسٍ رَاسِخَةٍ، وَمِنْ تِلْكَ الْأَسَسِ: الْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ، كَمَا مَرَّ ذِكْرُهُ.

إِنَّ الْأَخْلَاقَ هِيَ الْقَوَاعِدُ وَالْفَضَائِلُ الَّتِي تُقَوِّمُ سُلُوكَ الْإِنْسَانِ وَتُنْتَظَّمُ: فِي تَعَامُلِهِ مَعَ خَالِقِهِ، وَمَعَ نَفْسِهِ، وَمَعَ النَّاسِ، وَبِدُونِهَا يَنْحَرِفُ سُلُوكُهُ، وَتَفْقَدُ الْمَعَامِلَةُ مَصْدَاقِيَّتَهَا كَمَعَامِلَةِ سَلِيمَةٍ، وَمِنْ هُنَا فَالْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ حَاجَةٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ، وَضَرُورَةٌ أَكِيدَةٌ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ، كَضَرُورَةِ التَّعَامُلِ ذَاتِهِ.

وَبِنَاءً عَلَيْهِ كَيْفَ يُتَصَوَّرُ وَضْعُ الْاجْتِمَاعِ فِي غِيَابِ الْأَخْلَاقِ؟ وَهَلْ يَخْتَلِفُ - وَالحال هذه - عَنِ مَجْتَمَعِ الْغَابِ؟ فِي مَجْتَمَعِ الْغَابِ الْقَوِيُّ يَأْكُلُ الضَّعِيفَ، وَيَكُونُ الْبَقَاءُ لِلْأَقْوَى - وَالْاجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِيُّ - مَعَ غِيَابِ الْأَخْلَاقِ - يَتَحَوَّلُ إِلَى مَا يَشَبْهُ مَجْتَمَعِ الْغَابِ، وَحِينَمَا تَضِيعُ الْمَقَائِيسُ السُّلُوكِيَّةُ، وَتَرْتَبِكُ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ وَتَضْطَرِّبُ، وَمِنْ هُنَا فَالْأَخْلَاقُ هِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَقُومَ مَعَامَلَاتُهُ عَلَيْهِ لِكِي يَضْمَنَ لَهَا التَّقْوَمَ وَالِانْتِظَامَ.

إِنَّ الْأَخْلَاقَ لَيْسَتْ حَاجَةٌ ثَانَوِيَّةٌ كَمَا قَدْ يَرَى الْبَعْضُ، بَلْ هِيَ ضَرُورَةٌ دِينِيَّةٌ وَحَيَاتِيَّةٌ، نَابِعَةٌ مِنْ حَاجَةِ الْاجْتِمَاعِ الضَّرُورِيَّةِ إِلَيْهَا، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ أَكْثَرِيَّةَ الْأَخْلَاقِ تَنْسَمُ بِالطَّابِعِ الْاجْتِمَاعِيِّ، لَكُونِهَا تُنْتَظَّمُ سُلُوكَ الْإِنْسَانِ فِي مَعَامِلَتِهِ لِأَخِيهِ الْإِنْسَانِ. كَمَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ لَيْسَتْ مَطْلُوبَةٌ فِي زَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ آخَرَ، وَلَا فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ آخَرَ، إِذْ هِيَ مِنْ صَمِيمِ رِسَالَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، لِلْبَشَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَأَسَاسٌ أَوَّلِيٌّ يَنْبَغِي أَنْ تَقُومَ تَعَامِلَاتُ الْإِنْسَانِ مَعَ الْإِنْسَانِ عَلَيْهِ.

فَلْيَكُنْ يَجْعَلُ الْمَرْءَ تَعَامَلَهُ مَعَ النَّاسِ حَسَنًا، مُرْضِيًّا لِلخَالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - وَمَحْمُودًا لَدَى عِقْلَاءِ النَّاسِ، وَاجِبُهُ أَنْ يَلْتَزِمَ الْأَخْلَاقَ، وَيَجْعَلَهَا طِبَاعًا وَعَادَاتٍ وَسَجَايَا فِيهِ. وَفِيمَا يَلِي لِمَحَاتٍ وَإِشَارَاتٍ فِي أَخْلَاقِيَّاتِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، مَبْدُوءَةٌ بِمَا هُوَ شَدِيدُ الْارْتِبَاطِ بِاللِّسَانِ، وَحُسْنِ اسْتِعْمَالِهِ، وَتَعْوِيدِهِ الْخَيْرِ.

❖ حِفْظُ اللِّسَانِ وَحُسْنُ اسْتِعْمَالِهِ

قال تعالى:

(... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...) (١).

وقال الإمام علي (ع):

«مَا الْإِنْسَانُ لَوْلَا اللِّسَانُ إِلَّا صُورَةٌ مُمَثِّلَةٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ» (٢).

وقال (ع) أيضاً:

«إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَشْرَ خِصَالٍ يُظْهِرُهَا لِسَانُهُ، شَاهِدٌ يُخْبِرُ عَنِ الضَّمِيرِ، وَحَاكِمٌ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَطَابِ، وَنَاطِقٌ يَرُدُّ بِهِ الْجَوَابَ، وَشَافِعٌ يُذَكِّرُ بِهِ الْحَاجَةَ، وَوَاصِفٌ يَعْرِفُ بِهِ الْأَشْيَاءَ، وَآمِيرٌ يَأْمُرُ بِالْحَسَنِ، وَوَاعِظٌ يَنْهَى عَنِ الْقَبِيحِ، وَمُعَزِّ تَسْكُنُ بِهِ الْأَحْزَانُ، وَحَاضِرٌ (حَامِدٌ) تُجَلَّى بِهِ الصَّغَائِنُ، وَمُؤَنِّقٌ تَلْتَذُّ بِهِ الْأَسْمَاعُ» (٣).

وقال (ع) أيضاً:

«الْجَمَالُ فِي اللِّسَانِ وَالْكَمَالُ فِي الْعَقْلِ» (٤).

وقال (ع):

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ» (٥).

١. ٨٣ / البقرة.

٢. تحف العقول، ص ١٤٧.

٣. الفروع من الكافي، ج ٨، ص ٢٠.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٤١.

٥. نهج البلاغة، حكمة ٤٠.

وقال الإمام الباقر (ع):

«إِنَّ هَذَا اللِّسَانَ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَخْتِمَ عَلَى لِسَانِهِ كَمَا يَخْتِمُ عَلَى ذَهَبِهِ وَفِضَّتِهِ»^(١).

وقال الإمام عليُّ (ع):

« اللِّسَانُ تُرْجُمَانُ الْجَنَانِ »^(٢).

وقال الرسول الأعظم (ص):

« لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لِسَانُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ »^(٣).

وقال (ص):

«سَلَامَةُ الْإِنْسَانِ فِي حِفْظِ اللِّسَانِ»^(٤).

وقال الإمام عليُّ (ع):

«رَلَّةُ اللِّسَانِ أُنْكِي مِنْ إِصَابَةِ السَّنَانِ»^(٥).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«فِتْنَةُ اللِّسَانِ أَشَدُّ مِنْ صَرْبِ السَّيْفِ»^(٦).

وقال الإمام عليُّ (ع):

«رُبَّ لِسَانٍ أَتَى عَلَى إِنْسَانٍ»^(٧).

وقال (ع):

١. تحف العقول، ص ٢١٨.

٢. الغرر والدرر.

٣. بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢٨٧.

٤. المصدر السابق، ص ٢٨٦.

٥. الغرر والدرر.

٦. بحار الأنوار ج ١٧، ص ٢٨٧.

٧. الغرر والدرر.

«صَلِّحِ الْإِنْسَانَ فِي حَبْسِ اللِّسَانِ»^(١).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»^(٢).

وقال (ص):

«يُعَذِّبُ اللَّهُ اللِّسَانَ بِعَذَابٍ لَا يُعَذِّبُ بِهِ شَيْئًا مِنَ الْجَوَارِحِ، فَيَقُولُ: يَا رَبُّ، عَذِّبْتَنِي بِعَذَابٍ لَمْ تُعَذِّبْ بِهِ شَيْئًا مِنَ الْجَوَارِحِ؟ فَيَقَالَ لَهُ: خَرَجْتَ مِنْكَ كَلِمَةً، فَبَلَغْتَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَسُفِكَ بِهَا الدَّمُ الْحَرَامُ، وَانْتَهَبَ بِهَا الْمَالُ الْحَرَامُ، وَانْتَهَكَ بِهَا الْفَرْجُ الْحَرَامُ»^(٣).

لو وقف المرء مع نفسه، وأجال الفكر في أعماله وتصرفاته لرأى أنها تتألف من أقوال، وأفعال وتقريرات، وأن كثيراً منها - أو أكثرها - تتم باستعمال اللِّسَانِ.

وقد يسأل السائل: لماذا؟

والجواب: لأنَّ اللِّسَانَ هو أحد المُمَيِّزَاتِ الرَّئِيسَةِ بين الإنسان والحيوان، إذ هو وسيلة النُّطْق والتَّعْبِيرِ لديه، وميزان العقل فيه، ورسوله، والترجمان الحقيقي لما يجول في قلبه وضميره.

وعن طريق اللِّسَانِ يمارس المرء أموراً كثيرة منها:

- الإخبارُ عَمَّا في ضميره وباطنه.
- إطلاقُ الأحكامِ واتِّخَاذُهَا.
- ردُّ الأجوبة على الأسئلة المَقْدَّمة له.
- التَّوَسُّطُ به لإدراك الحاجات ونيلها.

١. المصدر السابق.

٢. المحجة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٤.

٣. اصول الكافي، ج ٢، ص ١١٥.

- وصفُ الأمور والأشياء.
- الأمرُ بالحُسْنِ والفضيلة.
- النهي عن القبح والرَّذيلة.
- تسكينُ الأحزان، باعتباره وسيلة السُّرور والدُّعابة والتَّفريح.
- إجلاءُ الأحقاد والضَّغائن.
- التذادُّ السَّمع بما يصدر عنه من كلام ذي معنى، فَصِيحٍ، بَيِّنٍ، وبديعٍ.

لقد تقدَّم أن اللِّسَانَ لا يتعدَّى كونه بضعة من اللحم، ذات وزن قليل قد لا يتجاوز المائتي غرام. ولكنَّ هذه القطعة اللحمية إذا حُفِظَتْ، ووُجِّهَتْ في الاتِّجَاهِ الصَّالِحِ والصَّحِيحِ، تتحول إلى مفتاح تُفتح به أبواب الشَّرِّ، الأمر الذي يُورد المرء في المزالق والمهالك والأزمات! ومن هنا فليس غريباً أن تكون حصائد الألسنة السيئة هي التي تكبُّ النَّاسَ على مناخرهم في النَّارِ.

وإذ الأمر كذلك فإنَّ على المرء أن يتعامل مع لسانه كما يتعامل مع دراهمه ودنانيره، فالمعروف أنَّ الأموال في البيوت وفي البنوك، لكي تُحَفَظَ، تُجَعَلَ في صناديق حديدية سميكة ثقيلة محكمة السَّدِّ. وهكذا بالنِّسبة للألسن فَلِكِيَّ تُحَفَظَ، وتُوَجَّه في الوجهة الصحيحة، يجب أن تُصنِّدَقَ^(*) ويُخْتَمَ عليها.

ولسعة الدور الذي يقوم به اللِّسَانُ في تصرفات الإنسان، فإنَّ إيمانه بالله لا تتحقَّق فيه شروط الاستقامة ومقوماتها إلَّا باستقامة النَّفْسِ، وهذه الأخيرة لا تستقيم إلَّا باستقامة اللِّسَانِ، ولا يستقيم اللِّسَانُ إلَّا إذا وقع رهن إشارة العقل المؤدَّب. وهذا ما يميِّزُ العاقل عن المرء الأحمق (الجاهل). فالأوَّل يجعل لسانه رهن إشارة عقله، أما الآخر فيجعل عقله رهن إشارة لسانه، وهنا موقع الإنسان في المزالق والمهالك.

ومن هنا ففي الوقت الذي على المرء أن يوجَّه لسانه في الوجوه الصَّالحة، عليه في ذات الوقت أن يسجن لسانه، ويكفَّه عن الورد في الوجوه الطَّالحة، ويسجنه وكفَّه تتحقَّق السَّلامة له، إذ سلامته تتوقَّف على حفظ لسانه، وصلاحه يتوقَّف على حبسه.

*١. تصنِّدَق: توضع في صندوق، وصندوق اللِّسَانِ هو الفم، وبفعل هذا الصُّندوق يتمُّ الصُّمت والسُّكوت وحفظ اللِّسَانِ.

يقول الشاعر:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الْأَدَى *** وَحَظُّكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيَّنٌ

لِسَانَكَ لَا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ أَمْرِي *** فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنٌ

إِنَّ اللِّسَانَ إِذَا لَمْ يُحْفَظْ وَيُوجَّهْ فِي الْإِتِّجَاهِ السَّلِيمِ، تَكُونُ أَثَارُهُ خَطِيرَةً، تَصِلُ إِلَى مَنْتَهَى الْخَطُورَةِ فِي حَالَاتٍ! فَرُبَّمَا كَانَتْ كَلِمَةً مِنْ لِسَانٍ أَقْتُلُ لِإِنْسَانٍ مِنْ ضَرْبَةِ حَسَامٍ أَوْ سَنَانٍ. وَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ اشْتَعَلَ أَوَارُهَا، وَأُضْرِمَتْ نِيرَانُهَا بِسَبَبِ اللِّسَانِ: لِعَدَمِ حِفْظِهِ، وَإِعْطَائِهِ الْحَرِيَّةَ! وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ، أَوْ هَلَكَ بِسَبَبِ سُوءِ اسْتِعْمَالِ اللِّسَانِ: لِسَانُهُ، أَوْ لِسَانُ غَيْرِهِ!

وَإِذَا أَنْ لِّلْسَانَ هَذَا الدَّورَ وَهَذِهِ الْأَهْمِيَّةَ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يَتَوَجَّبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَلْتَزِمَهَا فِي مَعَامَلَتِهِ النَّاسَ، يَدْخُلُ اسْتِعْمَالُ اللِّسَانِ طَرَفًا أَوَّلِيًّا فِيهَا - بِاعْتِبَارِهِ وَسِيلَةَ التَّعْبِيرِ - وَيَكُونُ التَّزَامُهَا مَوْقُوفًا عَلَى حِفْظِهِ، وَالتَّحَكُّمِ فِيهِ، وَحَسَنِ اسْتِعْمَالِهِ، وَتَعْوِيدِهِ قَوْلَ الْحَسَنِ وَالْخَيْرِ.

وَعَنْ تَعْوِيدِ اللِّسَانِ قَوْلَ الْحَسَنِ^(١) وَالْخَيْرِ يَنْقُلُ التَّارِيخُ أَنَّهُ:

مَرَّ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى (ع) مَعَ أَصْحَابِهِ عَلَى خَنْزِيرٍ أَجْرَبَ، فَهَمَّ أَصْحَابُهُ بِشْتِمِهِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ وَضَرْبِهِ، فَهَاهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمْرُهُمْ بِالْإِحْسَانِ حَتَّى إِلَى الْخَنْزِيرِ الْأَجْرَبِ، قَائِلًا لَهُمْ: عَوَّدُوا أَلْسِنَتَكُمْ قَوْلَ الْخَيْرِ حَتَّى مَعَ الْحَيَوَانَاتِ.

يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

عَوَّدُ لِسَانَكَ قَوْلَ الْخَيْرِ تَحْظُ بِهِ *** إِنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَّدْتَ مُعْتَادُ

وَيَقُولُ الْإِمَامُ عَلِيُّ (ع) فِي الشُّعْرِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ:

١. إِنَّ قَوْلَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا. تَلَخَّصَتْ فِيهِ كُلُّ أُخْلَاقِيَّاتِ التَّعَامُلِ الَّتِي تَتِمُّ بِوِاسْطَةِ اللِّسَانِ.

وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ *** ثَرْتَارًا فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ

وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ *** فَامْرَأُ يَسْلُمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطُبُ^(١)

وَالآنَ فَلَيْكِي يُحَسِّنُ الْمَرْءَ مَعَامَلَةَ النَّاسِ، عَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ وَيُحَسِّنَ اسْتِعْمَالَهُ، وَيَجْعَلَهُ مَرْكَبًا لِلْخَيْرِ.

❖ التَّزَامُ الصَّدْقِ مَعَ النَّاسِ

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)^(٢)

وقال الرسول الأعظم (ص):

«إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ تَضَدِّيقًا لِلنَّاسِ أَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا، وَإِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ تَكْذِيبًا أَكْذَبُهُمْ حَدِيثًا»^(٣)

وقال الإمام عليّ (ع):

«الصَّدْقُ لِسَانُ الْحَقِّ»^(٤)

وقال (ع) أيضاً:

«الصَّدْقُ أَقْوَى دَعَائِمِ الْإِيمَانِ»^(٥)

يَعْرِفُ الصَّدْقُ بَأَنَّهُ تَطَابُقُ الْمُنْطَقِ الْإِنْسَانِيِّ مَعَ الْوَضْعِ الْإِلَهِيِّ. وبعبارة أخرى:

مطابقة لسان الإنسان (كلامه) لما وضع الله وشرع من أمور يجب على الإنسان الصَّدْقُ فيها، وضده الكذب.

١. ديوان الإمام علي، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، نادي: مجلس. يعطب: يهلك.

٢. ١١٩ / التوبة.

٣. كنز العمال، ج ٦، ٦٨٥٤.

٤. الغرر والدرر.

٥. المصدر السابق.

وجمال الإنسان وحسن حديثه في الصِّدْقِ، أمَّا الكلام بلا صدق، فلا روح فيه، باعتباره مناقض لقيمة العدل، والحقِّ، والخير والنُّبْل، والفضيلة. كما أنَّ الكلام بلا صدق هو شرُّ القول، والسَّبَب إلى فساد الأمور، بخلاف الصِّدْق الذي هو (خير القول)، والسَّبَب إلى صلاح الأمور.

إنَّ اللِّسَانَ باعتباره الأداة التعبيريَّة الأكثر استعمالاً بالنِّسبة للإنسان، وباعتباره الوسيلة المعبَّرة عن مواقفه وحاجاته، فإنَّ عليه أن يستعمله بصورة صادقة في أموره ومعاملاته مع النَّاس. ومن أخطر ما يهدد العلاقة الإنسانيَّة بالتَّصدع والانفصام، الابتعاد عن الصِّدْق في الحديث، واللُّجوء إلى الكذب!

والكذب ليس من علائم المؤمنين، ولا من علائم النَّاس الصَّالحين، بل هو من علامات المنافقين الذين يقولون شيئاً، والحقيقة شيء آخر. وبناءً عليه فإنَّ الكذب في التَّعامل مع النَّاس هو إساءة كبيرة بحقهم وخيانة، ومِعْوَلٌ هدم لبنيان ذلك التَّعامل. والنَّاس بطبعهم يميلون إلى من يصدِّق حديثه معهم وينفرون ممَّن يكذب عليهم.

يقول الإمام عليُّ (ع) - عن الصِّدْقِ - في خطبة له:

« أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَسْتَعْنِي الرَّجُلُ - وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ - عَنْ عَثْرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ... وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يَرْتُهُ غَيْرُهُ»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هناك موارد في معاملة النَّاس يقبُح فيها الصِّدْق، ومنها ما يلي:

- التَّميمَّة.
- إخبار الرَّجل عن زوجته بما يكرهه.
- تكذيبُ المرء لشخصٍ عن الخبر.
- الصِّدْقُ في الجواب على السُّؤال الذي يُدخِل على المسلم مضرة.

١. نهج البلاغة، خطبة ٢٣.

كما أن هناك موارد يجوز فيها الكذب، منها:

- الإصلاحُ بين النَّاسِ.
- (دَفْعُ شَرِّ الظَّلَمَةِ).
- المكيدهُ في الحربِ.

فَلْيَكُنْ يُحَسِّنُ المرءُ معاملة النَّاسِ، واجبه أن يكونه صادقاً في معاملتهم.

❖ حِفْظُ النَّاسِ فِي الْغَيْبَةِ

قال الله تعالى:

(... وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ...) ^(١).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«الْغَيْبَةُ أَنْ تَذْكُرَ الرَّجُلَ مِمَّا فِيهِ مِنْ خَلْفِهِ» ^(٢).

وعنه (ص) أنه قال لأبي ذرٍّ:

«يا أبا ذرٍّ! إِيَّاكَ وَالْغَيْبَةَ ، فَإِنَّ الْغَيْبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزُّنَا . . .» قلت: يا رسول الله، وما الْغَيْبَةُ؟ قال: ذِكْرُكَ أَحَاكَ مِمَّا يَكْرَهُ. قلت: يا رسول الله، فَإِنْ كَانَ فِيهِ ذَاكَ الَّذِي يُذَكِّرُ بِهِ؟ قال: اعلم أنك إذا ذَكَرْتَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ فَقَدْ اغْتَابْتَهُ، وإذا ذَكَرْتَهُ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَّتَهُ» ^(٣).

يُنْقَلُ عَنْ أَحَدِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ الْأَعْلَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّهُ كَانَ - ذات يوم - حاضراً في مجلس، وكان بالمجلس حضور، يتداولون الأحاديث الممزوجة بالكلام عن أناسٍ

١. ١٢ / الحجرات.

٢. كنز العمال ، ج ٨٠١٤.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٨٩.

غائبين. فما كان من العالم إلا أن تناول عباءته، ونهض من مكانه فجأة، وخرج من المجلس مهرولاً، ودموعه تتقاطر على صفحات خديهِ، فذهل من كان حاضراً، وخرج على أثره أحد الحاضرين لاحقاً إياه، وما أن وصل إليه حتَّى سألَه: شيخنا الكريم! ما الذي دعا بك إلى ترك المجلس وأنت تبكي؟! وهل ضايقتك أحد، أو أساء معاملتك؟!

فقال العالم: أعظم المضايقة وأسوأ المعاملة! إنني لست مستعداً للجلوس في مجلس تُؤكَل فيه لحوم البشر (يعني يُغتَاب فيه الناس)! وهكذا عبَّر هذا العالم الصَّالح عن رفضه القلبِيِّ، والعمليِّ هذا الخُلُقِ السيِّئِ، وهو الغيبة، بمغادرة المجلس، والبكاء الرَّافض لَغِيبةِ المؤمن.

إنَّ تعامل المرء مع النَّاسِ ينبغي أن يكون حسناً في وجودهم معه، وفي غيابهم عنه، فكما هو واجبه أن يحفظ إخوانه والنَّاسَ في حضورهم، كذلك من واجبه أن يحفظهم في غيبتهم، إذ الحفظ يجب أن يكون في الحضور والمغيب، ومن التَّنَاقُضِ وسوء المعاملة، أن يذكر المرء النَّاسَ في حضورهم بالخير، وفي غيابهم بالشرِّ، أو العكس.

والغِيبةُ - كما هو معلوم - ذكر المرء لأخيه من خَلْفِهِ بما يكره ممَّا هو فيه، وهي حصيدة من حصائد سوء استعمال اللِّسانِ، وهي من دلالات النِّفَاقِ، ووسيلة العاجز، ومن يسعى للتَّشْفِي من النَّاسِ، ودليل اللُّؤْمِ. وهي محرَّمة في الإسلام كحرمة مال الغير ودمه على الإنسان.

إنَّ العاقل من يحفظ إخوانه في غيبتهم كما في حضورهم، ولا يجعل لسانه مركباً لغيبتهم، ولا يعودُ نفسه الغيبة، لأنَّها جرم عظيم، وتناجها مقتُّ الله ومقت النَّاسِ، فالله سبحانه وتعالى يبغض ويمقت من يغتاب النَّاسَ أشدَّ البُغْضِ والمَقْتِ، كما أنَّ الناس كذلك يَمُقُّونَه، وهل يحبُّ النَّاسُ أن يُتكلَّم عنهم من ورائهم فيما يكرهون، وفيما هو فيهم؟! وهل يحبُّون من يقوم بذلك؟!

وعن النَّبِيِّ (ص) أَنَّهُ قَالَ:

«مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي عَلَى قَوْمٍ يَحْمَسُونَ وَجُوهَهُمْ بِأَطْفَارِهِمْ، فَقُلْتُ يَا جَبْرِيلُ! مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(١).

«وعن الحُسَيْنِ بن عليٍّ - عليهما السَّلَام - أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ اغْتَابَ عِنْدَهُ رَجُلًا: يَا هَذَا كُفَّ عَنِ الْغَيْبَةِ، فَإِنَّهَا إِدَامُ كِلَابِ أَهْلِ النَّارِ»^(٢).

والغيبة من الكبائر، والأمر المثير فيها أَنَّ صاحبها لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ الْمُعْتَابُ.

«عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري قالا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): الْغَيْبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزُّنَا. قِيلَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: الرَّجُلُ يَزْنِي ثُمَّ يَتُوبُ، فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْغَيْبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ»^(٣).

والغيبة من الأخلاق السَّيِّئَةِ التي عن طريقها تشيع الفاحشة في الاجتماع وتنتشر، وهي أمر سلبيٌّ على دين الإنسان، إذ تلتهم أعماله الصَّالِحَةَ كما تلتهم الدِّيدَانُ الأكل من جوف الإنسان.

يقول الإمام الصَّادِق (ع):

«مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ، وَسَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ، فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الْآيَةَ . النُّور / ١٨

وربَّ سائل يسأل: هل أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُقَالُ فِي حَقِّ الْإِخْوَانِ وَالنَّاسِ وَهُمْ غُيَّابٌ، يُعَدُّ مِنَ الْغَيْبَةِ؟

ويظهر من الأحاديث الشَّريفة أَنَّ الغيبة تصدق على ذكر الناس في مغيبتهم في أمور فيهم، سترها الله عليهم (أَيَّ أَنَّ النَّاسَ لَا يَعْرِفُونَهَا)، أَمَّا الْأُمُورُ الظَّاهِرَةُ

١. تنبيه الخواطر، ص ٩٣.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١١٧.

٣. ميزان الحكمة ج ٧، ص ٣٣٣.

فيهم كالحِدَّة (الغضب)، والعَجَلَة فلا تدخل في معنى الغيبة، وإن كان من الأفضل للمرء أن يتجنب ذكر مثل هذه الأمور في غير ضرورة أو اضطرار،

يقول الإمام الكاظم (ع):

« مَنْ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ خَلْفِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا عَرَفَهُ النَّاسُ لَمْ يَغْتَبِهِ، وَمَنْ ذَكَرَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ، اغْتَابَهُ »^(١).

ويقول الإمام الصادق (ع):

« الْعِيبَةُ أَنْ تَقُولَ فِي أَخِيكَ مِمَّا سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْأَمْرُ الظَّاهِرُ فِيهِ مِثْلَ الْحِدَّةِ وَالْعَجَلَةِ فَلَا »^(٢).

وقد يسأل السائل: إذا كان الناس يتنوعون بين مؤمنين، ومسلمين، وكفار، وفساق، وفجار، و...، فهل هناك تمييز بالنظر إلى حرمة الغيبة وجوازها؟ وإذا كان هناك تمييز فمن هم الذين تحرّم غيبتهم، ومن هم الذين تجوز غيبتهم؟

تؤكد الأحاديث الشريفة على أن من تحرّم غيبتهم هم:

- من إذا عامل الناس لا يظلمهم، ولا يكذب عليهم في الحديث، ولا يخلف إذا وعدهم^(٣).

- من لم يرّ بالعين يفعل الذنب، أو لم يشهد شاهدان عليه بذلك.

وأما من تجوز غيبتهم، فهم:

- «الفاسق المعلن بفسقه».

- «الإمام الكذاب، إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر».

- «المتفكّهون بالأمهات. (أي المتلذذون والمتمتعون بأمهاتهم).

١. المصدر السابق، ص ٢٤٥.

٢. المصدر السابق، ص ٢٤٨.

٣. يبدو من الأحاديث الشريفة أن وجود المروءة، والعدالة توجب الأخوة، وتحرّم الغيبة، قال رسول الله ص: مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلَمْهُمْ، وَحَدَّثْهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يَخْلِفْهُمْ، فَهُوَ مِمَّنْ كَمُلَتْ مَرْوَعَتُهُ، وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجِبَ أَجْرُهُ، وَحَرُمَتْ غَيْبَتُهُ. المصدر السابق، ص ٢٥٢.

- «الخارجُ عن الجماعة الطَّاعن على أُمَّتِي، الشَّاهر عليها بسيفه».
 - «صاحبُ هوى مُبتدع».
 - «الإمامُ الجائر».
 - «من ألقى جلباب الحياء».
 - «من خالف قوله فعله».
 - «الفاجر».
 - «من ظَلَمَ (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ)، فالمظلوم يجوز له أن يتكلَّم عمَّن ظلمه في موضوع الظُّلم.
 - «من أضاف قوماً فأساء ضيافتهم»، فهو يعتبر ظالماً، ويجوز لمن أضافهم أن يذكروا سوء ما فعل.
- ومنشأ الغيبة - أو أصلها - يتنوع كما يلي:
- شفاء الغيظ.
 - مساعدةُ شخص أو جماعة، على شخص آخر أو جماعة أخرى.
 - التُّهمة.
 - تصديقُ الأخبار دون كشفها والتحقُّق منها.
 - سوء الظن.
 - الحسد.
 - السُّخريَّة.
 - التَّعجُّب.
 - التَّبرُّم (التَّضجُّر والاحساس بالسَّأم والملل).
 - التَّزَيُّن (أي أن لبس المرء للزينة - كاللباس الحسن - قد يبعث الآخرين على أن يحسدوه ويغتابوه).

وفي الغيبة لا فرق بين المُعْتَابِ وسامع الغيبة، فالثَّانِي كالأوَّل، لأنَّ من حق السَّمْع أن ينزَّه عن الاستماع إلى الغيبة، وعن كل ما لا يحِلُّ الاستماع إليه.

أما عن ردِّ الغيبة - مع الاستطاعة - عن الأخ وعَمَّن لا تجوز غيبته، فهو من الواجبات، التي إن لم يَقُمْ المرء بها كان عليه ذَنْبٌ كذَنْبٍ من اغْتَابَ. وردُّ الغيبة يكون بمنع المُعْتَابِ والانسحاب من المجلس أو مكان التَّجمَع.

يقول الرسول الأعظم (ص):

«مَنْ رَدَّ عَنْ أَخِيهِ غَيْبَةً سَمِعَهَا فِي مَجْلِسٍ، رَدَّ اللَّهُ عَنْهُ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَنْهُ وَأَعْجَبَهُ، كَانَ عَلَيْهِ كَوْزُرٌ مِّنْ اغْتَابَ»^(١).

أما عن كفارة الاغتيا ب، فهي الاستغفار للمُعْتَابِ كُلِّمَا ذُكِرَ.

«سئل النبي (ص): ما كفارة الاغتيا ب؟ قال: تَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِمَنْ اغْتَبْتَهُ كُلَّ مَا ذَكَرْتَهُ»^(٢).

والأعظم سوءاً من الغيبة، البُهْتَانُ. فإذا كانت الغيبة هي ذكر من تُحرم غيبته بأمر يكرهه - ستره الله عليه - من ورائه، فإنَّ البهتان هو القول في مؤمن - أو امرئ - ما ليس فيه!

يقول الله تعالى:

(وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)^(٣).

وقال سبحانه:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)^(٤).

ويقول الرسول الأعظم (ص):

«مَنْ بَهَتَ مُؤْمِنًا أَوْ مُؤْمِنَةً، أَوْ قَالَ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ، أَقَامَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى تَلٍّ مِنْ نَارٍ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَهُ فِيهِ»^(٥).

١. وسائل الشيعة، ج ٨ ص ٦٠٧.

٢. المصدر السابق ص ٦٠٦.

٣. ١١٢ / النساء.

٤. ٥٨ / الاحزاب.

٥. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٩٤.

ويقول الإمام الصادق (ع):

«الْبُهْتَانُ عَلَى الْبَرِيِّ أَثْقَلُ مِنَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ»^(١).

وقول البهتان يجرُّ الى قول البهتان من الطرف الآخر فمن يقول في الناس ما ليس فيهم، سيقولون فيه ما ليس فيه.

وهكذا فإنَّ من أهم أخلاق معاملة النَّاس حفظهم في الغيبة كما في الشُّهود، وتجنُّب بهتهم، فَلِكَيْ يُحَسِّنَ المرء معاملة النَّاس واجبه أن لا يغتاب إخوانه، ومن لا تحلُّ غيبتهم، وأن يتجنَّب قول البهتان في النَّاس كائنًا من كانوا، وكلُّ ذلك يتمُّ بذكر الله - سبحانه - لا يذكُر المخلوق، وباستعمال العقل والتَّحَكُّم في اللِّسَانِ، وحينها يصير للمرء مكان الغيبة عبء، ومكان المعصية أجراً.

❖ اجْتَنَابُ النَّمِيمَةِ وَالسَّعَايَةِ

قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشْأٍ بِنَمِيمٍ)^(٢).

وقال الإمام عليّ (ع):

«إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ! فَإِنَّهَا تَزْرَعُ الضَّغِينَةَ وَتُبْعِدُ عَنِ اللَّهِ وَالنَّاسِ»^(٣).

وقال الرسول الأعظم (ص):

١. المصدر السابق، ج ٧٥، ص ١٩٤.

٢. ١٠ - ١١ / القلم.

«الْحَلَّافُ: كثير الحلف، ولازم الحلف والإقسام في كل يسير وخطرٍ وحقٍّ وباطل، أن لا يحترم الحالف شيئاً مما يُقسم به. وإذا حلَّفه بالله فهو لا يستشعر عظمة الله - عزَّ اسمه - وكفى به رذيلة.

والمُهَيِّنُ: من المهانة والحقارة، والمراد به حقارة الرَّأي، وقيل: هو المكثِّر في الشَّرِّ، وقيل: هو الكَذَّاب. والهمَّازُ: مبالغة من الهمز، والمراد به العيَّاب والطَّعان، وقيل: الطَّعان بالعين والإشارة، وقيل: كثير الاغتياب. والمشَّاء بنميم، النَّمِيمُ: السَّعَايَةُ والافساد، والمشَّاء به: هو نَقَال الحديث من قوم إلى قوم على وجه الافساد بينهم» السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج ١٩ ص ٣٧١.

٣. الغرر والدرر.

«شَرَّ النَّاسِ الْمُثَلَّثُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُثَلَّثُ؟ قَالَ: الَّذِي يَسْعَى بِأَخِيهِ إِلَى السُّلْطَانِ، فَيَهْلِكُ نَفْسَهُ، وَيُهْلِكُ أَخَاهُ، وَيُهْلِكُ السُّلْطَانَ»^(١).

النَّمِيمة هي إظهار الحديث بالوشاية، ورفع على وجه الاشاعة والفساد. والنمام هو من يحدث مع جماعة - أو شخص - فينم عليهم فيكشف ما يكره كشفه. والسعاية هي النَّمِيمة والوشاية. وهي بصورة أخص تعني الوشاية على شخص أو جماعة عند السُّلْطَانِ^(٢). والنَّمِيمة خُلِقَ سَيِّءٌ مِنْهُي عَنْهُ فِي الْإِسْلَامِ، مُحَدَّرٌ مِنْهُ وَوَسِيلَتُهُ اللَّسَانُ.

والمرء في معاملته النَّاسَ واجبه تجنُّبُ النَّمِيمة على النَّاسِ وإليهم، والسَّعَاية بهم عند الظَّالِمِينَ مِنَ السُّلَاطِينِ وَالْأُمَرَاءِ. لَأَنَّ فِي تَرْكِ النَّمِيمة كُفٌّ لِلْأَذَى عَنِ النَّاسِ، وَمَحَافَظَةٌ عَلَى الْعِلَاقَةِ الْحَسَنَةِ بِهِمْ، وَعَلَى حَالَةِ الْمَحَبَّةِ وَالْمُودَّةِ مَعَهُمْ. وَمَنْ هُنَا فَإِنَّ مَنْ يَنْمُ عَلَى النَّاسِ، وَيَنْقُلُ حَدِيثَهُمُ الَّذِي يَكْرَهُونَ نَقْلَهُ وَظُهُورَهُ، يَصْبَحُ مَبْغُوضًا مَمْقُوتًا - عَنْهُمْ - قَرِيبَهُمْ وَبَعِيدَهُمْ - ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ يَكُونُ مَمْقُوتًا عِنْدَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ التَّخْرِيبِ الْاجْتِمَاعِيِّ النَّاجِمَةِ عَنِ النَّمِيمة: التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمُتَالِفِينَ وَالْمُتَحَابِّينَ، وَنَشْوءُ الصُّغَائِنِ وَالْأَحْقَادِ وَإِيرَاثُهَا، وَجَلْبُ الْعِدَاوَاتِ عَلَى الْمُتَصَافِينَ، هَذِهِ الْمَظَاهِرُ الَّتِي تَمَثَّلُ مَعَاوِلُ هَدْمِ فَعَالَةِ لِبْنَانِ الْعِلَاقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

وَتُعَبَّرُ الْأَحَادِيثُ الشَّرِيفَةُ عَنِ النَّمِيمة بِأَنَّهَا تَكَادُ تَكُونُ كَالسَّحْرِ، أَوْ أَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ السَّحْرِ، لِمَا لَهَا مِنْ أَثَارِ اجْتِمَاعِيَّةٍ غَرِيبَةٍ تَخْرِيبِيَّةٍ، فَقَدْ تَتَسَبَّبُ فِي مَرَاحِلَ أَشَدَّ خَطُورَةٍ - فِي انْكَشَافِ سَتُورِ النَّاسِ، وَتَخْرِيبِ الْمَنَازِلِ مَادِيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا، وَسَفْكَ الدِّمَاءِ.

وَتَعْتَبَرُ النَّمِيمةُ^(٣) «أَسْوَأَ الصَّدَقِ» إِذْ أَنَّهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَهِيَ رَوَايَةُ شَرِّيرَةٍ، لِمَا تَتْرَكُهُ مِنْ أَثَارِ سَيِّئَةٍ عَلَى مَنْ نُمَّ أَوْ سُعِيَ عَلَيْهِ، وَعَلَى مَنْ لَهُ عِلَاقَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ بِهِ.

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٦٩.

٢. تعتمد الحكومات الظالمة بشكل واسع على النَّمِيمة والسَّعَاية حيث تُسَخَّرُ عَيْنُهَا لِلتَّجَسُّسِ عَلَى النَّاسِ، فَيَقُومُ هَؤُلَاءِ الْآخَرُونَ بِالْإِخْبَارِ أَوْ كِتَابَةِ التَّقَارِيرِ لِلأجهزة الأمنية، وهذه من أسوأ النَّمِيمة والسَّعَاية الأمر الذي يجعل النَّاسَ مَاقْتِنِينَ لِلْحَاكِمِ نَاقِمِينَ عَلَيْهِ.

٣. إذا لم يكن كلام النمام صدقاً أي كذباً. تصح النَّمِيمة تهمه أي نَمِيمة مُرَكَّبَةٌ. وهذه أنكى وأقفل!

إِنَّ المرءَ حينما يَنْمُ على آخر، فهو في حقيقة الأمر يرتكب أمرين كلاهما أسوأ من الآخر وهما:

- الكذب للمنقول له.
- الظلم للمنقول عنه.

والمرء النَّمَام إذا كان محبًّا لمن نَمَّ عليه، فإنَّه بعمله هذا يكون قد أساء إلى محبٍّ أو أخٍ له، وفي ذلك نسيان منه للإحسان، ومقابلة بالإساءة، وهذا خلاف المعاملة الحسنة.

أما عن الموقف من النَّميمة والسُّعَاية، فإنَّ على المرء المنقول له أن يكذِّبها، باطلة كانت أو مُحَقَّة، وعليه التَّحَقُّق قبل اتخاذ أيِّ موقف، لأنَّ الواشي قد يكون قوله صحيحاً، وقد يكون كذباً مُغرِضاً، وفي تصديق الواشي شرٌّ في الحالتين.

يقول الإمام عليّ (ع) في الشُّعر المنسُوب إليه:

فَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِحَنَةٌ *** وَقَطَعَ الْفَيَافِي وَارْتَكَبَ الشَّدَائِدَ

فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ مِنْ قِيَامِهِ *** بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدٍ^(١)

وهكذا فَلْيَكُنِ المرءُ معاملة النَّاس واجِبُه أن يتجنَّب النَّميمة عليهم ولهم، والسُّعَاية بِهِمْ إلى الظَّالم.

❖ التَّزَامُ الْوَجْهِ الْوَاحِدِ وَاللِّسَانِ الْوَاحِدِ مَعَ النَّاسِ

قال الله - عزَّ وجلَّ - لعيسى (ع):

«يَا عِيسَى! لِيَكُنْ لِسَانُكَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ لِسَانًا وَاحِدًا، وَكَذَلِكَ قَلْبُكَ، إِنِّي أَحَذَّرُكَ نَفْسَكَ، وَكَفَى بِي خَبِيرًا، لَا يَصْلُحُ لِسَانَانِ فِي فَمٍ وَاحِدٍ، وَلَا سَيْفَانِ فِي غِمْدٍ وَاحِدٍ، وَلَا قَلْبَانِ فِي صَدْرٍ وَاحِدٍ، وَكَذَلِكَ الْأَذْهَانُ»^(٢).

١. ديوان الإمام علي، جمع عبد العزيز الكرم.

٢. بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٠٥.

وقال الرسول الأعظم (ص):

«تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ: الَّذِي يَأْتِي هُوَلاءَ بَوَجْهِهِ، وهُوَلاءَ بَوَجْهِهِ»^(١).

وقال الإمام الباقر (ع):

«يُنْسِ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَكُونُ ذَا وَجْهَيْنِ وَذَا لِسَانَيْنِ، يُطْرِي أَخَاهُ شَاهِدًا، وَيَأْكُلُهُ غَائِبًا، إِنْ أُعْطِيَ حَسَدَهُ، وَإِنْ ابْتُلِيَ خَذَلَهُ»^(٢).

من أخلاق التَّعَامُلِ مع الإخوان والنَّاسِ، ومن حُسْنِ معاملتهم، أن يكون للمرء وجهًا واحدًا معهم، وبذلك يتحقَّق الصَّدْقُ والإخلاص في المعاملة. أمَّا لو قابلهم بوجهٍ ولِسَانٍ، وفي موقع آخر أتاهم بوجه آخرَ وَلِسَانٍ آخَرَ، فهل يصدَّق عليه أنه أخلص أو أحسن معاملتهم؟! كَلَّا! بلا أدنى ترديدٍ.

إِنَّ قِسْمًا مِنَ النَّاسِ إِذَا قَابَلُوا آخَرِينَ، أَبَدُوا لَهُمْ قَسَمَاتِ الْوَجْهِ الرَّاضِيَةِ النَّضْرَةِ، وَأَظْهَرُوا لَهُمْ لِسَانًا عَسَلِيًّا حُلْوًا، وَإِذَا مَا فَارَقُوهُمْ وَالتَّقَوَّاهُمْ بِغَيْرِهِمْ، أَبَدُوا قَسَمَاتِ الْوَجْهِ الْمُسْتَاءَةِ مِمَّنْ قَابَلُوهُمْ مُسَبِّقًا، وَأَظْهَرُوا لِسَانًا لَهُ رَوَاحُ كُرَوَاحِ الثَّعَالِبِ! وهذه من الاخلاقيات السيئة المذمومة في الإسلام وفي كل الشرائع السماوية، وهي خلاف الحكمة والعقل المؤدَّب، وَأَمَارَةٌ مِنْ أَمَارَاتِ النِّفَاقِ^(٣)!

إِنَّ إِتْيَانَ الْإِخْوَانِ وَالنَّاسِ وَاسْتِدْبَارَهُمْ بِوَجْهِ وَاحِدٍ، وَلِسَانٍ وَاحِدٍ، وَقَلْبٍ وَاحِدٍ، وَذَهْنٍ وَاحِدٍ هُوَ أَمْرٌ أُسَاسِيٌّ فِي مَعَامِلَتِهِمْ، وَالتَّحُبُّبُ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ طَبَعَ النَّاسَ أَنَّهُمْ يَحِبُّونَ مَنْ يَتَعَامَلُ مَعَهُمْ بِنَمَطٍ وَاحِدٍ، وَيَمَقِّتُونَ مَنْ يَتَعَامَلُ مَعَهُمْ بِنَمَطٍ مُزْدَوِجٍ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الْمُنَافِقِينَ وَذَوِي الْوَجْهَيْنِ وَالْقَلْبَيْنِ وَاللِّسَانَيْنِ وَالذُّهْنَيْنِ مِنْ

١. ترغيب ج ٣، ص ٦٠٣.

٢. بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٠٣.

٣. النِّفَاقُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْفَرْدِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ شَدِيدَةُ الْخَطُورَةِ، وَمِنْ عِلَالَتِهِ الْكَثِيرَةُ: الْكَذِبُ فِي الْحَدِيثِ، خُلْفُ الْوَعْدِ، خِيَانَةُ الْمُؤْتَمَنِ، الْغَدْرُ بَعْدَ الْمَعَاهِدَةِ، الْفُجُورُ حِينَ الْمَخَاصِمَةِ، مَخَالَفَةُ اللَّسَانُ الْقَلْبَ، مَخَالَفَةُ الْقَلْبُ الْفِعْلَ، قِسَاوَةُ الْقَلْبِ، جُمُودُ الْعَيْنِ، الْإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ، الْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا، مَخَادَعَةُ اللَّهِ، الرِّيَاءُ، التَّضْيِيقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، الذُّكْرُ الْقَلِيلُ لِلَّهِ، الْقِيَامُ إِلَى الصَّلَاةِ بِكَسَلٍ، الْاسْتِكْبَارُ، عَدَمُ الْأَلْفَةِ وَالْإِتْنِافِ، التَّهَمُّ فِي الطَّعَامِ، التَّلَوُّنُ وَالْإِفْتِنَانُ، مَخَالَفَةُ السَّرِيرَةِ لِلْعَلَانِيَّةِ، الْأَمْرُ بِالطَّاعَةِ وَعَدَمُ الْعَمَلِ بِهَا، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَعَدَمُ الْإِنْتِهَاءِ عَنْهَا، التَّمَلُّقُ، الْمَكْرُ. وَالنِّفَاقُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْخُلُقِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ ذَاتُ التَّأثيرِ الْخَطِيرِ وَالْمُتَشَعِّبِ عَلَى الْفَرْدِ وَالْاجْتِمَاعِ. وَوَاجِبُ الْمَرْءِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ رَبِّهِ وَمَعَ نَفْسِهِ وَمَعَ النَّاسِ أَنْ يَتَوَقَّى شَرَّ الْإِصَابَةِ بِهِذِهِ الْأَلْفَةِ الْمُدْمَرَةِ.

الفئات الممقوتة اجتماعياً، سواء في المجتمعات الإيمانية أو في غيرها. وهل عُرِفَ ذو وجهين وذو لسانين بحسن معاملته النَّاسَ وبحبِّهم له؟! كلا!.

نعم، إذا كان النَّاسُ يمارسون خلاف الحقِّ والخير والفضيلة فإنَّ على المرء - في معاملتهم - أن يخالطهم بلسانه، وجسده، ويُزِيلهم - أي يُبَيِّنهم - بقلبه وعمله. وهنا لا ينطبق عليه أنَّه من ذوي الوجهين واللِّسانين، إذ لا بُدَّ للمرء من موقف قلبيٍّ وعمليٍّ حيال الباطل والشرِّ والرَّذيلة، وإلا أُمست الفضيلة والرَّذيلة عنده بمنزلة سواء^(*)، وهذا خلاف الشرع والعقل المؤدَّب والحكمة.

وفي التَّعامل مع الإخوان والأصدقاء وعموم الصَّادقين من النَّاس، مجال للازدواجية في التَّعامل، فليس من الجائز ولا من الصَّحيح أن يلقي المرء أخاه بوجه ولسان وقلب، ثُمَّ في موطن آخر، وفي غيابه يتعامل معه بوجه آخر، ولسان آخر، وقلب آخر. ومن هنا فوحدة الوجه واللِّسان والقلب هي الخُلُق الذي يجب أن يتعامل به المسلم والمؤمن مع إخوانه، ومع النَّاس الطَّيِّبِينَ والمُخْلِصِينَ في التَّعامل. بل يبدو أنَّ المرء خَلِيق به أن يكون ذا وجه واحد ولسان واحد وقلب واحد مع عموم النَّاس، الجديرين، لأنَّ التَّنَصُّف خلاف ذلك هو خلاف العقل والأخلاق المحمودة. مع العلم بوجود حالات خاصَّة، أو حالات ضرورة أو اضطرار، تقدَّر بِقَدْرِهَا.

وهكذا فَلِكِي يُحَسِّنَ المرء معاملته إخوانه وعموم النَّاس الجديرين بالمعاملة الحسنة. عليه أن يلتزم خُلُق: الوجه الواحد، واللِّسان الواحد، في السِّرِّ والعلانية.

*١. كما مرَّ ذكره في القسم الأوَّل، فصل: معاملة النَّاس، أن على المرء أن يخالط النَّاس بلسانه وبَدَنِهِ وَيُزِيلهم بقلبه وعمله فيما إذا كانت أعمالهم غير حسنة.

❖ حِفْظُ أَسْرَارِ النَّاسِ

قال الإمام عليٌّ (ع):

«مَنْ ضَعَفَ عَنْ حِفْظِ سِرِّهِ لَمْ يَقْوَ لِسِرِّ غَيْرِهِ»^(١).

الأسرار هي ما يكتمه المرء في نفسه ويكره إفشائه والبوح به ونشره وإذاعته، وكما على المرء أن يكتُم أسرارَه ولا يُطلع عليها أحداً، كذلك عليه أن يحفظ أسرار إخوانه المؤمنين وعموم النَّاسِ. إنَّ إذاعة سِرِّ المؤمن من الأمور المُحرَّمة في الإسلام، بل حتى بالنسبة لغير المؤمن، من خلاف الأخلاق الفاضلة إذاعة سِرِّه وإفشائه.

إنَّ من النَّاسِ من يحرصون على أسرارهم كلَّ الحرص، ويحفظونها، ولكنَّهم لا يتعاملون مع أسرار غيرهم بنفس الطريقة، وكأنَّ أسرارهم محترمة وأسرار غيرهم ليست كذلك، أو أنَّ أسرارهم من الدَّرَجَةِ الأولى، وأسرار غيرهم من الدَّرَجَةِ الرَّابِعة، وهذا خطأ فادح، يَنُمُّ عن روح أنانيَّة، وتحيزٍ للذَّات.

ومن النَّاسِ من يستهين بما يذيعه من أسرار النَّاسِ، فلا يرى ما يذيعه من أسرارهم سراً، وكلُّ ما يسمعه منهم - بما في ذلك أسرارهم - يطلق لسانه الحرِّيَّة في إذاعته وإفشائه^(٢) وقد يُقدِّم لما يريد إذاعته من أسرارهم بأنَّها ليست أسراراً. وكلُّنا - أو أغلبنا - قد سمع امرئاً يقول عن آخر أو آخرين ما يكرهون انتشاره: لا أفشي سراً إذا قلت كذا وكذا... مبرراً أنَّ ما يَقُوله ليس في عداد الأسرار والأمور التي يجب أن تُكْتَمَ، وهذا خلاف التَّعامل السَّليم والحَسَنِ مع النَّاسِ.

إنَّ التَّعامل الحسن مع النَّاسِ يقتضي حفظ وكتمان أسرارهم وعدم التَّفريط فيها. فكما أنَّ المرء يحبُّ لنفسه أن تبقى أسرارُه محفوظة مكتومة، ويكره لها أن تبقى مُدَاعاة مُشَاعاة، كذلك عليه أن يحبَّ للآخرين أن تبقى أسرارهم محفوظة ويكره لهم أن تكون أسرارهم مفضَّية.

١. الغرر والدرر.

٢. من الأسباب التي تؤدِّي إلى إفشاء الأسرار: الثَّروة وسوء استعمال اللسان، العداوة، الحقد، الحسد، الغضب والطَّيش، روح الانتقام، و... ومعالجة هذه الأسباب تُحفظ أسرار الشَّخص الآخر.

وحفظ أسرار النَّاس من عوامل التماسك الاجتماعي، والتلاحم في العلاقات الإنسانية. ومن هنا فالمجتمعات أو التجمعات التي تمتاز بحفظ أسرار الآخرين - علاوة على حفظ أسرار النَّفس - تتسم بالقوة والمتانة، بخلاف المجتمعات أو التجمعات التي ينتشر فيها إفشاء الأسرار، فهي أشبه بالبنيان الذي انتشرت الشُّرُوع والتصدُّعات في هيكله وسقوفه وجدرانه، ناهيك عن أن إفشاء أسرار الآخرين قد يفسد أعمالهم ومشاريعهم المرتبطة بهذه الأسرار، وقد يولّد الضَّغائن والأحقاد والعداوات ومساءات الظَّن، الأمر الذي يخلّف آثاراً سلبية في التَّعامل فيما بينهم.

ورُبَّ سائلٍ يسأل:

ما هو المعيار في حفظ الأمور التي ترتبط بالنَّاس؟

وهل كلُّ شيء يقولونه، أو يعرفه المرء عنهم يُعتبر سرّاً؟

وكيف يحفظ المرء أسرار النَّاس؟

وتكون الإجابة كالآتي:

كما تقدّم ذكره أنّ كلَّ شيء استكتمه النَّاس، وكلُّ ما يرتبط بهم مما يكرهون انتشاره، هو سرٌّ ينبغي للمرء أن يحفظه سواء كان الإفشاء في محضرهم أو في مغيبيهم. مع العلم بأنَّ هناك حالات خاصّة يمكن إفشاء الأسرار فيها، منها:

ظلم الحاكم لرعيتّه، والممارسات الإفساديّة واللاإنسانيّة التي يقوم بها.

أمّا كيف يحفظ المرء أسرار النَّاس، فالانطلاق يجب أن يكون من الدّات، بأن يكون قوياً في حفظ أسرارهم وكنمانها، بأن يجعلها من دمه الذي يجري في أوداجه لا في أوداج غيره، وأن يجعلها محفوظة في صدره الذي هو صندوق أسرارهم وأن لا يُودّعها عند من ليس أهلاً للإيداع، كالحمقى والخائون والئامون. ومتى ما قوّي الإنسان في حفظ أسرارهم، قوّي في حفظ أسرار الناس، وخلاف ذلك صحيح.

وهكذا فإنَّ من أخلاق التَّعامل مع النَّاس، حفظ أسرارهم، فليكنَّ يُحسِنَ المرء معاملتهم عليه أن يحفظ أسرارهم كما يحفظ أسرارهم.

❖ اجْتِنَابُ قَذْفِ وَاتِّهَامِ النَّاسِ

قال الإمام الرضا (ع):

«حَرَّمَ اللَّهُ قَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ^(١) لِمَا فِيهِ مِنْ إِفْسَادِ الْأَنْسَابِ، وَنَفْيِ الْوَلَدِ، وَإِبْطَالِ الْمَوَارِيثِ، وَتَرْكِ التَّزْوِيجِ، وَذَهَابِ الْمَعَارِفِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَسَاوِي وَالْعَلَلِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى فَسَادِ الْخُلُقِ»^(٢).

وعن الصادق (ع) أَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ:

«مَا فَعَلَ غَرِيمُكَ؟ قَالَ: ذَاكَ ابْنُ الْفَاعِلَةِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَظَرًا شَدِيدًا، فَقَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّهُ مَجُوسِيٌّ تَكْحَأُخْتُهُ. قَالَ: أَوْلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ دِينِهِمْ نِكَاحٌ»^(٣).

وقال (ع) أيضاً:

«إِذَا اتَّهَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ ائِمَّاتِ الْإِيمَانِ مِنْ قَلْبِهِ كَمَا يَنْمُتُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»

روي عن الإمام الصادق (ع) أَنَّهُ قَالَ:

«أُتِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِجَارِيَةٍ قَدْ شَهِدُوا عَلَيْهَا أَنَّهَا بَغَتْ. وَكَانَ مِنْ قَصَّتِهَا أَنَّهَا كَانَتْ يَتِيمَةً عِنْدَ رَجُلٍ، وَكَانَ لِلرَّجُلِ امْرَأَةٌ، وَكَانَ الرَّجُلُ كَثِيرًا مَا يَغِيبُ عَنْ أَهْلِهِ. فَشَبَّتِ الْيَتِيمَةُ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً، فَتَخَوَّفَتِ الْمَرْأَةُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا زَوْجُهَا إِذَا رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَدَعَتْ بِنِسْوَةٍ مِنْ جِيرَانِهَا، فَأَمْسَكْنَهَا، فَأَخَذَتْ عِذْرَتَهَا بِأَصْبَعِهَا.

«فَلَمَّا قَدِمَ زَوْجُهَا مِنْ غَيْبَتِهِ، رَمَتِ الْمَرْأَةُ الْيَتِيمَةَ بِالْفَاحِشَةِ، وَأَقَامَتِ الْبَيْتَةَ مِنْ جَارَاتِهَا اللَّاتِي سَاعَدْنَهَا عَلَى ذَلِكَ، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ، فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقْضِي فِيهَا، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: إِنَّتِ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَذْهَبَ بِنَا إِلَيْهِ.

*١. الْمُحْصَنَاتُ: الْمُتَزَوِّجَاتُ لِأَنَّ زَوَاجَهُنَّ قَدْ أَحْصَنَهُنَّ، وَالْعَفِيفَاتُ. أَحْصَنَ الرَّجُلُ: تَزَوَّجَ، فَهُوَ مُحْصَنٌ.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١١١.

٣. مستدرک وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٣٠.

«فَاتُوا عَلِيًّا - عَلَيْهِ السَّلَام - فَقَصُّوا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَقَالَ لَامْرَأَةَ الرَّجُلِ: أَلَيْكَ بَيِّنَةٌ أَوْ بَرَهَان؟ فَقَالَتْ: لِي شُهُود، هَؤُلَاءِ جَارَاتِي يَشْهَدْنَ عَلَيْهَا بِمَا أَقُول. فَأَحْضَرْتُهُنَّ.

«فَأَخْرَجَ عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَام - السَّيْفَ مِنْ غَمْدِهِ وَطَرَحَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَمَرَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ، فَأَدْخَلَتْ بَيْتًا، ثُمَّ دَعَا امْرَأَةَ الرَّجُلِ فَأَدَانَهَا بِكُلِّ وَجْهِ، فَأَبَتْ أَنْ تَزُولَ عَنْ قَوْلِهَا، فَزَادَهَا إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ، وَدَعَا إِحْدَى الشُّهُودِ، وَجَثَى عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: تَعْرِفِينِي، أَنَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَهَذَا سَيْفِي، وَقَدْ قَالَتْ امْرَأَةُ الرَّجُلِ مَا قَالَتْ، وَرَجَعْتُ إِلَى الْحَقِّ، وَأَعْطَيْتُهَا الْأَمَانَ، فَإِنْ لَمْ تَصْذُقْنِي لَأَمْلَأَنَّ السَّيْفَ مِنْكَ. فَالْتَفَتَتْ إِلَى عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَام - فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، الْأَمَانَ عَلَى الصَّدَقِ؟ فَقَالَ لَهَا عَلِيٌّ (ع): فَاصْذُقِي. فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ مَا زَنْتُ الْيَتِيمَةَ، إِنَّهَا (أَيُّ امْرَأَةِ الرَّجُلِ) رَأَتْ جَمَالًا وَهَيْئَةً، فَخَافَتْ فِسَادَ زَوْجِهَا، فَسَقَتْهَا الْمُسْكِرَ، وَدَعَتْنَا فَأَمْسَكْنَاهَا فَافْتَضَّتْهَا بِإِصْبَعِهَا.

«فَقَالَ عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَام - اللَّهُ أَكْبَرُ، أَنَا أَوَّلُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الشُّهُودِ إِلَّا دَانِيَالَ النَّبِيِّ (ع). وَأَلْزَمَ عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَام - الْمَرْأَةَ حَدَّ الْقَاضِ، وَأَمَرَ الْمَرْأَةَ أَنْ تُنْفَى مِنَ الرَّجُلِ وَيَطْلُقَهَا زَوْجِهَا، وَزَوْجُهُ الْجَارِيَةُ»^(١).

القذف لغة: الرَّمْيُ، وفي الاصطلاح الشرعي الرَّمْيُ والاتِّهَامُ بريئة. ومثاله: كما مرَّ في القصة المتقدمة، ومثاله أيضاً: أن يقول شخص لآخر: يا ابن الفاعلة (يقصد الزنا) أو يقول: «يا منكوح في دُبُرِهِ» (اتَّهَمَهُ وَرَمَاهُ بِأَنَّهُ مَلُوطُ بِهِ). أو يقول: يا مخنث^(٢). أو يقول: يا يهودي^(٣). والقذف من الكبائر (أي من الذنوب الكبيرة)، وهو محرَّم في الإسلام لما له من آثار سيئة كثيرة، ويستحق قائله التعزير في حكم الإسلام، لقوله تعالى:

١. الفروع من الكافي.

٢. الْمُخَنَّثُ: الْمُسْتَزْجِيُّ الْمُتَنَتِّي، أَي الَّذِي يَكُونُ فِيهِ لَيْنٌ وَتَكَسُّرٌ وَتَنَتُّ، فَيَكُونُ عَلَى صُورَةِ الرِّجَالِ وَأَحْوَالِ النِّسَاءِ.

٣. في هذه الحالة يضرب عشرين. للاطلاع على تفاصيل القذف وحكمه وحالاته تراجع كتب الحديث الشريف. الرسائل العلمية للفقهاء.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً...)^(١)
(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ
أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)^(٢).

تقتضي معاملة الإخوان والناس بصورة حسنة، تجنب قذفهم ورميهم. وما يندى له الجبين، أن في كثير من المجتمعات أصبح القذف والرَّمي يقالان دون تورع وكأنهما كلمات عادية، فهناك من الناس من لا يرى أنه فعل شيئاً خلاف الشرع والأخلاق والدُّوق المؤدَّب، حينما يقذف آخر بقوله له: يا ابن الفاعلة (الرَّأْيَانِيَّة) أو ما شابه ذلك، وَلَعَمْرِي قد يقال ذلك على سبيل المَزَاح! ولا أقبح من أن يتعامل المرء مع الناس بمثل هذه الكلمات ويواجههم بها! بل إنَّ من النَّاس من إذا سمع مثل تلك الكلمات بحقِّه أو بحقِّ غيره، لا يقوم بدوره بنهي الطرفِ القائل عن المنكر الذي فعله، وهذا خطأ فادح لأنَّ فيه رضى عن المنكر، وتشجيعاً للقاذِف بالتمادي في القذف، أراد المقذوف ذلك أم لم يرد.

وهذه الألفاظ البذيئة تتواجد في صفوف الجهلاء، والحمقى، لغياب المعرفة والثقافة، وفي صفوف الفاسقين والفجَّار لغياب الالتزام الدينيِّ. ويعتبر فقدان التحكم في اللِّسان، وإطلاق الحرِّيَّة له بقول ما يشاء صاحبه، هو من الأسباب وراء الوقوع في قذف النَّاس ورميهم.

وعن اتخاذ الموقف من القاذِف وزجره:

روى عمر بن النُّعْمان الجعفي قائلًا: كان لأبي عبد الله (الإمام الصَّادق) (ع) صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً. فبينما هو يمشي معه في الحدَّائين ومعه غلام له سِنْدِيٌّ يمشي خلفه، إذ التفت الرَّجُل يريد غلامه، ثلاث مرَّات، فلم يره، فلمَّا نظر في الرَّابِعة.

قال: يا ابن الفاعلة، أين كنت؟

قال: فرفع أبو عبد الله (ع) يده، فَصَّكَ جبهة نفسه، ثمَّ قال: سُبْحَانَ اللَّهِ! تقذف أمَّه؟! قد كنتُ أرى لك ورعاً، فإذا ليس لك ورع!

١. ٤ / النور.

٢. ٦ / النور.

فقال: جُعِلْتُ فداك، إِنَّ أُمَّه سِنْدِيَّةٌ مُشْرِكَةٌ.

فقال: أما علمتَ أَنَّ لكل أُمَّة نكاحاً؟! تنحَّى عني.

قال: «فما رأيته يمشي معه حتَّى فرَّق الموتُ بينهما»^(١).

إِنَّ النَّاسَ محترمون لا يجوز قذفهم، مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، وبناءً عليه فإنَّ على المرء - في معاملة النَّاسِ - أن يصون لسانه، وأن يجنبه قذفهم ورميهم وهجاءهم^(٢)، لأنَّ ذلك خلافٌ للشَّرع والعقل المؤدَّب والأخلاق الحسنة.

وكما لا يجوز للمرء أن يقذف النَّاسَ ويرميهم، لا يجوز له كذلك أن يتَّهمهم.

والتهمة: قول المرء افتراءً أو اعتماداً على ظنِّه بأنَّ الشَّخص الآخر قال كذا^(٣)، وتتفاقم خطورة التَّهمة حينما ترتبط بأفعال خطيرة وغير عادية!

إِنَّ وقوع التَّهمة على البريء كوقوع الجبل عليه، بل إِنَّ التَّهمة تؤدي إلى انحلال أو تحلل الإيمان في قلب المؤمن حينما يتهم أخاه، كما تنحل المواد القابلة للذوبان في الماء، ومن هنا لا يجوز اتِّهام الإخوان والنَّاس، لأنَّ في اتِّهامهم مخالفة للشَّرع والعقل المؤدَّب والأخلاق الحسنة، والدُّوق الجميل.

والاتِّهام مَسَاءَةٌ لاستعمال العقل واللِّسان، وقد تكون نتيجة العجلة في اتِّخاذ المواقف والأحكام بحقِّ الغير، أو لوجود عداوة أو حقد أو كراهية، أو حسد أو تنافس غير شريف. أو غير ذلك. وعليه فعلى المرء أن يحسن استعمال عقله، ويتحرَّك في لسانه، وأن يتأَنَّى في اتِّخاذ المواقف والأحكام، وأن يجنب نفسه العداة والحقد والكراهية والحسد ونحو ذلك، لكي لا يقع في مزلق اتِّهام النَّاسِ.

وهكذا فَلِكِيْ حُسْنِ المرء معاملة إخوانه والنَّاسِ، عليه أن يتجنَّب قذفهم واتِّهامهم.

١. الأصول من الكافي.

٢. الهجاء: تعديد معائب الطُّرف الآخر والوقوع فيه وشمته.

٣. كما لا يجوز للمرء أن يتَّهم النَّاسَ، فإنَّ عليه أن يحذر مواطن التَّهمة، والمجالس المظنون بها السُّوء، وأن يجتنب قرناء السُّوء، وأهل التَّهمة، لكي لا يتَّهم ولكي لا يَسَاءَ به الظَّنُّ.

❖ تَجَنُّبُ الْفُحْشِ وَالسَّبِّ وَاللَّعْنِ

قال الرسول الأعظم (ص):

«إِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ»^(١).

وقال (ص) أيضاً:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَبْعِدْكُمْ مِنِّي شَبْهًا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الْفَاحِشُ الْمُتَفَحِّشُ الْبِذْيُ...»^(٢).

وقال (ص):

«سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ، ...»^(٣).

وقال تعالى:

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)^(٤).

وقال الرسول الأعظم (ص)

«لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ لَعَانًا»^(٥).

وقال (ص):

«لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»^(٦).

وقال (ص):

«إِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تَلْعَنَ شَيْئًا فَافْعَلْ ...»^(٧).

١. بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١١٠.

٢. المصدر السابق، ج ٧٢، ص ١١٠.

٣. المصدر السابق، ج ٧٥، ص ١٤٨.

٤. ١٠٨ / الأنعام.

٥. كنز العمال، خ ٨١٧٨.

٦. المصدر السابق، خ ٨١٨٢.

٧. المصدر السابق، خ ٨١٩٢.

الفُحْشُ: القبيح من القول والفعل، فكلُّ قولٍ أو فعلٍ يَصْدُقُ عليه الفُحْشُ، هو فحشٌ ينبغي ترك قوله أو فعله. الفُحْشُ والبذاءة في الكلام من الأخلاق السيئة المَبْغُوضَةُ من قِبَلِ اللهِ والنَّاسِ. وهل يحبُّ النَّاسُ من يعاملهم بقبح القول؟!

ومن هنا ينبغي للمرء في معاملته النَّاسِ، أن يجعل لسانه وكلامه حسناً، وأن لا يقع في الطَّرَفِ الآخَرِ وهو الفُحْشُ في الكلام والبذاءة فيه. فمن الحَسَنِ أن يقول الإنسان للنَّاسِ الكلام الحسن الجميل، ومن القُبْحِ أن يجعل لسانه وسيلة ومركباً للكلام الفاحش البذيء.

ومع أنَّ حُسْنَ القول - كما حسن الفعل - هو المطلوب في معاملة النَّاسِ، وأنَّ قبح القول - كما قبح الفعل - ليس مطلوباً، فإنَّ هناك من النَّاسِ من هو لا يبالي في استعمال لسانه، ولا يهتمُّ إن كانت الكلمات التي يتلفَّظُها فاحشة وقبيحة. والأكثر من ذلك أنَّ من النَّاسِ من يتعوَّد على الكلام البذيء فيصبح الفُحْشُ والبذاءة عادة فيه، وهذا خُلُقٌ سيِّئٌ ينبغي للمرء أن يجتنبه في تعامله مع النَّاسِ!

ومن الفُحْشِ: السَّبُّ، وهو الشَّتْمُ، وهو من الأخلاق السيئة التي تؤدِّي إلى نشوء العداوة بين النَّاسِ، إذ أنَّ من حسن معاملة النَّاسِ اجتناب سبِّهم وشتمهم، ومن البديهي أنَّهم لا يحبُّون من يسبُّهم، ولا ينجذبون إليه، بل يمتقونه وينفرون منه، ويكرهونه مجالسته، ويتركونه اتِّقاءً لفُحْشه، لأنَّه يسبُّهم يسيء معاملتهم، ويهينهم ويؤذيهم فما أقبح السَّبِّ^(١) والشَّتْم!

ومن الأمور التي تترتَّب - عادةً - على السَّبِّ، إجابته من قبل الطَّرَفِ الآخَرِ، مع العلم بأنَّ ردَّ السَّبِّ هو الآخَرُ ليس من الأمور المحمودة، بل من الأمور المذمومة.

يقول الإمام عليٌّ (ع):

«مَنْ عَابَ عَيْبَ، وَمَنْ شَتَمَ أُجِيبَ»^(٢).

*١. لا تنهى الأحاديث الشريفة عن سبِّ الله والنَّاسِ فحسب، بل تنهى حتى عن سبِّ الرِّياح. والجبال. والسَّاعات. والأيام والليالي، والدَّهر، والشَّيطان، والشَّيطان يتعوَّد منه ولا يُسبُّ.

٢. بحار الأنوار، ج٨، ص ٩١.

وفي هذا الشَّان «قِيلَ أَنَّهُ - ذات مرَّة - ذهب ولد صغير إلى غابة، وأخذ ينشد الأناشيد، وبينما هو كذلك سمع أصداً صوته تتردَّد من الغابة، فظنَّ أنَّ طفلاً آخر يبادلُه الكلمات مستهزئاً به. وبدأ الطُّفْل يكيِّل السُّباب للأصدا، فانهالت عليه الأصدا سبّاً بالمثل، وقال الطُّفْل مخاطباً: أَيُّهَا الأحمق! فسمع صدى هذه الجملة يقول: أَيُّهَا الأحمق!.. ثُمَّ قال الطُّفْل: أنت طفل بذيء، ففَرَعَتْ مسامعه هذه الجملة: أنت طفل بذيء. وراح الطُّفْل في صراع مع الصدى يسبُّ ويشتم ويلعن، وموجات السبِّ والشتم واللعن ترتدُّ إلى مسامعه.

وعاد الطُّفْل أدراجه قافلاً إلى البيت، وأمّارات عدم الارتياح مرتسمة على قَسَمَاتِ وجهه، وناشد أباه قائلاً: لقد ذهبْتُ إلى الغابة، فأنشدْتُ أنشودة فسمعت طفلاً آخر يُنشدُها أيضاً، ويردُّ على كلِّ كلمة أنفَوْه بها، ثُمَّ أخذ يكيِّل إليَّ السبِّ والشتم واللعن.

فقال له: يا ولدي! لو كنتَ تقول خيراً لكنتَ تسمع خيراً»^(١).

يقول الإمام عليُّ (ع): «مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ»^(٢).

وسمع (ع) قوماً من أصحابه يسبُّون أهل الشَّام، فقال: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ، وَلَكِنِّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعَذْرِ، وَقَلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ...»^(٣).

ومن قبح القول: اللَّعْنُ، وهو الإخْزاء والإبعاد عن الخير، وطلب العذاب للشَّخص الآخر، وهو نتيجة لإساءة استعمال اللِّسان، وقد يكون سببه الغضب أو عدم الرِّضا - عموماً - عن الشَّخص الآخر. واللَّعْنُ خُلُقٌ مذمومٌ، سواءً كان لعناً للنفس أو للولد، أو للأموال، أو للنَّاس.

*١. هادي المدرسي: ألف عبرة وعبرة مخطوط..

*٢. نهج البلاغة، حكمة ٣٥.

*٣. المصدر السابق.

إِنَّ مِنْ حَسَنِ مَعَامَلَةِ النَّاسِ تَرْكُ لَعْنِهِمْ، لِأَنَّ فِي هَذَا التَّرْكِ التَّزَامَ لَخُلُقِ حَسَنِ، وَابْتِعَادٍ عَنِ الْوُقُوعِ فِي غَيْرِ اللَّائِقِ مِنَ الْكَلَامِ، الْأَمْرُ الَّذِي لَا يَقْبَلُهُ النَّاسُ، وَلَا يَرْضُونَهُ.

يقول الإمام الباقر (ع):

«إِنَّ اللَّعْنَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ صَاحِبِهَا تَرَدَّدَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الَّذِي يُلْعَنُ، فَإِنْ وَجَدَتْ مَسَافًا وَإِلَّا عَادَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَكَانَ أَحَقُّ بِهَا، فَاحْذَرُوا أَنْ تَلْعَنُوا مُؤْمِنًا فَيَحِلَّ بِكُمْ»^(١).

ويقول الرسول الأعظم (ص):

«مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بَعِيرُهُ؟ انْزِلْ عَنْهُ فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ...»^(٢).

وعلى هذا لِكَيْ يُحَسِّنَ الْمَرْءُ تَعَامُلَهُ مَعَ النَّاسِ، عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْقَبِيحَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَعَهُمْ، وَأَنْ لَا يَسُبَّهُمْ وَلَا يَلْعَنَهُمْ.

❖ تَحَاشِي السُّخْرِيَةِ مِنَ النَّاسِ وَاجْتِنَابُ تَحْقِيرِهِمْ وَتَغْيِيرِهِمْ

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ...^(٣).

وقال الإمام الصادق (ع):

«لَا يَطْمَعُ الْمُسْتَهْزِئُ بِالنَّاسِ فِي صَدَقِ الْمَوَدَّةِ»^(٤).

١. بحار الأنوار ج ٧٢، ص ٢٠٨.

٢. كنز العمال، خ ٨١٧٣.

٣. ١١ / الحجرات.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٤٤.

وقال الرسول الأعظم (ص):

«يَحْسَبُ امْرِئٌ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»^(١).

وقال (ص):

« مَنْ اسْتَدَلَّ مُؤْمِنًا أَوْ مُؤْمِنَةً، أَوْ حَقَّرَهُ لِفَقْرِهِ أَوْ قَلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ، شَهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَفْضَحُهُ »^(٢).

وقال (ص):

« مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ »^(٣).

وقال (ص):

«إِنْ عَيَّرَكَ أَخُوكَ الْمُسْلِمُ بِمَا لَمْ يَعْلَمْ فِيكَ، فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ إِثْمُهُ»^(٤).

السُّخْرِيَّةُ مِنَ النَّاسِ تعني الاستهزاء بهم، وهي من الأخلاق السيئة المنهي عنها، سواء على مستوى التعامل بين شخصين: رجلين أو امرأتين، أو رجل وامرأة، أو على مستوى التعامل بين قومين أو جماعتين أو شعبين أو أمماتين.

إن السُّخْرِيَّةَ مِنَ النَّاسِ خُلِقَ مذموم، لأنها استهزاء بهم، وإهانة وتصغير لهم، وخلاف تقديرهم واحترامهم. وهي قد تكون نتيجة للاستعلاء والتكبر على الناس، أو لوجود عداوة أو ضغينة أو كراهية أو ثأر أو مُزَاح خارج عن الحد المشروع والمعقول.

وفي السُّخْرِيَّةِ والاستهزاء تتجلى النظرة إلى الشخص الآخر بنظرة دُونِيَّةٍ أو النِّظَرِ إليه بأنه ليس الأفضل أو الأخير، لأن المرء السَّاخِرُ أو المستهزئ لا ينشغل بعيوبه

١. تنبيه الخواطر، ص ٣٦٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٦٢.

٣. تنبيه الخواطر، ص ٩١.

٤. المصدر السابق، ص ٣٩٠.

عن عيوب غيره، ولا يهمله إلا انتقاص شخص الطرف الآخر وإبراز معاييه، مع العلم بأنَّ الشَّخص المستهزئ به قد يكون خيراً من المستهزئ. ومن هنا مهما كان المرء متفوقاً على غيره في العلم أو العمل، عليه أن لا يسخر من الغير وأن لا يستهزئ به.

والسُّخْرِيَّةُ مِنَ النَّاسِ والاستهزاء بهم، أمر لا يساعد على كسب وُدِّهم وحبِّهم، وإنَّما يعمل على إضعاف حالة المودَّة وإبعادها عن الصِّدْق والإخلاص، ويؤدِّي إلى نفورهم من المستهزئ وكرهيتهم له. ومن هنا فالسَّبِيل إلى كسب محبَّتهم الصَّادَقَة، ترك السُّخْرِيَّة منهم وتحاشي الاستهزاء بهم وفي ذلك حفظ لكرامتهم وتقدير لهم.

وحفظ كرامة الإنسان وتقديره ضرورة في التَّعامل معه، ولذا ... نزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ...) في صِفَةِ بنت حُيَّي بن أخطب، وكانت زوجة رسول الله (ص)، وذلك أَنَّ عائشة وحفصة كانتا تؤذيانها وتشتمان وتقولان لها: يا بنت اليهوديَّة. فشكت ذلك إلى رسول الله (ص)، فقال لها: ألا تجيبينهما؟ فقالت: ماذا يا رسول الله؟ فقال قولي: أي هارون نبيُّ الله، وعمِّي موسى كليم الله، وزوجي محمد رسول الله، فما تُنكران منِّي؟ فقالت لهما، فقالتا: هذا علَّمك رسول الله. فأنزل الله في ذلك: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ...) إلى قوله: (وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)^(١).

وكما حسن معاملة النَّاس يقتضي ترك السُّخْرِيَّة منهم والاستهزاء بهم، كذلك يقتضي اجتناب تحقيرهم، إذ في اجتناب تحقيرهم إعزاز لهم، وصون لقُدْرَتهم، أما في تحقيرهم، فإهانة وتصغير وإذلال لهم، وحرطٌ من قُدْرَتهم.

١. بحار الأنوار ، ج ٧٢، ص ١٤٤.

إِنَّ مِنَ الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ أَنْ يُحَقَّرَ الْإِنْسَانُ أَخَاهُ الْإِنْسَانُ، وَأَنْ يُحَقَّرَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، وَأَنْ يُحَقَّرَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ.

يقول تبارك وتعالى:

« مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَرْصَدَ لِمُحَارَبَتِي، وَأَنَا أَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِي »^(١).

ويقول الإمام الصادق (ع):

قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : لِيَأْذَنْ بِحَرْبٍ مِنِّْي مَنْ أَدَّلَ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ . . . »^(٢).

ويقول (ع):

« لَا تَحْقِرَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ صَغِيرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ كَبِيرٌ »^(٣).

ويقول (ع):

« مَنْ حَقَّرَ مُسْكِينًا لَمْ يَزَلِ اللَّهُ لَهُ حَاقِرًا مَا قَتَا حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ مَحَقِّرَتِهِ إِيَّاهُ »^(٤).

ويقول الرسول الأعظم (ص):

« وَلَا يَزِرِينَ أَحَدَكُمْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيُّهُمْ وَلِيُّ اللَّهِ »^(٥).

وقال لقمان لأبنه: « يَا بُنَيَّ، لَا تَحْقِرَنَّ أَحَدًا بِخَلْقَانِ ثِيَابِهِ فَإِنَّ رَبَّكَ وَرَبَّهُ وَاحِدٌ »^(٦).

ومن خلاف الإعزاز ومعرفة القدر، انتهاز التفاضل الطبقي في التحقير والإذلال والإهانة، كأن يُحَقَّرَ التَّجَارُ والأغنياء، الفقراء والمساكين والمحرومين، وهذه من أرذل الممارسات، وأسوأ الأفعال، ذلك لأنَّ الطبقات يجب أن تكون متلاحمة ومتكاملة ومتعاونة، مشدودة الأزر بعضها ببعض، وحيث أنَّ المحرومين والمساكين والفقراء هم طبقة دنيا من الوجهة الاقتصادية، وربما من الوجهة العلميَّة والثقافيَّة، فإنَّ

١. بحار الأنوار ج ٧٥، ص ١٥٨.

٢. المصدر السابق، ص ١٤٥.

٣. تنبيه الخواطر، ص ٢٥.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٥٢.

٥. المصدر السابق، ج ٧٥، ص ١٤٧.

٦. المصدر السابق، ج ٧٢، ص ٤٧.

من واجب الطبقات العليا معرفة قدر هذه الطبقة، واجتناب تحقيرها وإذلالها وإهانتها، والعمل على تقديرها ومساعدتها في ظروفها الصعبة.

ومن أوجه التحقير والإهانة والإذلال والتّصغير: أن تُحقّر قوميّة قوميّة أخرى، أو تُحقّر عشيرة عشيرة أخرى، أو يُحقّر عنصرٌ عنصراً آخر، وما إلى ذلك من أشكال التحقير النّاجمة عن التّعصّب القوميّ أو العشائريّ، أو التمييز العنصريّ والعنصريّ، ... وكلّها مذمومة ومنهيّة عنها، إذ أنّ التقدير والإعزاز هو الخلق السليم والمأمور به في التعامل والعلاقة بين الشعوب والقوميّات، والعشائر والجماعات، والعناصر والأعراق، والطوائف.

يقول الشاعر:

وَمَنْ هَابَ الرَّجَالَ تَهَيَّؤُهُ *** وَمَنْ حَقَّرَ الرَّجَالَ فَلَنْ يَهَابَا

واجتناب التحقير يجب أن يشمل كلّ الناس، ومنه اجتناب تحقير أفراد الأسرة والعائلة. فليس من الصحيح أن يجتنب المرء تعيير الناس خارج منزله، وفي داخل منزله يحقّر والدّيه، أو زوجته، أو إخوانه، أو أولاده.

وعن عواقب التّحقير:

«حدث أنّ شاباً أصيب بالجنون في ريعان عمره، وأدخل إلى مستشفى الأمراض العصبية، وكان قبل ذلك شاعراً مُجيداً، ومؤلّفاً ناجحاً، فأثارت حالته الدهشة، ولما سُئل ابن اخته عن سبب جنونه، قال: أبوه السّبب!

قيل: كيف! قال: كان هذا الابن ما قبل الأخير في أولاد جدّي، وكان جدّي يحبّ ولديه الأكبر والأصغر، وما بينهما بشكل أو بآخر، إلّا هذا لم يكن يحبّه. وكان في صغره حينما يلعبه مع بقيّة إخوانه، يأتي مندفعاً إلى حضن أبيه، ولكنّ أباه يبعده، ويقول له: انصرف، فإنّك لن تصبح شيئاً، وكان إذا كسر صحناً زجاجياً - مثلاً - يصرخ في وجهه قائلاً له: أنت مجنون. وبالفعل كانت هديّة والده إليه أن جعله مجنوناً حقيقةً»^(١).

١. هادي المدرسي: الصّدقة والأصدقاء، ص ٣٥٥، مع بعض التّصرف في العبارة.

وينبغي للمرء في معاملته النَّاس - فضلاً على تقديرهم واجتناب تحقيرهم - أن يقدر المعروف والخير والإحسان الذي يقومون به مهما كان صغيراً أو قليلاً، وأن لا يحقره، لأنَّ في تقديره إكرام وإعزاز وتقدير للمعروف والخير والإحسان، وإكرام وتقدير لمن يقومون به، وفي التَّحْقِير خلاف ذلك.

وكما هو واجب المرء في معاملته النَّاس أن يقدِّرهم ولا يُحَقِّرهم، ينبغي له أن يسرَّ عليهم، وأن يجتنب تعييرهم بالأخطاء والذنوب والخطايا التي ارتكبوها. والتَّعْيِير هو النَّسَبُ إلى العَارِ، وتقبيح الفعل، وذكر العيوب، ومنه إذاعة الفاحشة، والتَّأْنِيب، والشَّماتة بالشَّخص الآخر في الابتلاءات والمصائب والنَّكبات، والطَّعن (وهو ذكر عيوب النَّاس والقدح فيهم) والهَمْز^(١)، واللَّمز^(٢)، والنَّبْز^(٣)، والغَمْز^(٤).

من وصايا الخضر لموسى - عليهما السَّلام:

«يا ابنَ عِمْران! لا تُعَيِّرَنَّ أَحَدًا بِخَطِيئَةٍ، وإِنَّكَ على خَطِيئَتِكَ»^(٥).

ويقول الرَّسولُ الأعظم (ص):

«من أذاعَ فاحِشَةً كان كَمُبْتَدِعِهَا، وَمَنْ عَيَّرَ مُؤْمِنًا بِشَيْءٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرْكَبَهُ»^(٦).

ويقول الإمام الصَّادق (ع):

«مَنْ أَنْبَ مُؤْمِنًا أَنْبَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٧).

ويقول (ع):

«لا تُبْدِ الشَّماتَةَ لِأَخِيكَ فَيَرْحُهُ اللهُ وَيُصَيِّرَهَا بِكَ»^(٨).

*١. الهَمْزُ: الاعتِيَابُ في الغَيْبَةِ، والهَمْزَةُ: الغَمَارُ والعِيَابُ. الهَمَّازُ: العِيَابُ والطَّعَانُ.

**٢. اللَّمَزُ: الإِعَابَةُ، والإِشَارَةُ إلى الشَّخص المَلْمُوزِ بالعين ونحوها مع كلام خفي. اللَّمَزَةُ: العِيَابُ للنَّاسِ أو الذي يعيبك في وجهك.

***٣. النَّبْزُ: التَّلْقِيبُ، وهو شائع في الألقاب القبيحة. التَّنَابُزُ بالألقاب: التَّعَايُرُ وتلقيب البعض البعض الآخر.

****٤. الغَمْزُ: الطَّعْنُ والعَيْبُ.

٥. المصدر السابق، ج ٧٣، ص ٣٨٣.

٦. المصدر السابق، ص ٣٨٤.

٧. اصول الكافي ج ٢، ص ٣٥٦.

٨. المصدر السابق، ص ٣٥٩.

وفي الوقت الذي لا يجوز للمرء أن يُعَيِّرَ إخوانه والنَّاسَ، ينبغي له أن لا يعيِّرهم فيما إذا عيَّروه، إذ في مقابلة التَّعْيِيرِ بالتَّعْيِيرِ وقوعٌ في التَّعْيِيرِ، وهو مذمومٌ ومنهْيٌّ عنه.

يقول الرسول الأعظم (ص):

« إِنْ عَيَّرَكَ أَخُوكَ الْمُسْلِمُ مِمَّا لَمْ يَعْلَمْ فِيكَ، فَلَا تُعَيِّرْهُ مِمَّا تَعْلَمُ فِيهِ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ إِثْمُهُ»^(١).

«عَيَّرَ (أبو ذرٍّ) رجلاً على عهد النَّبِيِّ (ص) بأمِّه، فقال له: يا ابن السَّوداءِ! وكانت أمه سوداء، فقال له رسول الله (ص): تعيِّره بأمِّه يا أبا ذرٍّ؟! قال: فلم يَزَلْ أبو ذرٍّ يَمْرُغُ وجهه في التُّرابِ حتَّى رضي رسول الله (ص) عنه»^(٢).

وهكذا فليس من إحسان معاملة النَّاسِ، السُّخْرِيَّةُ منهم والاستهزاء بهم، ولا تحقيرهم ولا تعييرهم، فَلَئِكَ يُحْسِنُ المرءُ معاملتهم، عليه أن لا يسخر منهم، وأن لا يحقِّرهم، وأن لا يعيِّرهم، وخليقٌ به أن ينشغل بعيوبه عن عيوب النَّاسِ.

يقول الشَّاعر:

لو نَظَرَ النَّاسُ إِلَى عَيْبِهِمْ *** ما غَابَ إِنْسَانٌ عَلَى النَّاسِ

ويقول الشَّاعر الآخر:

وَعَيْنُكَ إِنْ أَبَدْتَ إِلَيْكَ مَسَاوِيًّا *** فَصُنْهَا وَقُلْ: يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَغْنِ

وَعَاشِرٌ مَعْرُوفٍ وَسَامِعٌ مَنِ اعْتَدَى *** وَفَارِقٌ وَلَكِنْ بَالَتِي هِيَ أَحْسَنُ

١. تنبيه الخواطر، ص ٣٩٠.

٢. بحار الأنوار ج ٧٢، ص ١٤٧.

❖ كَفُّ الْأَذَى عَنِ النَّاسِ

قال تعالى:

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا^(١).

ويقول الرسول الأعظم (ص):

«مَنْ آذَى مُؤْمِنًا فَقَدْ آذَانِي»^(٢).

ويقول (ص) أيضاً:

«كَفُّ أَذَاكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهُ صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ»^(٣).

ويقول (ص):

« مَنْ كَفَّ يَدَهُ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّمَا يَكْفُ عَنْهُمْ يَدًا وَاحِدَةً، وَيَكْفُونَ عَنْهُ أَيَادِيَ كَثِيرَةٍ »^(٤).

من مصاديق حسن التعامل مع الناس كُفُّ الإيذاء عنهم، ومن سوء التعامل معهم، إيذاؤهم.

وربَّ سائل يسأل: كيف يُكفُّ الأذى عن الناس؟

لكي يُكفَّ الأذى عن الناس، لابدَّ من كُفِّ الوسائط التي عن طريقها يُؤذون، ومنها: اللِّسَانُ، إِنَّ اللِّسَانَ - كما تقدَّم ذِكرُهُ - أداةٌ تدخل في غالبية المعاملات فيما بين الناس، وبجعل هذه الاداة تحت إمامة العقل تتقوَّم وتتنظَّم تصرفات الإنسان، وسيرته، وبجعلها أمام العقل ومتقدِّمة عليه، وبإطلاق الحرية لها، يقع الإنسان في الخطأ، وإساءة معاملة الناس، ومنها إيذاؤهم.

١. ٥٨ / الأحزاب.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٧٢.

٣. المصدر السابق، ج ٧٥، ص ٥٤.

٤. المصدر السابق، ص ٥٣.

إِنَّ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَاغْتِيَابَهُمْ، وَبِهْتَهُمْ، وَالنَّمِيمَةَ عَلَيْهِمْ، وَالسَّعَايَةَ بِهِمْ عِنْدَ الظَّالِمِ، وَاسْتِعْمَالَ اللَّسَانَيْنِ الْمُخْتَلَفَيْنِ مَعَهُمْ، وَإِفْشَاءَ أَسْرَارِهِمْ، وَقَذْفَهُمْ وَاتِّهَامَهُمْ، وَمَخَاطَبَتَهُمْ بِالْكَلَامِ الْفَاحِشِ وَالبِذْيِ، وَسَبُّهُمْ، وَلَعْنُهُمْ، وَالسُّخْرِيَّةَ مِنْهُمْ، وَتَحْقِيرَهُمْ، وَإِهَانَتَهُمْ، وَإِذْلَالَهُمْ، وَتَعْيِيرَهُمْ، وَ... كُلُّهَا صُورٌ مِنْ صُورِ الْإِذَاءِ الَّتِي تَتِمُّ بِوَسْطَةِ اللَّسَانِ، وَبِكُفِّهِ وَإِحْسَانِ اسْتِعْمَالِهِ، يُكْفَى الْأَذَى عَنِ النَّاسِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ وَتُحَسَّنُ مُعَامَلَتُهُمْ.

إِنَّ اللَّسَانَ إِذَا أَسِئَ اسْتِعْمَالُهُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ، تَسَبَّبَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْإِذَاءِ لَهُمْ! وَلَكِنَّهُ لَيْسَ الْوَسِطَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي بِهَا يُلْحَقُ الْأَذَى بِالنَّاسِ، وَمِنْ تِلْكَ الْوَسَائِطِ الْيَدُ وَالرَّجُلُ. وَمِنْ هُنَا لَا يَجُوزُ إِذَاءُ النَّاسِ بِضَرْبِهِمْ وَالْإِعْتِدَاءَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، كَمَا لَا يَجُوزُ إِذَاءُهُمْ بِأَيِّ وَاسِطَةٍ أُخْرَى.

يَقُولُ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(١).

وَيَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ (ع):

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ اتَّقَمَنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ»^(٢).

وَكُلُّ جَوَارِحِ الْإِنْسَانِ وَحَوَاسِهِ، إِذَا أُسِئَ اسْتِعْمَالُهَا فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ، تَتَسَبَّبُ فِي إِلْحَاقِ الْأَذَى بِهِمْ، وَمِنْ هُنَا لَا يَحِلُّ تَرْوِيعُ النَّاسِ، وَتَهْدِيدُ أَمْنِهِمْ أَوْ تَعْرِيزُهُ لِلْخَطَرِ، سِوَاءَ بَاسْتِعْمَالِ اللَّسَانِ، بِإِطْلَاقِ الْأَلْفَافِ الْخَفِيفَةِ، وَالتَّهْدِيدِ، وَالتَّوْعِدِ أَوْ بِإِطْلَاقِ الْأَصْوَاتِ الْمُرْوُوعَةِ. كَمَا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَى النَّاسِ نَظَرَاتٍ خَفِيفَةٍ، وَلَا يَحِلُّ التَّجَسُّسُ عَلَيْهِمْ، وَلَا إِحْزَانُهُمْ، وَلَا إِهَانَتُهُمْ، فَتَرْوِيعُ النَّاسِ، وَتَهْدِيدُ أَمْنِهِمْ، وَتَرْوِيعُهُمْ، وَالتَّجَسُّسُ عَلَيْهِمْ، وَأَحْزَانُهُمْ، وَإِهَانَتُهُمْ وَالتَّعْدِي عَلَى أَعْرَاضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، هِيَ وَجُوهٌ مُتَعَدِّدَةٌ لِلْإِذَاءِ. وَحَسَنُ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ يَقْتَضِي الْكَفَّ عَنْ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ إِلْحَاقُ الْأَذَى بِهِمْ وَإِضْرَارُهُمْ.

١. نهج البلاغة، خطبة ١٦٧.

٢. وسائل الشيعة ج ٨ ص ٦١٤.

يقول الإمام علي (ع):

«لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُؤْمِنًا»^(١).

ويقول الإمام الصادق (ع):

«من نظر إلى مؤمن نظرةً ليُخيفَه بها، أخافه الله عزَّ وجلَّ يوم لا ظلَّ إلَّا ظله»^(٢).

ويقول الرسول الأعظم (ص):

«مَنْ أَحْزَنَ مُؤْمِنًا ثُمَّ أَعْطَاهُ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَفَّارَتَهُ، وَلَمْ يُؤْجَرْ عَلَيْهِ»^(٣).

ويقول (ص) أيضاً:

«قال الله تبارك وتعالى» من أهان لي ولياً فقد أَرَصَدَ مُحَارَبَتِي»^(٤).

وقال (ص):

«أَذَلُّ النَّاسِ مَنْ أَهَانَ النَّاسَ»^(٥).

وبناءً عليه، فكفَّ الأذى والضَّررَ ينبغي أن يكون خُلُقًا في الإنسان، سواء كان في بيته: في تعامله مع زوجته، وأولاده، ووالديه، وأقاربه، أو كان في عمله، أو في المجلس، أو في المحفل، أو في الشَّارع، أو في أي مكان آخر.

وكما لا يحلُّ للمسلم - أو المرء - أن يُرَوِّعَ الْمُؤْمِنِينَ ويهينهم ويؤذيهم، لا يحلُّ له أن يؤذي النَّاسَ كائناً من كانوا، ويكفَّ الأذى عنهم، يضع يده على جانب هامٍّ ورئيسيٍّ في إحسان معاملتهم.

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٥١.

٢. وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦١٤.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٠.

٤. أصول الكافي ج ٢، ص ٣٥١.

٥. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٩٢.

❖ الْبِرُّ بِالنَّاسِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ

قال تعالى:

«وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ»^(١).

قال الإمام الصادق (ع):

«مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ الْبِرُّ بِالْإِخْوَانِ، وَالسَّعْيُ فِي حَوَائِجِهِمْ»^(٢).

وقال (ع) أيضاً:

«تَوَاصَلُوا، وَتَبَارَكُوا، وَتَرَاحَمُوا، وَتَعَاطَفُوا»^(٣).

وقال تعالى:

«وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»^(٤).

وقال الإمام عليّ (ع):

«سَبَبُ الْمَحَبَّةِ، الْإِحْسَانُ»^(٥).

وقال (ع) أيضاً:

«مَنْ كَثُرَ إِحْسَانُهُ، كَثُرَ خَدَمُهُ وَأَعْوَانُهُ»^(٦).

وقال (ع):

«بِالْإِحْسَانِ تَمْلِكُ الْقُلُوبُ»^(٧).

وقال (ص):

١. ٢ / المائدة.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣١٢.

٣. أصول الكافي، ج ٢، ص ١٧٥.

٤. ١٩٥ / البقرة.

٥. الغرر والدرر.

٦. المصدر السابق.

٧. المصدر السابق.

« جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا »^(١).

وقال (ع):

« الْمُحْسِنُ مَنْ عَمَّ النَّاسَ بِالْإِحْسَانِ »

لليرِّ معاني كثيرة، وكثير من أعمال الخير والمعروف تدخل ضمن مفهوم اليرِّ، ومن معاني اليرِّ: الإحسان، والاتساع في الإحسان، والعطيَّة، والشفقة، واللطف باستعمال الكلمة الطيبة. والإحسان هو فعل الحسن.

ومن اليرِّ:

- تقوى الله ^(٢).
- السَّعي في حوائج الإخوان والنَّاس.
- التَّواصل.
- التَّراحم.
- التَّعاطف.
- التَّآخي.
- «كتمان الحاجة».
- «كتمان الصدقة».
- «كتمان الوجع».
- «كتمان المصيبة».
- العمل في السرِّ عمل العلانية.
- التَّحابُّ في الله.
- «سخاء النَّفس».

١. نهج البلاغة. الحكم.

٢. يأتي اليرُّ كنتيجة طبيعيَّة لتقوى الله وخشيته.

- «الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى».
- «طِيبُ الْكَلَامِ».
- التَّعَاوُنُ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ.

وللمَرْءِ الْبَارُّ عِلَامَاتٌ يَتَمَيَّزُ بِهَا، هِيَ:

- الْحُبُّ فِي اللَّهِ.
- الْبَغْضُ فِي اللَّهِ.
- الْمَصَاحَبَةُ فِي اللَّهِ.
- الْمَفَارَقَةُ فِي اللَّهِ.
- الْغَضَبُ فِي اللَّهِ.
- الرِّضَى فِي اللَّهِ.
- الْعَمَلُ لِلَّهِ.
- الطَّلَبُ إِلَى اللَّهِ.
- الْإِحْسَانُ فِي اللَّهِ.

وَلِلْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ آثَارٌ عَظِيمَةٌ، فَعِلَاوَةً عَلَى أَنَّ فِيهِمَا مَكْسَبَةً لِحَبِّ اللَّهِ، فَهُمَا مَكْسَبَةٌ لِحَبِّ النَّاسِ، وَوَدَّهُمْ. وَأَسْهَلُ الْبِرِّ وَأَبْسَطُهُ: الْمَلَاظِفَةُ مَعَ النَّاسِ وَطِيبُ الْكَلَامِ مَعَهُمْ.

وَعَنِ الْآثَارِ الْإِيجَابِيَّةِ لِمَلَاظِفَةِ النَّاسِ، وَطِيبِ الْكَلَامِ مَعَهُمْ، وَمَدَارَاتِهِمْ، نَقَرَأُ الْقِصَّةَ التَّالِيَةَ:

«كَانَ الْمَطَرُ يَنْهَمِرُ بِشَدَّةٍ حِينَ دَخَلَتْ سَيِّدَةٌ عَجُوزٌ إِلَى الْبَهْوِ الْخَارِجِيِّ لِأَحَدِ الْمَكَاتِبِ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى زَخْرَفَةِ الْمَنَازِلِ وَتَصْمِيمِ أَثَاثِهَا، فَتَجَاهَلُهَا جَمِيعُ مَوْظِفِي الْمَكْتَبِ، مَا

عدا موظفاً شاباً خَفَّ إليها وسألها عمّا يستطيع أن يؤدّيه إليها من خدمات، فشكرته وقالت إنّها تريد أن تنتظر قليلاً ريثما تخفُّ حدة المطر في الخارج.

«ولم يَسعِ الشَّابُّ أن يتركها تنتظر وحدها، فوقف إلى جوارها يَرْفُقه عنها بالحديث حتّى انقطع المطر، فودّعها حتّى ربكت سيّارة انطلقت بها.

»ومضى على ذلك أسبوعٌ. ثم دعاه مدير المكتب، وأبلغه أنّ السيّدة كارنجي الثّرية المشهورة اتّصلت به طالبة أن يرسله إليها لكي تستشيريه في زخرفة قصر تملكه في اسكتلندا.

»وعجب الشَّابُّ من اختيار المليونيرة له لهذه المهمة على غير معرفةٍ سابقةٍ، ثم زال عجبه حين وقف على السَّبَبِ عند مقابلته للسيّدة كارنجي، فقد كانت هي نفسها تلك السيّدة العجوز. وقد كسب الموظف الشَّابُّ من المهمّة التي عهدت بها إليه مئات الجُنَيات عدا ما اكتسبه المكتب الذي يعمل فيه من فوائد وشهرة»^(١).

والاحسان إلى النَّاسِ يجب أن يكون مُخْلِصاً لله، لا طلباً للمال وللجَاهِ وللشُّهرة، مع العلم بأنَّ المُحْسِنَ إلى النَّاسِ يُوفَّقُ في الجانب المَالِيّ والشُّهرة إضافة إلى كسب محبّتهم ومودّتهم.

هل تريد أن تكسب حبَّ النَّاسِ وتملك قلوبهم؟

لاشكَّ أنّ كلّ إنسان يريد ذلك، والطريق إليه: الإحسان إلى النَّاسِ، وهو أقصر الطُّرُقِ إلى قلوبهم. فلا مُجْلِبَ لقلوب النَّاسِ كالإحسان إليهم، ولا منفَرٍ لها كالإساءة إليهم!

ورُبَّ سائل يسأل:

أيُّ صورة من الإحسان تلك التي تُملِكُ بها قلوب النَّاسِ؟

١. ديل كارنجي: كيف تكسب النجاح والثروة والقيادة، ص ٥١-٥٢.

والجواب:

إِنَّ كُلَّ صُورِ الْبِرِّ بِالنَّاسِ وَالْإِحْسَانِ^(١) إِلَيْهِمْ مُجْلِبَةٌ لِحَسَنِ التَّعَامُلِ مَعَهُمْ وَكَسْبِ حُبِّهِمْ وَوُدِّهِمْ، سواء كان الإحسان في صورة تقديم خدمةٍ، أو قضاء حاجةٍ أو إعطاء صدقةٍ، أو كان في صورة تواصلٍ أو تراحمٍ أو تعاطفٍ أو ملاطفةٍ أو مداراةٍ بكلمةٍ طيبةٍ أو

فقلوب النَّاسِ تتوق إلى من يحسن إليها وتحبُّه لأنها مجبولة ومفطورة على ذلك كما أنها مجبولة - أيضاً - على بُغْضٍ من يسيء إليها والتَّنْفُورِ منه.

وكما ينبغي للمرء في تعامله مع النَّاسِ أَنْ يَبْرَ بِهِمْ، ويحسن إليهم، وأن لا يَمُنَّ عليهم بإحسانه، ينبغي لهم - بدورهم - أَنْ لا يجحدوا ذلك الإحسان إذا قُدِّمَ لهم، لأنَّ في جحدهم له مساءة تصرَّف، وتركاً لشكر المخلوق، وهذا ليس من حسن الأخلاق في شيء. وإضافة إلى ذلك فإنه قد يُوَدِّي إلى الحرمان من الإحسان.

يقول الإمام عليُّ (ع):

«جُحُودُ الْإِحْسَانِ يَحْدُوا عَلَى قُبْحِ الْأَمْتِنَانِ»^(٢).

ويقول (ع) أيضاً:

«جُحُودُ الْإِحْسَانِ، يُوجِبُ الْحِرْمَانَ»^(٣١٠٤).

ويقول (ع):

«تَمَامُ الْإِحْسَانِ تَرُكُ الْمَنِّ بِهِ»^(٤١٠٥).

وهكذا فَلِكَيْ يُحَسِّنَ المرء معاملته النَّاسِ، خَلِيقٌ بِهِ أَنْ يَبْرَ بِهِمْ ويحسن إليهم، وَيَعْمَهُمْ بإحسانه.

*١. من أولى النَّاسِ بِالْبِرِّ بِهِمُ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، الوالدان. قال تعالى على لسان نبيه عيسى المسيح ع: وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، ٣٢ - مريم، وقال تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. ٢٣ - الإسراء.

٢. الغرر والدرر.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق.

❖ التَّوَسُّلُ بِالْحِلْمِ وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ

قال تعالى:

(... وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ...)^(١).

وقال الإمام عليّ (ع):

«إِنَّمَا الْحِلْمُ كَظْمِ الْغَيْظِ وَمَلَكِ النَّفْسِ»^(٢).

وقال (ع) أيضاً:

«مَنْ غَازَلَكَ بِقُبْحِ السَّفَةِ عَلَيْكَ فَعِظْهُ بِحُسْنِ الْحِلْمِ عَنْهُ»^(٣).

وقال (ع):

«إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيمًا فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ»^(٤).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ خَلَائِقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟: الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَكَ»^(٥).

وقال (ص):

«تَجَاوَزُوا عَنْ عَثَرَاتِ الْخَاطِئِينَ يَقْبِيكُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ سُوءَ الْأَقْدَارِ»^(٦).

وقال الإمام علي (ع):

«شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَعْفُو عَنِ الرَّثَةِ، وَلَا يَسْتُرُ الْعَوْرَةَ»^(٧).

وقال (ع):

«قَلَّةُ الْعَفْوِ أَقْبَحُ الْعَيُوبِ، وَالتَّسَرُّعُ إِلَى الْإِنْتِقَامِ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ»^(٨).

١. ١٣٤ / آل عمران.

٢. الغرر والدرر.

٣. المصدر السابق.

٤. نهج البلاغة، الحكم.

٥. بحار الأنوار ج ٧١، ص ٣٣٩.

٦. تنبيه الخواطر ص ٣٦٠.

٧. الغرر والدرر.

٨. المصدر السابق.

ورى عبد الله بن العباس فقال:

«خرج أعرابيٌّ من بني سليم يتبدَّى في البرِّيَّة، فإذا هو بضَبُّ قد نفر من بين يديه، فسعى وراءه حتى اصطاده، ثُمَّ جعله في كُمِّهِ وأقبل يزدلف^(١) نحو النَّبِيِّ (ص)، فلمَّا أن وقف بإزائه ناداه: يا محمد! يا محمد! وكان من أخلاق رسول الله (ص) إذا قيل له: يا محمد! قال: يا محمد! وإذا قيل له: يا أحمد! قال: يا أحمد! وإذا قيل له: يا أبا القاسم! قال: يا أبا القاسم!، وإذا قيل له: يا رسول الله! قال لبيك وسعديك، وتهلَّل وجْهُهُ.

«فلمَّا ناداه الأعرابيُّ: يا محمد! يا محمد! قال له النَّبِيُّ: يا محمد! يا محمد! قال له: أنت السَّاحِرُ الكَذَّابُ الذي ما أَظَلَّتْ الخضراءُ، ولا أَقَلَّتْ الغبراءُ من ذي لهجة هو أكذب منك، أنت الذي تزعم أن لك في هذه الخضراء إلهًا بعث بك إلى الأسود والأبيض؟!!! واللَّات والعزَّى! لولا أنَّي أخاف أنَّ قومي يُسْمُونِي العجول، لضربتكَ بسيفي هذا ضربة أقتلك بها، فأسودُّ بك الأولينَ والآخرينَ.

«فَوَثَبَ إِلَيْهِ عمرُ بن الخطَّاب ليبطش به، فقال النَّبِيُّ (ص): اجلس يا أبا حفص! فقد كاد الحليم أن يكون نبيًّا، ثم التفت النَّبِيُّ (ص) إلى الأعرابيِّ، فقال له: يا أخا بني سليم، هكذا تفعل العرب؟! يتهَجَّمون علينا في مجالسنا، يجهوننا بالكلام الغليظ؟ يا أعرابيُّ، والذي بعثني بالحقَّ نبيًّا، إنَّ من ضرِّ بي في دار الدُّنيا هو غدًا في النَّار يتلظى. يا أعرابيُّ، والذي بعثني بالحقَّ نبيًّا، إنَّ أهل السَّماء السَّابعة يسمُّوني أحمد الصَّادق. يا أعرابيُّ، أسلم تسلم من النَّار، يكون لك ما لنا وعليك ما علينا، وتكون أخانا في الإسلام»^(٢).

ما هو الجِلمُ؟

وما هو العَفْوُ؟

وما علاقتهما بمعاملة النَّاسِ؟

*١. يزدلف: يتقدَّم، يقترب.

*٢. بحار الأنوار ج ٤٣، ص ٧٠.

الْحِلْمُ: كَظْمِ الْغَيْظِ وَمَلَكِ النَّفْسِ. والغَيْظُ هو الغضب. وكَظْمُهُ: حَبْسُهُ وَالْإِمْسَاكُ عَلَيْهِ فِي النَّفْسِ. وبحبس الغضب والإمساك عليه، تَمَلَّكَ النَّفْسَ وتَضَبَّطَ. ويعرَّفَ الْحِلْمُ بِالصَّفْحِ، وَالصَّبْرِ وَالْأَنَاةِ وَالسُّكُونِ مَعَ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْعَقْلِ. وَالْحِلْمُ هو ضِدُّ الْغَضَبِ وَالطَّيْشِ. وقد يُقَابِلُ به الْجَهْلُ وَالسَّفَهُ. والعفو هو الصَّفْحُ، وترك الانتقام والعقوبة، وهو نتيجة لِلْحِلْمِ.

ومن أَفْضَلِ الرِّئَاسَةِ التي يَنْبَغِي للمرء أن يَتَزَيَّنَ بها في حياته وفي تعامله مع النَّاسِ: الْحِلْمُ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْحِلْمَ مِنْ أَحْسَرِ الْأَخْلَاقِ^(١) وبه تُنْتَظَمُ أُمُورُ الْإِنْسَانِ ومعاملاته، وَيُسْتَرُ الخلل في أخلاقه، وتُحَجَّبُ الْآفَاتُ ومساوئ الأخلاق عنه. وبه يُكَمَّلُ الْعَقْلُ، وَيَحَبُّ الْإِنْسَانُ وَيُعَاشِرُ وَيُعَزُّ وَيُرْفَعُ، وَيُنْصَرُ.

يقول الإمام عليّ (ع):

«وَجَدْتُ الْحِلْمَ وَالْإِحْتِمَالَ أَنْصَرَ لِي مِنْ شُجْعَانِ الرِّجَالِ»^(٢).

وفي هَذَا الشَّانِ، حُكِيَ «أَنَّ قَوْمًا جَعَلُوا لِبَعْضِ السُّفَهَاءِ جُعَالَةً عَلَى أَنْ يَؤَاوِجَهُ سَقْرَاتُ بِالشَّتَمِ، فَفَعَلَ السَّفِيهَ مَا بَيَّنَّوهُ لَهُ، فَحَلِمَ عَنْهُ سَقْرَاتُ، وَلَمْ يُجِبْهُ، فَاسْتَحْيَا السَّفِيهَ، فَقَالَ لَهُ سَقْرَاتُ: لَا عَلَيْكَ إِنْ كَانَ لَكَ فِي سَبَبِنَا مَنَفْعَةٌ أُخْرَى فَلَا تَدْعُهَا بِهِ»^(٣).

إِنَّ الْحِلْمَ خُلُقٌ عَظِيمٌ يَنْبَغِي للمرء أن يَتَوَسَّلَ بِهِ فِي مَعَامَلَةِ النَّاسِ، بَلْ إِنْ مَعَامَلَةَ النَّاسِ لَا غَنَى لَهَا عَنْ اسْتِعْمَالِ الْحِلْمِ، إِذْ بِهِ تُنْتَظَمُ وَتَسِيرُ فِي جَوْ هَادِيٍّ مَفْعَمٍ بِنُورِ الْعَقْلِ، وَبِدُونِهِ تَتَحَوَّلُ الْمَعَامَلَةُ إِلَى بَارُودٍ مُشْتَعِلٍ. وَبِالْحِلْمِ يَسْعَدُ وَبِهِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَتَتَسَهَّلُ مَعَامَلَاتُهُ مَعَ الْآخَرِينَ، وَبِدُونِهِ يَتَعَبُ وَيَشْقَى، وَيَعِيشُ التَّوَتُّرَ

*١. «حسن الخلق بالمعنى الأخص هو أن تُلينَ جَنَاحَكَ، وَتُطِيبَ كَلَامَكَ، وَتَلْقَى أَخَاكَ بِبِشْرٍ حَسَنٍ: مِنْ نَتَائِجِ الْحِلْمِ» جَامِعُ السَّعَادَاتِ ج ١، ص ٣٤٢.

وَيَبْدُو أَنَّ حَسْنَ الْخُلُقِ أَكْثَرُ مَا يَطْلُقُ فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ، كَمَا أَنَّ سُوءَ الْخُلُقِ أَكْثَرُ مَا يَطْلُقُ فِيهَا عَلَى التَّضَجُّرِ، وَانْقِبَاضِ الْوَجْهِ، وَسُوءِ الْكَلَامِ.

٢. الْغُرَرُ وَالْدَرَرُ.

٣. مُحَمَّدٌ حَسَنُ النَّائِنِيِّ: قِصَصُ الْحِلْمِ وَالْغَضَبِ، ص ٥٢.

في العلاقات والمعاملات: سواء في المنزل مع أهله وولده وأقاربه، أو مع أصدقائه أو مع زملائه في العمل، أو مع عموم النَّاس. ومن هنا فإن حسن التَّعامل والعلاقة الإنسانية يقوم - بدرجة كبيرة - على التَّوَسُّل بِالْحِلْمِ مع النَّاسِ.

والْحِلْمُ خُلُقٌ تَحَلَّى بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - والحكماء الذين على المرء أن يقتدي بهم ويتأسى في حياته وفي معاملته النَّاس، جاء «في المناقب: تَوَهَّم رجل من الحاجَّ أن هِمِّيَّانَهُ^(١) سُرِقَ فَرَأَى (الإمام) الصَّادِق (ع) مَصْلِيًّا فَلَمْ يعرفه، فتعلَّق به، وقال: أنت أخذت همياني، وكان فيه ألف دينار. فحمّله إلى منزله ووزن له ألف دينار، وعاد إلى منزله فوجد هميانه، فردَّ المال إلى الصَّادِق معتذراً فلم يقبل، وقال: شيء خرج من يدي لا يعود إلي»^(٢).

ويعتمد الحِلْمُ - في جزء كبير منه - على الصَّبْر والاحتِمال والصَّمْت. فالمرء في تعامله مع النَّاس قد يحدث له ما يثير أعصابه ويغضبه، ولكنه بالصَّبْر على ذلك وتحملِّه وصمته يمكنه المحافظة على هدوء أعصابه ورواقها، وبذلك يحسن معاملة الطَّرَف الآخر. بل ينبغي للمرء إذا أُغِيزَ أو أُغْضِبَ من شخص آخر عالمًا كان أو جاهلاً - أن يقابل ذلك بحسن الحِلْمِ، لا بالغِيظ والغضب، ففي حسن الحِلْمِ إحسان المعاملة، وفي الغِيظ إساءتها.

وفي هذا الصَّدَد يُنْقَلُ أَنَّهُ «شتم رجلُ الأحنفَ بن قيسٍ، وجعل يتتبعه حتَّى بلغ حيَّه، فقال الأحنف: يا هذا، إن كان بقي في نفسك شيء فهايته وانصرف، لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره»^(٣).

*١. الهَمِّيَّانُ: كيس تجعل فيه الثَّقَفَةُ وبشدُّ على الوسط، أو هو شداد السَّراويل أو التَّكَّة، فارسية..

٢. المصدر السابق ص ٢٨.

٣. المصدر السابق ص ١٦.

يقول الشاعر في هذه المعاني:

إذا كان دُونِي مَنْ بُلِيْتُ بِجَهْلِهِ *** أَبَيْتُ لِنَفْسِي أَنْ تُقَارَعَ بِالْجَهْلِ
وإنْ كَانَ مِثْلِي ثُمَّ جَاءَ بِرَلَّةٍ *** هَوَيْتُ لَصَفْحِي أَنْ يُضَافَ إِلَى الْعَدْلِ
وإنْ كُنْتُ أَدْنَى مِنْهُ قَدْرًا وَمَنْصِبًا *** عَرَفْتُ لَهُ حَقَّ التَّقَدُّمِ وَالْفَضْلِ

والمرء في تعامله مع النَّاسِ ينبغي له أن يضع في حسابه أنه لا يتعامل مع معصومين عن الخطأ، وإنما يتعامل مع أناس يصدر منهم الزَّلَلُ، ومع أنفس حافلة بالأهواء والكبرياء والغضب، ولا أحفظ لمعاملة النَّاسِ من استعمال الحِلْمِ معهم، واحتمال أخطائهم. بل ينبغي للمرء أن يضع في اعتباره أنه قد يُظلم، ويُبغى عليه، ويُهَان، ولكن حسن المعاملة يقتضي الحِلْمَ ومقابلة الإساءة بالإحسان، وعلى أقلِّ التقادير تلافي مقابلة الإساءة بالإساءة، ولا يتأتَّى له ذلك إلا بالتَّوَسُّلِ بالحِلْمِ وضبط النَّفْسِ، والابتعاد عن العصبية والفوران العصبِيَّ.

وقدرة المرء على أن يكون حليماً مالمَّا لنفسه ضابطاً لها، لا تقاس في الأحوال الطبيعية حينما يكون بعيداً عن معاملة النَّاسِ، وإمَّا تُقاس حينما يعاملهم ويصدر منهم ما يثير غضبه: هل يحلم ويملك نفسه، أو يستسلم لثورة الغضب؟ يقول لقمان الحكيم:

«لَا يُعْرِفُ الْحَلِيمُ إِلَّا عِنْدَ الْغَضَبِ»^(١).

وقد يسأل السائل:

كيف يمكن لفاقد الحِلْمِ أن يصبح حليماً في معاملة النَّاسِ؟

لا شيء سوى التَّحَلُّمِ، أي تصنُّع الحِلْمِ وتكلفه، والتَّعَوُّدُ عليه. وتمرور الوقت ينقلب ذلك التَّصْنُوعُ والتَّكْلُفُ إلى حِلْمٍ طبعيٍّ. وبديهة أنَّ من يفتقر إلى الحِلْمِ في معاملة النَّاسِ ويتصنَّع ذلك معهم سيجد - في البداية - صعوبة في

١. بحار الأنوار ، ج ٧٤، ص ١٧٨.

ذلك، لأنَّه يفعل خلاف طبعه وعادته، إِلَّا أَنَّ احتمال هذه الصُّعُوبَةِ والصَّبْرِ عليها، سيثمر الحِلْمَ في النِّهَايَةِ^(١).

وللتَّوَسُّلِ بِالْحِلْمِ في معاملة النَّاسِ ثمرات كثيرة منها:

- السِّيَادَةُ وَالشَّرْفُ وَالْمَجْدُ وَالْوَقَارُ.
- السَّلَامُ.
- النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَالتَّفَضُّلُ.
- إِقْبَالُ النَّاسِ وَحُبُّهُمْ.
- كَثْرَةُ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ.
- فَعْلُ الْخَيْرِ.
- الْأَمْنُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ.
- إِطْفَاءُ نَارِ الْغَضَبِ.

إِنَّ الْغَضَبَ - أَوْ الْقُوَّةَ الْغَضَبِيَّةَ - من القوى الموجودة في الإنسان، وهي القوة التي تمكِّنه من الرِّفْضِ، والشَّجْبِ والاستنكار، والدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ، والمَالِ، والعَرَضِ، والمَبْدَأِ. إِلَّا أَنَّهُ يلزم للإنسان أن يملكها ويضبطها ويوجهها، ويجعلها تحت إمامة العقل. لأنَّها إذا طغت على عقله، جعلته كالنَّارِ الملتهبة، وأوردته في المشاكل والمتاعب، والمهالك، فضلاً على أَنَّ الغضب غير الطبيعي، يُنْهَكُ الجسمَ ويهدمه، ويُضعِفُ الجهازَ العصبي، ويؤثِّرُ على القلبِ والشَّرَايِينِ، والأوردة والشُّعِيرَاتِ الدَّمَوِيَّةِ، إذ يزيد من ضغط الدَّمِ فيها. وإذا غضب الإنسان توتَّرت، واستنفرت كُلُّ خَلِيَّةٍ من خلايا جسمه^(٢).

وليس من العجيب أن يُرى إنسانٌ في حالة غضب، والدَّمُ يتدفق في وجهه مكسباً له حمرة محسوسة، وارتجافاً في أعضاء الجسم^(٣).

*١. يجد الذين يعانون من الغضب لأسباب وراثية صعوبة أكثر من غيرهم في كظم الغضب وحبس النفس عنه، إِلَّا أَنَّ التَّحَلُّمَ كفيلاً بأن يخفِّفَ حالة الغضب فيهم، أو يزيلها.

٢. الْمُؤَلَّفُ: كيف تتصرف بحكمة، ص ١٦٠.

٣. المصدر السابق، نفس الصفحة.

وكما أَنَّ الحِلْمَ مدخل إلى الخير، فَإِنَّ الغضبَ في التَّعاملِ مع الخَالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - ومع النَّفْسِ، ومع النَّاسِ، مدخل إلى الشَّرِّ. ومن هنا فَإِنَّ كثيراً من الأخطاء التي تنجم في تعامل النَّاسِ فيما بينهم تعود إلى سيطرة الغضب، وبالسيطرة على الغضب، وتقديم الحِلْمِ تحسُّنُ معاملة النَّاسِ، وتُصَانُ النَّفْسُ.

يقول الإمام الصادق (ع):

«الْعَضْبُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»^(١).

«وقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، أَوْصِنِي. قال: لا تَعْضَبْ. قال: فَفَكَّرْتُ حينَ قال رسولُ اللهِ (ص) ما قال، فإذا الْعَضْبُ يجمعُ الشَّرَّ كُلَّهُ»^(٢).

والإنسان في هذه الحياة ، وفي تعامله مع النَّاسِ يُقَوِّمُ بأدبه ويُوَزِّنُ، وحيث أَنَّ الحِلْمَ هو الزِّينة التي ينشرها المرء على آدابه وأخلاقه ليستر عوراته ومعايبه. وكم من إنسان يبدو على ما يرام في الحالة الطبيعيَّة، ولكنَّه في حالة الغضب تتبيَّن حقيقته وتظهر سلبِيَّاته!

ومن هنا فَإِنَّ الحِلْمَ والابتعاد عن الغضب المذموم، هو السُّمَّة التي ينبغي أن ترافق المرء في منزله: في تعامله مع والديه، ومع زوجته، وأولاده، وأقاربه، وفي التَّعامل مع أصدقائه والنَّاسِ، وإنَّه لمن خلاف العقل والعدل والأخلاق أن يكون المرء حليماً مع النَّاسِ، ولكنَّه في بيته يبدو كالنَّار المضطربة.

ومن القصص التي تُنقل عن سيطرة الغضب، والانقياد له، أَنَّ رجلاً اشترى سَيَّارة من نوعٍ فاخر، وكان يراها ويحافظ عليها أحسن المحافظة. وذات يوم، وبينما كانت السَيَّارة مَوْقَفَةً في المرأب بجانب حديقة المنزل، وأولاده يلعبون بالقرب من السَيَّارة، تناول أحدهم حجراً ناتئاً وأخذ يضغط عليه ويحرِّكه على صبغيها من مقدِّمتها إلى مؤخرتها وبالعكس.

١. بحار الأنوار ، ج٣، ص٢٦٦.

٢. ترغيب ج٣، ص٤٤٥.

وفي الأثناء تنبّه لذلك أبوه، فجاء مسرعاً والغضب يشبُّ في وجهه، وأمسك به بعنف، وأوجعه ضرباً مبرحاً على يده التي فعل بها ما فعل، حتّى أحمرّت واسودّت من شدّة الضرب.

ثمّ إن يد الطّفل ساءت أكثر، فنقله أبوه إلى المستشفى، وظلّ مدّة فيه، إلّا أنّ يده كانت تنتقل من سيّءٍ إلى أسوأ، حتّى قرّر الأطباء أن تُبتر يد الطّفل، فُبترت. وأصيب والده بحالة ندمٍ شديدة، ولكن لا ينفع النّدم.

إنّ صباغ السيّارة يمكن أن يُعاد إلى حالته الأولى، ويعوّض، ولكن هل ليد الطّفل التي بترت أن تعاد؟! وهكذا هي نتيجة الغضب والفورة العصبية.

وكثيرة هي التّصرفات - في معاملة النّاس - التي تعقبها حسرة وندامة، ويكون الغضب هو السّبب من ورائها. فكم من إنسان استسلم للغضب في تعامله مع النّاس، فأعقبة ذلك ندامة وحسرة! وإذ أنّ الأمر كذلك فإنّ الحِلْمَ هو الخُلُقُ الذي ينبغي للمرء أن يتوسّل به في معاملتهم.

إنّ الغضب نوع من أنواع الجنون، فكما أنّ المجنون فاقد لعقله، غير مسيطر على أعصابه وانفعالاته، كذلك الإنسان الغَضْبُ، فهو في حالة الغضب يفقد عقله، ولا يسيطر على أعصابه.

وللغضب الطّائش آثار سيّئة كثيرة على الإنسان منها:

- إبداء العيوب.
- إثارة الأحقاد الكامنة.
- الطّيش.
- تعجيل الحتّف.
- الابتعاد عن الخير، والدُّنُو من الشّرّ.
- الحسرة والندم.
- غياب العقل.

- الضَّعْفُ.
- النَّصَبُ الْجَسْمِيُّ وَالْعَصَبِيُّ وَالنَّفْسِيُّ.
- نفورُ النَّاسِ وابتعادهم.

فالنَّاسُ لَا تَمِيلُ وَلَا تَتَجَذَّبُ إِلَى الْمَرْءِ الْغَضَبِ الطَّائِشِ، وَإِنَّمَا تَمِيلُ وَتَتَجَذَّبُ إِلَى الْحَلِيمِ الْهَادِئِ الَّذِي تَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ الْحِلْمِ، وَضَبْطُ النَّفْسِ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ الْحَلِيمَ هُوَ الْمَحْبُوبَ بَيْنَ النَّاسِ، بِخِلَافِ الْغَضَبِ. أَفَلَا يَخْلُقُ بِالْمَرْءِ أَنْ يَتَوَسَّلَ بِالْحِلْمِ فِي مَعَامِلَتِهِمْ؟

وَكَمَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَحْلِمَ فِي مَعَامِلَتِهِ النَّاسِ، وَيَكْظِمُ غَيْظَهُ وَيَتَعَدَّ عَنِ الْغَضَبِ، يَنْبَغِي لَهُ أَيْضاً أَنْ يَتَوَسَّلَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ إِنْ ارْتَكَبُوا خَطأً بِحَقِّهِ أَوْ بِحَقِّ مَنْ يَرْتَبِطُ بِهِ، وَأَنْ يَجْتَنِبَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ.

إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا أُسِيءَ إِلَيْهِ، قَابَلَ الْإِسَاءَةَ بِالْإِحْسَانِ، وَعَفَا وَصَفَحَ عَنِ الْمُسِيءِ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أُسِيءَ إِلَيْهِ، قَابَلَ الْإِسَاءَةَ بِالْإِسَاءَةِ، وَرَبَّمَا رَدَّ الصَّاعَ صَاعِينَ، فَهُوَ لَا يَهْدَأُ وَلَا يَهْنَأُ إِلَّا بِالْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، وَهَذَا خِلَافُ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، إِذِ الْعَفْوُ وَالتَّنَازُلُ وَالتَّسَامُحُ مِنَ الْأَخْلَاقِيَّاتِ الَّتِي لَا غِنَى لِلْمَرْءِ عَنْهَا فِي مَعَامِلَتِهِ النَّاسِ.

يقول الإمام الصادق (ع):

« ثَلَاثٌ مِنْ مَكَارِمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَحْلِمُ إِذَا جَهِلَ عَلَيْكَ »^(١).

وأخطاء النَّاسِ تتفاوت من حيث الخطورة والآثار المترتبة عليها. وكثيرٌ مَنْ أخطأهم - وخصوصاً الأخطاء الصَّغيرة - تستحق العفو والصَّفْحَ، بل إِنَّ الْإِسْلَامَ يَأْمُرُ بِالتَّجَاوُزِ عَنْ ذُنُوبِ النَّاسِ مَا لَمْ تَكُنْ حُدُوداً، فَهَلَّا يَعْفُو عَنْ عَثَرَاتِهِمْ؟

١. بحار الأنوار ، ج ٧١ ، ص ٤٠٠.

يقول الرسول الأعظم (ص): «تجاوز عن الذنب ما لم يكن حداً»^(١).

وعن الإمام الباقر (ع) أنه قال:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) أُتِيَ بِالْيَهُودِيَّةِ الَّتِي سَمَّيْتُ الشَّاةَ لِلنَّبِيِّ (ص)، فَقَالَ لَهَا: مَا حَمَلَكِ عَلَى مَا صَنَعْتِ؟ فَقَالَتْ: قُلْتُ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ كَانَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْهُ. قَالَ: فَعَفَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) عَنْهَا.

وربَّ قائل يقول:

إِنَّ الْمَظْلُومَ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَنْتَصِرَ، بِأَخْذِ حَقِّهِ مِمَّنْ ظَلَمَهُ. وَهَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْ الْمَظَالِمِ - وَخُصُوصًا تِلْكَ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِعَامَّةِ النَّاسِ - يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْفُو عَنْهَا، وَيَتَجَاوَزَهَا، مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْعَفْوِ مَضَرَّةٌ، أَوْ إِحْدَاثُ كَسْرٍ أَوْ خِلَلٍ فِي الدِّينِ، أَوْ تَوْهِينٌ لِقُوَّتِهِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ الْعَفْوُ عَنْهُمْ مَدْعَاةً لِفَسَادِهِمْ، أَوْ تَمَادِيهِمْ فِي أَعْمَالِهِمُ الْمُشِيشَةِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ اللُّؤْمَاءُ، فَرْنَاءُ الطُّغْيَانِ.

يقول الإمام علي بن الحسين (ع):

«حَقٌّ مَنْ سَاءَكَ أَنْ تَعْفُو عَنْهُ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّ الْعَفْوَ يَضُرُّ انْتَصَرْتَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)^(٢).

ويقول الإمام علي (ع):

«جَازَ بِالْحَسَنَةِ، وَتَجَاوَزَ عَنِ السَّيِّئَةِ مَا لَمْ يَكُنْ ثُلْمًا فِي الدِّينِ أَوْ وَهْنًا فِي سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ»^(٣).

ويقول (ع) أيضاً: «الْعَفْوُ يُفْسِدُ مِنَ اللَّئِيمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الْكَرِيمِ»^(٤).

١. تنبيه الخواطر، ص ٣٦٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٩.

٣. الغرر والدرر.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٤١٩.

وَأَحْسَنُ الْعَفْوِ هُوَ الصَّفْحُ الْجَمِيلُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنْهُ: (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)^(١). وهو العفو من غير عقوبة، ولا تعنيف، ولا عتاب ولا تقريع. إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَدْ يَعْفُو عَنِ الْمَخْطِئِ أَوْ الْمُسِيءِ، وَلَا يَنْتَقِمُ مِنْهُ، لَكِنَّهُ يُعَذِّبُهُ وَيُعَاتِبُهُ وَيَقْرَعُهُ، وَهَذَا يَكُونُ التَّعْنِيفُ وَالْعِتَابُ وَالتَّقْرِيعُ نَوْعاً مِنَ الْعِقَابِ. يقول الإمام الرِّضَا (ع) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ): «الْعَفْوُ مِنْ غَيْرِ عِتَابٍ»^(٢).

ويقول الإمام الصَّادِق (ع) فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا:

«عَفَوْاً مِنْ غَيْرِ عُقُوبَةٍ، وَلَا تَعْنِيفٍ، وَلَا عَيْبٍ»^(٣).

ويقول (ع) أيضاً:

«الصَّفْحُ الْجَمِيلُ أَنْ لَا تُتَعَابَبَ عَلَى الذَّنْبِ»^(٤).

وَقُدْرَةُ الْمَرْءِ عَلَى الْعَفْوِ لَا تَتَجَلَّى حِينَمَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ، وَإِنَّمَا حِينَ يَكُونُ قَادِراً وَيَعْفُو، لِأَنَّ الْعَفْوَ مَعَ عَدَمِ الْقُدْرَةِ قَدْ يَكُونُ أَمراً مَفْرُوضاً، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْأَوَّلَى بِالْمَرْءِ أَنْ يَعْفُوَ عَنِ النَّاسِ فِي الْحَالَتَيْنِ: حِينَ لَا يَكُونُ قَادِراً، وَحِينَ يَكُونُ قَادِراً.

يقول الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«أَوَّلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ»^(٥).

ويقول الإمام علي (ع):

«الْأَلَمُ اللَّوْمُ الْبَغْيُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ»^(٦).

١. ٨٥ / الحجر.

٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٤٣١.

٣. المصدر السابق ج ٧٨، ص ٣٥٧.

٤. المصدر السابق، ص ٢٥٣.

٥. المصدر السابق، ج ٧١، ص ٤٣١.

٦. الغرر والدرر.

ومن القصص التي ينقلها التاريخ في هذا المضمار: أَنَّ الرَّسُولَ الأعْظَمَ (ص) كان - بعد إحدى المعارك - جالساً على سفح جبل، فجاء إليه أحد المشركين، وأخذ سيفه، وشهره عليه، وقال: من يخلُصُكَ مِنِّي - الآن - يا محمد؟

وفي الأثناء تحرك حجرٌ كان المُشْرِكُ واقفاً عليه، فسقط على الأرض، ووقع السَّيفُ من يده، فانتَهز الرَّسُولُ الفرصة، وأخذ السيف، وقال له: ومن يخلُصُكَ - الآن - مِنِّي؟ فقال: عفوُكَ يا رسولَ الله! فما كان من الرَّسُولِ إلَّا أن عفا عنه وهو (ص) قادر على قتله، وإرساله إلى الجحيم^(١).

والعفو ليس خُلُقاً للتَّجاوز عن أخطاء النَّاسِ وعثراتهم فحسب، بل هو وسيلة لاستصلاح ما قَسَدَ من أصحاب العقول. فقد يعمد المرء إلى الانتقام أو الضَّرب لردِّ الإساءة، إلَّا أنَّ هذا الأسلوب ليس هو الأمثل من نوعه، وقد لا يجعل الطَّرَفَ المسيء يُقلع عن خطئه، وفي العفو عنه أسلوب حسن لاستصلاحه.

شكى إلى رسول الله (ص) رجُلٌ، من خَدَمِهِ، فقال له:

«اعْفُ عَنْهُمْ تَسْتَصْلِحْ قُلُوبَهُمْ» فقال: يا رسول الله، إِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ في سوء الأدب، فقال: «اعْفُ عَنْهُمْ» فَفَعَلَ^(٢).

ومن وصايا أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب لابنه الحسن - عليهما السَّلام -:

«إِذَا اسْتَحَقَّ أَحَدُ مِنْكَ ذَنْباً، فَإِنَّ الْعَفْوَ مَعَ الْعَدْلِ أَشَدُّ مِنَ الضَّرْبِ لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ»^(٣).

وعن دَوْر العفو في الإصلاح يُنقل أَنَّهُ «أُذْنِبَ بَعْضُ كُتَّابِ المَأْمُونِ (العَبَّاسِيِّ) ذَنْباً، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ لِيَحْتَجَّ لِنَفْسِهِ فَقَالَ: يَا هَذَا، قِفْ مَكَانَكَ، فَإِنَّمَا هُوَ عَذْرٌ أَوْ يَمِينٌ وَهَبْتُهُمَا لَكَ، وَقَدْ تَكَرَّرَ مِنْكَ ذَلِكَ، فَلَا تَزَالُ تُسِيءُ وَتُحْسِنُ، وَتُذْنِبُ وَتَغْفِرُ، حَتَّى يَكُونَ الْعَفْوَ هُوَ الَّذِي يُصْلِحُكَ»^(٤).

١. المؤلَّف: كيف تبني شخصيتك، ص ١٠٧.

٢. مستدرک وسائل الشَّيْعة، ج ٢، ص ٨٧.

٣. بحار الأنوار ج ٧٧، ص ٣١٦.

٤. محمد حسن النائي: قصص الحلم والغضب، ص ٤٩.

وَالآنَ فَلَيْكَ يُحْسِنَ الْمَرْءَ تَعَامُلَهُ مَعَ النَّاسِ، جَدِيرٌ بِهِ أَنْ يَتَوَسَّلَ بِالْحِلْمِ وَالْعَفْوِ
وَبالصَّفْحِ مَعَهُمْ، وَأَنْ يَجْتَنِبَ الْعَصَبَ وَالْعُنْفَ وَالْإِنْتِقَامَ.

❖ الْحَيَاءُ مِنَ النَّاسِ

قال الإمام عليُّ (ع):

«الْحَيَاءُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ»^(١).

وقال (ع) أيضاً:

«الْحَيَاءُ سَبَبٌ إِلَى كُلِّ جَمِيلٍ»^(٢).

وقال (ع):

«الْحَيَاءُ يَصُدُّ عَنِ الْفِعْلِ الْقَبِيحِ»^(٣).

وقال الإمام عليُّ بن الحسينِ (ع):

«خَفِ اللَّهَ لِقُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاسْتَحِ مِنْهُ لِقُرْبِهِ مِنْكَ»^(٤).

وقال الإمام عليُّ (ع):

«غَايَةُ الْحَيَاءِ أَنْ يَسْتَحِيَ الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ»^(٥).

وقال (ع):

«مَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ»^(٦).

١. الغرر والدرر.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٢١١.

٣. الغرر والدرر.

٤. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٣٦.

٥. الغرر والدرر.

٦. المصدر السابق.

ما هو الحياءُ؟

ولم المرء بحاجة إليه في معاملة النَّاسِ؟

يُعَرَّفُ الْحَيَاءُ بِأَنَّهُ الْحِشْمَةُ أَوْ الْاِحْتِشَامُ، وَالْخَجَلُ، وَانْقِبَاضُ النَّفْسِ مِنَ الشَّيْءِ وَتَرْكُهُ خَوْفًا مِنَ اللَّوْمِ. وهو من الإيمان والعقل.

ولابدَّ للمرء - لكي يُحَسِّنَ سيرته وتصرفه في الحياة - من الحياءِ في ثلاثة أبعاد:

- الحياءُ من الله.

- الحياءُ من النَّفْسِ.

- الحياءُ من النَّاسِ.

فالحياءُ مِنَ اللَّهِ يعني الخوفَ منه، والإيمانَ بِقُرْبِهِ ومراقبته، وهو الأساس الذي يجب أن يُبنى عليه كلُّ حياءٍ للمرء، وكلُّ فعل أو تصرفٍ له، وذلك لأنَّه إذا استحيا من الله فعل ما يُرضيه سبحانه، وعكس ذلك صحيح، إذ مع عدم الحياء يفعل الإنسان ما يشاء، ودون حدودٍ وقيودٍ وسقوفٍ.

يقول الرسول الأعظم (ص):

«لَمْ يَبْقَ مِنْ أَمْثَالِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَوْلُ النَّاسِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْغَعْ مَا شِئْتَ»^(١).

والحياءُ مِنَ النَّفْسِ: أن يجعل المرء من نفسه - وهي أقرب المَقَرِّينَ له - رقيباً على نفسه، بأن يفعل ما هو حسن وينتهي عما هو قبيح. وهذا الحياء هو «غايةُ الحياءِ»، و «أَحْسَنُ الحياءِ» و «ثمرةُ الإيمان» كما تعبَّرُ عنه الأحاديث الشَّرِيفَةُ، وهو نتيجة طَبِيعِيَّةٌ للاستحياء من الله - سبحانه وتعالى.

والحياءُ مِنَ النَّاسِ: أن يستحي المرء من فعل القبيح أمامهم، وفي معاملتهم، وهذا الحياء - هو الآخر - نتيجة طَبِيعِيَّةٌ للحياء من الله - عزَّ وجلَّ - إِنَّ الحياء من النَّاسِ وإن كان ضرورة في التَّعامل معهم، وفي تقديرهم، واحترامهم، وفعل كل

١. بحار الأنوار ، ج ٧١، ص ٣٣٣.

ما هو حسن معهم، إلَّا أَنَّهُ يجب أن يكون مَبْتَقًا من الحياء من الله - سبحانه وتعالى - فمن يستحي من النَّاسِ هو في - حقيقة أمره - يستحي من نفسه وبالتالي من الله - جَلَّ شَأْنُهُ.

ولو نظر المرء في معاملته النَّاسَ، لرأى أَنَّ استحياءه مِنْهُمْ هو الذي يدعوه إلى التزام الحِشْمَةِ معهم، وإحسان معاملتهم، وترك ما يسيء هذه المعاملة. ومن هنا كان الحَيَاءُ من النَّاسِ مطلباً ضرورياً في معاملتهم، وفي تصوُّف الإنسان على مرأى ومسمع منهم، كما أَنَّ الحياء مطلب ضروري حينما يكون في السرِّ، أي مع نفسه: الحياء في السرِّ (أي مع النفس)، والحياء في العلانية (أي مع الناس).

ومن خلال معرفة معنى الحَيَاءِ من النَّاسِ أو الاستحياء منهم، يتبيَّن أيضاً أَنَّ الحياء منهم لا يعني أَن يُقِيمَ المرء حواجز نفسيةً بينه وبينهم، تجعله منعزلاً عنهم، وتمنعه من التَّعامل معهم، لأنَّ هذا في حقيقته خجلٌ زائدٌ، وحالة غير صحيَّةٍ جديرةٌ بالعلاج، أمَّا الحاجز النَّفْسِيُّ في الحياء فهو يتمثَّل في الامتناع عن ممارسة القبيح والسيِّئ في معاملة النَّاسِ، ومُزايلتهم بالقلب والعمل الصَّالح فيما إذا كانوا يُمارسون السيِّئات. وبعبارة أخرى: عدم الانجراف معهم فيما إذا كانت تصوُّفاتهم وأعمالهم غير حسنة.

ومن هنا يتوضَّح أَنَّ هناك نوعين من الحَيَاءِ: حياءٌ محمودٌ، وآخر مذمومٌ.

فالحَيَاءُ المحمود هو حياء القُوَّة، وهو الدَّاعي إلى العِفَّة والحِشْمَةِ في التَّصرُّفِ وفي معاملة النَّاسِ، وإلى ترك السيِّئ من القول والفعل. أما الحياء المذموم فهو حياء الضَّعْف، وهو النَّاجم عن حالة خجل غير صحيَّة، أو عن أحساس بالضَّعة والحقارة أمام النَّاسِ. والحياء المذموم يؤدي إلى الحرمان، ضياع الفرص من الإنسان.

يقول الإمام علي (ع):

«قُرِنَتْ الْهَيْبَةُ بِالْحَيِّيةِ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»^(١).

١. نهج البلاغة، الحكم.

وَلِلْحَيَاءِ الْمَحْمُودِ آثَارٌ خُلُقِيَّةٌ حَسَنَةٌ تَتَعَكَّسُ عَلَى نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِنْهَا:

- الْعِفَّةُ وَالْعَفَافُ.
 - الصَّدُّ عَنِ الْفَعْلِ الْقَبِيحِ.
 - الْمُرُوءَةُ .
 - عَدَمُ لِقَاءِ النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ.
 - اللَّيْنُ مَعَ النَّاسِ.
 - الرَّأْفَةُ بِهِمْ.
 - الْبِشَاشَةُ مَعَهُمْ.
 - حُسْنُ التَّنَاءِ عَلَيْهِمْ.
 - السَّمَاحَةُ.
 - السَّلَامَةُ.
- وهكذا فَلِكُلِّ يُحْسِنَ الْمَرْءُ مَعَامَلَةَ النَّاسِ، عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَحْيِي مِنْهُمْ، وَقَبْلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَحْيِي مِنْ نَفْسِهِ وَمَنْ خَالَقَهُ - جَلَّ وَعَلَا.

❖ حُسْنُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ^(١).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«اطْلُبْ لِأَخِيكَ عُذْرًا فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا فَالْتِمِسْ لَهُ عُذْرًا»^(٢).

وقال الإمام علي (ع):

«ظَنُّ ذَوِي النَّهْيِ وَالْأَلْبَابِ أَقْرَبُ شَيْءٍ مِنَ الصَّوَابِ»^(٣).

١. ١٢ / الْحُجُرَات.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٩٧.

٣. الغرر والدرر.

وقال (ع) :

«مَنْ حَسَنَ ظَنُّهُ بِالنَّاسِ حَازَ مِنْهُمْ الْمَحَبَّةَ»^(١).

وقال (ع) أيضاً:

«صَغُ أَمْرُ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَأْتِيَنَّكَ مِنْهُ مَا يَغْلِبُكَ، وَلَا تَظُنَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ سُوءًا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا»^(٢).

وقال (ع):

«لَا تَظُنَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءًا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا»^(٣).

وقال (ع):

«أَسْؤُ النَّاسِ حَالًا مَنْ لَمْ يَثِقْ بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ . . .»^(٤).

وقال (ع):

«مَنْ لَمْ يُحْسِنْ ظَنَّهُ اسْتَوْحَشَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ»^(٥).

وقال (ع):

«مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ سُوءُ الظَّنِّ لَمْ يَتْرُكْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلِيلٍ صَلَاحًا»^(٦).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«احْتَرِسُوا مِنَ النَّاسِ بِسُوءِ الظَّنِّ»^(٧).

١. المصدر السابق.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٩٦.

٣. المصدر السابق، ص ١٩٨.

٤. المصدر السابق، ج ٧٨، ص ٩٣.

٥. الغرر والدرر.

٦. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٢٢٧.

٧. المصدر السابق، ص ١٥٨.

بالنَّظَرِ إِلَى الظَّنِّ، كَيْفَ يَجِبُ التَّعَامُلُ مَعَ النَّاسِ؟

هَلِ الْمَطْلُوبُ الظَّنُّ الْحَسَنُ بِالنَّاسِ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ؟

أَمْ هَلِ الْمَطْلُوبُ الظَّنُّ السَّيِّئُ بِهِمْ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ؟

لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ فِي مَعَامَلَتِهِ النَّاسَ أَنْ يُحَسِّنَ الظَّنَّ بِهِمْ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ، وَلَا أَنْ يُسَيِّئَ الظَّنَّ بِهِمْ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ أَيْضاً.

بَلْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ مَعَ الْإِحْتِرَاسِ مِنْهُمْ فِي الْمَوَارِدِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ الْإِحْتِرَاسَ. وَيُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى أَنَّ كَثِيراً مِنَ الظُّنُونِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي ذَهْنٍ وَقَلْبِ الْإِنْسَانِ عَنِ الْآخَرِينَ هِيَ ظُنُونٌ يَجِبُ أَنْ تُجْتَنَّبَ، إِذْ أَنَّ مِنَ الظُّنُونِ مَا هُوَ ذَنْبٌ وَمَعْصِيَةٌ وَجُرْمٌ. كَمَا أَنَّ الْأَحَادِيثَ الشَّرِيفَةَ تَعْطِي مَسَاحَةً كَبِيرَةً لِحَسَنِ الظَّنِّ بِالنَّاسِ. وَتُوجِّهُ إِلَى الْإِحْتِرَاسِ مِنْهُمْ بِسُوءِ الظَّنِّ فِي مَوَارِدٍ مُعَيَّنَةٍ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ نَوْعِيَّةَ النَّاسِ، وَنَوْعِيَّةَ الظَّرْفِ الزَّمَنِيِّ يَجِبُ أَنْ يُؤْخَذَ بِعَيْنِ الْعِتَابِ فِي ظَنِّ الْمَرْءِ بِالنَّاسِ، لِأَنَّ النَّاسَ أَنْوَاعٌ مِنْهُمْ الْإِخْوَةُ، وَالْأَصْدِقَاءُ، وَالْأَخْيَارُ، وَالصَّالِحُونَ، وَالشُّرَكَاءُ فِي دِينٍ وَاحِدٍ وَعَقِيدَةٍ وَاحِدَةٍ، وَ... وَمِنْهُمْ الْأَعْدَاءُ، وَالْأَشْرَارُ، وَالْفُجَّارُ وَ... فَالتَّعَامُلُ الْحَسَنُ مَعَ الْإِخْوَةِ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُسَاءَ بِهِمْ الظَّنُّ، وَأَنْ يُحْمَلَ الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْهُمْ عَلَى مُحْمَلِ الْخَيْرِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَطْلُبَ لَهُمُ الْأَعْذَارَ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ التَّمَاسُ وَانْتِحَالُ الْأَعْذَارِ لَهُمْ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَصْدُرُ مِنْهُمْ، وَلَا يَمْتَلِكُ الْمَرْءُ يَقِيناً عَنْهَا. وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ، حَتَّى الثَّقَّةُ بِالْإِخْوَةِ يَجِبُ أَنْ لَا تَكُونَ مُطْلَقَةً، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ نِسْبَةً مِنَ الْإِحْتِرَاسِ، وَخُصُوصاً فِي الْمَوَارِدِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ احْتِرَاساً وَاحْتِيَاظاً.

يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ (ع):

«لَا تَثِقَنَّ بِأَخِيكَ كُلَّ الثَّقَةِ، فَإِنَّ صَرْعَةَ الْأَسْتِرْسَالِ لَا تُسْتَقَالُ»^(١).

وَلَيْسَ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِخْوَانِ فِي الدِّينِ فَحَسَبٍ، بَلْ حَتَّى بِالنِّسْبَةِ لِعُمُومِ النَّاسِ لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يُسَيِّئَ الظَّنَّ بِهِمْ لِكَلِمَةِ خَرَجَتْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَهُوَ يَجِدُ لَهَا

١. تحف العقول، ص ٢٦٣.

احتمالاً في الخير، لأنَّ النَّاسَ ليسوا مجموعة من المُجْرِمِينَ الَّذِينَ لَا يُطْمَأَنُّ لَهُمْ، وَلَا يُوثَقُ بِهِمْ. وكم من إنسان أساء الظَّنَّ بِالْآخَرِينَ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بُطْلَانُ ظَنِّهِ !

كَذَلِكَ فَإِنَّ الزَّمَانَ يُؤَثِّرُ فِي إِحْسَانِ الظَّنِّ بِالنَّاسِ أَوْ إِسَاءَتِهِ بِهِمْ فَالزَّمَانُ الَّذِي يَنْتَشِرُ فِيهِ الْعَدْلُ، وَتُسْتَقِيمُ فِيهِ تَصَرُّفَاتُ النَّاسِ - بِمَا فِيهِمُ الْحُكَّامُ - فَالْمَعُولُ عَلَى حَسَنِ الظَّنِّ بِهِمْ، مَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عِلْمٌ يَقِينٌ بِسُوءِ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ الَّذِي يَقُومُونَ بِهِ. أَمَّا إِذَا كَانَ الزَّمَانُ زَمَانُ جَوْرٍ، وَفِيهِ يَنْحَرِفُ سُلُوكُ النَّاسِ وَتَصَرُّفَاتُهُمْ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِحْتِرَاسُ مِنْهُمْ هُوَ الْحَاكِمُ، مَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عِلْمٌ بِأَنْ مَا يَقُومُونَ بِهِ خَيْرٌ^(١).

يقول الإمام الهادي (ع):

«إِذَا كَانَ زَمَانٌ: الْعَدْلُ فِيهِ أَغْلَبُ مِنَ الْجَوْرِ، فَحَرَامٌ أَنْ يُظَنَّ بِأَحَدٍ سُوءًا حَتَّى يُعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ زَمَانٌ: الْجَوْرُ أَغْلَبُ فِيهِ مِنَ الْعَدْلِ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُظَنَّ بِأَحَدٍ خَيْرًا مَا لَمْ يُعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ»

ويقول الإمام الصادق (ع):

«إِذَا كَانَ الزَّمَانُ زَمَانُ جَوْرٍ، وَأَهْلُهُ أَهْلُ غَدْرٍ، فَالطُّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ»

ومع الأخذ بعين الاعتبار، الموارد التي يجدر بالمرء فيها أن يستعمل الحزم والاحتِرَاسَ، يَبْقَى حَسَنُ الظَّنِّ هُوَ الْخُلُقُ الْمَطْلُوبُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ.

إِنْ حَسَنَ الظَّنُّ بِالنَّاسِ مِنْ لَوَازِمِ قُوَّةِ النَّفْسِ وَثَبَاتِهَا، وَفَوَائِدِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَحْصَى، وَهُوَ خُلُقٌ مَحْمُودٌ، وَمَمْدُوحٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ، وَضَرُورِيٌّ فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ.

١. يجب أن لا يفهم من هذا أنَّ ما كان أصله خيراً وحسناً وفضيلةً ينقلب شراً ورتيلةً، فَحُسْنُ الظَّنِّ حَسَنٌ وَسَيَبْقَى كَذَلِكَ إِلَى الْأَبَدِ، وَسُوءُ الظَّنِّ غَيْرُ الْمَوْضُوعِيٍّ فَيُفْنَى وَسَيَبْقَى كَذَلِكَ. وَوُجُودُ اسْتِثْنَاءٍ أَوْ حَالَةٍ خَاصَّةٍ بِالنَّسْبَةِ لِلزَّمَنِ لَا يَعْنِي أَنَّ الْفَضِيلَةَ فَقَدَتْ أَصْلَ الْحَسَنِ وَانْقَلَبَتْ رَذِيلَةً.

جاء في موسوعة «جَامِعُ السَّعَادَاتِ» الأخلاقية:

«وكذا لا يَظُنُّ (المؤمن) السُّوءَ وَالشَّرَّ بِالْمُسْلِمِينَ^(١١٥٩)، ولا يَحْمِلَنَّ مَالَهُ وَجْهَ صَاحِبِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ عَلَى وَجْهِ فَاسِدٍ، بل يجب أن يَحْمِلَ كُلَّ مَا يُشَاهِدُهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَصَحِّهَا، ما لم يَجِزْ بِفَسَادِهِ، وَيُكَذِّبَ وَهْمَهُ وَسَائِرَ خَوَاسِئِهِ، وفيما يذهب إليه من الْمَحَامِلِ الْفَاسِدَةِ والاحتمالات الْقَبِيحَةِ الْمُحَرَّمَةِ، وَيُكَلِّفَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً لَهُ، فترتفع عنه مَلَكَةُ سُوءِ الظَّنِّ بِالْكَلِيَّةِ. نعم، الحمل على الوجه الصَّحِيح على تقدير عدم مطابقتها للواقع، لو كان باعثاً لضررٍ مَالِيٍّ أو فساد دينيٍّ أو عِرْضِيٍّ لَزِمَ فِيهِ الْحَزْمُ والاحتياط، وعدم تعليق أموره الدُّنْيَا عَلَيْهِ، لئلاَّ يَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْخُسْرَانُ والأضرار، وتَلَزُمُ الْقُضِيحَةُ وَالْعَارُ»^(١٢).

وحسن الظَّنِّ بِالنَّاسِ مِنْ أَفْضَلِ الْوَرَعِ، وهو مِنْ أَفْضَلِ السَّجَايَا وَالطَّبَاعِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ تَكُونَ مَلَكَةً فِيهِ، وَفِي تَعَامُلِهِ مَعَهُمْ، وَبِهِ يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِالسَّعَادَةِ وَالْوَثَامِ وَرَاحَةِ الْقَلْبِ، وَخَفَةِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَبِهِ يَنْجُو مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْآثَامِ، وَيُحْرِزُ السَّلَامَةَ فِي الدِّينِ. أما سوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ فَمَا حَصِيلَتُهُ إِلَّا الشَّقَاءُ وَتَعَبُ الْقَلْبِ، وَثِقَلُ الْهَمِّ، وَالْوُقُوعُ فِي الْآثَامِ، وَالْإِضْرَارُ بِالدِّينِ.

كَمَا أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ مُوجِبٌ لِإِقْبَالِ النَّاسِ وَحُبِّهِمْ. فَمِنْ طَبِيعَةِ النَّاسِ أَنَّهُمْ يُقْبِلُونَ عَلَى مَنْ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِهِمْ، وَيُحِبُّونَهُ، وَيُدِيرُونَ عَمَّنْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِهِمْ، وَيَكْرَهُونَهُ. وَحُسْنُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ فِي اتِّخَاذِ الْأَصْدِقَاءِ، وَالْحِفَاظَةِ عَلَيْهِمْ، فَحُسْنُ الظَّنِّ فِي الصَّدَاقَةِ يَشْبَهُ حَاجَةَ النَّبْتِ إِلَى التُّرْبَةِ الصَّالِحَةِ وَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ.

إِنَّ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ إِلَى مَرَحَلَةٍ يَجِدُ نَفْسَهُ فِيهَا أَنَّهُ لَا يَأْلُفُ أَحَدًا، وَلَا يُؤَلَّفُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا يَتَّقِي بِأَحَدٍ، وَيَكُونُ مَثْلُهُ مَثَلُ الشَّاةِ الشَّارِدَةِ الَّتِي كُلَّمَا أَرْجَعَهَا الرَّاعِي إِلَى الْقَطِيعِ، انْفَرَدَتْ بِنَفْسِهَا مُسْتَوْحِشَةً نَافِرَةً.

١. كما واجب الإنسان أن يحسن الظَّنَّ بِالْمُسْلِمِينَ وَالنَّاسِ الْجَدِيرِينَ بِحُسْنِ الظَّنِّ، عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِخَالِفِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَمِنْ أَكْبَرِ الْآثَامِ إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢. محمد مهدي الرَّاغِي: ج ١، ص ٣٢١.

وعن سوء الظَّنِّ يقول الشَّيْخُ النَّزَّاقِي:

«ولا ريب في أَنَّ مَنْ حَكَمَ بظَنِّهِ على غيره بِشَرٍّ، بَعَثَهُ الشَّيْطَانُ على أَنْ يَغْتَابَهُ أو يتوانى في تعظيمه وإكرامه، أو يُقَصِّرَ فيما يلزمه من القيام بحقوقه، أو ينظر إليه بعين الاحتقار، ويرى نفسه خيراً منه، وكلُّ ذلك مِنَ الْمُهْلِكَاتِ.

«على أَنَّ سَوْءَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ من لوازم الباطنِ وقذارته، كما أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ من علائم سلامة القلب وطهارته. فكلُّ من يُسِيءُ الظَّنَّ بِالنَّاسِ ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النَّفْسِ سقيمُ الفُؤَادِ، فالْمُؤْمِنُ يُظْهِرُ محاسن أخيه، والمنافق يطلب مساوئه، وكلُّ إناءٍ يترشَّحُ بما فيه.

«وَالسُّرُّ في حَبَاثَةِ سَوْءِ الظَّنِّ وتحريمه وصدوره عن حُبِّ الضَّمِيرِ وإغواء الشَّيْطَانِ: أَنَّ أسرار القلوب لا يعلمها إِلَّا عَلَامُ الْغُيُوبِ، فليس لأحد أن يعتقد في حقِّ غيره سُوءاً إِلَّا إذا انكشف له بَعْيَانٍ لا يقبل التَّأْوِيلَ، إذ حينئذٍ لا يُمكنه إِلَّا أن يعتقد ما شاهده وعلمه، وَأَمَّا ما لم يُشَاهِدْهُ ولم يعلمه ولم يسمعه وإمَّا وقع في قلبه، فالشَّيْطَانُ أَلْقَاهُ إِلَيْهِ، فينبغي أن يكذِّبَهُ لَأَنَّهُ أَفْسَقَ الْفَسَقَةِ، وقد قال الله: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ) (١١٦).

«فلا يجوز تصديق اللَّعِينِ في نَبَأِهِ، وإنَّ حُفَّ بِقَرَائِنِ الْفَسَادِ، ما احتمل التَّأْوِيلَ والخلاف، فلو رأيت عالماً في بيت أمير ظالم، لا تظنُّنَّ أَنَّ الْبَاعِثَ طَلِبَ الْحُطَامِ الْمُحَرَّمَةِ، لاحتمال كون الباعثِ إغاثة مظلوم. ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم، فلا تجزِمَْنَّ بِشَرِّ الخمر ووجوب الحَدِّ، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجَّه وما شربه، أو شربه إكراهاً وقهراً. فلا يُستَبَاحُ سوء الظَّنِّ إِلَّا بما يُستَبَاحُ به المال، وهو صريحُ المُشَاهَدَةِ، أو قيامُ بَيِّنَةٍ فَاضِلَةٍ.

«ولو أخبرك عَدُوٌّ واحدٌ بسوء من مسلم، وجب عليك أن تتوقَّفَ في إخباره من غير تصديق ولا تكذيب، إذ لو كذَّبْتَهُ لَكُنْتَ خَائِئاً على هذا العدل، إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضاً من سوء الظَّنِّ، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرَّقَ لأجله التَّهْمَةُ، فَتُرَدُّ شهادته. ولو صدَّقْتَهُ لَكُنْتَ خَائِئاً على

المسلم المُخْبَرُ عَنْهُ، إِذْ ظَنَنْتَ بِهِ السُّوَاءَ، مَعَ اِحْتِمَالِ كَوْنِ الْعَدْلِ الْمُخْبِرِ سَاهِيًا، أَوْ التَّبَسُّسِ الْأَمْرَ عَلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي إِخْبَارِهِ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ آثَمًا فَاسِقًا. وَبِالْجُمْلَةِ: لَا يَنْبَغِي أَنْ تَحْسَنَ الظَّنَّ بِالوَاحِدِ وَتُسَيِّءَ بِالْآخَرِ، فَتَذْكُرَ الْمَذْكُورَ حَالَهُ عَلَى مَا كَانَ فِي السُّتْرِ وَالْحِجَابِ، إِذْ لَمْ يَنْكَشِفْ لَكَ حَالُهُ بِأَحَدِ الْقَوَاطِعِ، وَلَا بِحُجَّةٍ شَرِيعَةٍ يَجِبُ قَبُولُهَا، وَتَحْمِلَ خَيْرَ الْعَادِلِ عَلَى إِمْكَانِ تَطَرُّقِ شَبْهَةِ مَجُوزَةٍ لِلْإِخْبَارِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ.

«ثُمَّ الْمُرَادُ بِسُوءِ الظَّنِّ هُوَ عَقْدُ الْقَلْبِ وَمِيلُ النَّفْسِ دُونَ مَجْرَدِ الْخَوَاطِرِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ، بَلِ الشُّكُّ أَيْضًا، إِذِ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ فِي الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ إِمَّا هُوَ أَنْ يُظَنَّ، وَالظَّنُّ هُوَ الطَّرْفُ الرَّاجِحُ الْمُوجِبُ لِمِيلِ النَّفْسِ إِلَيْهِ. وَالْأُمَارَاتُ الَّتِي يَمْتَنَزُ بِهَا الْعَقْدُ عَنْ مَجْرَدِ الْخَوَاطِرِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ، هُوَ أَنْ يَتَغَيَّرَ الْقَلْبُ مِنْهُ عَمَّا كَانَ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ إِلَى الْكَرَاهِيَّةِ وَالتُّفَرَةِ، وَالْجَوَارِحُ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ فِي الْمَعَاشِرَاتِ إِلَى خِلَافِهَا. وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ مَا ذُكِرَ، قَوْلُهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): «ثَلَاثٌ فِي الْمُؤْمِنِ لَا تُسْتَحْسَنُ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ، فَمَخْرَجُهُ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ أَلَّا يُحَقِّقَهُ»، أَيْ يُحَقِّقَ فِي نَفْسِهِ بِعَقْدٍ وَلَا فِعْلٍ، لَا فِي الْقَلْبِ وَلَا فِي الْجَوَارِحِ»^(١).

يقول الإمام علي (ع):

«شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَثِقُ بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ، وَلَا يَثِقُ بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ ظَنِّهِ»^(٢).

فَالَّذِي يَغْلِبُ عَلَيْهِ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ، وَلَا يَثِقُ بِهِمْ، سَيَجِدُ أَنَّ النَّاسَ فِي الطَّرْفِ الْمَقَابِلِ لَنْ تَثِقَ بِهِ، لِأَنَّ الثِّقَةَ عَمَلِيَّةٌ مُتَبَادِلَةٌ.

وَمِنْ أَقْبَحِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِالْأُمَمَاءِ الَّذِينَ لَا يَخُونُونَ، وَبِالْمُحْسِنِينَ، وَالْأَخْيَارِ، وَالْأَبْرَارِ، وَالْأَتْقِيَاءِ، وَالصَّالِحِينَ. فَالْمَرءُ السَّيِّئُ وَالشَّرِيرُ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي لَا يَظُنُّ بِالنَّاسِ خَيْرًا، لِأَنَّهُ لَا يَرَاهُمْ إِلَّا مِنْ خِلَالِ طَبْعِهِ السَّيِّئِ وَالشَّرِيرِ.

وَهَكَذَا فَلَيْكِي يُحْسِنِ الْمَرءُ مَعَامِلَةَ النَّاسِ، وَيَكْسِبُ مَحَبَّتَهُمْ، عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْخُلُقِيَّةِ

١. المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٦-٣١٨.

٢. نهج البلاغة.

الفاضلة: «حُسْنُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ». أن يحسن الظَّنَّ بهم في كُلِّ المعاملات والأقوال والأفعال، ما لم يحصل له يقينٌ بسوء أقوالهم وأفعالهم، مع الأخذ بعين الاعتبار، الاحتراس ممن يُخشى ضرره.

❖ الأمانة وأداء الأمانة

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا. . .)^(١). الآية

وقال سبحانه:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)^(٢).

وقال الإمام عليّ (ع):

«أفضل الإيمان الأمانة، أفضج الخلق الخيانة»^(٣).

وقال (ع) أيضاً:

«أدوا الأمانة ولو إلى قتلّة أولاد الأنبياء»^(٤).

وقال (ع):

«أقسم لسمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول لي قبل وفاته بساعة مراراً ثلاثاً: يا أبا الحسن، أد الأمانة إلى البرّ والفاجر فيما قلّ وجلّ حتّى في الخيط والمخيط»^(٥)

١. ٥٨ / النساء.

٢. ٨ / المؤمنون.

٣. الغرر والدرر.

٤. بحار الأنوار ، ج ٧٥، ص ١١٥.

٥. مستدرک وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٥٠٥.

قيل كان صديقان حميمان بلغا من الثَّقةِ المُتبادلةِ مستوىً لدرجة أن أحدهما أعطى الآخر مفتاح بيته. وفي ذات يومٍ حيث أزمعا على الخروج في رحلة، مرض الصَّدِيقُ الذي بيده المفتاح، وأعلم صديقه بالذَّهاب عنه. فما كان من الأخير إلَّا أن جاء إلى منزل صديقه، وفتح الباب، وما أن رأى جمال زوجة صديقه، حتَّى خانَ، وحاول إرغامها على الحرام. وكان هناك كلب رأى أنَّ هذا الشَّخص ليس زوجاً لصاحبة المنزل، فهاجمه وقتله. وحينما رجع زوجها وعرف القصة، أنشدَ مادِحاً الكَلْبَ:

ما زال يرعى ذِمَّتِي وَيَحُوطُنِي *** وَيَحْفَظُ عِرْسِي^(*) وَالْخَلِيلُ يَخُونُ
فِيَا عَجَباً لِلْخِلِّ يَهْتِكُ حُرْمَتِي! *** وَيَا عَجَباً لِلْكَلبِ كَيْفَ يَصُونُ؟!

كيف تصبح أجواءُ التَّعامل فيما بين النَّاسِ في ظلِّ توفر الأمانةِ ورعايتها؟ وكيف تسمي مع غياب ذلك؟

بديهةً مع وجود الأمانةِ ورعايتها وأدائها إلى أهلها، تصفو أجواء التَّعامل فيما بين النَّاسِ، ويشيع الصُّدق والثَّقة والاعتماد فيما بينهم، ويصبح الأفراد كحبيبات الرَّمْل المنسجمة مع بعضها البعض. وخلاف هذا يحدث مع غياب الأمانةِ، يبيتُ الوضع أشبه بمجتمع الغاب، حيث اللاتُّقة واللاطمئنان، وحيث البقاء للأقوى. بل إنَّ من الحيوانات من ترعى الأمانةَ بالقَدَرِ المتأتَّى لها. ألا يرى أحدنا أنَّ الكلب إذا قُلِدَ حراسة موقع من المواقع، يكون راعياً لهذه الأمانةِ التي قُلِدَها ووفياً في ذلك؟

وإذا كان هذا شأن الكلاب، أفليسَ بنو البشر - وهم أصحاب العقول والمُكرَّمون على كلِّ الخلق - أولى بالأمانةِ ورعايتها؟

لا شكَّ في ذلك أبداً، فالبشر مسؤولون عن تصرُّفاتهم، بخلاف البهائم. ومن هنا

*١. عرسي: زوجتي.

فهم مطالبون بأن يجعلوا من أنفسهم أمناً غير خائنين، ومواقع ثقة واعتماد. إِنَّ الأمانةَ ورعايتها وأداءها، هي جزء من جوهر الإيمان، وهي «أفضل الإيمان» ولا إيمان من دون أمانة. كما أَنَّ الخيانة هي أقبح خُلُقٍ يعيش به المرء في النَّاس. وهل أقبح من أن يُؤْتَمَنَ المرء على أمرٍ فيُخُونُ؟! يقول الرَّسُولُ الأعظم (ص): «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له»^(١).

ولكي يكون المرء أميناً في معاملة النَّاس، لا بُدَّ أن يكون صادقاً معهم، ومَحَلَّ ثقة واطمئنان واعتماد من قبلهم، ولا بُدَّ أن يُوَدِّيَ ما يُؤْتَمَنُ عليه من جانبهم، فالقاعدة العقلانيَّة تقول: «على اليَدِ ما أَخَذْتُ حَتَّى تُؤَدِّيَ». أي أَنَّ كُلَّ شخص أو جهةٍ تأخذ شيئاً من شخصٍ أو جهةٍ أخرى، هي مسؤولة عن إرجاع ذلك الشَّيْء إلى صاحبه، وإرجاعه ترتفع مسؤولية المُؤْتَمَن. بل إِنَّ الأمانة لا تنحصر في الماديَّات، ففي المعنويَّات واجب المرء أن يلتزم الأمانة فيها، ومثال المعنويَّات: أن يُؤْتَمَنَ على سرٍّ، فواجبه أن يحفظه، ولا يخون صاحبه بإفشائه.

يقول الإمام علي (ع) في الشُّعْر المنسوب إليه:

أَدُّ الْأَمَانَةَ، وَالْخِيَانَةَ فَاجْتَنِبْ *** وَاعْدِلْ وَلَا تَظْلِمَ، يَطِيبُ الْمَكْسَبُ^(٢).

إِنَّ الأمانة تقوم على العدالة، وحيث أَنَّ العدالة هي من أهمِّ الأسس في معاملة النَّاس، وَأَنَّهَا إعطاء كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ، فَإِنَّ من مصاديق العدالة رعاية الأمانة وأداءها، لأنَّها حَقٌّ للغير يجب أن يُحْفَظ، أو أن يُرْجَعَ إليه متى أراد. ولا فرق في أداء الأمانة بين أن يكون الشَّخص المُؤْتَمَنَ بَرًّا أو فَاجِرًا، فأداؤها واجب، إلى البَرِّ والفاجر والأبيض والأسود على حدٍّ سواء.

يقول الإمام الصَّادق (ع):

«إِنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وَقَاتَلَهُ لَوْ ائْتَمَنِي، وَاسْتَنْصَحَنِي، وَاسْتَشَارَنِي، ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ لِأَدَيْتُ إِلَيْهِ الْأَمَانَةَ»^(٣).

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٩٨.

٢. ديوان الإمام علي.

٣. تنبيه الخواطر، ص ١٠.

ومن خلاف الأخلاق الحسنة في معاملة النَّاس تحقير الأمانة واعتبارها شيئاً صغيراً، سواء كانت غالية الثَّمَن أو زهيدة. وهناك من النَّاس من إذا ائتمن على شيءٍ رخيص، حَقَّرَه وأبقاه عنده، أو استهلكه دون إرجاعه إلى صاحبه. والأقبح من ذلك أنَّ منهم من إذا ائتمن على شيءٍ قِيِّمٍ، حَقَّرَه أيضاً وأبقاه عنده واستهلكه.

يقول الرَّسول الأعظم (ص):

«لَيْسَ مِنَّا مَنْ يَحَقِّرُ الْأَمَانَةَ حَتَّى يَسْتَهْلِكَهَا»^(١).

وكما واجب المرء أن يؤدِّي الأمانة إلى أهلها، برّاً كان أو فاجراً، عليه أن لا يَأْمَن ولا يَأْتَمَن غير الأئمَّاء، والخائنين، لأن في ائتمانهم وضعاً للشَّيء في غير موضعه، وتضييعاً للأمانات. ومن المنهْي عن ائتمانهم:

- غَيْرُ الْأَمَّاءِ.

- الْخَائِنُونَ.

- الْكَذَّابُونَ.

- الْمَلُولُونَ.

- الْمَضِيعُونَ.

- شَارِبُو الْخَمْرِ.

- الْفُجَّارُ.

وحيث أنَّ من الأخلاق الحسنة في معاملة النَّاس أداء الأمانة إلى أصحابها، فإنَّ من خلاف الأخلاق مقابلة الخيانة بالخيانة:

يقول الإمام علي (ع):

«لَا تَخُنْ مَنْ ائْتَمَّنَكَ وَإِنْ خَانَكَ، وَلَا تُدْعِ سِرَّهُ وَإِنْ أَدَاعَ سِرَّكَ»^(٢).

١. بحار الانوار ج ٧٥، ص ١٧٢.

٢. نهج البلاغة.

وللتزام الأمانة في معاملة الناس آثار كثيرة تتجلى في المرء الأمين منها:

- الصدق، سواء في الأقوال والأفعال.
- الوفاء.
- السلامة في الدنيا والآخرة.
- جَرُّ الرِّزْقِ.
- الغنى.

وهكذا فليكني المرء معاملة الناس، ويكسب محبتهم، واجبه أن يتخلق بالأمانة، وأن يرعاهما، ويؤدّيها إلى أهلها ومستحقّها برّاً كان أو فاجراً.

❖ الْوَفَاءُ لِلنَّاسِ بِالْوَعْدِ وَالْعَهْدِ

قال الإمام عليّ (ع):

«أَشْرَفُ الْخَلَائِقِ الْوَفَاءُ»^(١).

وقال (ع) أيضاً:

«ما باتَ لرجُلٍ عندي موعدٌ قطُّ فباتَ يتملّمُ على فراشه ليغدو بالظفرِ بحاجّته، أشدَّ من تململي على فراشي حرصاً على الخروجِ إليه من دَيْنِ عِدَّتِهِ، وخَوْفاً من عَائِقٍ يُوجِبُ الخُلْفَ، فإنَّ خُلْفَ الوَعْدِ ليسَ من أخلاقِ الكِرَامِ»^(٢).

وقال (ع):

«لا تَعِدَنَّ عِدَّةً لا تَتَّقِي من نَفْسِكَ بِإِنْجَازِهَا»^(٣).

وقال تعالى:

(وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا...)^(٤).

١. الغرر والدرر.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

٤. ١٧٧ / البقرة.

وقال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . . .)^(١).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«المُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ مَا وَافَقَ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ»^(٢).

من أشرف الأخلاقيات في معاملة الناس: الوفاء. ورُبَّ سائلٍ يسأل: ما الوفاء؟

الوفاء: هو المحافظة، والإتمام، والإكمال والإنجاز. وفي بالوعدِ أو العهد: أتمه أو حافظ عليه. والوفاء عنوان صدق الإنسان وأمانته ونبله، ودليل سلامة ضميره ووجدانه وعقله، فالمرء الذي يتمتع بالصدق والأمانة وسلامة الضمير، يكون وفيًّا في تعامله مع الناس. كلُّنا قد سمع شخصاً يمدح آخر بأنَّه وفيٌّ، بمعنى أنَّ من شيمته المحافظة والتفُّضل والإنجاز.

والوفاء من الأخلاقيات التي تعمل على إشاعة المحبَّة والمودَّة بين الناس، فالمرء الوفيُّ محبوبٌ مودودٌ بينهم بطبيعة الحال، بخلاف غير الوفيِّ، وهذا ما هو ملموس في واقع التعامل.

وقد يسأل السائل:

هل الناس كلُّهم جديرون بالوفاء لهم؟

لا شكَّ أنَّ المؤمنين وعموم الناس الطَّيِّبين هم جديرون بالوفاء لهم، بل حتى الفُجَّار، إنْ واعدهم المرء أو عاهدهم على حقٍّ، ينبغي له أن يكون وفيًّا. أمَّا أهل الغدر فقد ينقلب الوفاء لهم إلى غدرٍ عند الله تعالى.

يقول الإمام الصادق (ع):

١٠٠١ / المائدة.

٢. كنز العمال، خ ١٠٩١٨.

«ثَلَاثَةٌ لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِيهَا: أَدَاءُ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْوَفَاءُ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ بَرِّينَ كَانَا أَوْ فَاجِرِينَ»^(١).

ويقول الإمام علي (ع):

«الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ»^(٢).

ومن الوفاء: الوفاء بالوعد. فالمرء في علاقته الاجتماعية بالناس، وفي معاملته إِيَّاهُمْ - بحكم الحاجة أو المنفعة المتبادلة - هو بحاجة إلى إبرام وعود معهم، وهذه الوعود جدية بأن يُوفَّى بها، شريطة أن لا تحلَّ حراماً ولا تحرِّمَ حلالاً.

ومن القصص المنقولة عن وفاء الرُّسُولِ الأعظم (ص) بوعوده: أَنَّ رجلاً يُقال له أَبُو الْحَمِيسَاءِ بايعه ببيع - قبل أن يُبْعَثَ بِالرَّسَالَةِ - فَبَقِيََتْ لَهُ (ص) بَقِيَّةٌ، ووَعَدَهُ أَبُو الْحَمِيسَاءِ أَنْ يَأْتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ. إِلَّا أَنَّ الَّذِي حَدَثَ هُوَ أَنَّ الْوَاعِدَ (أَبَا الْحَمِيسَاءِ) نَسِيَ الْوَعْدَ، ثُمَّ ذَكَرَهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَجَاءَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَعَدَ فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ (ص) فَوَجَدَهُ مُنْتَظِراً لَهُ، وَقَالَ (ص): «يَا فَتَى، لَقَدْ شَقَّقْتَ عَآيِي، أَنَا هَهُنَا مِنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ»^(٣).

إِنَّ الْوَعْدَ دَيْنٌ عَلَى الْمَرْءِ، وَمَنْ شَأْنُ الدَّيْنِ أَنْ يُقْضَى إِلَى صَاحِبِهِ. أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَدْنَتْ مِنْ شَخْصٍ آخَرَ مَالاً؟، إِنَّكَ مُطَالِبٌ بِقِضَائِهِ، وَهَكَذَا الْحَالُ بِالنَّسْبَةِ لِلْوَعْدِ.

يقول الإمام الرِّضَا (ع):

«إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ نَرَى مَا وَعَدْنَا دَيْنًا كَمَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)»^(٤).

ومن هنا فليس مِنَ الصَّحِيحِ مَعَ الْوَعْدِ عَلَى أَنَّهُ كَلِمَاتٌ تُنْطَقُ حِينَ التَّوَاعِدِ، وَسُرْعَانِ مَا تَتَجَهَّرُ بَعْدَ ذَلِكَ. وَمِمَّا يُؤَسَفُ لَهُ أَنَّ مِنَ النَّاسِ - فِي مَعَامَلَةِ النَّاسِ

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٩٢.

٢. نهج البلاغة، الحكم.

٣. ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٣٢، بتصرف في العبارة.

٤. مشكاة الأنوار، ج ٧٨، ص ٣٣٩.

– من لا يعطي للوعد والوفاء بها أهميَّة تذكر، وهذا خلاف الأخلاق الكريمة، وخلاف حسن التَّعامل، وهو أمر لا يُرضي الله – سبحانه وتعالى – لَأنَّه شرٌّ وتعرُّضٌ لمقت الله ومقت النَّاسِ.

يقول الرُّسول الأعظم (ص):

«الْعِدَّةُ^(١) دَيْنٌ، وَيُلِّ مَنْ وَعَدَ ثُمَّ أَخْلَفَ، وَيُلِّ مَنْ وَعَدَ ثُمَّ أَخْلَفَ»^(٢).

وعن احترام الوعد وأهميته، رُوي أنَّ رسول الله (ص) وعد رجلاً عند صخرة، وقال له (ص) بما مضمونه: سأنتظرك هنا حتَّى تأتي. ثُمَّ إِنَّ حرارة الشَّمس اشتدَّت على الرُّسول، فقال له بعض أصحابه بما معناه: لو أنَّك انتقلتَ إلى الظِّلِّ تفادياً لحرارة الشَّمس، فقال (ص): «وعدُّته إلى هاهنا وإن لم يجرى كان منه المحشر»^(٣).

إِنَّ الوفاء بالوعد خُلُقٌ حسن، به تَخَلَّقُ بأخلاق الله، إذ من أخلاقه – جلَّ وعلا – صدقُ الوعد، وبه يُقدَّرُ الشَّخصُ الآخر ويُحترم، ويُصان وقته. فالمرء إذا وفى بوعده مع شخصٍ آخر يكون قد قدَّره وحفظ وقته وفُرَّصه. أما خُلْفُ الوعد فيُوحى بإساءة في التَّقدير والاحترام، وهو مدعاة إلى إضاعة أوقات الآخرين وفُرَّصِهِمْ، ورَبِّها أدَّى إلى إضاعة أوقات الدَّات إذا كان الوعد يترتَّب عليه عمل أو منفعة للواعد.

يقول الإمام علي (ع):

« إِذَا وَعَدْتَ فَأَنْجِزْ »^(٤).

١. العِدَّةُ: الوعد.

٢. كنز العمال ، خ ٦٨٦٥.

٣. الصِّبَاغة الجديدة ، ص ٥١٧، بتصرُّف في العبارة.

٤. الغرر والدرر، أنجز: أوفى، أنم: أكمل.

وفي صدق الوعد وإنجازه، رُوِيَ «عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام، قال: إِنَّمَا سُمِّيَ إِسْمَاعِيلُ صَادِقَ الْوَعْدِ لِأَنَّهُ وَعَدَ رَجُلًا فِي مَكَانٍ فَانْتَظَرَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ سَنَةً، فَسَمَّاهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - صَادِقَ الْوَعْدِ. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ أَتَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ: مَا زِلْتَ مُنْتَظِرًا لَكَ»^(١).

والوعد إقرار بالالتزام من قِبَلِ الواعِد، والأخير حرٌّ، ولكنَّه بالوعد والمواعدة يُقَيَّدُ حُرِّيَّتُهُ بنوع من الالتزام، وبالوفاء بالوعد يرتفع ذلك القيد. ومن هنا فإنَّ الواعد هو أشبه بالعبد الرقيق إذا وعد، وبإنجازه لوعده قد حرَّرَ نفسه وأعتقها من ذلك الرقِّ. أو إنَّه أشبه بالمريض، وبُروُّهُ من مرضه لا يتمُّ إلَّا بإنجازه لوعده.

ولكي يجعل المرء من نفسه وفاقاً بوعده مع النَّاسِ، غير مُخْلِيفٍ لَهُ مَعَهُمْ، خَلِيقٌ بِهِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِظَرْفِهِ الْمَوْضُوعِيِّ، فَلَيْسَ مِنَ الصَّحِيحِ أَنْ يَعِدَ بِدُونِ تَقْدِيرِ لَظْفِهِ، فَلَرَبَّمَا كَانَ الظَّرْفُ لَا يَسْمَحُ لَهُ بِإِنْجَازِ الْوَعْدِ. وَمِنْ هُنَا فَالْجَدِيرُ بِالْمَرْءِ أَنْ لَا يَعِدَ وَعْدًا لَا يَثِقُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِتْمَامِهِ وَإِنْجَازِهِ، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِاسْتَطَاعَتِهِ الْوَفَاءَ بِهِ.

يقول الإمام علي (ع):

«لَا تَعْدَنَّ أَحَاكَ وَعْدًا لَا تَثِقُ مِنْ نَفْسِكَ بِإِنْجَازِهَا»^(٢).

ويقول الإمام الصادق (ع):

«لَا تَعْدَنَّ أَحَاكَ وَعْدًا لَيْسَ فِي يَدِكَ وَفَاؤُهُ»^(٣).

نعم، قد يعد الإنسان معتمداً على أنَّ ظرفه يُمكنه من الوفاء بوعده، ثُمَّ أَنَّ ظَرْفًا طَارِئًا يُعْرِضُ لَهُ لِيَجْعَلَ مِنَ الْوَفَاءِ بوعده أَمْرًا صَعْبًا أَوْ مُسْتَحِيلًا، وَهَذَا يَكُونُ مُعْذَرًا لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ خُلْفَ الْوَعْدِ، وَأَنَّ مَا حَدَثَ مِنْ ظَرْفٍ خَاصٍ هُوَ خَارِجٌ عَنْ نِطاقِ

١. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٥.

٢. الغرر والدرر.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٥٠.

إرادته، وإن كان بإمكان الواعد - إذا كان ذلك متيسراً - أن يعتذر للموعد، بأنه غير قادر على إنجاز الوعد، ويلتمس التأجيل. ومن احترام الوعود والموعديين: إخبار الشخص الموعد بعدم القدرة على إنجاز الوعد، والتماس التأجيل.

وعن القصة في الوفاء وعدمه، تتطرق الأحاديث الشريفة، إلى أن المرء إذا واعد أخاه على أمر، وكان قاصداً الوفاء له بالوعد، ولكنه لم يَفِ بوعد، ولم يأت للموعد، فلا يكون مأثوماً. وأنَّ خُلْفَ الوعد أن يَعِدَ المرء ومن قصده أن لا يفي بوعد. ولا يعني هذا أن يتسبب المرء في وعوده مع الناس، بل ينبغي عليه أن يحترم الوعود معهم.

يقول الرسول الأعظم (ص):

«إذا وعد الرجل أخاه ومن نيته أن يفي له، فلم يَفِ، ولم يجيء للميعاد فلا إنَّمِ عَلَيْهِ»^(١).

ويقول (ص) أيضاً:

«ليس الخُلْفُ أن يَعِدَ الرجلُ ومن نيته أن يفي، ولكنَّ الخُلْفُ أن يَعِدَ الرجلُ ومن نيته أن لا يفي»^(٢).

وبناءً عليه، فخُلْفَ الوعد مع عدم نيّة الوفاء به، مصداق لقول ما لا يفعل، فالمرء حينما يعد ولا يفي، يكون قد قال شيئاً ولم يفعله، وهذا موجب لمقت الله ومقت الناس.

جاء في كتاب الإمام عليّ (ع) لمالك الأشتر ممّا ولّاه على مصر:

«وإِيَّاكَ والمنَّ على رعيّتك بإحسانك، أو التزيّد فيما كان من فعلك، أو أن تعدّهم فتشبع موعداً بخلفك، فإنَّ المنَّ يُبطل الإحسان، والتزيّد يذهب بنور الحقِّ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، وقال الله تعالى: (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)^(٣)».

١. كنز العمال ، خ ٦٨٦٩.

٢. المصدر السابق، ٦٨٧١.

٣. نهج البلاغة، رسالة ٥٣، التزيّد: الزيادة على الحقيقة. أو تكلف الزيادة في الشيء.

والوفاء بالوعد مطلوب في معاملة الكبير والصَّغير، فينبغي للمرء أن لا يُخلف وعده مع الصَّغار - كما مع الكبار - وأن يفي به لهم، لأنَّهم يستحقون الوفاء لهم لصَّغرهم، مع العلم بأنَّ تعويد الصَّغار على إخلاف الوعد من جانب آبائهم وأمهاتهم، يجعلهم غير أوفياء بالوعود والعهود حينما يكبروا.

يقول الإمام الكاظم (ع):

«إِذَا وَعَدْتُمْ الصَّغَارَ فَأَوْفُوا لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَرْزُقُونَهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَغْضَبُ لشيءٍ كغضبة للنِّسَاءِ والصِّبْيَانِ»^(١).

وكما ينبغي للمرء أن يفي بوعوده مع إخوانه والنَّاس، واجبه أن يفي بالعهود والمواثيق معهم، لأنَّ العهد قلادة تطوَّقُ عنق الإنسان، ولا فِكاك من هذه القلادة إلَّا بالوفاء بها. ولا يظنُّ المرء أنَّه بعدم إيفائه بعهده سينتهي كلُّ شيء، بل إنَّه تترتب أمور غير محمودة على عدم وفائه بعهده مع النَّاس. ولا شكَّ أنَّ العلاقة الإنسانيَّة - وربَّما المصلحة الإنسانيَّة - تتضرَّر بنقض العهود وعدم احترامها والوفاء بها.

في قوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا...) قال الإمام الباقر (ع):

«التي نقضت غزلها امرأة من بني تيم بن مُرَّة يُقال لها رِبْطَة (أو رِبْطَة) بنت كعب بن سعد بن تيم بن لؤي بن غالب، كانت حمقاء تغزل الشَّعر، فإذا غزلته نقضته ثمَّ عادت فغزلته، فقال الله: (كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا...) إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَمَرَ بالوفاء، ونَهَى عن نقض العهد، ف ضرب لهم مثلاً»^(٢).

والوفاء للنَّاس بالعهد واجب على الإنسان، سواء كان الطَّرْفُ المُعَاهَد بَرًّا أو فاجرًا، خَيْرًا أو شَرِّيرًا، مسلمًا أو كافرًا.

١. بحار الانوار، ج ١٠٤، ص ٧٣.

٢. تفسير علي بن إبراهيم، ج ١، ص ٣٨٩.

يقول الإمام الباقر (ع):

«ثَلَاثٌ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِأَحَدٍ فِيهِنَّ رُخْصَةً... والوفاء بالعهد للبرِّ وللفاجر...»^(١).

ومن القصص التي ينقلها التَّاريخ عن الوفاء بالعهد ووجوبه مع المسلم أو الكافر، القصص التَّالية:

«خرج فضيل بن زيد الرُّقاشي مع جنوده لمحاصرة قلعة تسمَّى بـ (سهرabaj) في أيام عبد الله بن عامر بن كريز، وقد سار إلى فارس فافتتحها، وكان الجيش صَمَمَ على أن يفتح القلعة في يوم واحد. يقول فضيل في ذلك: كُنَّا قد ضَمِنَّا أن نفتحها في يومنا، وقاتلنا أهلها ذات يوم، فرجعنا إلى معسكرنا، وتخلَّف عبدٌ مملوكٌ مِنَّا، فراطنوه، فكتب لهم أماناً ورمى به في سهم، قال: فرُحْنَا إلى القتال وقد خرجوا من حصنهم، وقالوا: هذا أمانُكم.

«لم يكن إعطاء الأمان من مسلم إلى الكفَّار بالأمر المستبعد في نظر الجيش، ولكنهم شكُّوا في كون الأمان صادر من العبد كالأمان الصادر من الحرِّ. فكتبنا بذلك إلى عمر (بن الخطَّاب)، فكتب إلينا: أنَّ العبد المسلم من المسلمين ذمَّته (عهده) كذمَّتكم، فليُنفذ أمانه ... فأنفذناه».

وهكذا فإنَّ الوفاء بالعهد واجب في الإسلام، سواء في الحرب أو السُّلم، كان العهد مع مسلم أو كافر.

وإذ أنَّ الوفاء بالعهد في معاملة النَّاس أمر واجب، فهل يجب الوفاء به أيَّاً كان، وكيفما كان؟

كلَّا! بطبيعة الحال، فللعهد كَيْفِيَّةٌ معيَّنة لكي يكون الوفاء به واجباً، وحدود

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٥٦.

تلك الكيفيَّة أن يكون العهد موافقاً للحقِّ وأن يكون في إطار الحلال، وأن لا يُحلَّ حراماً ولا يُحرِّم حلالاً. ومن هنا ففي معاملة النَّاس لا يجوز الوفاء بالعهود الخارجة عن هذه الحدود، إذ الوفاء بالعهود الخارجة عن هذه الحدود هو خلاف ما شرَّع الله، وخلاف الأخلاق الحسنة.

ومن العهود التي يجب على المرء المسلم الوفاء بها، العقود^(١) المشروعة التي يتعامل بها مع غيره من النَّاس، مثل: البيع، والإجازة، الزواج، والقرض، والمزارعة، والمساقاة، والضَّمان، والحوالة، والرَّهن، والوصيَّة، والشَّرْكة، والوديعة، والعاريَّة، و...، ويدخل ضمنها الشُّروط التي يشترطها المرء لنفسه، والشُّروط التي يشترطها الطَّرَف الآخر للعقد، فهذه الشُّروط يجب الوفاء بها، إذ «المسلمون على شروطهم إلَّا شرطاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً»، بمعنى أنَّ المرء مسؤول عن أداء أو التزام الشرط المُشترط عليه، والشرط الذي يشترطه على نفسه في أي عقد مشروع، شريطة أن لا يكون الشرط مُحلَّاً لحرام، أو محرَّماً لحلال.

وعن الوفاء بالعقود (العُهود) كتب السيِّدُ محمد حسين الطباطبائي (ره) في تفسيره: (الميزان في تفسير القرآن):

«يدلُّ الكتاب كما ترى من ظاهر قوله تعالى: (أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) على الأمر بالوفاء بالعقود، وهو بظاهره عامٌّ، يشمل كلَّ ما يُصدق عليه القصد عُرفاً ممَّا يلائم الوفاء. والعقد هو كلُّ فعل أو قول يمثِّل معنى العقد اللُّغوي، وهو نوع من ربط شيء بشيء آخر بحيث يلزمه ولا ينفكُّ عنه، كعقد البيع الذي هو ربط المبيع بالمشتري مُلْكَاً، بحيث كان له أن يتصرَّف فيه ما شاء، وليس للبائع بعد العقد مُلْكٌ ولا تصرُّفٌ. وكعقد النِّكاح الذي يربط المرأة بالرجل بحيث له أن يتمتع منها تمُّتع النِّكاح، وليس للمرأة أن تمتَّع غيره

١. تنقسم العقود إلى: لازمة، وغير لازمة. واللازمة على ضربين: لازمة من طرف واحد، ولازمة من طرفين. والعقد الألزم من طرف واحد هو الذي لا يجوز فيه لأحد المتعاقدين فسخ العقد، ومثاله: الرَّهن، والوصيَّة. والعقد الألزم من طرفين هو الذي لا يجوز فيه الفسخ لكل من المتعاقدين. ومثاله: البيع، والإجازة، والقرض. أمَّا العقد غير الألزم فيُدعى بالجائز أيضاً، وهو على نوعين: جائز من طرف واحد، وجائز من طرفين، والعقد الجائز من طرف واحد هو الذي يجوز فيه لأحد المتعاقدين فسخ العقد، ومثاله: الرَّهن، والوصيَّة. والعقد الجائز من طرفين هو الذي يجوز فيه لكل من المتعاقدين فسخ العقد، ومثاله: الوكالة، والمضاربة، والشَّرْكة، والعارية، للاطلاع على تفاصيل العقود تراجع الكتب الفقهية والرسائل العمليَّة: أقسام العقود.

من نفسها. وكالعهد الذي يَمُكِّن فيه العاهدُ المعهودَ له من نفسه في عهده، وليس له أن ينقضه»^(١).

«وقد أكَّد القرآن في الوفاء بالعقد والعهد بجميع معانيه، وفي جميع معانيه، وفي جميع مصاديقه، وشدَّد فيه كلَّ التَّشديد، وذَمَّ النَّافِضِينَ للمواثيق ذمًّا بالغاً وأوعدهم إيعاداً عنيفاً، ومدح الموفِّين بعهدهم إذا عاهدوا، في آيات كثيرة...»^(٢).

«وقد أرسلت الآيات القول فيه إرسالاً يَدُلُّ على أنَّ ذلك مما يناله النَّاس بعقولهم الفطريَّة، وهو كذلك. وليس ذلك إلَّا لأنَّ العهد والوفاء به ممَّا لا غنى للإنسان في حياته عنه أبداً، والفرد والمجتمع في ذلك سيَّان. وإنَّا لو تأمَّلنا الحياة الاجتماعيَّة التي للإنسان، وجدنا جميع المزايا التي نستفيد منها وجميع الحقوق الحيويَّة الاجتماعيَّة التي نطمئن إليها مبنية على أساس العقد الاجتماعيِّ العام والعقود والعهود الفرعيَّة التي تترتب عليه، فلا تَمَلُّكَ من أنفسنا للمجتمعين شيئاً، ولا تَمَلِّكَ منهم شيئاً إلَّا عن عقدٍ عمليٍّ وإن لم نأت بقول فإنَّما القول لحاجة البيان. ولو صحَّ للإنسان أن ينقض ما عقده وعهد به اختياراً لتمكُّنه منه بقوة أو سلطة أو بطش أو عُذْرٍ يعتذر به، كان أوَّل ما انتقض بنقضه هو العَدْلُ الاجتماعيُّ، وهو الرُّكن الذي يلوذ به ويأوي إليه الإنسان من أسارة الاستخدام والاستثمار»^(٣).

«ولذلك أكَّد الله - سبحانه - على حفظ العهد والوفاء به، قال تعالى:

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) (الإسراء: ٣٤)، والآية تشمل العهدَ الفرديَّ الذي يُعاهد به الفردُ الفردَ مثل غالب الآيات المادحة للوفاء بالعهد والدَّامَّة لنقضه، كما تشمل العهدَ الاجتماعيَّ الدَّائر بين قومٍ وقومٍ وأمَّةٍ وأمَّةٍ، بل الوفاء به في نظر الدِّين أهمُّ منه بالعهد الفرديَّ لأنَّ العدلَ عنده أتمُّ والبلية في نقضه أعمُّ»^(٤).

١. ج ٥، ص ١٥٨.

٢. المصدر السابق، نفس الصفحة.

٣. المصدر السابق، ص ١٥٩.

٤. المصدر السابق، نفس الصفحة.

وكتب في موضع آخر:

«وجملة الأمر أنَّ الإسلام يَرى حرمة العهد ووجوب الوفاء به على الإطلاق، سواء انتفع به العهد أو تضرَّر بعد ما أُوثق الميثاق، فإنَّ رعاية جانب العدل الاجتماعيَّ ألزم وأوجب من رعاية أيِّ نفع خاص أو شخصيٍّ، إلَّا أن ينقض أحد المتعاهدين عهده فللمتعاهد الآخر نقضه بمثل ما نقضه والاعتداء عليه بمثل ما اعتدى عليه، فإنَّ في ذلك خروجاً عن رِقِيَّة الاستخدام والاستعلاء المذمومة التي ما نهض ناهض الدِّين إلَّا لإماطتها»^(١).

«ولعمري! أنَّ ذلك أحد التَّعاليم العالية التي أتى بها دين الإسلام، لهداية النَّاس إلى رعاية الفطرة الإنسانيَّة في حكمها، والتَّحَقُّظ على العدل الاجتماعيِّ الذي لا ينتظم سلك الاجتماع الإنسانيَّ إلَّا على أساسه، وإماطة مظلمة الاستخدام والاستثمار، وقد صرَّح به الكتاب العزيز، وسار به النَّبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم) في سيرته الشَّريفة ...»^(٢).

«وإذا قايسَت بين ما جرت عليه سنَّة الإسلام من احترام العهد، وما جرت عليه سنَّة الأمم المتمدَّنة وغير المتمدَّنة، ولا سيَّما ما نسمعه ونشاهده كلَّ يوم من معاملة الأمم القويَّة مع الضَّعيفة في معاهداتهم ومعاهداتهم وحفظها لها ما درَّت لهم أو استوجبه مصالح دولتهم ونقضها ما يُسمَّى عُذْراً، وجدت الفرق بين السُّنَّتَيْنِ في رعاية الحقِّ وخدمة الحقيقة»^(٣).

«ومن الحري بالدين ذاك وبسُننهم ذلك، فإنَّما هناك منطقان: منطق القول: إنَّ الحقَّ تجب رعايته كيفما كان وفي رعايته منافع المجتمع، ومنطق يقول: إنَّ منافع الأمة تجب رعايتها بأيِّ وسيلة اتَّفقت وإن دحضت الحقَّ. وأوَّل المنطقيين منطق الدِّين، وثانيهما منطق جميع السُّنن، الاجتماعيَّة الهمجيَّة أو المتمدَّنة من السُّنن الاستبداديَّة والديمقراطيَّة والشيوعيَّة وغيرها. وقد عرفت مع ذلك أنَّ الإسلام في

١. المصدر السابق، ص ١٦٠.

٢. المصدر السابق، نفس الصفحة.

٣. المصدر السابق، ص ١٦١.

عزيمته في ذلك لا يقتصر على العهد المصطلح بل يعُمُّ حكمه إلى كلِّ ما بُنيَ عليه بناء، يوصي برعايته ...»^(١).

والآن فَلْيَكُنْ يُحَسِّنُ المرءَ معاملة النَّاسِ خَلِيقٌ به أن يفي بوعوده لهم، وواجهه ان يفي بوعوده وعقوده ومواثيقه المُحَقَّة التي أبرمها معهم، مع التَّحلي بالأخلاق الحسنة في ذلك.

❖ احْتِرَامُ قِيَمَةِ الْإِنْسَانِ

قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)^(٢).

وقال الرَّسُولُ الأعظم (ص):

«ما مِنْ شيءٍ أَكْرَمَ على اللَّهِ مِنْ ابْنِ آدَمَ»، قِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ! وَلَا الْمَلَائِكَةُ؟! قال: «المَلَائِكَةُ مَجْبُورُونَ بِمَنْزِلَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ»^(٣).

وقال الإمام الباقر (ع):

«ما خَلَقَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - خَلْقًا أَكْرَمَ على اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ مُؤْمِنٍ لَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ خُدَّامُ الْمُؤْمِنِينَ...»^(٤).

وقال الإمام عليّ (ع):

«قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ»^(٥).

١. المصدر السابق، نفس الصفحة.

٢. ٧٠ / الإسراء.

٣. كنز العمال، خ ٣٤٦٢١.

٤. بحار الانوار، ج ٦٩، ص ١٩.

٥. نهج البلاغة، الحكم.

قيل أنَّ بهلول العاقل أراد ذات مرَّة أن يدخل في وليمةٍ أقامها أحد الأشخاص، وكان بهلول يرتدي ملابس رثيَّة، فلم يسمح له أصحاب البيت بالدُّخول، فذهب إلى بيته ولبس جُبَّةً من خَزٍّ، ووضع على رأسه عمامةً ثمينة، وعاد إلى حيث الوليمة، فانزاح الحاضرون عنه، وجلس إلى السُّفرة. وحينما جاء وقت الأكل مدَّ كُمُّهُ إلى الطَّعام بدل يده، فالتفت الحاضرون، وقالوا له: أأنت مجنون؟ ما الذي تفعله؟! فقال: لقد جئت بثيابٍ رثيَّة، وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ بطني هو الذي يأكل وليست ملابسِي، فلم يسمحوا لي بالدُّخول، وعندما لبست الجُبَّة والعمامة سمحوا لي به، فعلى الجُبَّة أن تأكل!«^(١).

في معاملة النَّاس كيف يجب أن ينظر الإنسان لأخيه الإنسان؟
هل ينظر له بأنَّه مخلوق عاديٌّ كسائر المخلوقات، أم ينظر له بأنَّه مخلوق مكرَّم على سائرهما؟

هل ينظر له بأنَّه ذو قيمة صغيرة، أم ينظر له بأنَّه أغلى ما على وجه الأرض؟
بلا أدنى تردُّد - بل بديهه - أنَّ الإنسان أعظم مخلوق على وجه المعمورة وهو مكرَّم على كلِّ المخلوقات ومُفَضَّل عليها، بمنطق القرآن الكريم والسُّنة الشَّريفة ومنطق العقل. بل حتَّى الملائكة الذين هم مخلوقات رُوحِيَّة خالصة، وطاعتهم مُطلَقةٌ لله - عزَّ وجلَّ - «يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»، الإنسان أفضل منهم، لأنَّهم مجبورون على الطَّاعة، بينما الإنسان يملك مساحة من الاختيار ولأنَّهم عَقْلٌ بلا شهوةٍ، بينما الإنسان مرَّكبٌ من كليهما معاً.

جاء في الرِّوَايات عن الإمام الصَّادق (ع) أنَّه قال:

« لما أُسري برسول الله (صَلَّى الله عليه وآله) حضرت الصَّلَاةُ، فأذَّن وأقام جبرئيل، فقال: يا محمد، تقدَّم، فقال رسول الله: تقدَّم يا جبرئيل، فقال له: إِنَّا لا نتقدَّم الآدميين منذ أُمَرنا بالسُّجود لآدم عليه السَّلَام»^(٢).

١. هادي المدرسي: ألف عبرة وعبرة مخطوط...

٢. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٤٠٤.

وإذ أن الإنسان مكرَّم على سائر المخلوقات، وأفضل من الملائكة أليس جديراً في التَّعامل معه أن تُحترم قيمته، وتُصان حقوقه؟

إنَّ احترام قيمة الإنسان وكرامته هو الخُلُق الذي يجب على الإنسان أن يلتزمه في علاقته وتعامله مع أخيه الإنسان. وقد يسأل السائل: كيف يتم ذلك؟ إنَّ ذلك يتم - في المقام الأول - بالنَّظر إلى إنسانيَّة الإنسان وبشريَّته، ثم باستعمال العدالة في التَّعامل معه، وصيانة حقوقه، وممارسة الأخلاق في العلاقة به.

ومع أنَّ احترام قيمة الإنسان قائم على هذا، فالمؤلم أنَّ من النَّاس من يتعامل مع النَّاس كمراتب ودرجات ومناصب قبل أن يتعامل معهم كأناسيٍّ - أو كبشرٍ - يجب أن تُحترم قيمتهم الإنسانيَّة، بصرف النَّظر عن درجتهم أو منصبهم. وتجد أولئك يتعاملون مع الإنسان كطبيب، أو كمحاميٍّ، أو كوزيرٍ، أو كمهندسٍ، أو كمديرٍ، أو ككاتبٍ، أو كشاعرٍ، أو ... قبل أن يتعاملوا مع إنسانيَّته، وكأنَّهم يحترمون الدرجة ولا يحترمون الإنسانيَّة وقيمتها. وتجدهم أيضاً يتعاملون مع الطبَّقات الضَّعيفة في المجتمع - كالفقراء والمساكين والمحرومين - على أنَّهم أناسيٍّ من الدَّرَجَة بعد الأولى، فينظرون إليهم نظرة فوقٍ إلى دونٍ، أو نظرة كبيرٍ إلى صغيرٍ، وينسون أنَّ هؤلاء بشر محترمون قبل أن يكونوا فقراء أو مساكين أو محرومين. وهذه الطَّريقة من التَّعامل مذمومةٌ وخاطئةٌ.

كما أنَّ من احترام قيمة الإنسان: تقدير جِرفَتِه ومهنتِه ووظيفَتِه، وتجنُّب النَّظر إليها نظرة تحقير. فالمرء مهما كانت جِرفَتُه، فطالما أنَّها محقَّةٌ وخيرٌ، فهو بها يقدِّم دوراً اجتماعياً تكميلياً لا غنى عنه في عملية البناء الاجتماعيِّ، أو في العمليَّة الاجتماعيَّة بشكل عامٍّ. ولا أَقْتَلُ لروح المرء، ولا آلمَ لمشاعره كتحقير مهنته، أو اعتبارها بغير ذات أهميَّة! إنَّ من النَّاس من لا يقدِّر جِرف النَّاس ومهنتهم، وينظر لها نظرة تحقير وتصغير ويستهن بها، فهو ينظر إلى الوظائف الكبيرة أو العُلَيَّا إن صحَّ التَّعبير - محترمةً، وسواها ليست كذلك، وبناءً عليه فهو لا يرى أن ساعي البريد، وعامل البلديَّة والتنظيفات، وعامل الحفريَّات، وفرَّاش المدرسة أو المؤسَّسة، ومقدِّم القهوة والشَّاي، وسائق سيَّارة الأجرة أو الحافلة، والحدَّاد والتَّجار والخبَّاز وغيرهم يقومون بأدوار اجتماعيَّة!، ويتعامل مع أصحاب هذه

المهين والوظائف على أنهم ذوو مكانة أقلّ من غيرهم من أصحاب المهين والوظائف الأكبر، وينسى أنهم بشرٌ يجب احترام قيمتهم وتقدير وظائفهم، وهذا خلاف ما أمر الله وخلاف الأخلاق وحسن معاملة الناس.

ومن الناس من يقيّم الناس بناءً على ما يملكونه من مال أو ما يرتدونه من أجواقٍ وجُبابٍ وملابس، وتكون قيمة الإنسان بنظرهم بما يضعه على جسده من لباس لا بإنسانيّته وبشريّته، فإذا كان اللباس فاخراً كانت المعاملة بالاحترام والتقدير، وإن كان متواضعاً أو رثاً طار الاحترام والتقدير من المعاملة، كما مرّ في قصّة بهلول العاقل، وهذا ليس من حسن معاملة الناس في شيء أيضاً.

صحيح أنّ المظهر اللائق للإنسان مطلوب في التّعامل مع الناس، وصحيح - أيضاً - أن حجم الوظيفة والدّور الذي يقدمه الإنسان للاجتماع وأنّ العلم والمعرفة والثّقافة مقدّرة وأنّ المعرفة وفعل الحسن هي من مقاييس قيمة الإنسان، ومع هذا فإنّ التّقدير - في المقام الأوّل - يجب أن يتوجّه إلى إنسانيّة الإنسان لحفظها وصيانتها.

إنّ المرء ليُجد في كثير من البلاد استصغاراً لقيمة الإنسان، حيث يعامل وكأنّه لا إنسان، ويُمنع من أبسط حقوقه^(*). ومن الأمثلة البسيطة: قد يريد العبور من خطوط المشاة في إحدى التّقاطعات في الوقت المسموح له بذلك، فلا يُعطى فرصة، وقد يُصدّم أو يُدهس من سيّارة عابرة، ويكون التّعامل معه كالّتعامل مع اسفلت الشارع، أليست هذه إساءة كبرى لإنسانيّة الإنسان؟ وأليس الشارع والسيّارة هما من أجل خدمة الإنسان وقيّمته؟ وهل الرّقبيّ والحضارة يدعوان إلى استصغار قيمة الإنسان؟ أم أنّ هذا من علائم التّخلّف والتّداعي الحضاريّ؟! أليست الاستهانة بإنسانيّة الإنسان وقيّمته هي أمر خلاف الرّقبيّ والحضارة؟!

فليكني يُحسنَ المرء معاملة الناس، عليه أن يحترم قيمتهم وإنسانيّتهم بما للاحترام من معانٍ.

*١. جدير بالإشارة أنّ خروق وانتهاكات حقوق الإنسان التي يمارسها الجائرون بحق الإنسان بسبب مطالبته بحقوقه أو دفاعه عنها، هي صورة من صور عدم احترام قيمته وإنسانيّته، وإساءة لها. ومن هنا فمن حسن معاملة السّلطان لرعيّته، أن يحترم إنسانيّتهم، ويصون حقوقهم، وأن يتوسّل بالرّقق والرّحمة بهم.

❖ شُكْرُ النَّاسِ عَلَى احْسَانِهِمْ

قال الإمام عليُّ (ع):

«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْمَخْلُوقَ لَمْ يَشْكُرِ الْخَالِقَ»^(١).

وقال الإمام عليُّ بن الحسين (ع):

«أَشْكُرُكُمْ لِلَّهِ أَشْكُرُكُمْ لِلنَّاسِ»^(٢).

في تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان هناك حاجة ضرورية إلى الإحسان المتبادل، أو المعروف أو الإنعام.

فكيف يكون التَّعامل مع من يفعل الإحسان؟

هل يُكْفَرُ إحسانه أو يُشكر عليه؟

بناءً على ضرورة احترام الإنسان وقيّمته، لاشكَّ أنَّ كُفْرَ الإحسان والمعروف والإنعام الذي يقوم به النَّاسُ هو خُلُقٌ سَيِّئٌ في التَّعامل معهم، لأنَّ كُفْرَ معروفهم هو كُفْرٌ بنعم الله في المحصّلة، وإساءةٌ تقدير للإنسان الذي هو مكرمٌ عند الله سبحانه، أما شكر الإحسان والمعروف والإنعام الذي يقوم به النَّاسُ فهو الخُلُقُ الحسنُ في معاملتهم. لأنَّ فيه شكرٌ لله على نعمه، وشكرٌ للإنسان الذي هو في المحصّلة شكرٌ لله تعالى، ولهذا فمن لم يشكُرِ الآخرين على إنعامهم وإجادتهم لم يشكر خالقهم في حقيقة الأمر، إذ من مقاييس شُكْرِ الإنسان لله: شُكْرُه للنَّاسِ، أفليس المُحْسِنون من النَّاسِ جديرين بالشُّكر؟

وربَّ سائل يسأل: وهل هناك من داع لشكر الشَّخص الآخر، أو الطَّرف الآخر على إحسانه أو إنعامه أو معروفه أو إجادته؟

وتكون الإجابة على ذلك بالسُّؤال الآتي:

١. الغرر والدرر.

٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٨.

أفليس من حقِّ المُنْعِمِ، أو ذي المعروف أن يُشْكِرَ ويُذَكِّرَ معروفيه؟

إِنَّ شُكْرَ الْمُنْعِمِ أو صَانِعِ المعروف حقٌّ على من أَنْعَمَ عليه أو من صَنَعَ المعروف له، ومن شأنِ الحقِّ أن يُصَانِ لصاحبه. كما أَنَّ شُكْرَ صاحبِ المعروف تقدير له وتكريم، وإضافة إلى ذلك فإنَّ شكره يجعله يشعر بالسَّعادة، وبالمُتعة المعنويَّة ويجعله متشجَّعاً منطلقاً في صنع الخير والمعروف. والكلُّ مِنَّا يدرك الشُّعُورَ الحسنَ في نفسه حينما يتلقَّى كلمة شُكْرٍ من شخص آخر، أو من جهة أخرى، أليس كذلك؟

وإذْ أَنَّ المرءَ يشعر بالمُتعة المعنويَّة حينما يتلقَّى الشُّكرَ من الآخرين، أليس خَلِيقاً به أن يشكُرهم حينما يُنعمون عليه أو يصنعون الخير والمعروف له لكي يكونوا مقدِّرين شاعرين بالسَّعادة والمُتعة؟

يقول الإمام عليُّ بن الحُسين (ع) في هذا الصَّدِّ:

«أَمَّا حقُّ ذي المعروف عليك فإنَّ تشكُّره وتذكر معروفيه، وتُكسبه المقالةَ الحَسَنَةَ، وتُخلص له الدُّعاء فيما بينك وبين الله - عزَّ وجلَّ - فإذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سِرّاً وعلانيَّة، ثمَّ إن قدرت على مكافأته يوماً كافأته»^(١).

وقد يستنكف الإنسان من تقديم الشُّكرِ لفاعلِ المعروف له، مستصعِباً، ولكنَّه سهلٌ ما أسهله! وهل هناك صعوبة في أن يقول المرءُ لمن أَنْعَمَ عليه: شكراً لك على هذا الصَّنيع الذي قمتَ به لي، أو أشكركُ على ذلك، أو ما شابه ذلك من العبارات التي تفيد تقديم الشُّكرِ؟ وأليس اللُّومُ أن لا يشكُرَ المُنْعَمُ عليه، المُنْعِمُ وصاحبِ المعروف؟!

يقول الإمام الحسن (ع):

« اللُّومُ أن لا تشكُرَ النُّعمَةَ »^(٢).

والشُّكرُ جزاء دنيويٌّ لصنع المعروف، وتعبير عن النِّيَّةِ الصَّادقة في معاملة النَّاسِ

١. المصدر السابق، ص ٧.

٢. المصدر السابق، ج ٧٨، ص ١٠٥.

وتقدير ما يصنعونه من معروف، وأقلّ منه حُسْنُ الثَّنَاءِ، وأقلّ مِنْ حَسَنِ الثَّنَاءِ معرفة العمل أو المعروف أو النُّعْمَة وحبُّ صاحبها. فإذا حدث أن قَصَرَ المرء في المكافأة، فعليه أن يثني على المنعم ثناءً حسناً، وإن لم «يُجَشِّمْ» لسانه ذلك فعليه أن يعرف النُّعْمَة ويقدرها ويحبُّ المنعم. أما إذا قَصَرَ عن هذا فهو ليس خَلِيقاً بِالنُّعْمَة لأنّه كافرٌ بها مكفّرٌ لصاحبها.

يقول الإمام عليّ (ع):

«حَقٌّ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ أَنْ يُحَسِّنَ مَكَافَأَةَ الْمُنْعِمِ، فَإِنْ قَصَرَ عَنْ ذَلِكَ وَوَسَّعَهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يُحَسِّنَ الثَّنَاءَ، فَإِنْ كَلَّ عَنْ ذَلِكَ لِسَانُهُ فَعَلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ النُّعْمَةِ وَمَحَبَّةِ الْمُنْعِمِ بِهَا، فَإِنْ قَصَرَ عَنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ لِلنُّعْمَةِ بِأَهْلٍ»^(١).

وفي الوقت الذي على المرء أن يشكر النَّاسَ على صُنْعِهِمُ للمعروف، عليه أن يعلم أنَّ الشُّكْرَ يكون مع الاستحقاق، وأنَّ ليس من الصَّحِيحِ وضع الشُّكْرِ في غير موضعه، كأن يشكر من لا يقوم بالإحسان. إنَّ الشُّكْرَ جزاءٌ لمن قام بالمعروف والإحسان، أمَّا ذلك الذي لم يصنعْهُمَا فلا داعي لشُكْرِهِ بطبيعة الحال. بل إنَّ شُكْرَ الشَّخْصِ الْآخَرِ على معروف لم يفعله قد يُحدث خللاً في شخصيته، بأن يتعوّد على انتظار الشُّكْرَ من الآخرين في مقابل لا شيء من المعروف يقوم به، الأمر الذي يُمَيِّعُ شخصيته، ويجعله من الذين قال عنهم القرآن الكريم: (وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا)^(٢).

يقول الإمام عليّ (ع):

«مَنْ شُكِرَ عَلَى غَيْرِ إِحْسَانٍ ذُمَّ عَلَى غَيْرِ إِسَاءَةٍ»^(٣).

وكما ينبغي للمرء أن يشكر الآخرين على ما يفعلونه من معروف، عليهم أن لا يزهّدوا في فعل المعروف فيما إذا لم يقدم لهم الشكر، وأن يوطنوا أنفسهم على الاستمرار في فعل الخيرات للناس حتى وإن لم يشكروا.

١. المصدر السابق، ج ٧١، ص ٥٠.

٢. ١٨٨ / آل عمران.

٣. الغرر والدرر.

وفي هذا الشأن يقول الإمام علي (ع):

«لَا يَزْهَدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)»^(١).

وهكذا فإن كلمة الشكر لا تكلف شيئاً، وتعود بالخير على الشاكر والمشكور، بل وتجعل المشكور واثقاً من نفسه أكثر، ومنافعاً لفعل الخير والمعروف والإحسان، فليكني يحسن المرء معاملة الناس خَلِيقٌ به أن يشكرهم - مع الاستحقاق - على ما يحسنون، وأن يكون الشكر مع شرط الاستحقاق رقيقة في منزله: في تعامله مع والديه، وزوجته، وأولاده، وأقاربه، وفي عمله، وفي تعامله مع أصدقائه والناس عامةً.

❖ المُوافَقَةُ الْعَقْلَانِيَّةُ مَعَ النَّاسِ

قال الإمام علي (ع):

«لَيْسَ مَعَ الْاِخْتِلَافِ إِتِّلَافٌ»^(٢).

في تعامل المرء مع النَّاسِ، هل عليه أن يخالفهم أم يوافقهم؟

وإذا كانت المُوافَقَةُ معهم هي المطلوبة، فكيف يجب أن تكون؟

وهل من الصَّحيح، موافقة النَّاسِ بشكل مطلق، أم أنَّ للموافقة حدود تجب مراعاتها؟

بديهةً أنَّ اجتماع النَّاسِ واتِّتلافهم يقوم على الموافقة فيما بينهم، فمن طُبِعَ النَّاسُ أَنَّهُمْ يَتَأَلَّفُونَ وَيَتَلَفُونَ مع من يوافقهم، في شَتَّى المعاملات، ويحبُّونه. أمَّا

١. نهج البلاغة، تنظيم صبحي الصَّالح، ص ٥٠٥.

٢. الغرر والدرر.

الاختلاف^(٢١) فهو - بشكل عام - مُوجِبٌ للإضرار بآثلافهم، وربما بحالة الحُبِّ فيما بينهم، وربما أكثر من ذلك. ومن هنا فكثرُة الموافقة معهم من الأمور التي تُسهِّلُ للمرء تعامله معهم، والدُّخولُ إلى قلوبهم.

إنَّ من النَّاسِ من يتوسَّلُ بالموافقة مع النَّاسِ، فيتسامح عن العثرات، ويعفو عن الزَّلَّاتِ، ويتجنَّبُ الجِدالَ العقيمَ في سبيل أن يحافظ على حسن التَّعاملِ معهم، باعتبار أنَّ هناك كثيراً من الأخطاء والزَّلَّاتِ والعثرات - وخصوصاً الجُزئية - من الأفضل التَّسامح فيها للحفاظ على معاملة حسنة معهم. ومن النَّاسِ من يعيش حالة توتر دائم مع النَّاسِ. ولا يعرف للموافقة معنى، ومُؤشِّرُهُ يكون مُتَّجهاً - بشكل دائم - نحو اللاموافقة والزوايا الحادَّة، والتَّوتر في معاملتهم، والدُّخولُ في اختلافات معهم حتى بسبب أبسط الأشياء، ولا يُعطي للعفو والصفح والتَّسامح والتَّنازل اهتماماً، وبذلك تسوء معاملته لهم، وتنعكس آثار ذلك - سلباً - عليه وعليهم، وتُسمي حياته أشبه بسفينة في بحرٍ مضطرب.

إنَّ من حسن معاملة النَّاسِ موافقتهم، إلَّا أنَّ هذه الموافقة يجب أن تتحقق فيها صفة العقلانية، فليس من الصَّحيح أن يوافقهم المرء - بصورة مطلقة - على كل فعل يقومون به في سبيل أن يكون مؤثِّلاً معهم، لأنَّ من أفعالهم ما هو خلاف الحقِّ والخير والصَّلاح والفضيلة، وليس من الشَّرِّ والعقل موافقتهم على ذلك، لأنَّ في موافقتهم وقوعٌ في الباطل والشَّرِّ والرَّذيلة أو تشجيع لها. صحيح أن المرء بإمكانه أن يعفو ويتسامح عن العثرات والأخطاء، التي يرتكبها النَّاسُ بحَقِّه، أمَّا أن يوافقهم على ما هو خلاف الدِّين والعقل وعلى ما يُحلُّ حَرَاماً أو يُحرِّم حَلَالاً، في سبيل أن يأتلف معهم فليس جائزاً ولا صحيحاً.

وهذا يقود إلى التذكير بما يُعرف بالتَّوافقِ الاجتماعيِّ^(٢٢)، فإن يتوافق الإنسان

*١. تثير مُفردة الاختلاف كثيراً من الأمور والقضايا إلَّا أنَّ المقصود هنا ترك الاختلاف الذي يسيء إلى التَّعامل الخُلقي بين النَّاسِ.
*٢. التَّوافقُ الاجتماعيُّ: هو موافقة الفرد - جزئياً أو كلياً - للمحيط أو السُّلوك. وهو حالة اجتماعية تنشأ عن الاتِّصال بمحيط، أو الخضوع لنمط معين من التربية. ومن هنا فللتربية والبيئة المحيط. علاقة وطيدة بالتَّوافق الاجتماعيِّ، فإذا صلحاً، صلح الفرد، وخلاف ذلك صحيح تماماً، وقد يحدث أن يتلقَّى الفرد تربيةً صالحة، ويتَّصل بمحيط طالح، أو العكس، وهنا يقع الفرد في نوع من الصُّراع، يُحسم في النهاية إلى أحد الجانبين مع العلم بأنَّ الجانب الأقوى هو المرشَّح لكسب الصُّراع، ومع العلم أيضاً بأنَّ البيئة والتَّربية تترك آثارها الثقافيَّة والسُّلوكيَّة على الفرد، وإصلاح الفرد هو بحاجة إلى تربية صالحة، وتفاعل مع المحيط الصَّالح، وموقف من المحيط الطالح، وحصانة ضدَّ تأثيراته.

اجتماعياً مع قرناء صالحين، أو مع محيط صالح أو بيئة صالحة، هذا أمر حَسَنٌ،
أَمَّا أَنْ يَتَوَافَقَ اجتماعياً مع قرناء سيِّئِينَ، أو محيط طالح، أو بيئة طالحة فليس
صحيحاً ولا جائزاً، وَيُشَكِّلُ خطراً عليه، وعلى الاجتماع.

وهكذا فَإِنَّ المُوَافَقَةَ الواعية أو العقلائيَّةَ ضرورة يحتاجها المرء في معاملته النَّاسِ:
سواء في منزله: في تعامله مع أهله وأقاربه، أو في أي مكان آخر، فَلِكِي يُحَسِّنَ
معاملتهم ويكسب وَدَّهْمَ، ينبغي له أَنْ يتوسَّلَ بكثرة الموافقة، وأن تكون
موافقته عَقْلَانِيَّةً.

يقول المثلُّ الشَّهير:

«لَوْ لَا الْوَتَاءُ^(١) لَهَلَكَ الْإِنْسَانُ».

❖ التَّيُّبُ وَالْإِنْسَانُ فِي اتِّخَاذِ الْمَوَاقِفِ مِنَ النَّاسِ

قال الإمام عليُّ (ع):

«الْعَجَلُ يُوجِبُ الْعِثَارَ»^(٢).

وقال (ع) أيضاً:

«الزَّلُّ مَنْ الْعَجَلِ»^(٣).

وقال الإمام الباقر (ع):

«الْإِنْسَانُ مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»^(٤).

١. الْوَتَاءُ: الْمُوَافَقَةُ، أَيْ لَوْلَا مَوَافَقَةُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِي الصُّحْبَةِ وَالْمَعَاشَرَةِ لَكَانَتْ الْهَلَكَةُ، الْمُنْجَدُ فِي اللُّغَةِ، فَرَائِدُ الْأَدَبِ فِي

الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ ص ١٠١٢.

٢. الْغُرُورُ وَالْدَّرَرُ.

٣. الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

٤. بَحَارُ الْأَنْوَارِ ج ٧١، ص ٣٤٠.

وقال الإمام الصادق (ع):

«مَعَ التَّثَبُّتِ تَكُونُ السَّلَامَةُ، وَمَعَ الْعَجَلَةِ تَكُونُ النَّدَامَةُ»^(١).

من الصفات التي تكاد تكون موجودة أو مغروزة في كل إنسان، ومورد ابتلاء بها من قبل جميع الناس: العجلة، أو التسرع. فالإنسان كما يعبر عنه القرآن الكريم بأنه خُلِقَ من عَجَلٍ، أو أنه كان عَجُولًا.

ومع أن الله - سبحانه وتعالى - فَطَرَ الإنسان على هذا النحو، فقد أعطاه ومنحه إمكانيّة التَّأَنِّي والتَّوَدُّعِ والتَّأَمُّلِ والتَّعَرُّفِ قبل ممارسة الأعمال قصدًا أو موقفًا، أو فكرًا أو قولًا، أو فعلًا لكي يُحرز الصَّواب والحقيقة، ويتعد عن الزَّلَل والوهم.

ومن الأعمال أو الممارسات التي تستلزم من المرء التَّيَبُّنَ والأناة: اتخاذ المواقف من الناس، والمواقف منهم هي تلك الأفعال أو - إن صحَّ التعبير - ردود الأفعال التي يتَّخذها من الأعمال والممارسات التي تصدر منهم وتكون ذات ارتباط به بشكل مباشر أو غير مباشر.

والمواقف من الناس يمكن القول أنها على نوعين: إيجابية، وسلبية. فالأولى هي المواقف التي توافق الناس على ما يصدر منهم من أفعال، والثانية هي التي لا توافقهم على ما يصدر منهم. وكما على المرء أن يكون مُتَأَنِّيًا في اتخاذ المواقف الإيجابية من الناس، عليه أيضاً أن يكون مُتَأَنِّيًا في اتخاذ المواقف السلبية منهم، خصوصاً وأن هذه الأخيرة قد تؤثِّم متَّخذها، وقد تجلب المَضَرَّة للطرف الآخر، والأمر الذي يتطلب من المرء التَّيَبُّنَ والتَّأَمُّلَ والتَّعَرُّفَ والاستقصاء قبل اتخاذها.

وتنقسم المواقف المنفيّة من الناس - كما المثبتة - إلى: قلبية (أو داخلية)، وقوليّة، وفعلية (خارجية). ومثال القلبية: سوء الظَّنِّ بالنَّاس، وحسدهم، و... ومثال القوليّة: إيذاء النَّاس باللسان، وتهمُّتهم واغتيالُهم، والنِّميمة عليهم ،

١. المصدر السابق، ص ٣٣٨.

وَالسَّعَايَةِ بِهِمْ، وَجَرَحَ مَشَاعِرَهُمْ بِالْكَلِمَاتِ الْجَارِحَةِ وَالنَّايِبَةِ، وَ... وَمِثَالُ الْفِعْلِيَّةِ: الْإِعْتِدَاءُ عَلَى النَّاسِ بِالضَّرْبِ، وَبَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ بِحَقِّهِمْ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ قَدْ تَأْتِي نَتِيجَةً لِلْعَجَلَةِ وَالتَّسْرَعِ وَانْعِدَامِ الْأَنَاءَةِ وَالتَّوَدُّدِ.

وَعَنِ التَّسْرَعِ وَالْعَجَلَةِ فِي اتِّخَاذِ الْمَوْقِفِ مِنَ الشَّخْصِ الْآخَرِ، وَالْآثَارِ الْمَتَرْتَّبَةِ عَلَى ذَلِكَ، كَتَبْتُ إِحْدَى الْمَجَلَّاتِ: «أَنَّ رَجُلًا مَتَّهَوْرًا دَخَلَ دَارَهُ، وَفَقَدَ فِي الدَّارِ زَوْجَتَهُ، فَأَسَاءَ بِهَا الظَّنَّ، وَأَخَذَ يُفْتِّشُ فِي أَثَانِهَا، وَإِذَا بِهِ يَجِدُ فِي بَعْضِ أَثَانِهَا رِسَالَةً غَرَامِيَّةً مُوجَّهَةً مِنْ رَجُلٍ، فَتَيَقَّنَ أَنَّ لَزَوْجَتَهُ اتِّصَالًا غَيْرَ مَشْرُوعٍ بِصَاحِبِ الرِّسَالَةِ، فَهَيَّا لَهَا آلَةً قَتَّالَةً، وَهَمَّجَرَدَ أَنْ جَاءَتْ حَمَلَ عَلَيْهَا بِتِلْكَ الْآلَةِ الْقَتَّالَةِ وَقَتَّلَهَا. وَهِيَ تَسْتَعِيْثُ وَتَسْأَلُ عَنِ السَّبَبِ، لَكِنَّهُ قَدْ رَكِبَهُ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ يُجْهِلْهَا وَلَمْ يَسْتَنْطِقْهَا. ثُمَّ أَخْبَرَ الرَّجُلَ أَهْلَ الزَّوْجَةِ بِأَنَّهَا كَانَتْ سَيِّئَةً، وَلِذَا قَتَّلَهَا.

» وَبَعْدَ يَوْمٍ جَاءَ الرَّجُلُ إِلَى الرِّسَالَةِ الْغَرَامِيَّةِ، لِيَرَى تَفْصِيلَ مَا فِيهَا، وَإِذَا بِهِ يَفْجَأُ بِأَنَّ الرِّسَالَةَ مُوجَّهَةً إِلَى فَتَاةٍ اسْمُهَا (فَلَانَةُ) وَلَيْسَتْ مُوجَّهَةً إِلَى زَوْجَتِهِ. وَقَرَأَ الرَّجُلُ الرِّسَالَةَ وَالْعَنْوَانَ مَرَّةً ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، حَتَّى تَيَقَّنَ أَنَّ الرِّسَالَةَ وَالْعَنْوَانَ لِيَسَا لَزَوْجَتِهِ. ثُمَّ أَخَذَ يَفْحَصُ عَنِ الْفَتَاةِ الَّتِي وَجَّهَتْ إِلَيْهَا الرِّسَالَةَ، فَعَلِمَ أَنَّهَا صَدِيقَةٌ لَزَوْجَتِهِ، وَأَنَّهَا جَاءَتْ بِالرِّسَالَةِ إِلَى زَوْجَتِهِ لِتُودِعَهَا عِنْدَهَا، كَمَا كَانَتْ عَادَتُهَا أَنْ تُودِعَ عِنْدَهَا رِسَائِلَهَا وَنَقُودَهَا وَثِيَابَهَا لِأَنَّهَا جَارَةٌ لَهُمْ، وَتَذَكَّرَ أَنَّ زَوْجَتَهُ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ، فَندَمَ عَلَى قَتْلَتِهِ وَلَمَّا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ.

» وَلَمْ تَمُضْ مِنَ الْحَادِثِ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، وَإِذَا بِالرَّجُلِ يُفْجَأُ بِأَلَمٍ فِي مَوْضِعٍ مِنْ ذِرَاعِ يَمَانِهِ، وَأَخَذَ الْأَلَمُ يَشْتَدُّ وَيَشْتَدُّ، وَرَاجَعَ الْأَطْبَاءَ، وَكَلَّمَا عَالِجُوهُ لَمْ يَنْفَعِ. وَأَخِيرًا قَرَّرُوا أَجْرَاءَ عَمَلِيَّةٍ جَرَاحِيَّةٍ عَلَى نَفْسِ الْمَوْضِعِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَثَرٌ مِنْ احْمِرَارٍ أَوْ وَرَمٍ وَمَا شَابِهِ، وَاجْرَوا الْعَمَلِيَّةَ، وَقَطَعُوا قِطْعَةً لَحْمٍ مِنْ مَكَانِ الْوَجَعِ لَكِنَّ الْأَلَمَ لَمْ يَزَلْ، وَبَقِيَ فِي الْمَسْتَشْفَى إِلَى أَنْ نَبَتِ اللَّحْمُ الصَّالِحُ، لَكِنَّ الْأَلَمَ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ فِي كِمَالِ الشَّدَّةِ، مِمَّا سَلَبَهُ اسْتِقْرَارَهُ، وَأَطَارَ النَّوْمَ فِي اللَّيْلِ عَنْ عَيْنَيْهِ. » وَأَخِيرًا أَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَطْبَاءَ بِمَرَاجَعَةِ أَطْبَاءِ النَّفْسِ، قَالُوا: لَعَلَّهُ مَرَضٌ نَفْسِيٌّ

لا جسدي، وبعد أن راجع طبيباً نفسياً، واستنطقه الطبيب عن كل ما اقترفه في حياته، تذكّر أنّه لمّا قتل زوجته ترشّح من دمها نقطة فأصابت هذا الموضع من اليد. فقال له الطبيب: أنّه عقاب الله (سبحانه) ولا علاج لك عندنا. وهكذا خرج من عند طبيب النَّفْسِ يَجُرُّ أذيال الخيبة والخسران»^(١).

إنَّ العجلة والتَّسرع كما يُؤدِّيَان إلى الوقوع في الرِّلَات والأخطاء في الفكر والتفكير والعمل، يُؤدِّيَان أيضاً إلى الوقوع في العِثَار والزَّلل والخطأ على صعيد التَّعامل مع النَّاس. فَرُبَّ موقف مستعجل يتَّخذه امرؤ من شخص آخر، يتبيّن له فيما بعد خطأ هذا الموقف. وكم من إنسان تعجّل إساءة الظَّنِّ بشخص آخر ثمَّ تبيّن له أنّ ظنّه لا يلامس الحقيقة! وكم من امرئ تعجّل في إطلاق حُكم على شخص آخر. ثمَّ انكشف له فيما بعد أنّ حكمه خاطئ، وفي غير موقعه!

وفي هذا الشَّان يقول أحد الكتَّاب:

كنت في إحدى البلاد، فسافر أحد أقاربي إليّ من أجل زيارتي برفقة زوجته. وذات يوم قامت زوجته بزيارة إحدى صديقاتها، فطلب زوج هذه الأخيرة من زوجة قريبي المسافر أن يحضر الأخير لزيارته. وقالت زوجة الدَّاعي لزوجته القريب المسافر: هل قال فلان (يقصد الكاتب) لزوجك شيئاً؟ فما كان من الكاتب إلا أن تعجّل في الظَّنِّ، فسَرَّ السَّوَال والقول فيه بأمور أخرى، ولمّا استوضح الأمر تبيّن أنّ الدَّاعي لم يكن يقصد من سؤاله إلّا وجه الخير، وبذلك أوقعت العجلة الكاتب في إساءة الظَّنِّ بأخيه، وندم على ذلك.

والثَّاني في اتخاذ المواقف من النَّاس وتحاشي العجلة في ذلك، أمر مطلوب سواء في التَّعامل المباشر مع النَّاس، أو في التَّعامل غير المباشر معهم. فليس من الصَّحيح أن يُصدَّق المرء ما يقوله شخص آخر له بحق أناس آخرين من دون تبيّن وتأمل

١. الأمام الشيرازي: العدل أساس الملك، ص ٤٦ - ٤٨ مع بعض التَّصرف في العبارة.

وأناة، فلربما كان النّافل غير متيقّن من صحّة ما يقول، ولربما كان واثقاً يريد الإيقاع بين المرء والآخرين.

يقول تعالى في التّبين والتّحقق من الأخبار المنقولة والمسموعة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ^(١).

وهكذا فليكن المرء معاملة النّاس خليقاً به أن يتوسّل بالتّبين والأناة في اتّخاذ المواقف منهم، وخصوصاً في تلك المواقف التي يؤدي التّعجل في اتّخاذها إلى ظلمهم، وحدوث ما لا تُحمد عواقبه.

❖ تَجَنَّبُ الْخُصُومَاتِ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ

قال الإمام عليّ (ع):

«مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، وَمَنْ قَصَرَ فِيهَا ظَلِمَ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ مَنْ حَاصَمَ»^(٢).

وقال (ع) أيضاً:

«الْمُحَاصِمَةُ تُبْذِي سَفَهَ الرَّجُلِ وَلَا تَزِيدُ فِي حَقِّهِ»^(٣).

القاعدة الطّبيعيّة في التّعامل مع النّاس هي حبّهم وودّهم، مع الأخذ بعين الاعتبار والجِدُّ أن يكون الحبُّ في الله وفي سبيله، وأن يكون البغض فيه - عزَّ وجلَّ - وفي سبيله أيضاً.

ومع أنَّ الحبَّ هو البيئة أو المناخ الذي يجب أن تعيش فيه المعاملة فيما بين

١. ٦ / الحجرات.

٢. نهج البلاغة، الحكم.

٣. الغرر والدرر.

البشر، وتتنفس من هوائه، فقد يحدث ما يشوب هذا الحُبَّ لسبب ولآخر، الأمر الذي يتسبَّبُ في وجود الخصومات والمخاصمات، والمجادلات والمنازعات.

والسُّؤال هو: كيف يجب أن يتصرَّف المرء إزاء الخصومات فيما بينه وبين الناس؟

توجَّه الأحاديث الشَّريفة المرءَ إلى الحذر من مخاصمة النَّاسِ والتَّماذي في العناد واللَّجاجة، وتحدُّره من الوقوع في ذلك، باعتبار أنَّه خلاف للتعامل الحَسَن مع النَّاسِ، ولما له من آثار وانعكاسات غير محمودة على المرء المخاصم، منها: شغل القلب وفساده، ونشوء الضَّغائن والأحقاد، والعداوات والنِّفاق، والكذب في التَّعامل.

يقول الإمام الصادق (ع):

«إِيَّاكُمْ وَالْخُصُومَةَ! فَإِنَّهَا تَشْغَلُ الْقَلْبَ، وَتُورِثُ النِّفَاقَ، وَتُكْسِبُ الضَّغَائِنَ»^(١).

ويقول (ع) أيضاً:

«إِيَّاكُمْ وَالْخُصُومَةَ فِي الدِّينِ! فَإِنَّهَا تَشْغَلُ الْقَلْبَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتُورِثُ النِّفَاقَ، وَتُكْسِبُ الضَّغَائِنَ، وَتُسْتَجِيرُ الْكُذْبَ»^(٢).

وربَّ سائل يسأل: كيف يجب أن يتصرَّف المرء فيما لو حدث بينه وبين شخص آخر حالة تباغُضٍ أو خصومةٍ لسبب ما؟

بلا أدنى تردد ليست المبالغة في الخصومة ولا التَّماذي فيها، ولا اللَّجاجة ولا العناد هي الطَّريقة السَّليمة للتَّصرف. ففي الوقت الذي أمر الدِّينُ بممارسة الحُبِّ مع النَّاسِ - بحيث لا يكون هذا الحُبُّ مطلقاً - فإنَّه أمر حين حدوث الخصام باستبقاء نسبة من الحُبِّ للصَّديق، أو للطَّرف الآخر، بِأَمَلِ التَّصَالُحِ معه في المستقبل، وإعادة المياه إلى مجاريها.

وعليه فإذا حدث أن تخاصم امرؤً مع شخص آخر فلا يَكُنْ كُلُّ منهما متعصِّباً لذاته، وليجنح دائماً نحو المصالحة، لا نحو اللَّجاجة والتَّعنُّتِ في الخصومة

١. أصول الكافي ج ٢، ص ٣٠١.

٢. بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٢٨.

والتَّمَادِي فِيهَا. وَلَا يَحْسَبَنَّ أَنَّ فِي جُنُوحِهِ لِلصُّلْحِ وَالتَّصَافِي هَزِيمَةً لَهُ، بَلْ هُوَ
انتصار، لأنَّ الخصومة والتَّمَادِي فِيهَا تُؤَلِّدُ الْأَمْرَاضَ النَّفْسِيَّةَ كَالْحِقْدِ، وَالْعَدَاوَةِ،
وَالْحَسَدِ، ... وَهِيَ تَأْكُلُ فِي الْقَلْبِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ، وَتُؤَلِّدُ مَتَاعِبَ نَفْسِيَّةً
وَمَعْنَوِيَّةً خَطِيرَةً، فَضلاً عَنْ انْقِطَاعِ الصُّلَّةِ وَالْعَلَاقَةِ بِالشَّخْصِ الْآخَرِ.

يقول الإمام علي (ع) في الاقتصاد والاعتدال في الحُبِّ والبُغْضِ:

«أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا
مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»^(١).

إِنَّ مِنَ النَّتَائِجِ الَّتِي قَدْ تُسْفِرُ عَنْهَا الْخُصُومَاتِ وَالْمُخَاصِمَاتِ: الْعَدَاوَاتِ فِيمَا
بَيْنَ النَّاسِ، وَهَذِهِ تُمَثِّلُ صُدُوعاً مُضِرَّةً فِي بِنْيَانِ الْعَلَاقَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَبِشَعَبِ تِلْكَ
الصُّدُوعِ تَصْلُحُ الْعَلَاقَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَيَجْتَمِعُ شَمْلُ النَّاسِ. وَمِنْ هُنَا نَهَى الْإِسْلَامُ
عَنْ مَعَادَاةِ النَّاسِ، وَمُلاحَاحَتِهِمْ، وَمَشَارَظَتِهِمْ، وَعَنْ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ
إِيْجَادُ الْخُصُومَاتِ وَالْعَدَاوَاتِ وَالْمَنَازَعَاتِ وَالْبَغْضَاءِ وَالصُّغَائِنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

يقول الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«مَا عَهْدَ إِلَيَّ جَبْرِئِيلُ فِي شَيْءٍ مَا عَهْدَ إِلَيَّ فِي مُعَادَاةِ الرَّجَالِ»^(٢).

ويقول الإمام علي (ع):

«رَأْسُ الْجَهْلِ مُعَادَاةُ النَّاسِ»^(٣).

ويقول (ع) أيضاً:

«مُعَادَاةُ الرَّجَالِ مِنْ شِيمِ الْجُهَالِ»^(٤).

ويقول الإمام علي بن الحُسَيْنِ (ع):

«لَا تُعَادِيَنَّ أَحَدًا وَإِنْ ظَنَنْتَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وَلَا تَزْهَدَنَّ فِي صَدَاقَةِ أَحَدٍ وَإِنْ ظَنَنْتَ

١. نهج البلاغة، الحكم، الهون في الحب والبغض: الاقتصاد فيهما دون إفراط، وإضافة «ما» تفيد التقليل.

٢. الأصول من الكافي ج ٢، ص ٣٠٢.

٣. الغرر والدرر.

٤. المصدر السابق.

أَنَّهُ لَا يَنْفَعُكَ، فَإِنَّكَ لَا تَذَرِي مَتَى تَرْجُو صَدِيقَكَ، وَلَا تَذَرِي مَتَى تَخَافُ عَدُوَّكَ»^(١).

ويقول الإمام الهادي (ع):

«لَا تُعَادِ أَحَدًا حَتَّى تَعْرِفَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُهُ إِلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَإِنَّ عِلْمَكَ بِهِ يَكْفِيكَ، فَلَا تُعَادِهِ»^(٢).

ويقول أمير المؤمنين (ع) في وصية لبنيه:

«يَا بَنِي! إِيَّاكُمْ وَمَعَادَةَ الرَّجَالِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَخْلُونَ مَنْ ضَرَبَيْنِ: مِنْ عَاقِلٍ يَمْكُرُ بِكُمْ، أَوْ جَاهِلٍ يُعْجَلُ عَلَيْكُمْ . . .»^(٣).

وفضلاً عن أَنَّ المعاداة تدقُّ إِسْفِينًا^(٤) في جسم العلاقة الاجتماعية وتُبْعِدُ بين المتقاربين وتقطع الموصولين، فضلاً عن ذلك فَإِنَّهَا تُسْقِطُ مَرُوءَةَ المرء وتذهب بعِزِّهِ، وتكشف عوراته، وتُبْدي عيوبه، وتورث العار، وتُعَرِّضُهُ لمكر الماكرين، وتعجيل الجاهلين.

ومن الآثار التي تترتب على الخصومات والعداوات فيما بين النَّاسِ نشوء الأحقاد والضغائن والأغلال النفسية، وأشدُّ الأغلال: الحَقْدُ، وهو أَلَمُ الخُلُقِ، وأَلَمُ العيوبِ، وباقتلاعه تحسن معاملة النَّاسِ والعلاقة بهم.

يقول الإمام عليُّ (ع) في الحَقْدِ وتطبيب القلبِ منه:

«الحَقْدُ أَلَمُ العُيُوبِ»^(٥).

«أَلَمُ الخُلُقِ الحَقْدُ»^(٦).

«الحَقْدُ يُذْري (يُذْوِي)»^(٧).

١. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٤٢.

٢. المصدر السابق، ص ٣٦٥.

٣. الخصال، ص ٧٢.

٤. حديدة أو خشبة تستعمل لفلق الحطب وغيره يونانية..

٥. الغرر والدرر.

٦. المصدر السابق.

٧. المصدر السابق: يذري: يُطَيَّرُ ويُفَرَّقُ، يذوي: يُذْبَلُ وينشف الماء.

«الْحَقْدُ مَثَارُ الْعَصَبِ»^(١).

«الْحَقْدُ شَيْمَةُ الْحَسَدِ»^(٢)

«الْحَقْدُ دَاءٌ دَوِيٌّ وَمَرَضٌ مُوِيٌّ»^(٣).

«الْحَقْدُ خُلُقٌ دَنِيٌّ، وَمَرَضٌ مُرْدِيٌّ»^(٤)

«الْحَقْدُ مِنْ طَبَائِعِ الْأَشْرَارِ»^(٥).

«الْحَقْدُ نَارٌ كَامِنَةٌ لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا مَوْتُ أَوْ ظَفَرٌ»^(٦).

«طَيَّبُوا قُلُوبَكُمْ مِنَ الْحَقْدِ فَإِنَّهُ دَاءٌ مُوِيٌّ»^(٧).

«رَأْسُ الْعُيُوبِ الْحَقْدُ»^(٨).

«الدُّنْيَا أَصْعَرُ وَأَحْقَرُ وَأَنْزَرُ مِنْ أَنْ تُطَاعَ فِيهَا الْأَحْقَادُ»^(٩).

«إِنَّمَا اللَّيْبُ مَنْ اسْتَسَلَّ الْأَحْقَادَ»^(١٠).

«سِلَاحُ الشَّرِّ الْحَقْدُ»^(١١).

«سَبَبُ الْفِتَنِ الْحَقْدُ»^(١٢).

«مَنْ اطَّرَحَ الْحَقْدَ اسْتَرَاخَ قَلْبُهُ وَ لُبُّهُ»^(١٣).

١. المصدر السابق.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق.

٥. المصدر السابق.

٦. المصدر السابق.

٧. المصدر السابق.

٨. المصدر السابق.

٩. المصدر السابق.

١٠. المصدر السابق.

١١. المصدر السابق.

١٢. المصدر السابق.

١٣. المصدر السابق.

«مَنْ كَثُرَ حَقُّهُ قَلَّ عِتَابُهُ»^(١).

«احْتَرِسُوا مِنْ سَوْرَةِ الْجَمْدِ (*) وَالْحِقْدِ وَالْغَضَبِ وَالْحَسَدِ، وَأَعِدُّوا لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عُدَّةً تُجَاهِدُونَهُ بِهَا مِنَ الْفِكْرِ فِي الْعَاقِبَةِ، وَمَنْعِ الرِّذِيلَةِ، وَطَلَبِ الْفَضِيلَةِ، وَصَلَاحِ الْآخِرَةِ، وَلُزُومِ الْحِلْمِ»^(٢).

ويقول الإمام الهادي (ع):

«الْعِتَابُ خَيْرٌ مِنَ الْحَقْدِ»^(٣).

ويقول الإمام علي (ع):

«الْحَقُودُ مُعَذِّبُ النَّفْسِ مُتَضَاعِفُ الْهَمِّ»^(٤).

«أَشَدُّ الْقُلُوبِ غِلًّا، قَلْبُ الْحَقُودِ»^(٥).

«يُبْسُ الْعَشِيرُ الْحَقُودُ»^(٦).

«لَيْسَ لِحَقُودِ أَخُوهُ»^(٧).

«لَا مَوَدَّةَ لِحَقُودِ»^(٨).

«لَا يَكُونُ الْكَرِيمُ حَقُودًا»^(٩).

ويقول الإمام العسكري (ع):

«أَقْلُ النَّاسِ رَاحَةً الْحَقُودُ»^(١٠).

١. المصدر السابق.

٢. المصدر السابق.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٣٦٩.

٤. الغرر والدرر.

٥. المصدر السابق.

٦. المصدر السابق.

٧. المصدر السابق.

٨. المصدر السابق.

٩. المصدر السابق.

١٠. تحف العقول، ص ٣٦٣.

ويقول الإمام الصادق (ع):

«حَقْدُ الْمُؤْمِنِ مَقَامُهُ، ثُمَّ يُفَارِقُ أَخَاهُ فَلَا يَجِدُ عَلَيْهِ شَيْئًا. وَحَقْدُ الْكَافِرِ دَهْرُهُ»^(١).

ويقول (ع) أيضاً:

«الْمُؤْمِنُ يَحْقِدُ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ فَإِذَا قَامَ ذَهَبَ عَنْهُ الْحَقْدُ»^(٢).

ومن الأمور التي تُورث الحقد وتسببه: المَلَامَةُ والعِتَابُ، ولتَجَنُّبِ نشوء الحقد يلزم اجتناب اللوم والعتاب، واحتمال الآخرين على ما فيهم من عيوب وتقصيرات. ولا سبيل لحصد الحقد من صدور الآخرين، أفضل من قلعه من الصدر، مع العلم بأنَّ حُسْنَ الْبَشْرِ، وطلاقة الوجه الْمُخْلَصَة، والابتسام، والظُّروف الشَّديدة - أو الشَّدائد - تذهب بالأحقاد والضَّغائن والسَّخائم.

والآن فَلِكَيْ يُحَسِّنَ المرءُ معاملته النَّاسِ، ولكي يكون محبوباً من لدنهم عليه أن يجتنب مُخاصمتهم ومُنازعتهم ومُلاحاتهم ومُعاداتهم والحقدَ عليهم، وأن يجعل معاملته لهم قائمةً على أساس الْحُبِّ والقَصْدِ والاعتدال فيه، من دون إفراط ولا تفريط.

❖ الإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ

قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)^(٣).

وقال سبحانه:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)^(٤).

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١١.

٢. المصدر السابق، ج ٧٨، ص ٢٨٩.

٣. ١٠ / الْحُجُرَات.

٤. ١ / الْأَنْفَال.

وقال عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ^(١)).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«يَا أَبَا أَيُّوبَ! أَلَا أَخْبِرُكَ وَأَذَلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ تَصْلُحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَبَاعَدُوا^(٢)».

وقال الإمام الصادق (ع):

«صَدَقَةُ يُحِبُّهَا اللَّهُ: إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَارَبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا^(٣)».

المعلوم أنَّ التَّحَابَّ والتَّقَارِبَ والتَّصَالِحَ هي الأخلاق التي يجب أن تنطبع بها العلاقة بين النَّاسِ والتَّعَامُلَ فيما بينهم. ولكن التَّبَاعَدَ والتَّبَاغُضَ والتَّفَاسِدَ هي أمور قد تحدث بين ظَهْرَانِيَهُمْ لأسباب^(٤) متعدِّدة. وهنا كيف يجب أن يكون موقف المرء من هذه الحالة؟ هل يترك النَّاسَ وشأنهم، أم يفعل ما يعمل على التَّقَارِبَ والإِصْلَاحَ فيما بينهم؟

إنَّ من النَّاسِ من لا يضع نفسه في أيِّ شِفاعَةٍ أو وساطة للإِصْلَاحِ بين شخصين، أو طرفين، إمَّا تَهَرُّبًا من هذا الدور الاجتماعي الذي يمكنه القيام به في هذا السَّبِيلِ، وإمَّا لاعتباره وتصنيفه الإِصْلَاحَ بين النَّاسِ يدخل في خانة إيقاع النَّفْسِ في الفتنَةِ التي قال الإمام علي (ع) بشأنها: «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لَا ظَهْرٌ فَيَرْكَبُ وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبُ»^(٥).

١. ١١٤ / النِّسَاء.

٢. تنبيه الخواطر، ص ٥.

٣. الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩.

٤. من هذه الأسباب: الغضب، وغياب العفو والصفح والتَّسامح في التَّعَامُلِ، والتَّعَصُّبُ لِلذَّاتِ والانتصار لها، والظلم والإجحاف، والإفراط في اللُّوم، والجدال والمزاح المهين و ...
٥. ٥٣٧٠. نهج البلاغة.

والحقُّ أنَّ ليس كل ما يحصل بين النَّاسِ من تباغض وتباعد هو فتنة ينبغي للمرء أن لا يتدخل فيها، بل هي حالات تحتاج إلى الشَّفاعة والوساطة من أجل الإصلاح وإعادة الميَاه إلى مجاريها. ولأهمية الإصلاح بين الإخوان وبين النَّاسِ أعطى القرآن الكريم والسُّنَّة الشَّرِيفة اهتماماً كبيراً بذلك، وأمر الإنسان بأن يتحمَّل دوره في الإصلاح بين النَّاسِ، والتَّقريب فيما بينهم.

يقول الإمام عليُّ (ع) في الإصلاح بين الناس:

« مِنْ كَمَالِ السَّعَادَةِ السَّعْيُ فِي صَلَاحِ الْجُمُهورِ »^(١).

فكم هي السَّعادة التي يشعر بها المرء حينما يسعى في صلاح النَّاسِ، وفي التَّقريب والإصلاح فيما بينهم! وكم هي السَّعادة التي يشعر بها الطَّرَفان المتباعدان من جرَّاء تلك الوساطة الإصلاحية والشَّفاعة الإنسانية التي تُوْدِي إلى التَّقارب بينهما! وفي هذا الشَّأن رُوي عن الإمام الصَّادق (ع) أنه قال:

« قال رجلٌ للنَّبِيِّ (ص): يا رسول الله، علِّمْنِي، قال: اذهب ولا تَغْضَبْ. فقال الرَّجُل: قد اكتفيت بذلك. فمضى إلى أهله، فإذا بين قومه حرب، قد قاموا صفوفاً، ولبسوا السُّلَاح. فلمَّا رأى ذلك لبس سلاحه، ثمَّ قام معهم، ثمَّ ذكر قول رسول الله (ص): «لا تَغْضَبْ» فرمى السُّلَاح، ثمَّ جاء يمشي إلى القوم الذي هم عدوُّ قومه، فقال: يا هؤلاء، ما كانت لكم من جراحة أو قتل أو ضرب ليس فيه أثر فعليٍّ في مالي، أنا أوفيكموه، فقال القوم: فما كان فهو لكم، نحن أولى بذلك منكم. قال: فاصطَلَح القوم، وذهب الغضب.

إنَّ حالة الأخوة والصُّلح هي الحالة التي يجب أن تكون عليها العلاقة فيما بين النَّاسِ والتَّعامل فيما بينهم، ذلك لأنَّ الاجتماع في غياب الصُّلح بين أفرادهِ يُفقد ركيزة هامة من ركائز التماسك الاجتماعيِّ، ويُشيع التَّوتر والتَّشَنُّج فيه. ومن هنا كان الإصلاح بين النَّاسِ - أو حسب تعبير الأحاديث الشَّرِيفة: إصلاحُ

١. الغرر والدرر.

ذَاتِ الْبَيِّنِ - أفضل من درجة الصَّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ، الأمر الذي يؤكِّد أهمية الإصلاح بين النَّاسِ، ويؤكِّد أنَّ العبادة يجب أن لا تكون بديلة عن حالة الصُّلَحِ مع النَّاسِ، والإصلاح فيما بينهم إذا تباعدوا، بل أنَّ العبادة الحقيقيَّة هي التي تدفع الإنسان للإصلاح بينهم.

يقول الرسول الأعظم (ص):

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيِّنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيِّنِ هِيَ الْحَالِقَةُ»^(١).

ويقول الإمام عليُّ (ع):

«مَنْ اسْتَصْلَحَ الْأَضْدَادَ بَلَغَ الْمُرَادَ»^(٢).

ولأهميَّة الإصلاح بين النَّاسِ نهى الدِّينُ عن الحَلْفِ أو اليمين بعدم الفعل حين الدَّعوة إلى الإصلاح بين شخصين أو طرفين. كما أجاز كذب الشَّفيع أو الوسيط علَّ كلُّ من المتباغضين أو المتباعدين بهدفٍ هو الإصلاح ليس إلَّا. فلا يحسب أنَّ أحد أنَّ المصلح كاذب، لأنَّه لا يكذب من أجل الكذب، وانما من أجل الصُّلَحِ والإصلاح.

يقول تعالى:

(وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ)^(٣).

ويقول الإمام الصادق (ع) في قوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ. . .):

«إِذَا دُعِيَ لِصُلْحٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَلَا تَقُلْ عَلَيَّ يَمِينٌ أَلَّا أَفْعَلُ»^(٤).

ويقول (ع): «المُصْلِحُ لَيْسَ بِكَاذِبٍ»^(٥).

*١. الحالقة: القول السيء.

٢. كنز العمال، ج ٥٤٨٠.

٣. الغرر والدرر.

٤. ٢٢٤ / البقرة.

٥. أصول الكافي، ج ٢، ص ٢١٠.

٦. المصدر السابق، ص ٢١٠.

ويقول (ع):

«الْكَلَامُ ثَلَاثَةٌ: صِدْقٌ وَ كَذِبٌ وَ إِصْلَاحٌ بَيْنَ النَّاسِ... تَسْمَعُ مِنَ الرَّجُلِ كَلَامًا يَبْلُغُهُ فَتَخْبُتُ نَفْسُهُ فَتَلْقَاهُ، فَتَقُولُ سَمِعْتُ مِنْ فُلَانٍ قَالَ فِيكَ مِنَ الْخَيْرِ كَذَا وَ كَذَا خِلَافَ مَا سَمِعْتُ مِنْهُ»^(١).

وفي الصُّلح والإصلاح بين المتباعدين حكى بعضهم فقال:

«حدث خلاف كبير بين والدي وعمِّي، وانتهى هذا الخلاف إلى القطيعة بينهما، دامت فترة طويلة. وكنت أحسُّ منهما أنَّهما يريدان التَّصالح، إلَّا أنَّ أحداً لم يقم بالتَّوسُّط والشَّفاعة بينهما. وحدث أن سافر والدي لزيارة بلد آخر، وعند عودته فكرت في طريقة لإصلاح ذات البين.

قلت لوالدي: سمعت من عمِّي أنَّه يريد القدوم إليك للسلام عليك بعد قدومك من السَّفر.

وفوجئت به يقول: مرحباً به، هو أخٌ عزيزٌ عليّ، فليس بيني وبينه إلَّا الخير. وأضاف: أنَّني انتظره منذ فترة.

فذهبت إلى عمِّي على جناح السَّريعة، وقلت له: والدي يعتب عليك كثيراً، ويقول: ألا يستحقُّ منك زيارة بعد قدومه من السَّفر؟!

وإذا بعمِّي يحمل ذات المشاعر التي يحملها والدي تجاهه، فقال لي: أجل يا عزيزي، أنا أتحييَّ الفُرَصَ من أجل الجلوس إليه، ولسوف آتي لزيارته - اليوم - إن شاء الله.

ولم تمرَّ ساعات حتى كان والدي يعانق عمِّي، ودمعة الأخوة تتساقط من مقلتيهما، وكان كلُّ منهما يقول للآخر: لماذا لم يفكِّر أحدٌ في الإصلاح بيننا منذ زمن بعيد؟ بل لماذا لم يبادر كلُّ مَّا إلى التَّقارب والمصالحة؟!«^(٢).

١. المصدر السابق، ص ٣٤١، كما يجوز الكذب في الإصلاح، لا يجوز الصُّدق في الإفساد.

٢. الصداقة والأصدقاء، ص ٤١٨، مع بعض التَّصرف في العبارة.

وإذ أن الإصلاح بين الناس أمر مهمٌ ومطلوب فهو يجب أن يكون في الوجوه الحسنة، كإعادة العلاقة المقطوعة بين أخوين أو رقيقين أو جماعتين أو... أما الإصلاح في الوجوه السيئة فليس جائزاً. فالإصلاح أمر جائز ومطلوب شريطة أن لا يُحِلَّ حراماً ولا يُحرِّمَ حلالاً، سواء كان الصلح في معاملة أخوية أو اقتصادية أو غيرها... .

يقول تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا)^(١).

ويقول الرسول الأعظم (ص):

«الْصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا»^(٢).

وهكذا فإن للإصلاح بين الناس أهمية كبيرة في التعامل مع الناس والخلق بالمرء أن يتحمّل دوره فيه بينهم في الموارد التي تفتقر إلى الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مع العلم بأن الإصلاح يجب أن لا يُحِلَّ حراماً ولا يُحرِّمَ حلالاً.

❖ اجْتِنَابُ التَّعَصُّبِ الْمَذْمُومِ

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)^(٣).

وقال سبحانه:

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ)^(٤).

١. ٨٥ / النساء.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١٦٤.

٣. ١٣ / الحجرات.

٤. ٢٦ / الفتح، حمية الجاهلية: عصبية الجاهلية.

وقال الرسول الأعظم (ص):

«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَغْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ»^(١).

في العلاقة الإنسانية بالناس والتعامل معهم لا محل للتعصب، إذ الأفضلية والأكرمية عند الله بتقواه وخشيته - جلّ وعلا - والتزام مناهجه. وحيث أنّ المقياس الإلهي لتفاضل الناس هو التقوى، والعمل الصالح، فإن مقياس الناس في التعامل فيما بينهم - كبشر - يجب أن تكون منطلقة من ذلك المقياس الإلهي الذي يؤكّد قضية اشتراك الناس كلّهم في أبّ واحدٍ وأمّ واحدة. أي بعبارة أخرى: اشتراكهم في الآدمية والبشرية.

ومع أنّ المفهوم الديني القرآني للتعامل مع بني البشر واضح وجليّ، فقد أوغل البشر في العصبية خلافاً للمنطق القرآني، إنّ على صعيد الاعتقاد أو على صعيد القوة والثروة، أو على صعيد التعامل مع مختلف الشعوب والأمم والقبائل. ومن الأمثلة على التعصب العقيدي: التعصب للكفر، والتعصب للوثنية، والتعصب في معاندة الحقّ. ومثال التعصب للقوة والثروة: التعصب لقوة الذات والسلطة التي تمتلكها، والتعصب للمال وللنّفَر، وكلّ هذه الأشكال والصور من العصبية، مذمومة وغير جائزة.

أما على صعيد معاملة بني البشر فقد تفنّن أعداء البشر في ابتكار واصطناع صنوف كثيرة من التعصبات والعصبية التي ما أنزل الله بها من سلطان، ومنها:

- التعصب القومي، كالتعصب للقومية العربية أو الفارسية.

- التعصب العنصري، كالتعصب للون الأبيض...

١. أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٨.

- التَّعَصُّبُ الْجِنْسِيُّ، كالتَّعَصُّبُ للجنس الآرْيِّ، أو تعصب الرَّجُلِ لجنس الرَّجُلِ (الذَّكَوْرَة) والمرأة لجنس المرأة (الأنوثة).
- التَّعَصُّبُ العِرْقِيُّ.
- التَّعَصُّبُ القَبَلِيُّ.
- التَّعَصُّبُ العشائريُّ والعائليُّ.
- التَّعَصُّبُ الإقليمِيُّ والوطنيُّ.
- التَّعَصُّبُ الطبقيُّ، كتعصبُ التَّاجِرِ لطبقة التَّجَارِ.
- التَّعَصُّبُ الوظيفيُّ، كتعصبُ الطَّبَّيبِ لوظيفة الطَّبِّ.
- التَّعَصُّبُ الحزبيُّ والجماعيُّ.
- التَّعَصُّبُ للذَّاتِ.

بل إِنَّ الإنسان إذا تمادى في العصبِيَّةِ والتَّعَصُّبِ، يمكن أن يتعصَّبَ لكل شيء، كاللَّعَصُّبِ لمدينته، أو قريته، أو جيرانه، أو عائلته، أو لغته أو . . . وهذا ليس من الأخلاق الفاضلة في شيء، وإمَّا هو من أخلاق الشيطان. فإبليس هو إمام الْمُتَعَصِّبِينَ، إذ هو الذي تعصَّبَ لِخَلْقَتِهِ، وافتخر بها على آدم: تعزَّزَ بِأَنَّهُ خلق من نَّارٍ، واستوهن آدم إذ خُلِقَ من طين، وبذلك كان إبليس واضع أساس العصبِيَّةِ. وواجب المرء نبذه واجتنابه.

إِنَّ التَّعَصُّبَ يقود المرء إلى معاملة النَّاسِ وفق الفكرة أو الجهة التي يتعصَّبَ لها. فالتَّعَصُّبُ للقوميَّةِ العربيَّةِ - مثلاً - قد تجعله ينظر إلى العرب نظرة إعظام وإجلال، ويعاملهم معاملة حسنة، بينما لا ينظر إلى غير العرب (القوميَّات الأخرى) نظرة مماثلة، وقد يسيء معاملتهم باعتبارهم غير عرب، والمُتَعَصِّبُ للقوميَّةِ الفارسيَّةِ تجده ينظر إلى أبناء قوميَّته نظرة اعزاز وتقدير، ويحسن

معاملتهم، وقد يُجَدُّ كُلُّ مَا يَتَّصِلُ بِقَوْمِيَّتِهِ بينما قد تجده يستهين بالقوميَّاتِ الأخرى. وقِسْ على ذلك بالنسبة لسائر ضروب التَّعَصُّبِ، وهي كُلُّهَا تشترك في الميل المتحيِّز إلى فكرة التَّعَصُّبِ أو جهته.

وهنا مفارقة لا بُدَّ من الإشارة إليها بين التَّعَصُّبِ والْحُبِّ. فالْحُبُّ للقوميَّة والقبيلة والعشيرة والعائلة والجماعة والوطن هو حالة الولاء التي يُكِنُّهَا الفرد ويبيدها إزاء هذه الانتماءات أما التَّعَصُّبُ فهو الإفراط في الْحُبِّ، ورؤية شرُّ الجهة المنتمي إليها خيراً، فالْحُبُّ محمود والتَّعَصُّبُ مذموم.

وفي هذا الصَّدَد «سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - عَنِ الْعَصِيَّةِ، فَقَالَ: الْعَصِيَّةُ الَّتِي يَأْتِمُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا أَنْ يَرَى الرَّجُلَ شَرَّارَ قَوْمِهِ خِيراً مِنْ خِيَارِ قَوْمِ آخَرِينَ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يَحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يُعِينَ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ»^(١).

إِنَّ مَعَامَلَةَ الْإِنْسَانِ أَخَاهُ الْإِنْسَانِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ أَيْ عَنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ وَصُورِ الْعَصِيَّةِ وَالتَّعَصُّبِ، وَإِنْ كَانَ لَابَدً لِلْمَرَّةِ مِنَ الْعَصِيَّةِ، فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُهُ لِلْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالصَّلَاحِ وَالْفَضِيلَةِ.

يقول الإمام عليٌّ (ع) في خطبة القاصمة:

«وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهِ^(٢) الْجَهْلَاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيْطُ^(٣) بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرِ مَا يُعْرِفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ. أَمَّا إِنْ لَيْسَ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خَلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ. وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِأَثَارِ مَوَاقِعِ النُّعْمِ، فَ (قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) ..».

١. المصدر السابق، ص ٣٠٨.

* تمويه: تنكير.

*. تلط: تلتصق، والمقصود تكون محبة.

فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصِيَّةِ، فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجْدَاءُ وَالنُّجْدَاءُ مِنْ بَيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِبِ الْقَبَائِلِ، بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيْبَةِ، وَالْأَحْلَامِ لِعَظِيْمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَالْأَثَارِ الْمَحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبَرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَالْإِعْظَامَ لِلْقَتْلِ، وَالْإِنْصَافَ لِلْخَلْقِ، وَالْكُظْمَ لِلْغَيْظِ، وَاجْتَنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

ويقول (ع) أيضاً:

«إِنْ كُنْتُمْ لَا مَحَالَةَ مُتَعَصِّبِينَ فَتَعَصَّبُوا لِنُصْرَةِ الْحَقِّ وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ»^(٢).

وعليه فليكني يُحَسِّنَ المرء معاملته النَّاسَ واجبه أن يجتنَّب كلَّ ضروب وصور التَّعَصُّبِ المذموم، وأن يتعصَّب للحقِّ وللخير وللصلاح وللفضيلة إنَّ كان لابدَّ من العصبيَّة ..

❖ التَّسْلِيمُ بِأَخْطَاءِ الذَّاتِ

تقول الحكمة الشَّهيرة:

«الاعْتِرَافُ بِالْخَطَا فُضِيلَةٌ».

ما الذي يدفع المرء إلى تحاشي الاعتراف بخطئه، وهو يرى الحقيقة ماثلة أمام عينيه ؟

لا شيء سوى الرُّوحِ الْأَنَانِيَّةِ، والتَّعَصُّبِ الْأَعْمَى لِلذَّاتِ، والخوف من انكشاف الخطأ، وتبرئة النَّفْسِ منه. إِنَّ هُنَاكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعُدُّونَ الاعْتِرَافَ^(٣) بِأَخْطَائِهِمْ

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ١٦٦، خطبة ١٩٢.

٢. الغرر والدرر.

٣. مهمة الإشارة إلى أنه ليس المقصود من الاعتراف والتَّسْلِيمِ بالأخطاء أن يكشف المرء ذنوبه ومعاصيه للنَّاسِ، بل عليه أن يسترها ويندم عليها، ويتوب منها.

فضيلة ومنقبة فيهم، وفي الطرف المقابل هناك منهم من يتصورون أن في اعترافهم بأخطائهم، وتسليمهم بها، هزيمة لهم، وكأنَّهم يخوضون معارك مواجهة، ولا بدَّ أن ينتصروا فيها!

ولكن ما الفائدة والجدوى التي يجنيها المرء حينما ينصر نفسه على الطرف الآخر وهو يعلم - في داخله - أنه مخطئ ومخالف للحقيقة والصواب؟! هو يخادع عقله، ويتعصَّب لما لا يؤمن به حقيقة؟! وأليس هو يصاب بالتأنيب النَّفْسِيَّ واللَّوْمَ الدَّاخِلِيَّ، بينما يبدو ظاهره وكأنَّه على ما يرام؟! وأليس هو يكون ظالماً لمن يتحدَّث معه أو يتعامل، وهو على خطأ؟!!

إنَّ التَّسْلِيمَ بالأخطاء - حين الخطأ - هو الطَّريقة الصَّحيحة للتَّعامل مع الآخرين، وحين المناقشة والمناظرة، وهي تُجنَّب المرء الكثير من الآثار والنتائج غير المحمودة التي تترتَّب على التَّعصَّب للأخطاء، ومنها: الغضب، والكذب، والصُّراع النَّفْسِيَّ الدَّاخِلِيَّ، وتوتر العلاقات الاجتماعية مع النَّاسِ.

ومن القصص في مجال التَّسْلِيمِ بالأخطاء: قيل أنَّ واحداً من الكُتَّاب استطاع أن يثير شعباً بأسره، فطالما أثارت عباراته التَّمَرُّدَ، والعناد في نفوس قُرَّائِهَا. غير أنَّ الكاتب مع قَلَّةِ حظِّه من المقدرة على معاملة النَّاسِ، استطاع - في أحوال كثيرة - أن يحوِّل أعداءه إلى أصدقاء!.

ومثال ذلك: أنَّ قارئاً ساخطاً كتب إليه مرَّةً يقول: «إنَّني لا أَقْرُك على ما جاء في أحد مقالاتك» وأنهى خطابه بأن نَعَتَ الكاتب بما لا يحبُّ من الصِّفَات! فما كان من الكاتب إلَّا أن أرسل إلى القارئ يقول له: هل لك أن تتفَضَّلَ بزيارتي لنبحث معاً هذا الموضوع؟ فأنا - نفسي - لا أَقْرُ ما كتبتُ، فما كلُّ ما كتبتُ بالأمس يروق لي اليوم، وكم يسعدني أن أَطَّلِعَ على آرائك في هذا الموضوع!

فإذا أراد المرء أن يحسن معاملة النَّاسِ، ويكسبهم، ليكن حكيماً في أن لا يتعصَّب لأخطائه، وأن يُسَلِّمَ بها، فإنَّ في تسليمه بأخطائه، راحة له، ولمُحَدِّثِهِ، ولا يتصوَّر

أَنَّهُ سيشعر بالحرج، فمن يملك الرُّوح الإيجابية في التَّحَدُّث والحوار وعموم التَّعَامُل، لا يرى حرجاً حينما يُسَلِّمُ بأخطائه، وحتى مع افتراض أَنَّهُ يشعر بقليل من الحرج، فَإِنَّهُ يُفَضِّلُ ذلك على ما يترتب على التَّعَصُّب للأخطاء، والإصرار على صَحَّتْهَا من نتائج وآثار غير محمودة.

❖ الْبَدْءُ بِأَخْطَاءِ الذَّاتِ أَوَّلًا قَبْلَ الْإِنْتِقَادِ

من الأخلاقيات التي يجدر بالمرء التزامها في تعامله مع النَّاس، أن يبدأ بطرح أخطائه حينما يُخْطِئ، أو حينما يريد انتقاد شخص ما أو طرف ما لارتكابه خطأً ما، إذ أن الاعتراف بأخطاء الذات والتَّسْلِيم بها، والبدء بها قبل انتقاد الآخرين أسلوب تربويٍّ حسن للنَّفْس، بالإضافة إلى أَنَّهُ يريح المتكلم، والطَّرْف الآخر ويجعله يتقبَّل النِّقْد المَوْجَه إليه.

إِنَّ هُنَاكَ قِسْماً من النَّاس يسيطر عليهم حُبُّ الذَّات، وحينما يخطئون يُعِدُّون أنفسهم عن ذكر أخطائهم، وربما تأخذهم العزَّة بأخطائهم، فيتصَلَّبون لها، ولا يُبَدِّون أيَّ تنازل، أو اعتراف بها، وقد ينتقدون الآخرين ولمَّا يدوؤوا بذكر أخطائهم هم.

كتب أحد الكُتَّاب عن البدء بأخطاء الذات قبل الانتقاد:

«تركْتُ ابنة عَمِّي «ج. ك. « بيتها، وقدمتُ لتعمل «سكرتيرة»^(١) لي، وكانت إذ ذاك في التَّاسعة عشرة من عمرها، وقد أتمت دراستها قبل ذلك بثلاثة أعوام، وكانت تجاربها في الحياة تزيد بقليل عن العدم! ولكنَّها اليوم إحدى «السَّكرتيرات» البارعات المحنَّكات!

«وفي ذات يوم أوشكتُ أن أنتقد مَسْلِكاً لها، ولكنِّي سكتُ فجأة، وقلت لنفسي:

١. أُمَيَّةُ سِرٌّ.

لحظة واحدة، يا فلان! لحظة واحدة! إِنَّ سِنَّكَ ضِعْفُ سِنِّ «ج. ك»، ولك من تجاربك في الحياة أضعاف أضعاف ما لها، فكيف تتوقع أن يكون لها مثل وجهة نظرك، وحكمتك، ومقدرتك، مهما كانت هذه متواضعة؟ ولحظة يا فلان! ماذا كنت تعمل، وأنت في التاسعة عشرة من عمرك؟ أتذكر الأخطاء الفاضحة، والحماقات المتكررة التي كنت تأتيها؟ أتذكر الوقت الذي فعلت فيه كذا وكذا، وكيت، وكيت، وكيت؟.

«فلما قَلَبْتُ الأمر على أوجهه في نزاهةٍ وَتَجَرَّدُ، انتهيتُ إلى أن «ج. ك» وهي في التاسعة عشرة من عمرها، أفضل بكثير مما كنتُ أنا في مثل سنّها! ولم يكن هذا - للأسف! - من قبيل إدخال السُّرور على قلب «ج. ك»!!.

«وبعد تلك المرة صرْتُ كلِّما أردتُ أن أُلْفَتَ نظر «ج. ك» إلى خطأٍ أتته أبدأ بقولي: لقد آتَيْتِ يا «ج. ك» خطأً، ولكنَّ الله يعلم أنَّه ليس شراً من كثير ممَّا آتَيْتُ أنا! فأنتِ لم تولدي ولك صدق الحكم على الأشياء، بل يأتي هذا عن طريق التَّجربة وحدها، وأنت أفضل مما كنتُ أنا في مثل سنِّك. إنَّني أحمل شيئاً كبيراً من الأخطاء السَّخيفة، حتَّى أنَّه لا تحدوني أَقْلُ الرَّغبة في أن أنتقدكِ أنتِ، وسواكِ، ولكن... ألا ترى أنَّه يكون من الأصوب لو فعلت كذا وكذا؟».

إنَّ تعامل المرء مع الآخرين يجب أن لا يكون على أساس أنَّه وَهُمْ أَجْزَاءُ مِنْ آلَةٍ لا يقع فيها خطأ، بل حتَّى الآلة تُخطئُ أَجْزَاءُهَا في بعض الأحيان. بل يجب أن يعلم المرء سلفاً، وأن يضع في اعتباره أن الطَّبيعة البشريَّة تُصيبُ، وتُخطئُ، وهي ليست ملائكيَّة، ولا معصومة عن الخطأ.

كذلك من الأمور الهامة في تعامل المرء مع أخطاء الآخرين: أن لا ينفخ فيها وَيُكَبِّرُهَا، وأن يعطيها حجمها الطبيعي، وأن لا يتعوَّد على ممارسة أخطاء نفسه وأخطاء الآخرين، وأن يتعامل مع الأخطاء على أنَّها أمور ممكنة الوقوع وقابلة للعلاج في الوقت ذاته.

فإذا حدث أن كان المرء هو المُخطئُ، سواء كان في الأفكار وفي الآراء وفي وجهات

النظر، أو في مجالات التَّعامل الأخرى، وكان الآخرون مُصِيبِينَ، ففي هذه الحالة لا بُدَّ أن يلتزم الصَّراحة مع نفسه، ومع الآخرين، لا أن يبرر أخطاءه، ويتعصَّب لنفسه، ويستعمل اللَّف والدَّوران. بل لا بُدَّ أن يتَّهم نفسه قبل أن يتَّهم الآخرين، وأن يبصر عيوبه قبل أن يبصر عيوبهم، وأن يعترف بأخطائه أمام نفسه دائماً.

وفي هذا، يقال أنَّ سقراط كان جالساً - ذات يوم - مع أحد تلاميذه على حافة بركةٍ فيها ماءٌ راكدٌ، فقال سقراط لتلميذه: ما هذه البركة؟ قال التلميذ: إنَّه الماء.

إلا أنَّ سقراط بدأ يُبَيِّنُ له أنَّ ذلك ليس ماءً، وأورد عشرات الأدلَّة على ما ذهب إليه، واستسلم التلميذ لأستاذه رغم قناعته بخلاف ما قال. غير أنَّ سقراط مد يده إلى البركة، واغترف كفاً من الماء، ثمَّ رماه في البركة، وقال لتلميذه: هذه الحقيقة أكبر دليل لك على أنَّه ماء، وأنَّ ما ذهبْتُ إليه ليس صحيحاً.

فإذا أخطأ الآخرون، فالمطلوب منه أن يبدأ بأخطائه أولاً قبل أن ينتقدهم وفي انتقاده لهم يجب أن يكون أخلاقياً، بحيث يشجَّعُهُم النَّقد على الاعتراف بأخطائهم والإقلاع عنها، ليس المطلوب أن يُهَيِّئَهُمْ، ويجرح مشاعرهم، ويجعلهم يتعنَّثون لأخطائهم ويُصرُّون عليها.

وللتَّعامل مع أخطاء الآخرين، هناك ثلاثة أمور، خليقة بأن تؤخذ بعين الاعتبار:

الأوَّل: أن لا يتَّبَعَ المرءُ عثراتهم، وأخطائهم.

الثاني: أن يحملها على الخير، لا على الشرِّ.

الثالث: أن لا يجرح كبرياءهم إذا ارتكبوا خطأً.

وهنا قد يتسأل المرء: هل المطلوب - إذن - السُّكوت عن أخطاء النَّاس، أو تبريرها؟

والإجابة:

إِنَّ الْأَخْطَاءَ عَلَى قِسْمَيْنِ:

- صغيرة، وهذه قد لا تستحقُّ الذِّكْرَ، ويمكن تجاوزها أو تحملها أو غفرانها.
- كبيرة، وهذه تبين بصورة أخلاقية وفنيّة.

وحَتَّى فيما يرتبط بالأمر بالمَعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، والذي من ضمنه استنكار العمل القبيح الذي يرتكبه الآخرون، وتوجيههم إلى الاقلاع عن أخطائهم ومعاصيهم، وضع الإسلام الحنيف عدّة شروط، منها: شرطاً القدرة، واحتمال التأثير في مقتَرِفِ الخطأ أو المعصية، فإذا كان هذا الاحتمال ضئيلاً أو معدوماً لا يجب الأمر بالمعروف، والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، موجّهاً إلى استعمال الحالة الأخلاقية والفنيّة في العمل بهذين الفرعين^(*) الهامّين من فروع العِشْرَةِ.

إذن: في تعامل المرء مع الأخطاء لبيد بأخطائه قبل أن يبيّن أخطاء الآخرين، وإذا ما كان الآخرون مخطئين، فليجعل نقده لهم مشجّعاً لهم على تلافي أخطائهم.

❖ كَيْفِيَّةُ التَّعَامُلِ حِينَمَا يُخْطِئُ الْآخَرُونَ

من الأساليب التي يكون لها وقع شديد على نفوس النَّاسِ، وتبعث روح الانقباض والتّذمر واليأس فيهم، وعدم الاندفاع والتّقدّم: تبيان أخطائهم بشكل هجومي، أو لاذع، أو بشكل مباشر، وتفضيخ وتضخيم غلطاتهم وعثراتهم، واعتبارها كبيرة، أو عسرة التّصحيح.

وكمثال على ذلك:

نَجَّارٌ يَعْمَلُ فِي وَرْشَةٍ لَهُ، وَلَهُ مُسَاعِدٌ جَاءَ يَتَدَرَّبُ عَلَى يَدَيْهِ. يَكْلِفُ النَّجَّارُ مُسَاعِدَهُ بَصَانَةَ مَنُذَدَةٍ، فَيَقُومُ الْآخِرُ بِإِنْجَازِهَا امْتِثَالاً لَطَلَبِ أَسْتَاذِهِ. وَيَصَادَفُ

*١. للاطلاع على تفصيلات الأمر بالمعروف والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، تراجع كتب الحديث الشَّريف، والرسائل العلميّة للفقهاء.

أَنْ تَنْجَزَ الْمُنْضَدَةُ ضَعِيفَةٌ غَيْرُ مَتِمَّاسِكَةٍ. فَيَأْتِي النَّجَارُ لِمُسَاعَدِهِ، وَيَقُولُ لَهُ مُقَرَّعًا: مَا هَذِهِ الْمُنْضَدَةُ؟! إِنَّكَ لَا تَفْقَهُ شَيْئًا فِي فَنِّ النَّجَارَةِ، وَيجدر بك أن لا تصبح نَجَّارًا!

إِنَّ أَسْلُوبَ النَّجَّارِ هَذَا قَدْ لَا يَعْمَلُ عَلَى عَدَمِ إِصْلَاحِ خَطَا الْمُسَاعِدِ فَحَسَبَ، بَلْ قَدْ يَعْمَلُ عَلَى إِحْدَاثِ حَالَةٍ يَأْسُ فِيهِ مِنَ التَّقَدُّمِ فِي فَنِّ النَّجَارَةِ، وَالِاسْتِمْرَارِ فِيهَا، وَرَبَّمَا تَرَكَ النَّجَارَةَ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ إِلَيْهَا. بَيْنَمَا لَوْ اسْتَعْدَمَ أَسْلُوبًا آخَرَ، وَقَالَ لِمُسَاعَدِهِ: إِنَّنِي فِي بَدَايَةِ اسْتِغَالِي بِالنَّجَارَةِ لَمْ أَكُنْ أَوْفَرَ حِطًّا مِمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ الْآنَ، وَآمِلُ أَنْ تَحْطِيَ بِمُسْتَقْبَلٍ جَيِّدٍ فِي فَنِّ النَّجَارَةِ، وَمَعَ اعْتِذَارِي، إِنَّ الْمُنْضَدَةَ الَّتِي صَنَعْتَهَا، كَانَ حَرِيًّا بِكَ أَنْ تَجْعَلَهَا أَكْثَرَ قُوَّةً وَمَتَانَةً وَجَمَالًا، وَإِنِّي لَا أَشْكُ فِي أَنَّ مُسْتَوَاكَ فِي حِرْفَةِ النَّجَارَةِ سَيَشْهَدُ تَطَوُّرًا - إِلَى الْأَفْضَلِ - مَلْمُوسًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَهَكَذَا الْحَالُ فِي جَمِيعِ مَجَالَاتِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ فَالْأَوَّلَى أَنْ لَا نَجْعَلَ مِنْ غُلَطَاتِهِمْ وَزَلَّاتِهِمْ وَأَخْطَائِهِمْ أُمُورًا لَا تَقْبَلُ التَّصْحِيحَ، وَيَنْبَغِي أَنْ نَجْعَلَهَا تَبْدُو مِيسُورَةَ التَّصْحِيحِ، سَهْلَةً. وَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: إِذَا أَخْطَأَ شَخْصٌ بِأَنْ قَالَ كَلِمَةً غَيْرَ لَائِقَةٍ، أَوْ فَعَلَ فِعْلًا غَيْرَ لَائِقٍ أَوْ صَحِيحٍ، فَمَنْ الْخَطَا أَنْ نَقِيمَ الدُّنْيَا وَلَا نَقْعِدَهَا، بَلِ الْأَجْدَرُ بِنَا أَنْ نَعَامِلَهُ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ، بِأَنْ نَقُولَ لَهُ: الْمَعْرُوفُ عَنْكَ أَنَّكَ إِنْسَانٌ تَعْرِفُ كَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَ النَّاسِ بِوَجْهِ حَسَنٍ، وَلَيْسَ مِنْ عَادَتِكَ أَنْ تَتَلَفَّظَ بِكَلِمَاتٍ غَيْرَ لَائِقَةٍ، أَوْ تَفْعَلَ أَفْعَالًا غَيْرَ مَحْمُودَةٍ، أَوْ غَيْرَ صَحِيحَةٍ بِحَقُّهُمْ، وَإِنَّا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّكَ تَعْلَمُ خَطَا مَا قُلْتَ، وَلَنْ تَقْتَرِفَ مِثْلَ ذَلِكَ مُسْتَقْبَلًا.

وَحَتَّى فِي مَجَالِ التَّعَامُلِ مَعَ الْأَعْمَالِ، فِإِظْهَارُهَا بِأَنَّهَا صَعْبَةٌ، وَمُسْتَعْصِيَةٌ قَدْ تَبْعَثُ فِي حَمَلِهَا إِحْسَاسًا بِعَدَمِ أَوْ ضَعْفِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا، بَيْنَمَا جَعَلُهَا تَبْدُو سَهْلَةً وَهَيْئَةً، أَسْلُوبٌ حَسَنٌ لِأَنْ يَتَحَمَّلَهَا - بِشَكْلِ جَيِّدٍ - مَنْ هُوَ مَكْلَفٌ بِالْقِيَامِ بِهَا.

فِإِذَا أَرَادَ الْمَرْءُ تَنْبِيهِ الْآخَرِينَ دُونَ أَنْ يُرِيقَ مَاءَ وَجْهِهِمْ، لِيَكُنْ حَكِيمًا فِي أَنْ يَجْعَلَ أَخْطَاءَهُمْ مِيسُورَةَ التَّصْحِيحِ، وَأَنْ لَا يُفْخَمَهَا، وَأَنْ يُظْهِرَ الْأَعْمَالَ الَّتِي يَرِيدُ أَنْ يَقُومُوا بِهَا، سَهْلَةً، هَيْئَةً.

❖ احْتِرَامُ آرَاءِ الْآخَرِينَ وَتَلَاْفِي تَخْطِئَتِهِمْ

قال الإمام عليّ (ع):

«مِنْ أَبْصَرَ زَلَّتْهُ صَعْرَتْ عِنْدَهُ زَلَّةٌ غَيْرُهُ»^(١).

ذات يومٍ رأى الإمامان الحسنُ والحسينُ - عليهما السَّلام - رجلاً كبيراً في السَّنِّ يتوضأ بطريقة خاطئة، وكانا صغيرين في السَّنِّ.

فجاء إليه قائلين: يا عمُّ! هل لك أن ترينا أيّاً وضوءه الأصحُّ؟ وبدءا يتوضآن حتّى أَمَّما الوضوء وبمجرد أن انْتَهَيَا قال لهما العجوز: بارك الله فيكما ... وَضُوءُكُمَا هو الصَّحِيحُ ووضوئي هو الخطأ.

وبهذه الطريقة المهدّبة نبَّها الرّجل إلى خطئه دون أن يقول له إنّ وَضُوءَكَ خاطئ، ولربّما لو اتَّبعا الطَّريقة المباشرة في تبيان الأخطاء وتصحيحها لأَصْرَ الرّجل على صِحّة وضوئه وخطأ وضوئهما.

وبناءً على ذلك، من الأمور الحسنة في صناعة وتنمية العلاقات الاجتماعيّة مع النّاس، والتّعامل معهم: احترام آراءهم، ووجهات نظرهم، حتّى لو كانت تختلف مع وجهات نظرنا. واحترام آراء الآخرين فضلاً عن أنّه أسلوبٌ جيّدٌ في معاملة النّاس، فهو مفتاح للدّخول إلى قلوبهم، ومن ثمّ إقناعهم وكسبهم، والتّأثير فيهم.

أمّا إذا قُوبِل الطّرف الآخر بعدم الاحترام لآرائه ووجهات نظره، والاستخفاف بها وتسفيهها، فإنّه يشعُر بالإهانة، وربّما بانخداس المشاعر، وقد تأخذه العزّة بأفكاره وآرائه ووجهات نظره، فيتعصّب لها وإن كانت خاطئة، وربّما يجادل دفاعاً عنها، وقد تتأثّر العلاقة الاجتماعيّة به سلبياً.

فإذا أراد المرء - أو قُدِّرَ له - أن يتحاور مع شخص آخر، أو يتناقش معه،

١. الغرر والدرر.

وكان الأخير مخطئاً، فمن الأفضل أن لا يقول له: إِنَّ أفكارك وآراءك خاطئة، بشكلٍ سافرٍ، أو أن يقول له: إِنَّ الحقيقة عكس ما تقول تماماً، وخصوصاً في تلك المعاملات أو المناقشات أو الحوارات التي لا يكون للخطأ فيها آثار خطيرة. بل من المُفَضَّل أن يبدأ بالقول له: مع احترامي، وتقديري لأفكارك وآرائك ووجهات نظرك... ومن الجيّد أن تذكر نقاط الإيجاب فيها، لأنها تفتح قلبه، ثمَّ بعد ذلك يوضّح أفكاره له بصورة هادئة، مفعمة بالإخلاص والاحترام، وسيجده أنّه بدأ يقترب إلى أفكاره، يأخذ بها، فعلى أقلّ التقادير سيضع في نفسه أنّه احترامه، وقدّر أفكاره وآراءه، وبالتالي فلن يعامله إلّا بالتقدير والاحترام.

بَيِّدَ أَنَّ هناك من النَّاسِ، مَنْ إذا طُرِحَتْ عليهم أفكار ووجهات نظر من آخرين، فإنَّهم يَفْهَمُونَهَا، ويستخدمون مثل هذه العبارات القاطعة: «الحقيقة عكس ما تقول» أو «كلامك لا يُمُتُّ إلى الصَّوابِ بِصِلَةٍ» أو «الحقيقة خلاف ذلك» وما شابه ذلك من العبارات الحَدِّيَّة. ولو أنَّهم تَرَوُّوا وقدَّروا أفكار الآخرين، وأشاروا إلى أخطائهم من طَرَفٍ خَفِيٍّ، أو بصورة فَنِّيَّة غير مباشرة، لكان أجدى لهم، وأفضل، وللآخرين أيضاً.

وَرُبَّ قائل يقول: وما الدَّاعي إلى اللَّفِّ والدَّوران مع النَّاسِ؟

وللإجابة على ذلك:

إِنَّ هذا ليس لَفّاً ودوراناً، وذلك لأنَّ النَّاسَ متفاوتون في تقبُّل نقد الآراء، وفي تقبُّل تبيان الأخطاء، وهم ذوو مشاعر وأحاسيس متفاوتة بطبيعة الحال، فمنهم من يعترف ويسلِّم بالخطأ، ويتقبَّل برحابة صدر، ومنهم من يتقبَّله بقدرٍ معيَّن، ويحدود معيَّنة، ومنهم من لا يتقبَّله، فيكون مسرحاً للتأثير السَّلْبِيِّ بسببه.

وبناءً عليه، فاستخدام الاساليب الفَنِّيَّة غير المباشرة في تبيين أخطاء الآخرين أو انتقادهم، ليس لَفّاً أو دوراناً بل هو أسلوب موضوعيٌّ حسنٌ يراعي مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم.

وإذا كان لزاماً على المرء أن ينتقد طرفاً ما، فالأولى به أن يبيِّن له أخطاءه من طَرَفٍ خَفِيٍّ، وبشكل فَنِّيٍّ، لا بصورة مباشرة، خاصّة إذا كان رقيق المشاعر، سريع

التأثّر، وأن لا يفرض المرء معدنه على الشّخص الآخر فيما إذا كان (المرء) قويّ التّحمّل للنّقد، وبذلك يحقّق أمرين:

- تبيان الحقيقة للطّرف الآخر، وبيان خطأ ما يعتقد أو يقول.
- تجنّب علاقته به التّوتّر والبغضاء المحتملة.

ومن القصص في مجال التّصرف إزاء الأخطاء والإشارة إليها بشكل غير مباشر قيل: كان أحد أصحاب المتاجر يستخدم هذا الأسلوب نفسه في معاملة عمّاله. فقد اعتاد أن يقوم بجولة في متجره يومياً. وفي ذات يوم رأى أحد الزّبائن ينتظر صابراً دون أن يُعيّره أحد العمّال التفتاتاً، فأين كان الباعة؟ كانوا في طرفٍ ناءٍ من المتجر يسمّرون يتندّرون، ولم يَفْهَ بكلمة، بل تسلّل في هدوء إلى ما وراء الحاجز حيث يقف الباعة، ولبّى طلب الزّبون بنفسه، ثمّ سلّم البضاعة إلى أحد عماله كي يلفّها، وانصرف لحاله.

وهكذا فليكني يُحسّن المرء معاملة النّاس، ويكسّهم إلى وجهة نظره، فليكن حكيماً في أن يحترم أفكارهم، ويبيّن أخطاءهم - إذا كان لازماً - من طرفٍ خفيّ وبطريقة فنيّة محبّبة.

❖ كيف يكسب المرء النّاس إلى وجهة نظره؟

الأهمّ من كسب النّاس إلى وجهة نظر معيّنة أو إقناعهم بها: نوعية وجهة النّظر ذاتها، وموقعها على مقياس الحقّ والباطل، والخير والشرّ، بعبارة أخرى: إنّ أيّ فكرة أو رأي، أو وجهة نظر لكي تكون جديرة بأن يكسب النّاس إليها ويقتنعوا بها، يجب أن تتحقّق فيها شروط الحقّ والخير والفضيلة. أمّا الفكرة أو الرّأي أو وجهة النّظر غير المحقّقة وغير الخير هي ليست جديرة بإقناع النّاس بها. بطبيعة الحال، إذ ليس من الجائز ولا من الصّحيح إقناعهم بما هو شرّ وباطل ورذيلة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإنَّ كسب النَّاسِ إلى وجهة نظر ما يجب أن يعتمد الإخلاص، والابتعاد عن الضَّحك على ذقونهم. إِنَّ أَيَّ فِكْرَةٍ أو ثقافة، أو فِكْرَةٍ أو رأي أو وجهة نظر، وإن كانت شريفة أو ساقطة قد يَمُكِنُ إقناع النَّاسِ بها، باعتماد واستعمال قواعد علميَّة وسيكولوجيَّة، وباستعمال التَّزيين والخداع^(١) ولكنَّ هذا أمر مرفوض ومردود لأنَّه دعوة للنَّاسِ إلى الباطل، وضحك على ذقونهم، وإساءة لمعاملتهم.

أمَّا الفِكْرَةُ، أو الرَّأي، أو وجهة النِّظَر المحقَّقة والخيرة لكي يُقنع المرء النَّاسَ بها، ويكسبهم إليها، هناك طرائق وقواعد لذلك، ومنها ما يلي:

- تجنُّب الجِدال مع الطَّرَف الآخر

إِنَّ أَفْضَلَ السُّبُلِ لكسب جدالٍ هو تجنُّبه. قال بعضهم: إذا جادلت وتحدَّيت وناقضت فرمًا استطعت أن تنتصر أحياناً، ولكنَّه نصرٌ أجوف، لأنَّك ستخسر - على أية حال - حسن علاقتك بمُحدِّثك. فماذا تفضِّل: انتصاراً أجوفاً، أم علاقة طيِّبة بالشَّخص الآخر؟ فأنت قلَّما تفوز بالاثنتين معاً. وكما تقول الحكمة المأثورة: الرَّجُلُ الَّذِي أُرْغِمَ عَلَى أَنْ يَعْتَقِدَ مَا لَيْسَ يَعْتَقِدُهُ لَا يَزَالُ عِنْدَ اعْتِقَادِهِ الْأَوَّلِ.

- احترام آراء الشَّخص الآخر والابتعاد عن تخطئته

الأفضل للمرء أن لا يبدأ حديثه بقوله لمُحدِّثه: «سأثبت لك هذا أو ذاك» فإنَّ هذا القول يعادل قوله: «إنَّني أذكي منك وأقدر منك، وسألقي عليك درساً لألغي ما يدور في ذهنك» وهذا يستثير عناد الشَّخص الآخر حتَّى قبل أن يبدأ المرء بالحديث. وإذا أراد المرء أن يثبت شيئاً للأفضل أن لا يعلن ذلك مسبقاً، وأن يثبتته في كياسة ولباقة حتَّى لا يكاد يشعُر الآخر بذلك.

تقول الحكمة الشَّهيرة: «كُنْ أَحْكَمَ النَّاسِ إِذَا اسْتَطَعْتَ، وَلَكِنْ لَا تَقُلْ لِلنَّاسِ ذَلِكْ».

وإذا ظنَّ المرء بأن متحدثاً أخطأ، أو جرَّم بخطئه، فالأفضل أن يقول له: مع

١. يستعمل هذا أصحاب الثقافات المنحرفة والسَّاقطة في الدَّعوة إلى تلك الثقافات وترويجها.

احترامي لرأيك، فأنا أرى رأياً آخر، وقد أكون مخطئاً، فإذا كنت قد اخطأتُ فلتصحح لي خطئي، فدعنا نختبر الآراء.

- التَّسْلِيمُ بِالْخَطَأِ

إذا أدرك المرء أنه على خطأ، فمن الأحب أن يسبق الشخص الآخر إلى التسليم بخطئه، إذ من الأفضل أن يستمع المرء إلى النقد الموجّه إليه من نفسه بدلاً من أن ينصت إليه من شخص آخر. إن التسليم بالأخطاء سبيل إلى الارتفاع والسُّمو، ومتعة تعود على المرء لا يشعر بها حين يحاول تبرئة نفسه وإنكار أخطائه.

- التَّوَسُّلُ بِالرَّفْقِ وَاللِّينِ وَتَرْكُ الْغَضَبِ وَالْعَنْفِ

بطبيعة الحال لا يمكن لامرئ أن يقنع شخصاً آخر أو يكسبه إلى وجهة نظره إذا كان قلب هذا الأخير مفعماً بالحنق عليه والبغضاء له، ومن هنا فاستعمال الرفق واللين مع الآخرين أمر يساعد على إقناعهم بالآراء ووجهات النظر.

- تقديم أسئلة تُثمر إجاباتٍ بالإيجاب

إذا تناقش أمرؤ مع شخص آخر، فلا يبدأ معه بنقاط الاختلاف، بل يبدأ بذكر وتأكيد نقاط الاتفاق. وكما يقال: «دع الشخص يظّل يقول: «نعم» في مبدأ الأمر، وحُلْ بينه - ما استطعت - وبين قوله: «لا». فالمتحدّث اللبّق هو الذي يحصل من الشخص الآخر على أكبر عدد من الإجابات بـ (نعم) في بادئ الأمر.

يقول أحد الكتّاب في هذا الصّد:

«كان سقراط عبقرياً برغم أنّه كان يمشي حافي القدمين، وبرغم أنّه تزوّج من فتاة في التاسعة عشرة من عمرها عندما كان هو رجلاً أصلاً ذميمة الخلقة في الأربعين من عمره... فماذا كانت طريقته في الإقناع؟ هل كان يقول للناس أنّهم مخطئون؟ كلا! بل كان يسأل أسئلة لا يملك مُجَادِلُهُ إلّا الإجابة عنها بنعم! ويظلّ سقراط يكسب الجوانب تلو الجوانب حتّى ينظر مُناظره، آخر الأمر، فيرى أنّه انتهى إلى مبدئ كان يُنكره منذ دقائق خلت!».»

- جعل الشَّخص الآخر يتحدَّث بحريَّة

إنَّ الأحبى في إقناع الطَّرَف الآخر إتاحة الفرصة له لكي يتولَّى دَقَّة الحديث ويتحدَّث بحريَّة تامَّة. ويمكن استدراجه إلى الحديث بالأسئلة، وجعله يفضي بما في نفسه. ومن المفصَّل الامتناع عن مقاطعته في حديثه، ما دام لم يكمله بعد، والإنصات إليه بصبر، ووعي، وتشجيعه على إبداء آرائه.

- جعل الشَّخص الآخر يُحسُّ أنَّ الرَّاى رأيه

إنَّ من طبيعة الإنسان أنَّه يعتزُّ بالأفكار والآراء التي يتوصَّل إليها بنفسه أكثر مما يعتزُّ بتلك التي تُقدِّم إليه جاهزة، ومن هنا فالأفضل لإقناع شخص آخر بآراء معيَّنة وإتاحة الفرصة له لكي يتوصَّل إلى تلك الآراء بنفسه ولكي يشعر بأنَّ الرَّاى الذي توصَّل إليه هو رأيه وأنَّ الفكرة فكرته.

- رؤية الأمور من وجهة نظر الطَّرَف الآخر

قد يكون الشَّخص الذي يراد إقناعه مخطئاً، ولكنَّه لم يسلم بأخطائه، وقد لا ينفع معه اللُّوم للاعتراف بخطئه والافتناع بالحقيقة، فالأفضل أن لا يُلام و عوضاً عن ذلك هو بحاجة إلى أن يُفهم، ويُستعان عليه بالصَّبر، وأن تُقدَّر وجهة نظره، ويُتطلَّع إلى الأمور من النَّاحية التي ينظر منها إليها. وسوف يجد من يريد الإقناع أنَّ سبباً غير مرئيٍّ قد أوحى للشَّخص الآخر أن يفكر كما يفكر، أو يتصرَّف كما يتصرَّف، وأن يقنع بما أريد إقناعه به.

- العطفُ على رغبات الشَّخص الآخر

من الطَّرائق التي تُروِّق جوَّ الحديث، وتُشيع روحاً طيِّبة فيه، وتجعل الطَّرَف الآخر يُصغي للمُحدِّث باهتمام: تقدير أفكار الطَّرَف الآخر، والعطف عليه وعلى رغباته. ومثال ذلك أن تقول له: لستُ ألومك على موقفك هذا، أو على إحساسك هذا، ولو كنتُ في موقعك لكان لي مثل الموقف الذي اتَّخذتُ أو الإحساس الذي أحسستُ.

إِنَّ أَغْلَبِيَّةَ النَّاسِ ظَمَأَى إِلَى العُطْفِ والتَّقْدِيرِ وبِإِرْوَاءِ هَذَا الظَّمْأِ، يَهْبُونُ قُلُوبَهُمْ، موافقة لمن يريد إقناعهم وكسبهم إلى وجهة نظره. فقد يأتيك شخص خائفاً غاضباً لا يستحقُّ منك اللّوْمَ بقدر ما يستحقُّ الأسفَ والرَّثاءَ لحاله، فقدم له عطفك وستجد أنك كسبته إلى جانبك.

- التَّوَسُّلُ إِلَى الدَّوَاغِعِ النَّبِيلَةِ فِي الطَّرْفِ الْآخَرِ

إذا شاء المرء أن يغيّر طباع النَّاسِ، ويقتنعهم بأفكاره ووجهات نظره الصَّحيحة، لزم أن يخاطب كوايِّن النَّبْلِ والخير فيهم. فإنَّ من النَّاسِ من هم خَيْرُونَ وأمناء ومخلصون، ومنهم الشَّرِيرُونَ والمُشَاكِسُونَ والعنيدُونَ، فحتَّى هؤلاء الأخيرين يستحيلون منصفين ومخلصين، ويقتنعون بما يُراد إقناعهم به فيما إذا عوملوا على أنَّهم منصفون ومخلصون، وخُوطبت دوافع الخير والنُّبل فيهم.

- استعمال التَّمثِيلِ فِي عَرْضِ الْأَفْكَارِ وَالْآرَاءِ

قد لا يكون سرد الحقائق مجردةً، كافياً، لإقناع الشَّخص الآخر وهنا يلزم للمرء أن يسوقها له في أسلوب تمثيليٍّ، ولا شك أن الأسلوب التمثيليَّ يؤثر في نفس الشَّخص الآخر أكثر ممَّا يؤثر أسلوب سَوِّقِ الحقائق مجردة. والأسلوب التمثيليُّ في الإقناع يتمُّ باستعمال الحركات والارشادات التمثيلية في الحديث لتقريب الأفكار إلى الشَّخص الآخر وجعلها تؤثر فيه، أو باستعمال العرَضِ الماديِّ: عرض مادَّة الشَّيء التي يراد إقناع الشَّخص الآخر بها أو إفهامه إيَّاهَا، كما يعرض الباعة سِلَعَهُمْ بطريقة فنيَّة تجتذب المشتريين، وكما يفعل التَّمثِيلُ التِّلْفِيزِيُونِيُّ والإذاعيُّ.

- وَضْعُ الْأَمْرِ مَوْضِعَ الْمُنَافَسَةِ

تعمل المنافسة الخيرة على بثِّ الحماس في قلوب الطَّرْفَيْنِ المتنافسين، وتحفِّز على سرعة الإنجاز وجودته، وعلى الرِّغبة في التَّفوق. وهذه الرِّغبة يمكن استعمالها في إقناع الشَّخص الآخر. وكمثال على ذلك: هبْ أنَّكَ تريد إقناع شخصين عاملين لك بأمرٍ ما - كزيادة إنتاج سلعة معيَّنة - وقد تطلَّب منهما زيادة الإنتاج بصورة مجردة فلا يقتنعان ولا يستجيبان لطلبك. ولكن لو أنَّكَ جربت أسلوباً آخر، وهو إيجاد حالة

تنافس في زيادة الإنتاج، بينهما فإنَّك ستجد أنَّ كُلاًّ منهما سيسعى للتَّفوق على الآخر، وبذلك سيزداد الإنتاج: الأمر الذي أردت اقناعهما به.

والآن فَلِكِي يَكْسِبِ المرءُ النَّاسَ إلى أفكاره وآرائه ووجهات نظره المُحِقَّة، خَلِيقَ به أن يتوسَّل بالقواعد المتقدِّمة الذِّكْرِ.

❖ كَيْفَ يَطْلُبُ المرءُ مَا يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ؟

لَمَّا كانت الحياة قائمة على التَّعاون والتَّكامل والتَّكميل فإنَّ كلَّ فرد فيها لا بدَّ وأن يحتاج إلى الآخرين، وأن يطلب منهم القيام بعمل ما. ومن طبيعة النَّاس أنَّهم متفاوتون في تقبُّلهم للأوامر والمطالب، فمنهم من لا يريد أن يُؤمر، بل يحب أن يُلتمس منه، أو أن يُرجى في القيام بعمل معيَّن، ومنهم من لا يُمانع في الاستماع إلى الأوامر، وله قابلية الإستجابة إليها. إلَّا أنَّ غالبية النَّاس - على ما يبدو - لا تُفضِّل الأوامر المباشرة، لأنَّهم يُحسُّون أنَّها تنال من شخصياتهم، وطمسُ كبرياءهم، ويفضَّلون أن تُقدَّم لهم الأوامر والمطالب في صورة التِّمَاسَاتِ أو رجاءاتٍ أو اقتراحاتٍ أو تَمَنِّيَّاتٍ أو آمالٍ أو ما شابه ذلك.

وعلى سبيل المثال:

إنَّ مُوظِّفاً لا مانع لديه أن يلبِّي الطلبات والأوامر، إذا كان قد تلقَّاهَا من مُديره، أو من غيره، في صورة التماس، أو رجاء، بل إنَّه بهذا الأسلوب ينطلق في تأديتها ويندفع. ولكنَّه قد لا يكون مستعداً لتنفيذ الأوامر المباشرة، أو قد ينفضُّها من وراء أنفه.

ومن هنا فإنَّ مراعاة الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ والجانب النَّفْسِيَّ للشَّخص الآخر، من أهمِّ الأمور والمسلَكِيَّات في التَّعامل مع النَّاس، ومنه الطَّلَبُ منهم - في أيِّ موقع من المواقع، وفي أيِّ مُؤَسَّسة من المُؤَسَّسات.

وهناك الكثير من التَّعبيرات الحسنة في هذا المجال، قد تجعل الطَّرْفَ الآخر يقوم بالأعمال المرجُوة منه، من تلقاء نفسه. ومثال تلك التعابير: «ألتمس منك أن تقوم

بكذا وكذا . . . ، «ألتمس منك أن تساعدني في كيت وكيت . . . » ، « أقترح أن تفعل كذا وكذا . . . » ، «أتمنّى أن تفعل كذا وكذا . . . » ، « آمَل أن تقوم بكذا وكذا . . . » ، «من المفضّل أن تفعل كذا وكذا . . . » ، « ما رأيك أن تقوم بكذا وكذا . . . » ، « هل لك أن تصنع كذا وكذا . . . » ، « أتوسّم فيك أن تقوم لي بكذا وكذا . . . » .

ولو أنّ المرء استخدم عقله جيّداً وذوقه الكلامي، لتوصّل إلى الكثير من العبارات اللطيفة التي تعطي مفهوم الطّلب والأمر للآخرين من أجل أن يقوموا بالأعمال المرادة منهم، ولكن بصورة فنيّة غير مباشرة. ولا غرابة إذ وُجد كثيرون من النَّاس يندفعون للقيام بالأعمال، بإشارات، أو برموز كلامية فنيّة، تقدّر شخصيّاتهم، وتحفظ كرامتهم، وتراعي مشاعرهم.

ثمّ أنّ أسلوب الالتماسات، والرجاءات، والاقتراحات، والتّمنّيات، والآمال يُسهّل على الطّرف الآخر أن يُصحّح خطأه، فيما إذا كان مخطئاً، لأنّه يحتفظ له بشخصيته، ويُشيع فيه الإحساس بالأهميّة، ويُسلّس قيادته، ويدفعه إلى التّعاون والموافقة، بدل أن يُحقّره إلى المشاكسة والعناد.

ويمكن للمرء أن يجرب بنفسه هذا الأسلوب، كأن يقول لشخص يعرفه: أتمنّى لو تساعدني في عملي هذا، أو بأسلوب يشابه هذا الأسلوب، فإنّه سيهّب في مساعدته راغباً. أمّا لو طلب منه ذلك في صورة أمر مباشر، فقد لا يستجيب له، وربما يردّ عليه بقوله: ومن أنت حتّى تصدر أوامرك إليّ؟

وفضلاً عن أنّ غالبيّة النَّاس لا تُفضّل استقبال الأوامر المباشرة، فإنّ قسماً منهم لا يستسيغ استقبالها أمام جميع النَّاس، لأنّ الأمر المباشر أمام المجموع قد يُحدث تأثيراً لا إيجابياً أكبر منه بشكل ثنائيّ. وكقاعدة: إنّ نوع معدن الإنسان وطبيعته البشريّة وحالاته النفسيّة هي التي تحدّد طريقة الطّلب منه، وأنّ الأفضل هو استعمال الطّلب بأسلوب غير مباشر.

فليكني يجعل المرء النَّاس يندفعون إلى الأعمال التي يريّوها منهم، أو يقترحها عليهم، لا يُصدّرَن لهم الأوامر المباشرة، وليطلب ما يريده منهم في صورة التماس، أو رجاء، أو اقتراح، أو تمنّي، أو أمل أو ما شاكل ذلك.

❖ تَحْيِيبُ الْآخَرِينَ فِي الْأَعْمَالِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُمْ

من الأمور التي على الإنسان أن يدركها في معاملته النَّاسَ، أنَّهم ينطلقون في أداء الأعمال التي يرغبون فيها وإليها، فضلاً على الأعمال التي يندفعون فيها ذاتياً، وهذا أمر طبيعيٌّ، وعليه فلا ننتظر من الآخرين أن يقوموا لنا بأعمال تبدو وكأنها قرارات بعيدة عن تحبيبنا إيَّاهم، وترغبتنا.

ومثال هذه القاعدة:

أن يريد أمرؤ تكليف شخص آخر بتدريس مجموعة من الطُّلاب في جانب معيَّن. فيأتي ويقول له بصدق نيَّة وإخلاص: إنَّ مهنة التدريس من المِهَنِ الإنسانيَّة المؤثِّرة اللطيفة، وللمُدَّرِّسِينَ دورٌ أوَّلِيٌّ وكبيرٌ في تعليم النَّاس، ونقلهم من مستوى إلى آخر، وفي توجيههم وتربيتهم، فهو الذي ربَّى وعَلَّمَ المهندس، والطَّبيب، وكلَّ أخصائيٍّ في الحياة، وإنِّي لأتوسَّم فيك، وأنتظر منك أن تقوم بمهمَّة التدريس على خير ما يرام، كما إنِّي لا يساورني الشَّك في كفاءتك في التدريس وقُدرك عليه، ولا في كونك محبِّاً لهذه الخدمة الإنسانيَّة النبيلة، وأنَّه لثواب جزيل ينتظرك في اليوم الآخر قبل هذه الخدمة العظيمة.

وبعد هذا لا غرابة إذا وُجد هذا المدرِّس ينطلق وبإخلاص في التدريس، ويتفاعل معه، ويقوم به على خير وجه، والسَّبب يعود إلى الحبِّ والرغبة اللذين أُحدثا في نفس هذا الإنسان تجاه خدمة التدريس.

ومثال آخر على ذلك:

قد تطلب من طفلك الاغتسال، فيرفض، فتأتي إليه وتقول: «إنَّك إذا اغتسلت بالماء والصَّابون ستُصبح نظيفاً عبقاً، وسيحبُّك اصدقائك الأطفال»، وبذلك ستجده يوافقك على الاغتسال.

وهكذا الحال بالنِّسبة لأعمال الخير الأخرى، فتحبيب النَّاس فيها، وتحبيبها إليهم، وسيلة إنسانيَّة ناجحة، تجعلهم يندفعون إليها، وينطلقون بنشاط في أدائها.

والتحبيب لا ينحصر فقط في متطلبات الحياة الاجتماعيَّة والتَّعامل، بل حتَّى في

مجال الواجبات والفرائض الدينية يكون للتَّحْيِيْب دوره الكبير. فربَّ تاركٌ للصَّلَاةِ يأتي إليه المرء ويقول له: كم هي المتعة الرُّوحِيَّة والرَّاحَة النفسِيَّة، والحلاوة المعنويَّة حينما يتوجَّه الإنسان للصَّلَاة، ضارِعاً إلى ربِّه، خاشِعاً إلى مولاه!، وكم هو الثَّواب الذي ينتظره لقاء ذلك!، فيجده يندفع إلى صلاة ربِّه ويرغب إليها. ورُبَّ مُفْطِر في شهر رمضان يأتي إليه المرء مخاطِباً: ما أعظم الصَّوم! وما أعظم درجة الصَّائم عند الله! ثمَّ يُبيِّنُ له الفوائد الجسميَّة والنفسِيَّة والخُلُقِيَّة التي يتركها الصَّوم على الصَّائم، فيندفع إلى الالتزام به.

وهكذا فليكني يحسن المرء معاملة النَّاس، الأوَّلَى به أن يحبِّبهم ويرغِّبهم في الأعمال التي يطلبها منهم، والتي يقترحها عليهم.

❖ حُسْنُ لِقَاءِ النَّاسِ

يُمَثِّلُ اللَّقَاءُ وَالْإِتِّقَاءُ بِالنَّاسِ مُقَدِّمَةَ التَّعَامُلِ مَعَهُمْ، ومن شأن هذه المُقَدِّمَة أن تُوسِّمَ بِالْحُسْنِ وبِالْجَمَالِ لكي تُحَسِّنَ مُعَامَلَتَهُمْ. ألا يرى الواحد منَّا كيف تُقابل الوردَةُ ناظرها وتلتقيه؟ إنَّها تلقاه بألوانها الجميلة، ورائحتها الزَّكية. وهكذا يجب أن يكون حال الإنسان في لقائه النَّاسِ والتقاءه بهم، كما الوردَة، يلتقي بهم بحسن وجمال، ومن حسن اللقاء بالنَّاس: حُسْنُ الْبِشْرِ، وَطَلَاقَةُ الْوَجْهِ، وَالتَّبَسُّمُ، وَالبَشَاشَةُ، وَطِيبُ الْكَلَامِ.

ومن آداب حسن اللقاء بالنَّاس:

السَّلَامُ، وَالْمُصَافَحَةُ، وَالْمُعَانَقَةُ، وَالتَّقْيِيلُ.

❖ السَّلَامُ

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»! ما أجمل وأعظم هذه الكلمة اللطيفة حينما يُعْلِنُهَا المرء لمن يلقاه! إنَّها إعلان وإعلام لحالة السَّلَمِ والصُّلح والأمان والوئام بين الطَّرفين

الْمُتَلَاقِيَيْنِ، وَتَحِيَّةٌ تَمَثِّلُ عَهْدًا بِحِفْظِ السَّلَامِ وَصُونِهِ بَيْنَهُمَا. وَلِعَظْمَةِ السَّلَامِ فَقَدْ وَرَدَتْ آيَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ عَدَّةٌ فِيهِ وَفِي صَوْنِهِ وَالدَّخُولِ فِيهِ، كَمَا وَرَدَ ذِكْرُ شِعَارِهِ وَهُوَ «السَّلَامُ»، وَهَكَذَا الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ فَقَدْ أَعْطَتْهُاهُ كِبَرًا، إِذَ الْإِسْلَامُ دِينُ السَّلَامِ، وَلَا نِعْمَةَ أَعْظَمَ مِنْ نِعْمَةِ الصُّلْحِ وَالسَّلَامِ وَالْأَمْنِ وَالْوِثَامِ. يَقُولُ تَعَالَى:

(وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)^(١)

وَيَقُولُ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«إِذَا تَلَاقَيْتُمْ فَتَلَاَقُوا بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّصَافُحِ، وَإِذَا تَفَرَّقْتُمْ فَتَفَرَّقُوا بِالِاسْتِغْفَارِ»^(٢).

إِنَّ السَّلَامَ «السَّلَامُ» شَيْءٌ عَظِيمٌ فِي الْحَيَاةِ، لِأَنَّهُ قِوَامُهَا، وَبِدُونِهِ تَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ إِلَى أَتُونِ حُرُوبٍ وَصِرَاعَاتٍ وَعِدَاوَاتٍ، لِذَلِكَ أَعْطَى الْإِسْلَامُ شِعَارَ السَّلَامِ اهْتِمَامًا كَبِيرًا، وَجَعَلَهُ مَقْدَمًا عَلَى الْكَلَامِ، كَمَا اعْتَبَرَ ارْسَاءَ السَّلَامِ فِي الْعَالَمِ، وَافْشَاءَ شِعَارِهِ فِيهِ، خَيْرَ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِعَظْمَةِ السَّلَامِ وَشِعَارِهِ، فَقَدْ جَعَلَ الْإِسْلَامَ رَدَّهُ وَاجِبًا وَلَوْ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ.

يَقُولُ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«مَنْ بَدَأَ بِالْكَلَامِ قَبْلَ السَّلَامِ فَلَا تُجِيبُوهُ»^(٣).

وَيَقُولُ (ص) أَيْضًا:

«لَا تَدْعُ إِلَى طَعَامِكَ أَحَدًا حَتَّى يُسَلِّمَ»^(٤).

وَيَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ (ع):

«السَّلَامُ قَبْلَ الْكَلَامِ»^(٥).

١. ٢٣ / إبراهيم.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٥.

٣. المصدر السابق، ص ٣.

٤. المصدر السابق، ص ٣.

٥. المصدر السابق، ص ١٢.

ويقول الرَّسُولُ الأعظم (ص):

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ قَالُوا بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ فِي الْعَالَمِ»^(١).

ويقول سبحانه وتعالى:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)^(٢).

ويقول الرَّسُولُ الأعظم (ص):

«السَّلَامُ تَطَوُّعٌ وَالرَّدُّ فَرِيضَةٌ»^(٣).

والبدء بالسَّلَام دليل تواضع الإنسان وبراءته من الكِبَر. ولهذا فمن أحد أسباب الامتناع عن إبداء السَّلَام: الكِبَرُ أو التَّكَبُّرُ، وهما من الأخلاق المذمومة.

يقول الرَّسُولُ الأعظم (ص):

«الْبَدَائِيُّ بِالسَّلَامِ بَرِيءٌ مِنَ الْكِبَرِ»^(٤).

ومع أَنَّ السَّلَام أمر سهل لا يُكَلِّف شيئاً، فَإِنَّ هناك من النَّاسِ من لا يُعِيرُهُ اهتماماً، أو يراه أمراً مُكَلِّفاً، أو ييخل به، ولا أبخل ممن ييخل بالسَّلَام!

يقول الرَّسُولُ الأعظم (ص):

«إِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخَلَ بِالسَّلَامِ»

وكلُّنا قد شاهد بأمِّ عينه شخصاً يَمُرُّ على جماعة أو يدخل على جمع من النَّاسِ، دون أن يبادرهم بالسَّلَام، وكأنَّه يعتبرهم خشباً مسنَّدة، أفلا يَخْلُقُ به أن يُسَلِّمَ عليهم، ويلقاهم بوجه منبسط؟! وهل السَّلَام يكلفه شيئاً؟!

وللسَّلَام آداب، الأولى بالمرء أن يأخذها بعين الاعتبار وهي قول الرَّسُولِ الأعظم (ص):

١. المصدر السابق، ص ١٢، العالم: الخلق كله.

٢. النِّسَاءُ / ٨٦.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٤٣.

٤. كنز العمال، خ ٢٥٣٦٥.

«يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَيُسَلِّمُ الْوَاحِدُ عَلَى الْاِثْنَيْنِ، وَيُسَلِّمُ الْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ، وَيُسَلِّمُ الرَّكْبُ عَلَى الْمَاشِي، وَيُسَلِّمُ الْمَارُّ عَلَى الْقَائِمِ، وَيُسَلِّمُ الْقَائِمُ عَلَى الْقَاعِدِ»^(١).

وكما أنَّ اللقاءَ هو بداية التَّعامل بين شخصين أو طرفين فإنَّ الوداعَ هو خاتمة المعاملة بينهما، ومن شأن هذه الخاتمة لكي تكون حسنة أن تُشفع بالاستغفار للنَّفْس وللشَّخص الآخر، والدعاء له.

كان رسول الله (ص) إذا ودَّع المؤمنين قال:

«رَوَّدَكُمْ اللَّهُ التَّقْوَى، وَوَجَّهَكُمْ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَقَضَى لَكُمْ كُلَّ حَاجَةٍ، وَسَلَّمَ لَكُمْ دِينَكُمْ وَدُنْيَاكُمْ، وَرَدَّكُمْ إِلَيَّ سَالِمِينَ»^(٢).

❖ الْمُصَافَحَةُ

ومن الآداب الحسنة في لقاء الإخوة والنَّاس - بعد السَّلام - التَّصَافُحُ أو الْمُصَافَحَةُ، وهي أن يُمسك كل من الشَّخصَيْنِ الْمُتَلَاقِيَيْنِ كَفَّ الآخر بالطَّريقة المتعارف عليها والمعروفة بين النَّاس.

ورُبَّ سائل يسأل:

وما الدَّاعي إلى الْمُصَافَحَةِ؟ وما فائدتها؟ إنَّ المصافحة المُخَلَّصَةَ تعبير عن الإخاء والسَّلم والوئام بين الشَّخصين الْمُتَلَقِّيَيْنِ، وهي ليست حركة فارغة يؤديها المرء بشكل ميكانيكيٍّ مجرَّد، بل هي ذات معنى ومغزى، ومغزاها التَّعبير عن حالة الإخاء والحبِّ والموافقة والوئام مع الشَّخص الآخر، هذا من جهة. ومن جهة أخرى أنَّها تعمل على إزالة الأوزار والأحقاد والسَّخائم والأغلال النفسِيَّة من قلبي الشَّخصين المتصافحين.

١. كنز العمال ، ج ٢٥٣٢١ ، خ

٢. تنبيه الخواطر، ص ٢٦١.

يقول الإمام علي^(ع):

«إِذَا لَقَيْتُمْ إِخْوَانَكُمْ فَتَصَافَحُوا وَأَظْهِرُوا لَهُمُ الْبَشَاشَةَ وَالْبِشْرَ، تَتَفَرَّقُوا وَمَا عَلَيْكُمْ مِنْ الْأَوْزَارِ قَدْ دَهَبَ»^(١).

ويقول الرسول الأعظم (ص):

«تَصَافَحُوا فَإِنَّ التَّصَافُحَ يُذْهِبُ بِالسَّخِيمَةِ»^(٢).

ويقول (ص) أيضاً:

«تَصَافَحُوا فَإِنَّهُ يُذْهِبُ بِالْغِلِّ»^(٣).

هل تحمل في قلبك شيئاً ما على أخٍ من إخوانك، أو على شخص من الناس؟ أو هل يحمل عليك شخص آخر شيئاً ما في قلبه؟ إذا كان الجواب بالإيجاب فلتجرب المصافحة معه، فإن من شأن المصافحة أن تصهر الجليد المتراكم على بوابة قلبك وبوابة قلبه.

والمصافحة ليست وسيلة لجلي الأغلال عن القلوب فحسب، بل هي وسيلة لجلي العدوان عنها، فربّ أمرئ يصفح عدوّه فيتحولّ هذا العدو إلى وليّ حميم له.

يقول الإمام علي^(ع):

«صَافِحْ عَدُوَّكَ وَإِنْ كَرِهَ، فَإِنَّهُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِ عِبَادَهُ، وَيَقُولُ: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)، مَا تَكَاْفَى عَدُوَّكَ بِشَيْءٍ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ تُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ»^(٤).

وفيما يرتبط بالمصافحة بين الجنسين لا يجوز للرجل أن يصفح المرأة التي هي

١. بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٢٠.

٢. أصول الكافي، ج ٢، ص ١٨٢.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٦٥.

٤. المصدر السابق، ج ٧١، ص ٤٣١.

غير ذات مُحَرَّم^(١) بالنِّسْبَةِ لَهُ، كَمَا لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصَافِحَ الرَّجُلَ غَيْرَ ذِي الْمُحَرَّمِ بِالنِّسْبَةِ لَهَا، إِلَّا مِنْ وَرَاءِ الثُّوبِ.

❖ الْمُعَانَقَةُ

وَمِنَ الْمُسْتَحَبِّ فِي لِقَاءِ الْإِخْوَانِ وَالْمُؤْمِنِينَ: الْمُعَانَقَةُ، وَهِيَ جَعْلُ الْيَدَيْنِ عَلَى الْعُنُقِ وَالضَّمُّ إِلَى الصَّدْرِ. وَحِينَ الْمُعَانَقَةُ الْمَخْلَصَةُ يَشْعُرُ كُلُّ مِنَ الْمُتَعَانِقِينَ بِدِفَاءِ الْأَخُوَّةِ وَالْمُوَدَّةِ وَالْوَثَامِ بَيْنَهُمَا، بَلْ لَوْ كَانَ فِي قَلْبِ كُلِّ مِنْهُمَا شَيْءٌ عَلَى الْآخَرِ فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُعَانَقَةِ أَنْ تَذِيبَ ذَلِكَ الشَّيْءَ وَأَنْ تَعِيدَ الْمِيَاهَ إِلَى رَوْقِهَا السَّابِقِ: أَيْ تُرْجِعُهُمَا إِلَى حَالَةِ التَّصَافِي وَالصَّفَاءِ الَّتِي كَانَا عَلَيْهَا.

يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ (ع):

«إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اعْتَنَقَا عَمَرَتْهُمَا الرَّحْمَةُ، فَإِذَا التَّرَمَّا لَا يُرِيدَانِ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ، وَلَا يُرِيدَانِ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا، قِيلَ لَهُمَا: مَغْفُورًا لَكُمَا، فَاسْتَأْنَفَا...»^(٢).

وَيَقُولُ (ع) أَيْضًا:

«أَمَّا مُؤْمِنٌ خَرَجَ إِلَى أَخِيهِ يَزُورُهُ عَارِفًا بِحَقِّهِ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةً، وَمُحِيتٌ عَنْهُ سَيِّئَةٌ، وَرَفَعَتْ لَهُ دَرَجَةً وَإِذَا طَرَقَ الْبَابَ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَإِذَا التَّقِيَا وَتَصَافَحَا وَتَعَانَقَا أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِوَجْهِهِ...»^(٣).

وَيَقُولُ (ع):

«إِنَّ مِنْ تَمَامِ التَّحِيَّةِ لِلْمُقِيمِ الْمُصَافِحَةَ، وَتَمَامُ التَّسْلِيمِ عَلَى الْمُسَافِرِ الْمُعَانَقَةُ»^(٤).

١. المرأة ذات المحرم بالنسبة للرجل هي التي لا يجوز له أن يتزوجها، وغير ذات المحرم هي التي يجوز له أن يتزوجها. والرجل ذو المحرم بالنسبة للمرأة هو من لا يجوز لها أن تتزوجه، وغير ذي المحرم هو من يجوز لها أن تتزوجه.

٢. الأصول من الكافي، ج ٢، ص ١٨٤.

٣. المصدر السابق، ص ١٨٤.

٤. المصدر السابق، ص ٦٤٦.

❖ التَّقْبِيلُ

وكما المعانقة في لقاء الإخوان تعبيرٌ عن الأُخُوَّةِ والمودَّةِ والوئامِ كذلك التَّقْبِيلُ - هو الآخر - تعبيرٌ عنهما. إِنَّ المرءَ حينما يَقْبَلُ أخاه، فكأنَّه يقول له: أخي، إِنِّي أَحْبُّكَ وَأودُّكَ من صميم قلبي وضميري ووجداني.

يقول الإمام الصَّادق (ع):

«إِنَّ لَكُمْ لَنُورًا تُعْرِفُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ قَبَّلَهُ فِي مَوْضِعِ النُّورِ مِنْ جَبْهَتِهِ» (١٣٠٦).

ويقول (ع):

«لَيْسَ الْقُبْلَةُ عَلَى الْقَمِّ إِلَّا لِلزَّوْجَةِ أَوْ الْوَلَدِ الصَّغِيرِ» (٢).

ويقول الإمام علي (ع):

«قُبْلَةُ الْوَلَدِ رَحْمَةٌ، وَقُبْلَةُ الْمَرْأَةِ شَهْوَةٌ، وَقُبْلَةُ الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ، وَقُبْلَةُ الرَّجُلِ أَخَاهُ دِينٌ» (٣٣٠٨).
«إِذَا قَبَّلَ أَحَدُكُمْ ذَاتَ مُحَرَّمٍ قَدْ حَاصَتْ، اخْتَهَ أَوْ عَمَّتَهُ أَوْ خَالَتَهُ فَلْيَقْبَلْ بَيْنَ عَيْنَيْهَا وَرَأْسِهَا وَلْيَكْفَفْ عَنْ خَدَّهَا وَعَنْ فِيْهَا» (٤).

ويقول الإمام الصادق (ع):

«لَا يَقْبَلُ رَأْسُ أَحَدٍ وَلَا يَدُهُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَوْ مَنْ أُريدَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» (٥).

«عن جابر (الأنصاري) قال: لقيْتُ النَّبِيَّ (ص) فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَغَمَزَ (٦) يَدِي: وقال: غَمَزَ الرَّجُلَ يَدَ أَخِيهِ قُبْلَتُهُ»

١. وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٦٦.

٢. الأصول من الكافي، ج ٢، ص ١٨٦.

٣. بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٩٣.

٤. المصدر السابق، ج ٧٦، ص ٤٢.

٥. وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٦٥.

٦. غَمَزَ: جَسَّ وَكَبَسَ بِالْيَدِ.

وهكذا فإن حسن اللقاء بالناس هو من حسن معاملتهم، فَلِكِي يُحَسِّنَ المرء معاملتهم ويكسب حبهم خَلِيقٌ به أن يفشي السَّلامَ فيهم، بادئاً به، وأن يصادفهم ويُسْتَحَبُّ له أن يعانقهم، وَيُقْبَلُ مواضع الثَّور من جباههم.

❖ التَّعَرُّفُ عَلَى النَّاسِ

بديهية أنَّ النَّاسَ خُلِقُوا ليس من أجل أن يتجاهل بعضهم بعضاً، وأنما من أجل أن يتعارفوا فيما بينهم بصرف النَّظَرِ عن التَّعَدُّدِ الشَّعْبِيِّ والقَبَلِيِّ، والقومِيِّ والعُنصريِّ وغير ذلك من صور التَّعَدُّدِ، إذ التَّعارف هو السُّنة التي أَرادها الخَالِقُ - عزَّ وجلَّ - لكي يعيش البشر في وئام وليكْمُلَ بعضهم بعضاً، وليتعاونوا في أداء رسالتهم في الحياة، ومن هنا كان التَّعرف على النَّاسِ وسيلة من وسائل التَّعارف فيما بينهم.

وإذ أنَّ التَّعارف هو الأمر الذي يلائم الفطرة البشريَّة التي فَطَرَ الله - سبحانه وتعالى - النَّاسَ عليها، فإنَّه - عز وجل - منح الإنسان إمكانية التَّعرف على بني نوعه وبسهولة، ولا أسهل من التَّعرف على النَّاسِ.

ومع أنَّ التَّعرف على النَّاسِ فنٌّ سهل، إلَّا أنَّ كثيراً منهم لا يُجيدونه، ومنهم من لا يعبره أدنى اهتمام، وقد يقول قائل منهم: لست فارغاً لكي أتعرف على غيري. وقد يقول آخر: إنَّ من إضاعة الوقت التَّعرف على الناس. وقد يقول ثالث: لا أجد حافزاً داخلياً لدي لكي أتعرف على أحد^(*). وقد يقول رابع: مَالِي والنَّاسُ، لم شأنهم ولي شأني. وقد تجد شخصاً يتحدث مع شخص آخر لساعات، ولكنه لا «يُحَسُّمُ» نفسه تقديم بعض الاسئلة له من أجل التَّعرف عليه! وهذا ليس أسلوباً لائقاً.

إنَّ التَّعرف على النَّاسِ ليس مضيعة للوقت، لأنَّه في أبسط صورة لا يستغرق

*١. تجدر الإشارة إلى أنَّ ضعف الرُّوح أو الحالة الاجتماعيَّة لدى الفرد، والانطواء على الذات والانشغال بها، وضيق الصدر، والملل، والشَّائِمْ، والتَّكَبُّر، وسوء الظَّنِّ، وفقدان الثِّقة، و... من العوامل التي تُوَدِّي إلى ضعف ملحوظ في التَّعرف على النَّاسِ، ومخالطتهم، والتَّعاون معهم.

من المرء سوى وقتاً يسيراً، وإنَّ الرَّغبة في صنع العلاقات الاجتماعية والتَّعامل مع النَّاس هو الأمر الذي يجعل المرء يحفِّز في سبيل التَّعرف عليهم والتَّعارف معهم^(٢١).

وعن طريق التَّعرف على النَّاس تتوسع دائرة معارف الإنسان، وعلاقاته الاجتماعية، وتُتاح له الفرص من أجل أصدقاء جدد. وكم من إنسان تعرَّف على آخر فأمرسياً صديقين حميمين! وكم من إنسان تغلَّب على وضع صعب أو مشكلة بواسطة تعرُّفه على إنسان!

ورب سائل يسأل:

وهل كلُّ من يلتقي بهم المرء في المواقع المختلفة كالمسجد والشَّارع والمحفل، والمستشفى، والدائرة، و... خليق به أن يتعرف عليهم؟

وللإجابة على ذلك:

إنَّ وقت الإنسان ليس كلُّه مخصصاً للتَّعرف على النَّاس، وإنَّما جزء منه يمكن أن يستفيد منه في هذا السَّبيل وأن يغتنم الفرص المواتية لذلك، فعلى سبيل المثال: قد يزور المرء مستشفى أو مطبَّاً، ويصادف أن يجلس في غرفة الانتظار إلى جوار شخص يرى من الحَسَن التَّعرف عليه، فليتنهز هذه الفرصة وليتعرَّف عليه^(٢٢). أو قد يصلي في مسجد ويلتقي بمجموعة من المُصلِّين ليست بينه وبينهم معرفة مسبقة، فيمكنه أن يتعرَّف عليهم أو على بعضهم. وبكلمة: لينتهز المرء كلَّ فرصة تمكُّنه من التَّعرف على الآخرين وفي المواقع المختلفة فمن شأن هذا التَّعرف أن يوسِّع من شبكة علاقاته الاجتماعية ويعينه على أعباء الحياة أو على أقلِّ التَّقادير يجعله معروفاً لدى شريحة لا بأس بها من النَّاس. وبهذه المعرفة يَنشِط الإنسان، ويؤثِّر في الاجتماع، ويُفيد بإمكاناته وخبراته، ويستفيد من إمكانات الآخرين وخبراتهم.

*١. تقيم بعض المؤسسات اجتماعات للتَّعارف بين الأعضاء القدامى والجدد، وبين الجدد وبين الجدد أنفسهم، وهنا تظهر أهمية التَّعارف في سبيل الخير.

*٢. لسبب أو لآخر، هناك من النَّاس من لا يبادر في التَّعرف، وينتظر من الآخرين أن يتعرَّفوا عليه، فالخليق بالمرء أن يكون متواضعاً للناس، متحلياً بالروح الاجتماعية، ومبادراً في التَّعرف عليهم.

أَمَّا عَنْ كَيْفِيَّةِ التَّعَرُّفِ عَلَى النَّاسِ فَهِيَ قَدْ سَهِّلَ كَمَا تَقَدَّمَ، وَقَدْ تَكُونُ لِكُلِّ شَخْصٍ طَرِيقَتُهُ الْخَاصَّةُ فِي التَّعَرُّفِ عَلَيْهِمْ. وَلَكِنْ هُنَاكَ أُمُورٌ أَوَّلِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ فِي التَّعَرُّفِ وَالتَّعَارُفِ مِنْهَا:

- التَّعَرُّفُ عَلَى اسْمِ الشَّخْصِ وَعَائِلَتِهِ.
- التَّعَرُّفُ عَلَى عُنْوَانِ سَكْنِهِ، وَرَمُزِهِ الْبَرِيدِيِّ.
- التَّعَرُّفُ عَلَى وَظِيفَتِهِ أَوْ مِهْنَتِهِ، وَعُنْوَانِ عَمَلِهِ.
- التَّعَرُّفُ عَلَى بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ وَبَعْضِ مَنْ يَعْرِفُهُمْ.
- التَّعَرُّفُ عَلَى الْخِبَرَاتِ وَالْكَفَاءَاتِ الَّتِي يَمْتَلِكُهَا.

وَبَعْدَ التَّعَرُّفِ يُمْكِنُ لِلْمَرَّةِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَطُورَ الْعِلَاقَةَ مَعَ مَنْ تَعَرَّفَ عَلَيْهِ وَتَعَارَفَ، كَأَنْ يَنْظُمَ لَهُ زِيَارَاتٍ، أَوْ يِرَاسِلُهُ إِذَا كَانَ فِي مَنَاطِقَةٍ نَائِيَّةٍ، أَوْ فِي بِلَدٍ آخَرَ، وَيَصَادَقُهُ، وَيَسْتَثْمِرُ الْعِلَاقَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ بِهِ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ التَّعَرُّفَ عَلَى النَّاسِ وَالتَّعَارُفَ مَعَهُمْ، دَلِيلُ الرُّوحِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَوَسِيلَةُ لِإِنْشَاءِ الْعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالْخَيْرِ مَعَ النَّاسِ وَفِي التَّعَرُّفِ مَتْعَةٌ وَسَعَادَةٌ يَفْتَقِرُ إِلَيْهِمَا كُلُّ مَنْ لَا يُعِيرُ اهْتِمَامًا بِهِ.

❖ حُسْنُ الْمَجَالَسَةِ

قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (ع):

«وَأَمَّا حَقُّ جُلُوسِكَ: فَإِنَّ ثَلَاثِينَ لَكَ جَانِبَكَ، وَتُنْصِفُهُ فِي مُجَارَاةِ اللَّفْظِ، وَلَا تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَنْ يَجْلِسُ إِلَيْكَ يَجُوزُ لَهُ الْقِيَامُ عَنْكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ، وَتَنْسَى زَلَّاتِهِ، وَتَحْفَظُ خَيْرَاتِهِ، وَلَا تُسْمِعُهُ إِلَّا خَيْرًا»^(١).

١. تحف العقول.

«وَقَالَ الْخَوَارِيُّونَ لِعِيسَى (ع): يَا رُوحَ اللَّهِ، فَمَنْ نَجَالِسُ إِذَا؟ قَالَ: مَنْ يُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ رُؤْيَاهُ، وَيَزِيدَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقَهُ، وَيُرَغِّبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَمَلَهُ»^(١).

للمجلس والمجالسة علاقة وطيدة بمعاملة الناس والروابط بهم، إذ المجلس هو السّاحة أو الطّرف الذي يحصل فيه اللقاء والتّعامل، والمجالسة بدورها هي الوسيلة التي معها يحصل التّعامل فيما بين الناس.

ولما كان المجلس والمجالسة بهذا الشّان والمنزلة، فقد أولاهاما الدّينُ اهتماماً لهما لهما من تأثيرات على الإنسان وسلوكه في الحياة، وجعل لهما حدوداً وآداباً، وإذ الإنسان في المجلس أو المجالسة يؤثّر ويتأثّر: يؤثّر في الآخرين وفي أجواء المجلس، ويتأثّر من الآخرين، وبأجواء المجلس أيضاً، وهذا التأثير والتّأثر يجب أن يكونا في حدود الحقّ والخير والصّلاح والفضيلة حسب منطق الدّين، وهو المنطق القويم في الحياة، والأولى بالاتباع.

وبناءً عليه، فمن أولويات مجالسة النّاس، اختيار الجليس، وإعطائه حقوقه، فليس النّاس كلّهم جديرين بالمجالسة، إذ منهم الأخيار والأشرار، والصّالحون والفسادون، والأمناء والخائنون، والأفاضل والأراذل، و... وبديهة أنّ الأخيار والصّالحين والأمناء والأفاضل، وأشكالهم، هم الجديرون بالمجالسة والمخالطة.

يقول الإمام عليّ (ع) في هذا الشّان:

«جَلِيسُ الْخَيْرِ نِعْمَةٌ، وَجَلِيسُ الشَّرِّ نِقْمَةٌ»^(٢).

ويقول (ع) أيضاً:

«جَمَاعُ الشَّرِّ، مُقَارَنَةُ أَهْلِ السُّوءِ»^(٣).

فهلاً يُجَانِبُ الْمَرْءُ جُلَسَاءَ السُّوءِ، وَيَجَالِسُ مَنْ هُمْ جَدِيرُونَ بِالْمُجَالَسَةِ؟

١. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٤٧.

٢. الغرر والدرر.

٣. المصدر السابق.

وَالْجَدِيدُونَ^(*) بِالْمَجَالَسَةِ هُمْ:

- الْمَذْكُورُونَ بِاللَّهِ.
- الْمُرْعَبُونَ فِي الْآخِرَةِ.
- الْأَخْيَارُ.
- الْأَبْرَارُ.
- الصَّالِحُونَ.
- الْأُمْنَاءُ.
- الْحُلَمَاءُ.
- الْعُلَمَاءُ.
- الْحُكَمَاءُ.
- الْمُوقِنُونَ.
- الْمُتَوَاضِعُونَ.
- النَّاصِحُونَ.
- الْمُؤْمِنُونَ.
- الْأَتَقِيَاءُ.
- الزُّهَادُ.
- النَّائِبُونَ.
- الْفُقَرَاءُ.
- الْمَسَاكِينُ.
- الْمُخْلِصُونَ.
- الْوَرَعُونَ.

*١. غير الجديدين بالمجالسة: المقابلون للجديدين، ومن الذين نهت الأحاديث الشريفة عن مجالستهم: الأندال، الاغنياء الذين أطغاهم غناهم، أهل الهوى، أهل البدع، الملوك، أبناء الدنيا، وقرناء السوء عموماً.

وإعطاء الحقوق للجلس، هو الأمر الآخر بعد اختياره، ومن حقوق الجلسة:

- التَّوَاضَعُ لَهُ.
- إِنْصَافُهُ فِي إِتَاحَةِ الْفُرْصَةِ لَهُ بِالْحَدِيثِ، وَفِي تَحَدُّثِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.
- الِاسْتِئْذَانُ مِنْهُ حِينَ الْقِيَامِ لِأَمْرِ مَا، بِاعْتِبَارِهِ جَلِيسًا، وَحَيْثُ أَنْ الْمُسْتَأْذِنُ هُوَ صَاحِبُ الْمَجْلِسِ.
- التَّجَاوُزُ عَنْ أَخْطَائِهِ.
- حِفْظُ أَفْعَالِهِ الْخَيْرَةِ.
- إِسْمَاعُهُ الْكَلَامَ الْخَيْرَ.

وهذه الحقوق أمور أولية وآداب ضرورية في مجالسة الناس، فالتواضع هو عنصر أساس فيها، وهو الخلق الذي يجب أن يكون عليه الإنسان، إذ الناس يرغبون ويميلون إلى مجالسة من يتواضع لهم، ويرغبون ويميلون عمن يتكبر عليهم، فهل سمعت أن امرؤاً رغب في مجالسة شخص تكبر عليه؟!

ومن حق الجلسة: إنصافه في مجاراة اللفظ، بمعنى الموافقة على الكلام الحق الذي يصدر منه، والاتفاق معه عليه، يتفرع من هذا الحق:

إعطاء الجلسة الفرص الكافية للتحدث فيما يطيب له ويسر به ويلذ. إن من الناس من إذا ما جالسوا الناس لم ينصفوهم في الموافقة على ما يصدر منهم من كلام حق، أو استأثروا بالحديث، والحديث عن أنفسهم دون أن يتيحوا لهم فرصة الحديث، والتحدث عن أنفسهم، وبذلك يملهم الناس، ويستثقلونهم.

ومن تقدير الجلسة واحترامه: استئذانه حين القيام، إذ من غير اللائق القيام عنه، لأداء أمر ما أو تركه شأنه دون استئذان. فعلى سبيل المثال: قد يأتي شخص إلى مجلسك وتبدأ معه حديثاً، ثم في الأثناء تريد أن تحضر له الفاكهة أو الشاي، فمن غير اللائق أن تقوم عنه وتقطع حديثك أو حديثه من دون استئذان منه. ويخلق بك أن تقول له: أرجو أن تسمح لي بوضع دقائق ... ، أو ما شابه ذلك من عبارات الاستئذان اللطيفة.

ومن حسن المجالسة مراعاة حدود المجلس^(١) وآدابه، فهناك مجالس مطلوب حضورها وأخرى منهى عن حضورها. فالمجالس المأمور بالارتياح فيها هي مجالس ذِكْرِ اللَّهِ، بما لِلذِّكْرِ من معانٍ، أو هي المجالس التي يتحقق فيها رضا الله، سواء بالعبادة أو غيرها.

يقول الرسول الأعظم (ص):

«ارْتَعَوْا فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: مَجَالِسُ الذِّكْرِ»^(٢).

وقال لقمان لابنه:

«اخْتَرِ الْمَجَالِسَ عَلَى عَيْنِكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكُ عَالِمًا يَنْفَعُكَ عِلْمُكَ وَيَزِيدُكَ عِلْمًا، وَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا عِلْمُكَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُظِلَّهُمْ بِرَحْمَةٍ فَتَعُمَّكَ مَعَهُمْ»^(٣).

أما المجالس التي لا يجوز الجلوس فيها، فمنها:

- مجلس المنكر.
- مجلس الكفر والاستهزاء بآيات الله.
- مجلس جحد الحق والتكذيب به.
- مجلس الوقوع في أهل الحق.
- المجلس الذي يُسبُّ فيه الأئمة أو يُغتَابُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ.
- مجلس شُرْبِ الخمر.
- مجلس العُصْيَانِ عُمُومًا.
- مجلس الرِّيْبَةِ.

*١. المجلس: موضع الجلوس، والقوم الجلوس.

٢. بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ١٦٣.

٣. المصدر السابق، ص ١٦٤.

- المجلس الذي يُسْفَكُ فِيهِ الدَّمُ الْحَرَامُ، أَوْ يُسْتَحَلُّ فِيهِ الْفَرْجُ الْحَرَامُ، أَوْ يُسْتَحَلُّ فِيهِ الْمَالُ الْحَرَامُ.
- مجلسُ إِفْشَاءِ أَسْرَارِ الْإِخْوَانِ.
- مجلسُ الْفُحْشِ.

وللمجالس آدابٌ ينبغي مراعاتها، منها:

- التَّفَسُّحُ وَالتَّوَسُّعُ لِلدَّاخِلِ.
- الجلوسُ في أَوْسَعِ مكانٍ يوجد، إذا لم يُوسَّعْ لَهُ.
- الجلوسُ حيثُ ما انتهَى المجلسُ.
- الْقُعُودُ فِي أَدْنَى الْمَجْلِسِ.
- الجلوسُ في المكان الذي يَأْمُرُ بِهِ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ.
- تَجَنُّبُ تَقْدِيمِ الرَّجُلِ بَيْنَ يَدَيِ الْجَلِيسِ، إِلَّا لِعُذْرٍ.

وهكذا فَلِكُلِّ يُحْسِنُ الْمَرْءُ مَعَامَلَةَ النَّاسِ يَنْبَغِي لَهُ إِحْسَانُ مَجَالِسَتِهِمْ، وَمِنْ إِحْسَانِ الْمُجَالَسَةِ اخْتِيَارُ الْمَجْلِسِ وَالْجَلِيسِ الصَّالِحِينَ، وَإِعْطَاءُ الْجَلِيسِ حَقُّوقَهُ، وَالتَّزَامُ آدَابِ الْمَجْلِسِ.

❖ مُدَاعَبَةُ النَّاسِ وَمُطَابَبَتُهُمْ

قال الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ص):

«الْمُؤْمِنُ دَعِبٌ لَعِبٌ . . .»

«بينما كان رسولُ اللهِ (ص) يسير في بعض شوارع المدينة، رأى زاهر بن جزام (من الصَّحابة) وهو يشتري بعض الأمتعة، اقترب من ورائه، واحتضنه من غير أن يراه.

وقال صلواتُ الله عليه: من يشتري هذا العبد؟

والتفت زاهر خلفه فإذا هو رسول الله فضحك، وقال:

تجدني كاسداً^(*) يا رسول الله؟

فقال النَّبِيُّ: لا، ربيعٌ عندَ اللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ^(٢).

تقدّم أن إدخال السُّرور إلى قلوب النَّاسِ^(**٣) من الأمور التي تُكسِب ودَّهم وحبَّهم، فمن طبعهم أنَّهم يرغبون في من يدخل السُّرور إلى نفوسهم، ويحبُّونه. وهذا هو السُّرُّ في أنَّ الأفراد المُدَاعِيَيْنَ والمُطَايِبِينَ والمُفَاكِهَيْنَ، يُقبل عليهم النَّاس، ولا يملُّون من لقائهم ومجالستهم، بخلاف ذوي الطُّباع الجافَّة، ومن لا يُسرُّون النَّاس. ولو مثلنا المُدَاعِيَيْنَ والمُطَايِبِينَ بالشَّجرة الخضراء المورقة الوارفة الظُّلال، وأصحاب الطُّباع الجافَّة بالشَّجرة اليابسة، المحمَّوتة الأوراق، فلا ترديد في أنَّ النَّاس تنجذب إلى الشَّجرة الخضراء الوارفة الظُّلال، أكثر مما تنجذب إلى الشَّجرة الأخرى. ومن هنا فالمداعبة والمطايبة جمالٌ في الإنسان وخُلُقُه، ومن شأن الجَمالِ أن يحبَّه النَّاس وينجذبون إليه.

وربما يقول قائل: إنَّ الإنسان يجب أن يكون جاداً وجدياً في الحياة، لا هزلياً فيها. وهذا أمر صحيح، ولكن هل الجِدَّة تعني أن يتعامل المرء مع النَّاس بغِلْظَةٍ وجفافيٍّ؟ وهل هناك تناقضٌ بين المداعبة والمطايبة وبين الجِدَّة في الحياة؟

كلّا!

صحيح أنَّ الإنسان يجب أن لا يكون هزلياً ولكن حدّاً معتدلاً معيناً من المداعبة والمطايبة والمفاكهة، يعينه على الجِدَّة في حياته، وفي تحمل مسؤوليّاته، كما يحقُّ له مكسباً كبيراً، وهو انجذاب النَّاس إليه وحبُّهم له. فأيهما أفضل:

*١. كاسداً: غير نافق لقلة الرَّاغِبين في شرائه.

٢. أحمد محمد حسان: قياسات من حياة الرُّسول.

**٣. راجع القسم الثاني، فصل: لكي يُسرَّ النَّاس بالمرء.

الجديَّة الجافَّة، أم الجديَّة المصحوبة بكسب وُدِّ النَّاسِ وَحَبِّهِمْ؟ لا شكَّ أن الجديَّة الثَّانية هي الأفضل. وإضافة إلى هذا فإنَّ المداعبة والمطايبة والمفاكهة يجب أن تكون في محلِّها المناسب، فهناك من الطُّروف ما يحتاج إلى مطلق الجديَّة ومنها ما يسمح بنوع من التَّرتيب غير المضرِّ بالجديَّة. بل إنَّ استعمال الدُّعابة في كثير من الأعمال تجعل العمل متعة وسعادة.

وإدخال السُّرور على النَّاس ومداعبتهم ومطايبتهم، خُلِقَ من أخلاق الأنبياء فالرُّسل - عليهم السَّلام - على عظمتهم ومسؤوليتهم وجديَّتهم وعِلْمهم وأخلاقهم، كانوا يتواضعون للنَّاس ويداعبونهم ويطايبونهم مدركين طبيعتهم البشريَّة، إذ من هذه الطبيعة أنَّ قلوبهم مَمَلَّة - كما مَمَلُّ أبدانهم - وإدخال السُّرور، والمداعبة والمطايبة هي التي تُدخل على قلوب النَّاس السُّرور، وتزيل ما أصابها من ملل وضجر.

وفي هذا الصَّدَد يُروى أنَّ الرَّسول الأعظم (ص) كان جالساً مع ابن عمِّه عليٍّ بن أبي طالب (ع) على طعام، وكان الرَّسول يأكل الثَّمَر ويضع الثُّوى قدام عليٍّ، ثمَّ قال (ص) لعليٍّ بما مضمونه: أَكَلْتَ الثَّمَر كُلَّهُ يا عليٍّ؟ فقال عليٌّ (ع) بما معناه: إنَّ الذي أكل الثَّمَر هو من أَكَلَهُ مع الثُّوى.

«ورأى (ص) ديكاً بدون دجاجة، فقال (ص) لصاحبه: هَلَّا اتَّخَذْتَ لَهُ أَهْلاً؟»^(١).

«وَرُوي أنَّ رجلاً كثير المُزَاح بالأباطيل كان في عصر النَّبِيِّ (ص)، فطلبه (ص) بعدما أخبروه عن الرَّجُل. ولمَّا حضر عنده، جعل النَّبِيُّ (ص) يعظُّه وينهاه عن الكذب والأباطيل المضحكة، إلى أن قال (ص) له: كيف أنت إذا جيء بك يوم القيامة، ويكون رأسك على قَدَرِ جبل، ورقبتك على قدر شعرة، فقال: يا سول الله هناك وقت سروري ورقصي، فيأني بتلك الهيئة من الرُّأس والرَّقبة أرقص لأهل المحشر، وأفرِّجُ هَمَّ الكلِّ، وأبذل حزنهم بالسُّرور، وبكأهم بالصُّحك. فضحك

١. الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرِّفاه والسَّلام، ص ٥٣٤.

النَّبِيُّ (ص) بكلامه، ونزل عليه جبرئيل (ع) يبيِّثُهُ بِمَغْفِرَةِ ذُنُوبِ الرَّجُلِ بِسَبَبِ إِدْخَالِهِ السُّرُورَ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ»^(١).

وَإِذْ أَنَّ الْمَزْحَ أَوْ الْمَزَاحَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُدْخِلُ السُّرُورَ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ فَمَا هِيَ حُدُودُهُ؟ يُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ هُنَاكَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْمَزَاحِ: نَوْعٌ يُسِيءُ إِلَى الطَّرَفِ الْآخَرِ، أَوْ يُهَيِّنُهُ، وَيؤَثِّرُ سَلْبًا عَلَى شَخْصِيَّةِ الْمَازِحِ وَعَقْلِهِ^(٢) وَآخَرٌ لَا يُسِيءُ إِلَى الطَّرَفِ الْآخَرِ، وَلَا يُهَيِّنُهُ، وَلَا يؤَثِّرُ - سَلْبًا - عَلَى الْمَازِحِ، وَهُوَ مَا يُمْكِنُ الْإِطْلَاقُ عَلَيْهِ: الْحَدُّ الْمَعْتَدَلُ مِنَ الْمُدَاعِبَةِ، أَوْ الْمُطَايِبَةِ، أَوْ الْمَفَاكِهِةِ، أَوْ الْمَضَاحِكَةِ. وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ مَذْمُومٌ، أَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي فَمَمْدُوحٌ. يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَفِذْ طَبَعَكَ الْمَصْدُودَ بِالْجِدِّ ، رَاحَةً *** يَجْمُ وَعَلَّلَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَزْحِ

وَلَكِنْ إِذَا أُعْطِيَتْهُ الْمَزْحَ فَلْيَكُنْ *** مِقْدَارِ مَا يُعْطَى الطَّعَامُ مِنَ الْمِلْحِ^(٣)

إِنَّ طَبْعَ الْإِنْسَانِ الْجَادِّ يَرْتَاحُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَزْحِ أَوْ الْمُطَايِبَةِ الْمَعْتَدَلَةِ مِثَالُهَا مَثَالُ الْكَمِيَّةِ الْمَعْتَدَلَةِ اللَّازِمَةِ مِنَ الْمِلْحِ لِلطَّعَامِ، هَذِهِ الْكَمِيَّةُ الَّتِي تَرِيحُ الطَّاهِي وَالْأَكْلَ، أَمَّا إِذَا زَادَتْ عَنْ حَدِّ الْإِعْتِدَالِ فَلَا تَرِيحُهُمَا مَعًا.

وَهَكَذَا فَمَنْ حُسِّنَ التَّعَامُلُ مَعَ النَّاسِ اسْتَعْمَالَ الْمُدَاعِبَةِ وَالْمُطَايِبَةِ مَعَهُمْ، وَكَمَا جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ: «أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ فِيهِ دُعَابَةٌ». فَلْيَكُنْ يُحْسِنُ الْمَرْءُ مَعَامَلَةَ النَّاسِ، وَيَكْسِبُ حَبَّهْمَ وَيَجْعَلُهُمْ مَسْرُورِينَ بِهِ، عَلَيْهِ بِمُدَاعِبَتِهِمْ وَمُطَايِبَتِهِمْ، وَمِنْ وَسَائِلِ الْمُدَاعِبَةِ وَالْمُطَايِبَةِ إِدْخَالُ السُّرُورِ:

- الْمُلَاطَفَةُ وَالْمُدَارَاةُ.
- طَرَائِفُ الْحِكْمِ، وَالنُّوَادِرِ.
- الْمَزْحُ الْمَعْتَدِلُ الْمَعْقُولُ.
- التَّحَدُّثُ فِيمَا يَطِيبُ لِلطَّرَفِ الْآخَرِ وَيُسِّرُ بِهِ.

١. حسن محمد الحسيني اللواساني النجفي: كشكول لطيف، ص ١٧٥.

٢. في هذا النوع من المزاح يقول الإمام الصادق ع: «إياكم والمزاح فإنه يجرُ السَّخِيمَةَ وَيُورِثُ الضَّغِينَةَ وَهُوَ السَّبُّ الصَّغِيرُ» تجف العقول.

٣. السيد نعمة الله الحسيني الجزائري: زهر الرِّبْع.

❖ المَظْهَرُ اللَّائِقُ

قال الرَّسُولُ الأعظم (ص):

«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ»^(١).

وقال الإمام عليّ (ع):

«لِيَتَزَيَّنَ أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ إِذَا أَتَاهُ كَمَا يَتَزَيَّنُ لِلْغَرِيبِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يَرَاهُ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَةِ»^(٢).

وقال الإمام الصادق (ع):

«الْبُسُّ وَتَجَمُّلٌ فَإِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَلْيَكُنْ مِنْ حَلَالٍ»^(٣).

وقال الرسول الأعظم (ص):

«تَنْظِفُوا بِكُلِّ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَنَى الْإِسْلَامَ عَلَى النِّظَافَةِ...»^(٤).

وللإنسان باطن وظاهر، وباطنه يتمثل في عقله وقلبه، وسريته، وإيمانه وظاهره يتمثل في لسانه، وفعله، وأخلاقه، وصورته. وكما أنَّ باطن الإنسان يجب أن يكون حسناً وجميلاً كذلك ظاهره يجب أن يكون حسناً وجميلاً أيضاً، ومن ظاهر الإنسان بدنه ولباسه.

إنَّ اللباسَ والبدنَ هما من المظهر الذي يواجه المرء به ربّه، ونفسه والناس، ومن شأن البدن واللباس أن يكونا طاهرين نظيفين جميلين. لأنَّ الطهارة والنظافة والجمال فضلاً عن أنَّها من خُلُقِيَّاتِ الفِطْرَةِ الإلهيَّة، وحالات صحيَّة ضروريَّة للإنسان هي أمور من الأهميَّة بمكان في معاملة النَّاسِ.

١. كنز العمال، ج ١٧١٦٦.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢٩٨.

٣. وسائل الشَّيْعة، ج ٣، ص ٣٤٠.

٤. كنز العمال، ج ٢٦٠٠٢.

ومن طبع النَّاسِ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْجَمَالَ، ولقاءهم بالمظهر الجميل هو من أمارات حسن التَّعامل معهم، ولو سُئِلَ كُلُّ امرئٍ: هل تحبُّ أن يلقاك الآخرون بالمظهر الجميل اللَّائق، أو القبيح؟ لأجاب بالمظهر الجميل، بالتَّأكيد - أفلا يكون هذا دافعاً للظُّهور بالمظهر اللَّائق الجميل؟ ثُمَّ أَنَّ المظهر اللَّائق حالة صحيَّة من سعادة المرء، وإضافة إلى ذلك أنه يجعل الآخرين منبسطين سعداء.

والمطلوب في حسن المظهر المحافظة على حد الاعتدال فيه.

فلا يعني المظهر اللَّائق أن يُفْرط المرء في التَّجَمُّل والزَّينة واللِّباس بل إنَّ الحدَّ المعتدل هو المطلوب، لأنَّ الإفراط في ذلك يُحيل الوسيلة هدفاً - وهذا ليس صحيحاً. وبإمكان المرء أن يظهر بمظهر لائق بين النَّاسِ بامتلاك الحدِّ الأدنى من اللِّباس، وإن لم يكن جديداً، مُضَافاً إلى ذلك مراعاة النِّظافة.

يقول الإمام عليُّ (ع):

«التَّجَمُّلُ مُرُوءَةٌ ظَاهِرَةٌ»^(١).

ويقول (ع) أيضاً:

«التَّجَمُّلُ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢).

والظُّهور بالمظهر اللَّائق أمام النَّاسِ يحتاج إلى:

- نِظَافَةُ الْبَدَنِ.
- نِظَافَةُ اللَّبَاسِ وَجَمَالِهِ وَهِنْدَامِهِ وَأَنَاقَتِهِ.
- اسْتِعْمَالُ الذَّوْقِ الْفَنِيِّ.

ونِظَافَةُ الْبَدَنِ - كما هو معلوم - تعني نِظَافَتُهُ كُلُّهُ، ومنه نِظَافَةُ الْوَجْهِ وَشَعْرُ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ وَالشَّارِبِ. فمن حسن المظهر أن يُحَسِّنَ المرء وِلَايَةَ شَعْرِ رَأْسِهِ^(٣) بتنظيفه، وتمشيطة، وأن يحفَّ شاربه ويُرْتَبَهُ، ويرتب لحيته، وأن يتعطر بالطِّيب.

١. الغرر والدرر.

٢. المصدر السابق.

٣. بديهة لا يجوز للمرأة أن تكشف عن شعرها لغير ذوي المحرم من الرجال، كما لا يجوز أن تتعطر لهم.

يقول الرسول الأعظم (ص) عن الاهتمام بشعر الرأس:

«مَنْ اتَّخَذَ شَعْرًا فَلْيُحْسِنْ وَلَايَتَهُ، أَوْ لِيَجْزَهُ»^(١)

ويقول الإمام علي (ع) عن اللباس:

«إِنَّ أَحْسَنَ الرِّبِّيِّ مَا خَلَطَكَ بِالنَّاسِ وَجَمَلَكَ بَيْنَهُمْ وَكَفَّ أَلْسِنَتَهُمْ عَنْكَ»^(٢)

وكثيرة هي الأحاديث الشريفة^(٣) التي تُعنى بالتنظيف والتزيين والتجمل والتطيب، والبروز بالمظهر اللائق أمام الناس، لما لهذه الأمور من ارتباط وثيق بعبادات الإنسان وصحته، وأناقته، وتعامله مع الناس، فليُحَسِّنِ المرء معاملته الناس خليق به أن يبدو ذا مظهر لائق حسن بين ظهرانيهم.

❖ أَخْلَاقِيَّاتُ أُخْرَى فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ

ومن الأخلاقيات التي يجب على المرء - أو يجدر به - التزامها في تعامله مع الناس وعلاقته بهم، ما يلي:

- مُدَارَاتُهُمْ.
- خِدْمَتُهُمْ.
- التَّعَاوُنُ مَعَهُمْ، ومساعدتهم في أمور وأعمال البر والخير والصَّلاح والفضيلة.
- تشجيعهم على أعمال الخير، ودلالتهم عليها.
- العيش فيهم وبينهم، وتجنُّب العزلة عنهم، إلَّا إذا دعا الأمر إلى ذلك.
- الابتعادُ عن التَّكَلُّفِ في معاملتهم، والتزام الآداب في ذلك.
- المجاملة المعتدلة المُخْلِصَةُ، والبعيدة عن المَلَقِ والتَّمَلُّقِ.
- اجتنابُ تكليفهم فوق طاقاتهم، وما لا يُطِيقون.
- صَوْنُ حُرِّيَّتِهِمْ وَأَمْنِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ.
- اجتنابُ التَّجَسُّسِ عَلَيْهِمْ.

١. وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٣٢.

٢. الغرر والدرر.

٣. للاطلاع على هذه الأحاديث يراجع كتاب «مكارم الأخلاق» للطبرسي.

- احترامُ حُرْمَةِ نفوسهم، وأعراضهم وأموالهم.
- اجتنابُ ظُلْمهم، واجتنابُ الجَوْرِ والبغي عليهم.
- اجتنابُ المَكْرِ بهم وخديعتهم واجتنابُ التَّحَايلِ عليهم وغشُّهم وغبنهم.
- اجتنابُ الغدر بهم.
- اجتنابُ الفَخْرِ والتَّفاخر عليهم.
- اجتنابُ الرُّوحِ الأنانيَّةِ والمَصْلَحِيَّةِ في معاملتهم.
- إشاعةُ الرُّوحِ الإيجابيَّةِ فيهم.
- التَّوَاصِي مَعَهُمْ بالحقِّ والخيرِ والصَّلاحِ والفضيلةِ.
- هدايتهم إلى اللهِ سُبْحَانَهُ.
- أَمْرُهُم بالمعروفِ ونهْيُهُم عن المنكر مع مراعاةِ الشُّروطِ التي بيَّنها الدِّينُ لذلك.
- الاهتمامُ بالمحتاجين والضُّعفاء والفقراء والمحرَّومين منهم، والعطف عليهم ومواساتهم ماديًّا ومعنويًّا.
- صلةُ الأقاربِ والأرحامِ.
- حسنُ مُعاملةِ الجيرانِ والإحسانِ إليهم.
- حسنُ الصُّحبةِ والمُعاملةِ في السَّفَرِ.
- التَّعَلُّمُ من كفاءات الآخرين وخبراتهم وتَجاربهم، والاستفادة منها.
- مجاراةُ النَّاسِ - الذين يُخَشَى من ضررهم وشرِّهم - في أخلاقهم وللأمن من غوائلهم وشرورهم^(*).
- حسنُ مُعاملةِ الرِّئيسِ للمرؤوس، والقَائِدِ للمَقُود، والمُدِيرِ للمُدَار، وبالعكس.
- حسنُ مُعاملةِ الحاكمِ لرعيَّته، والرَّعيةِ للحاكمِ.
- حسنُ مُعاملةِ المُعلِّمِ للتلميذ، والتلميذُ للمُعَلِّمِ.
- إكرامُ الضَّيفِ.

*١. في حالات معينة يستدعي الأمر أن يوافق المرء النَّاسَ في أخلاقهم ويُجاريهم فيها، وهذه الحالات هي التي يُصاب فيها بشرورهم أو يحتمل ذلك إن خالفهم. والمجاراة في مثل هذه الحالات ضابطها الأمن من شرور أشرار النَّاسِ، وليس الانسياق وراء أخلاقهم غير المحمودة. يقول الإمام عليُّ ع: «مجاراة النَّاسِ في أخلاقهم أَمْنٌ من غوائلهم».

❖ مِنَ الْأَخْلَاقِيَّاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ لِلرَّسُولِ الْأَعْظَمِ (ص)

قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ^(١).

رَسُولُ اللَّهِ (محمد بن عبد الله (ص)) هو قُدْوَةُ الْبَشَرِيَّةِ وَرُزْهَا الْأَعْظَمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ أُسْوَةُ الْبَشَرِ فِي عِلَاقَتِهِ بِخَالِقِهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَبِنَفْسِهِ، وَبِالنَّاسِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مُعَلِّمٍ فِي الْعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، يَنْبَغِي لِكُلِّ امْرِئٍ أَنْ لَا يَحْرِمَ نَفْسَهُ مِنَ التَّأْسِي بِهِ، وَالتَّتَلُّمُذِّ فِي مَدْرَسَتِهِ.

وَمِنْ أَخْلَاقِيَّاتِهِ (ص) فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ، مَا يَلِي:

- «يَبْدُرُ مِنْ لَقِيٍّ بِالسَّلَامِ».
- «لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ».
- «التَّكَلُّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ».
- «لَيْسَ بِالْجَافِي، وَلَا الْمُهِينِ».
- «لَا يَذُمُ ذَوْقًا ^(٢) وَلَا يَمْدَحُهُ».
- «إِذَا تُعْطِيَ الْحَقُّ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ، وَلَمْ يَقُمْ لِعَظَمِهِ شَيْءٌ، حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ».
- «لَا يَعْصِبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا».
- «إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلْبُهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا».
- «إِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ^(٣)».
- «إِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرَفَهُ».
- «جُلَّ صَحِيحُهُ التَّبَسُّمُ، وَيَقْفَرُ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْعَمَامِ ^(٤)».

١. ٢١ / الأحزاب.

٢. ذَوَاقُ: الدُّوقُ: قُوَّةُ تَدْرِكِهَا الطَّعُومُ. صِبْغَةٌ مُبَالِغَةٌ يَقْصِدُ مِنْهَا الْمِزَاجَ الْمَخْلُطَ الَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى خُلُقٍ.

٣. أَشَاحَ: أَظْهَرَ الْغُرَّةَ، أَعْرَضَ مُتَكَرِّهًا.

٤. فَرَّ السَّحَابُ: سَكَنَ وَتَهَيَّأَ لِلْمَطَرِ. الْغَمَامُ: السَّحَابُ. وَالْمِرَادُ أَنَّهُ يَتَبَسَّمُ وَيَكْثُرُ حَتَّى تَبْدُو أَسْنَانُهُ مِنْ غَيْرِ قَهْقَهَةٍ.

وعن مدخله إلى منزله:

«كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ، جَزَأً دُخُولَهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، جُزْءًا لِلَّهِ، وَجُزْءًا لِأَهْلِهِ، وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جَزَأً جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَلَا يَدْخُرُ عَنْهُمْ شَيْئًا».

ومن سيرته في جُزء الأمة:

«إِذَا رَأَى أَهْلَ الْفَضْلِ بِإِذْنِهِ، وَقَسَمَهُ عَلَى قَدَرِ فَضْلِهِمْ فِي الدِّينِ، فَمِنْهُمْ ذُو الْحَاجَةِ، وَمِنْهُمْ ذُو الْحَاجَتَيْنِ، وَمِنْهُمْ ذُو الْحَوَائِجِ، فَيَتَشَاغَلُ بِهِمْ، وَيُشْغِلُهُمْ فِيمَا أَصْلَحَهُمْ، وَالْأُمَّةَ مِنْ مَسَآلَتِهِمْ وَإِخْبَارِهِمْ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ، وَيَقُولُ: لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدَ الْغَائِبَ، وَأَبْلِغُونِي حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ ابْلَاغَ حَاجَتِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَبْلَغَ سُلْطَانًا حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ ابْلَاغَهَا إِيَّاهُ ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يُذَكِّرُ عَنْدَهُ إِلَّا ذَلِكَ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ، يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ زُورًا، وَلَا يَتَفَرَّقُونَ إِلَّا عَنْ ذَوَاقٍ(*)، وَيَخْرُجُونَ أَدْلَةً فَقَهَاءً».

وإذا خرج من منزله:

- «يَخْزَنُ لِسَانَهُ إِلَّا مَا يَعْنِيهِمْ».
- «يُؤَلِّفُهُمْ (النَّاسَ) وَلَا يَنْفَرُهُمْ».
- «يُكْرِيمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُؤْلِيهِ عَلَيْهِمْ».
- «يَحْذَرُ النَّاسَ الْفِتَنَ».
- «يَحْتَرِسُ مِنْهُمْ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَشْرَهُ وَلَا خُلُقَهُ».
- «يَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ».
- «يَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ، وَيُحَسِّنُ الْحَسْنَ وَيُقَوِّيهِ، وَيُقَبِّحُ الْقَبِيحَ وَيُوهِّيه».
- «مُعْتَدِلَ الْأَمْرِ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ».
- «لَا يَغْمُلُ مَخَافَةً أَنْ يَغْمُلُوا أَوْ يَمِيلُوا».

- «لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عِتَادٌ»^(*)
- «لَا يَقْصُرُ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يَجُوزُهُ»^(**)
- «الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ».
- «أَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعْمَهُمْ نَصِيحَةً».
- «أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَحْسَنُهُمْ مُوَاسَاةً وَمُوَازَرَةً».

وعن مَجْلِسِهِ كان:

- «لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ جَلَّ اسْمُهُ».
- «وَلَا يُوطِنُ الْأَمَاكِنَ، وَيَنْهَى عَنْ إِيْطَانِهَا»^(***)
- «إِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ».
- «يُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ نَصِيحَةً، حَتَّى لَا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ».
- «مَنْ جَالَسَهُ أَوْ قَاوَمَهُ فِي حَاجَةٍ صَابِرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُنْصَرَفُ عَنْهُ».
- «مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ يَمْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ».
- «قَدْ وَسَّعَ النَّاسَ مِنْهُ بَسْطُهُ وَخُلْفُهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً».
- مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ حِكْمٍ وَحَيَاءٍ وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ، لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤَبَّنُ فِيهِ الْحُرْمُ، وَلَا تُنْثَى فَلَتَاتُهُ^(*)، مُتَعَادِلِينَ يَتَفَاضَلُونَ فِيهِ بِالتَّقْوَى، مُتَوَاضِعِينَ، يُوقَرُونَ فِيهِ الْكَبِيرُ، وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ، وَيُؤْتِرُونَ دَا الْحَاجَةَ، وَيَحْفَظُونَ (أَوْ يَحُوطُونَ) الْغَرِيبَ».

*١. عِتَاد: إعداد، ما يُعَدُّ لأمْرٍ ما.

**٢. يَجُوزُهُ: يتجاوزُهُ، يتعدَاه.

***٣. أَيْ لَا يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ مَجْلِسًا يُعْرِفُ بِهِ. وَلَا يَجْلِسُ فِي مَكَانٍ وَيَنْهَى عَنِ الْجُلُوسِ فِيهِ.

*٤. تُنْثَى: تُظْهَرُ. فَلَتَاتُ: الهفوات أو الأمر فجأة.

وعن سيرته مع جُلَسَائِهِ، كان (ص):

- «ذَائِمَ الْبِشْرِ».
- «سَهْلَ الْخُلُقِ».
- «لَيِّنَ الْجَانِبِ».
- «لَيْسَ بِفَطٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَحَّابٍ^(**١) وَلَا فَحَّاشٍ وَلَا عَيَّابٍ، وَلَا مَزَّاحٍ».
- «يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي، وَلَا يُؤَيِّسُ مِنْهُ رَاجِيَهُ، وَلَا يُخَيِّبُ فِيهِ مُؤَمِّلِيهِ».
- «قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الْمِرَاءِ، وَالْإِكْتَارِ، وَمَا لَا يَعْنِيهِ».
- «تَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ؛ كَانَ لَا يَدُمُ أَحَدًا وَلَا يُعَيِّرُهُ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ».
- «إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، وَلَا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الْحَدِيثَ، مَنْ تَكَلَّمَ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثٌ أَوَّلِيهِمْ».
- «يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ».
- «يَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ».
- «يَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ^(**٢) فِي مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَصْحَابُهُ يَسْتَجْلِبُونَهُ^(**٣) فِي الْمَنْطِقِ، وَيَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ فَارْفُدُوهُ»^(***٤)
- «لَا يَقْبَلُ الشَّيْءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ».
- «لَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَجُوزَ فَيَقْطَعَهُ بِانْتِهَاءٍ أَوْ قِيَامٍ».

**١. صَحَّابٍ: شديد الصوت، من الضَّخْبِ.

**٢. الجفوة في منطقه: الغلظة والشدة في كلامه.

**٣. يستجلبونه: يعني أنهم يستجلبون الفقير لئلا يؤذي النبي.

***٤. أرفدوه: ضيفوه، وأعطوه.

وعن سُكُونِهِ:

«كَانَ سُكُوتُ رَسُولِ اللَّهِ (ص) عَلَى أَرْبَعٍ: عَلَى الْحِلْمِ، وَالْحَذَرِ، وَالتَّقْدِيرِ، وَالتَّفَكُّرِ. فَأَمَّا تَقْدِيرُهُ فَفِي تَسْوِيَّتِهِ النَّظَرُ وَالِاسْتِمَاعُ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَمَّا تَفَكُّرُهُ فَفِيمَا يَبْقَى وَيَفْنَى، وَجُمِعَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحِلْمُ وَالصَّبْرُ، فَكَانَ لَا يُغْضِبُهُ شَيْءٌ وَلَا يَسْتَفْرِضُهُ، وَجُمِعَ لَهُ الْحَذَرُ فِي أَرْبَعٍ: أَخَذَهُ بِالْحُسْنِ لِيَقْتَدِيَ بِهِ، وَتَرَكَهُ الْقَبِيحَ لِيَنْتَهِيَ عَنْهُ، وَاجْتَنَاهُ فِيمَا أَصْلَحَ أُمَّتَهُ، وَالْقِيَامَ لَهُمْ فِيمَا جُمِعَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

ومن تَوَاضَعِهِ وَحَيَائِهِ، كَانَ (ص):

- «يَعُودُ الْمَرِيضَ».
- «يَتَّبِعُ الْجَنَازَةَ».
- «يُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ».
- «يَرْكَبُ الْحِمَارَ».
- «يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ».
- «يَعْتَزِلُ الشَّاةَ».
- «يُسَلِّمُ عَلَى الصَّبِيَّانِ».
- «جَلَسَ بَيْنَ ظَهْرَائِي أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ، فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ».
- «إِذَا لَقِيَهِ وَاحِدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَامَ مَعَهُ، فَلَمْ يَنْصَرِفْ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْصَرِفُ عَنْهُ».
- «إِذَا لَقِيَهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَتَنَاوَلَ يَبْدِهِ نَآوَلَهُ إِيَّاهَا، فَلَمْ يَنْزِعْهَا عَنْهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُهَا مِنْهُ».

- «مَا أَخْرَجَ رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ قَطُّ».
- «مَا قَعَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) أَحَدٌ قَطُّ فَقَامَ حَتَّى يَقُومَ».
- «الْعَفْوُ وَالصَّفْحُ مَعَ الْاِقْتِدَارِ».
- «حَيًّا لَا يُسَأَلُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ».
- «أَجُودَ النَّاسِ كَفًّا».
- «أَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً».
- «مَنْ خَالَطَهُ فَعَرَفَهُ أَحَبَّهُ».
- «إِذَا فَقَدَ الرَّجُلَ مِنْ إِخْوَانِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، سَأَلَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ غَائِبًا دَعَا لَهُ، وَإِنْ كَانَ شَاهِدًا زَارَهُ، وَإِنْ كَانَ مَرِيضًا عَادَهُ».
- «إِذَا حَدَّثَ الْحَدِيثَ أَوْ سُئِلَ عَنِ الْأَمْرِ كَرَّرَهُ ثَلَاثًا لِيُفْهِمَ وَيُفْهِمَ عَنْهُ».
- «إِنْ أَخَذَ أَصْحَابُهُ فِي ذِكْرِ الدُّنْيَا أَخَذَ مَعَهُمْ، وَإِنْ أَخَذُوا فِي ذِكْرِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ أَخَذَ مَعَهُمْ».
- «وَفِيًّا بِوَعْدِهِ وَعَهْدِهِ».
- «مُؤَثِّرًا الْآخَرِينَ عَلَى نَفْسِهِ».
- «يَمْرُؤٌ وَلَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ».
- «يُدَاعِبُ الرَّجُلَ يُرِيدُ بِهِ أَنْ يُسِرَّهُ».
- «مَا فَاوَضَهُ أَحَدٌ قَطُّ فِي حَاجَةٍ أَوْ حَدِيثٍ فَاَنْصَرَفَ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْصَرِفُ».

- «مَا نَارَعه أَحَدُ الْحَدِيثِ فَيَسْكُتُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَسْكُتُ».
- «يَأْكُلُ عَلَى الْحَصِيرِ مَعَ الْعَبِيدِ».
- «يُنَاوِلُ السَّائِلَ بِيَدِهِ».
- «يَتَرَحَّزُ لِمَنْ يُرِيدُ الْجُلُوسَ إِلَيْهِ».
- «إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا قَعَدَ فِي أَدْنَى الْمَجْلِسِ حِينَ يَدْخُلُ».
- «يَجْلِسُ حَيْثُ مَا انْتَهَى مَجْلِسُهُ».
- «يُرِثُ السَّلَامَ».
- «يُرْشِدُ الْأَعْمَى».
- «يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ».
- «يُكْرِمُ الضَّيْفَ وَيَأْكُلُ مَعَهُ، وَأَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ مَا يَتَنَاوَلُهُ مَعَ النَّاسِ وَمَا تَكَثَّرَ عَلَيْهِ الْأَيْدِي».
- «يَتَنَظَّفُ وَيَتَمَشَّطُ وَيَتَطَيَّبُ بِالْمِسْكِ».
- «إِذَا لَبَسَ ثَوْبًا جَدِيدًا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا يُوَارِي عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ»^(١).

١. للاطلاع على تفاصيل أخرى عن أخلاقيات الرسول الأعظم ص. إراجع كتاب: «مكارم الأخلاق» للشيخ الجليل رضي الدين أبي نصير الحسن بن الفضل الطبرسي، وهو من أعلام القرن السادس الهجري، توفي في سبزوهار سنة ٥٤٨ هـ، أبوه صاحب «مجمع البيان في تفسير القرآن» وولده علي بن الحسن صاحب كتاب «مشكاة الأنوار».

القِسْمُ الْخَامِسُ: التَّعَامُلُ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ

❖ الصَّدَاقَةُ

«رَبِّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ»^(١).

الصَّدَاقَةُ مِنَ الصَّدَقِ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ بِالصَّدَقِ وَفِيهَا يَرْتَبِطُ بِالتَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ - بِشَكْلِ عَامٍ - وَفِيهَا يَرْتَبِطُ بِالْمُصَادَقَةِ - بِشَكْلِ خَاصٍّ - بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمُصَادَقَةَ وَجْهُ وَاسِعٌ مِنْ أَوْجِهَةِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، هُنَاكَ - إِنَّ صَحَّ التَّعْبِيرُ - :

- الصَّدَاقَةُ الْعَامَّةُ.

- الصَّدَاقَةُ الْخَاصَّةُ.

وَالصَّدَاقَةُ الْعَامَّةُ يُقْصَدُ بِهَا صَدَاقَةُ الْإِنْسَانِ مَعَ كُلِّ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْمُصَادَقَةِ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ، وَيَشْتَرِكُ مَعَهُمْ فِي الْأَبِّ وَالْأُمِّ، وَفِي الْخَلْقَةِ وَالْهِئَةِ، وَفِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ. أَمَّا الصَّدَاقَةُ الْخَاصَّةُ فَهِيَ تَتِمَثَّلُ فِي أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: الْأُخُوَّةُ أَوْ الصَّدَاقَةُ فِي الدِّينِ.

الثَّانِي: الصَّدَاقَةُ الْحَمِيمَةُ.

وَالأُخُوَّةُ فِي الدِّينِ تَعْنِي أَنَّ كُلَّ أَخٍ لَكَ فِي الدِّينِ هُوَ شَرِيكَ لَكَ فِي الْمَعْتَقَدَاتِ، وَالْأَهْدَافِ، وَبِالتَّالِي فَهُوَ صَدِيقٌ لَكَ حَتَّى لَوْ لَمْ تَكُنْ صَادِقَتَكَ مَعَهُ حَمِيمَةً، إِذْ لَا قَرَابَةَ وَلَا صَدَاقَةَ كَقَرَابَةِ وَصَدَاقَةِ الدِّينِ (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) هَذَا مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى إِنَّهُ لَيْسَ بِإِمَّاكَانِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ أَخٍ لَهُ فِي الدِّينِ - عَلَى انْفِرَادٍ - صَدِيقًا خَاصًّا لَهُ، بَلْ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ صَدِيقًا لَهُمْ بِشَكْلِ عَامٍ. وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الصَّدَاقَاتُ الْحَمِيمَةُ أَمْرًا وَاقِعًا فِي الْحَيَاةِ.

إِنَّكَ لَتَجِدُ إِنْسَانًا يَتَعَامَلُ مَعَ عُمُومِ النَّاسِ بِشَكْلِ حَسَنٍ، فَيُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، وَيَحْتَرِمُهُمْ وَيَحْتَرِمُونَهُ، وَيَقْدِّرُهُمْ وَيَقْدَّرُونَهُ، فَهُوَ صَدِيقٌ لَهُمْ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ تَجِدُ أَنَّ لَهُ أَصْدِقَاءَ مُقَرَّبِينَ، أَوْ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ: حَمِيمِينَ، وَهَؤُلَاءِ الْأَصْدِقَاءُ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى قَلْبِكَ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ، وَأَكْثَرُ التَّصَاقَفِ بِهِ، وَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ وَأَكْثَرُهُمُ التَّصَاقَفَ بِأَوْلَيْكَ الْأَصْدِقَاءِ.

١. ميزان الحكمة، ج ١، ص ٤٢.

وفي تصنيفه للإخوان والأصدقاء يقول الإمام عليّ (ع):

«الإخوان صنفان:

إخوانُ الثَّقةِ.

وإخوانُ المُكَاشَرةِ.

فإخوانُ الثَّقةِ، كالكَفِّ، والجنّاح، والأهل، والمال. فإذا كنت مع أخيك على ثقة، فابذل له مالك، ويدك، وصافي من صافئه، وعادٍ من عاداه، واكتم سرّه، وأظهر منه الحَسَنَ، واعلم أَنَّهُمْ أَقْلُ من الكبريت الأحمر^(١).

وأما إخوان المكاشرة^(٢)، فَإِنَّكَ تصيب منهم لَذَّتكَ، ولا تَقْطَعَنَّ ذلك مهم، ولا تطلبنَّ ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل لهم ما بذلوا من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان^(٣).

والتَّعامل مع الأصدقاء هو جزء من التَّعامل مع النَّاس عموماً، وعليه فإنَّ القواعد والوصايا المذكورة المتقدِّمة تنطبق على الأصدقاء كما تنطبق على عموم النَّاس، وإن كان بعضها يختص بعمومهم باستثناء الأصدقاء.

❖ عَظْمَةُ الصَّدَاقَةِ

والصَّدَاقَةُ رابطة اجتماعيَّة مَتيّنة، وهي أمر عظيم في الإسلام والحياة. وعَظُمَتْ منزلة الصَّدَاقَةِ حتّى أَنَّ أهل النَّارِ يستغيثون بالأصدقاء ويدعون بهم قبل الأقرباء الحميمين، ولكن الله تعالى يقول عنهم:

(فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)^(٤)

*١. يعني أَنَّهُمْ أَقْلَاءُ أو نادرون كَقَلَّةٍ أو ندرة الكبريت الأحمر.

*٢. المكاشرة: المضاحكة.

٣. مصادقة الإخوان.

*٤. سورة الشَّعراء، آية: ١٠٠ - ١٠١.

ويقول سبحانه:

(الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)^(١٤)

❖ الصَّدَاقَةُ صِنَاعَةٌ

والصَّدَاقَةُ كالبناء، أَرَأَيْتَ الْبِنَاءَ كَيْفَ يَصْنَعُ الْبَيْتَ وَيَبْنِيهِ؟

إِنَّهُ يَجْعَلُ لَهُ أَسَاسًا قَوِيًّا، وَأَعْمَدَةً مَتِينَةً، ثُمَّ يَصِفُ الْحِجْرَ، لَاحِمًا إِيَّاهُ بِالْإِسْمَنْتِ، وَيَصْنَعُ السَّقْفَ، وَيُثَبِّتُ الْأَبْوَابَ وَالشَّبَابِيكَ، وَيَقُومُ بِالتَّشْطِيبَاتِ النَّهَائِيَّةِ لِلجِدْرَانِ وَالْأَرْضِيَّاتِ حَتَّى يَكْتَمِلَ الْبَيْتُ وَيُصْنَعُ.

وهكذا الحال بالنسبة للصَّدَاقَةِ، فَهِيَ صِنَاعَةُ كَالْبَيْتِ وَبِالتَّالِي فَهِيَ لَا تَحْدُثُ مِنْ فَرَاغٍ، وَلَا فَجْأَةً، وَلَا صُدْفَةً، وَإِنْ كَانَتِ الصُّدْفَةُ تَسَاعِدُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى اغْتِنَامِ فُرْصَةِ الْمُصَادَقَةِ.

وحيث أَنَّ الصَّدَاقَةَ صِنَاعَةً، وَبِنَاءً فَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى أَرْضِيَّةٍ، وَأَرْضِيَّتُهَا الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْأَلْفَةُ، وَالْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ، وَالتَّوَاضُّعُ وَالْإِرَادَةُ، وَالْحِلْمُ، وَضَبْطُ النَّفْسِ، وَالْوَجْدَانُ الدَّاخِلِيُّ السَّلِيمُ.

❖ الصَّدَاقَةُ ضَرُورَةٌ دِينِيَّةٌ وَحَيَاتِيَّةٌ

وكما أَنَّ الصَّلَاةَ مِنْ ضَرُورَاتِ الدِّينِ، كَذَلِكَ الصَّدَاقَةُ فَهِيَ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِهِ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ لِيَبْقَى وَحِيدًا مُعْزَلًا عَنْ إِخْوَانِهِ فِي الدُّنْيَا، وَعَنْ نُظَرَائِهِ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ. وكما الْمَاءُ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْحَيَاةِ، إِذْ لَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْهُ فِي أَيِّ فَصْلٍ مِنْ فَصُولِ السَّنَةِ، وَكَذَلِكَ الصَّدَاقَةُ هِيَ ضَرُورَةٌ حَيَاتِيَّةٌ فِي زَمَنِ الصَّرَاعِ وَالْحَرْبِ، وَفِي زَمَنِ الصُّلْحِ وَالسَّلَامِ، فَكَمَا أَنَّهُ مَطْلُوبٌ مَنَّا

^{١٤}. سورة الزُّخْرُفِ، آيَةُ: ٦٧.

أَنْ نَصَادِقَ فِي زَمَنِ الصُّلْحِ وَالسَّلَامِ، كَذَلِكَ مَطْلُوبٌ مِّنَّا أَنْ نَصَادِقَ فِي زَمَنِ الصَّرَاحِ وَالْحَرْبِ، إِذِ الصَّدِيقُ حَاجَةٌ مَّاسَّةٌ فِي كُلِّ الظُّرُوفِ، وَلِأَنَّ الصَّدَاقَةَ تَسْتَثْمِرُ الْمُبَادَى، وَتَغْذِي الْأَخْلَاقَ.

❖ اخْتِيَارُ الْأَصْدِقَاءِ

وَلَمَّا كَانَتِ الصَّدَاقَةُ شَيْئًا عَظِيمًا فِي الْحَيَاةِ، وَضُرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ الدِّينِ، فَالْمَطْلُوبُ إعْطَاءُ أَهْمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ لِاخْتِيَارِ الْأَصْدِقَاءِ. إِذْ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ فِي شَيْءٍ أَنْ نَجْعَلَ اخْتِيَارَنَا لَهُمْ لِمَحْضِ الصُّدْفَةِ، وَنَخْتَارَ مَا هَبَّ وَدَبَّ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ وَبِلا حِسَابٍ. وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَيْضًا أَنْ يَعْمَدَ الْوَاحِدُ مَنَّا إِلَى الْوَحْدَةِ، وَعَدَمِ اتِّخَاذِ الْأَصْدِقَاءِ لِأَنَّ السَّعَادَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَا تَكْمُنُ فِي الْوَحْدَةِ وَالْعُزْلَةِ، وَإِنَّمَا تَكْمُنُ فِي أَنْ يَتَّخِذَ أَصْدِقَاءُ لَهُ، فَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِإِخْوَانِهِ - كَمَا تَقُولُ الْأَحَادِيثُ الشَّرِيفَةُ - ، وَالْإِخْوَانُ هُمْ وَسَائِطُ وَأَيَادِي وَسَلَامٌ لِلْمَجْدِ وَلِلنَّجَاحِ وَلِلسَّعَادَةِ.

وَعَنْ عَاقِبَةِ التَّفْرِيطِ فِي اخْتِيَارِ الْأَصْدِقَاءِ، يَرَوِي أَحَدُ الشُّبَابِ قِصَّتَهُ فَيَقُولُ:
أَرْسَلَنِي وَالِدِي لِلدِّرَاسَةِ الْجَامِعِيَّةِ فِي إِحْدَى الْبُلْدَانِ، وَكُنْتُ مُحَافِظًا، وَفِي ذَلِكَ الْبَلَدِ تَعَرَّفْتُ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الطَّلَابِ مِنْ نَفْسِ بَلَدِي، وَكَانُوا بَعِيدِينَ عَنِ الدِّينِ وَقِيَمِهِ، إِذْ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخُمُورَ، وَيَمَارِسُونَ الْفَحْشَاءَ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ دَعَوَنِي لِلذَّهَابِ مَعَهُمْ إِلَى أَحَدِ التُّوَادِي اللَّيْلِيَّةِ، فَذَهَبْتُ مَعَهُمْ، وَفِي لَيْلَةٍ أُخْرَى دَعَوَنِي إِلَى حَفْلٍ فَذَهَبْتُ، وَطَلَبُوا مِنِّي أَنْ أَشْرَبَ الْخَمْرَ فَشَرَبْتُ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ أَصْبَحْتُ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهَكَذَا كَانَتْ نَتِيجَةُ مَصَادِقَتِي لِقُرْنَاءِ السُّوءِ، وَإِهْمَالِي لِمَوْضُوعِ اخْتِيَارِ الْأَصْدِقَاءِ.

وَإِذْ أَنَّ اخْتِيَارَ الْأَصْدِقَاءِ عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ فَهَذَا الْأَمْرُ يَدْعُو إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَنْ هُمْ خَلِيقُونَ بِالْمُصَادَقَةِ، وَمَنْ هُمْ لَيْسُوا كَذَلِكَ.

فمن هم الجديرون بالمصادقة؟

ومن هم غير الجديرين بها، ومن لا تصحُّ معهم؟

❖ الجديرون بالمصادقة

هل حدث لك أن وقعتْ نظراتك على طير قدم له الحَبُّ؟

الكلُّ منَّا قد شاهد الطُّيور - ومنها الحمام - كيف تختار الحَبَّ الجيد وتترك الرَّذِيءَ، وتلتقط الأوَّل وتترك الآخر. وهكذا يجب أن يكون الإنسان في اختياره للأصدقاء الجديرين بالصَّداقة وترك من هم ليسوا كذلك؟

وقد يسأل السَّائل:

إذا كان بنو البشر هم شركاء في الخِلْقَةِ، فما الدَّاعي للتمييز في المصادقة بين الحسن والسَّيِّئ؟ وما الحكمة في ذلك؟ وهل من الصَّحيح أن نصادق هذا ونترك ذاك؟

والحقيقة أن اختيار الأصدقاء الصالحين يُبنى على أمور ثلاثة:

- أن الأصدقاء الصَّالحين يشكِّلون البيئة الصَّالحة للتَّعامل في الحياة، ولخدمة المبادئ والقيم، والسَّيِّئُون ليسوا كذلك.
- إن تلافي مصادقة غير الخليقين يشكل ضغطاً عليهم لكي يتركوا السُّوء والرَّذيلة ويعودوا إلى الصَّلاح والفضيلة.
- إن قضية المصادقة ليست مجرد لقاء اجتماعيٍّ، بل هي قضية تأثير وتأثر، وما من شكٍّ أن مصادقة أهل الفضيلة هو تكريس للفضيلة نفسها، ومصادقة أهل الرَّذيلة تشجيع لنمو الرَّذيلة في الاجتماع، والنَّتيجة سوء المصير في الدَّار الآخرة.

يقول تعالى:

(وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)^(١).

والجديرون بالمصادقة هم:

- العلماء.
- العقلاء.
- الحكماء.
- المتديِّنون.
- الممتقون.
- الزَّاهدون.
- الحكماء.
- الخيرون.
- الفضلاء.
- الأخلاقيون.
- الصادقون.
- الأوفياء.
- الصالحون.
- أهل الحقِّ والصَّوابِ.
- المصلُّون.
- الأزكيا.
- مَنْ إِذَا صَحِبْتَهُ زَانَكَ.

١. سورة الفرقان، آية: ٢٨.

- مَنْ إِذَا خَدَمْتَهُ صَانَكَ.
- مَنْ إِذَا قُلْتَ حَقًّا صَدَّقَ قَوْلَكَ.
- مَنْ إِذَا صَلَّيْتَ شَدَّ صَوْلَكَ.
- مَنْ إِذَا مَدَدْتَ يَدَكَ بِفَضْلِ مَدَّهَا.
- مَنْ إِذَا بَدَأَ عَنْكَ ثَلَمَةً سَدَّهَا.
- مَنْ إِذَا رَأَى مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا.
- مَنْ إِذَا سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ.
- مَنْ إِذَا سَكَتَ عَنْهُ ابْتَدَأَكَ.
- مَنْ إِذَا نَزَلْتَ إِحْدَى الْمُلَمَّاتِ بِهِ سَاءَكَ ذَلِكَ.
- مَنْ كَثُرَ وِفَاقُهُ.
- مَنْ قَلَّ شِقَاقُهُ.
- الدَّاعُونَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ.
- مَنْ يَرْغَبُ فِيكَ وَإِلَيْكَ.

❖ مَنْ لَا تَصِحُّ أَوْ لَا تَجْدُرُ مُصَادَقَتُهُمْ

أما غير الجديدين بالمُصادقة فهم:

- الحمقى.
- الجهلاء.
- الفجَّار.
- الفَاسِقُونَ.
- المجاهرونَ بِمَعَاصِي اللَّهِ.
- الكذَّابُونَ.

- السفهاءُ.
- قُرْنَاءُ السُّوءِ.
- الأشرارُ.
- أصحابُ الدُّنيا.
- مَنْ لَا تَنْتَفِعُ بِدِينِهِ وَدُنْيَاهُ.
- مَنْ إِذَا حَدَّثْتَهُ مَلَكَ.
- مَنْ إِذَا حَدَّثَكَ غَمَّكَ.
- مَنْ إِذَا فَارَقْتَهُ سَاءَ لَكَ مَغِيْبُهُ بِذِكْرِ سَوَاتِكَ.
- مَنْ إِذَا مَانَعْتَهُ تَهْتَّكَ وَافْتَرَى.
- مَنْ إِذَا وَافَقْتَهُ حَسَدَكَ وَاعْتَدَى.
- مَنْ إِذَا خَالَفْتَهُ مَقَّتَكَ وَمَارَى.
- مَنْ يَعْبِزُ عَنْ مَكَافَأَةٍ مِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ.
- مَنْ يَفْرِطُ عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْهِ.
- مَنْ يَتَعَلَّمُ لِلْمِرَاءِ.
- مَنْ يَتَفَقَّهَ لِلرِّيَاءِ.
- مَنْ يَبَادِرُ الدُّنْيَا وَيُوَاكِلُ التَّقْوَى.
- مَنْ يَتَنَاوَلُ أَعْرَاضَ النَّاسِ.
- مَنْ يَغَيِّرُ رَأْيَهُ وَيُنْكِرُ عَمَلَهُ.
- الخائِنُونَ.
- الظَّالِمُونَ.
- النَّمَامُونَ.
- مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِثْلَ الَّذِي لَا يَرَى لِنَفْسِهِ.

- من يبغضه القلبُ.
- متتبعو عيوبِ النَّاسِ.
- الهَمَّازُونَ وَاللَّمَّازُونَ.
- خُبثَاءُ النُّفُوسِ.
- ضُعَفَاءُ الْخَيْرِ.
- أَقْوِيَاءُ الشَّرِّ.
- السَّفَلَةُ.
- الْمُلْهُونَ.
- الْمُغْرُونَ.
- الْقَاطِعُونَ أَرْحَامَهُمْ.
- الْمَائِثُونَ «الْعَضْبُونَ وَشَدِيدُو الْغِيظِ».
- سَيِّئُو الْأَخْلَاقِ.
- الْأَعْدَاءُ.

يقول الشَّاعر:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى *** عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

- أَعْدَاءُ الْأَصْدِقَاءِ.
- أَصْدِقَاءُ الْأَعْدَاءِ.
- الْعَوَامُ^(١)

وحقيقة أنَّ هناك نوعيات من النَّاسِ لا تجدر مصادقتهم، لا تعني أن ينعزل المرء عن الاجتماع، أو يتنصّل عن مسؤوليته في عملية التَّغيير الاجتماعيِّ، فهناك خط

١. العَوَامُ: جمع عامَّة، عامَّة النَّاسِ، خلاف خاصَّتهم.

فاصل دقيق يجب أن يُدرك، بين الابتعاد عن غير الجديرين بالمصادقة لغياب أهليّتهم، وباعتبار أنّهم قد يتركون تأثيرهم السيِّء على أصدقائهم، وبين مسؤوليّة الإنسان في تغييرهم إلى الأفضل ونقلهم من جحيم الرَّذيلة إلى جنة الفضيلة.

وعلى هذا بإمكان المرء أن يتعامل مع شخص شرير لا بعنوان أن يتّخذه صديقاً فيؤثّر عليه - سلباً - في المستقبل، وإنّما من أجل إصلاحه وتغييره إلى الأفضل. أما الاعتزال عن الفاسقين أو الفرار منهم، فيلجأ إليه حينما يفقد الأمل في هدايتهم، أو حينما يشكّلون خطراً على الأخيار. ومثال ذلك أصحاب الكهف الذين رأوا أنفسهم بين ظهرائي قوم أصرّوا على الشُّرك والكُفر، ولم تنفع معهم سبل الإرشاد والهداية، فلجأوا إلى الاعتزال عنهم في الكهف.

يقول تعالى في قصّتهم:

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا).

ويقول الشّاعر في اختيار الأصدقاء:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ *** فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي
إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ *** وَلَا تَصْحَبِ الْأَزْدَى فَتَزْدَى مَعَ الرَّدَى

❖ اخْتِبَارُ الْأَصْدِقَاءِ

وبعد اختيار الأصدقاء تأتي مرحلة اختبارهم^(١).

وَرَبِّ سَائِلٍ يَسْأَلُ:

لماذا اختبار الأصدقاء؟

وكيف؟

١. يمكن اختبار الشّخص قبل اختياره صديقاً، فيكون الاختيار مبنياً على الاختبار.

إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي اخْتِبَارِ الْأَصْدِقَاءِ تَنْبُعُ مِنْ أُمُورٍ:

- أَنَّ الزَّمَنَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ زَمَانُ جَوْرِ، وَإِذَا كَانَ الزَّمَنُ كَذَلِكَ فَسَلَاحُ الْإِنْسَانِ فِي حِفْظِ صِدَاقَاتِهِ هُوَ الْحَذَرُ، وَالتَّوَسُّطُ فِي إِعْطَاءِ الثِّقَةِ. وَيَكُونُ هَذَا الْأَمْرُ أَكْثَرَ أَهْمِيَّةٍ حِينَمَا تَكُونُ الصَّدَاقَةُ مُتَعَلِّقَةً بِأُمُورٍ خَطِيرَةٍ، وَأَسْرَارٍ جَمَاعِيَّةٍ.

- قَدْ يَخْطِئُ الْإِنْسَانُ فِي اخْتِيَارِهِ لِلْأَصْدِقَاءِ، وَفِي اخْتِبَارِهِ لَهُمْ يَتَعَرَّفُ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ فِيهِمْ، وَبِالْإِخْتِبَارِ يُمْكِنُ لَهُ إِصْلَاحُ الثُّلُمَاتِ فِيهِمْ، أَوْ الْإِبْتِعَادُ عَنْهُمْ إِذَا دَعَتْ الْحَاجَةُ وَالْمَوْقِفُ لَذَلِكَ.

- يَكُونُ الْإِخْتِبَارُ ضَرُورِيًّا فِيمَا إِذَا طَرَأَتْ مُتَغَيِّرَاتٌ مُعَيَّنَةٌ فِي الصَّدَاقَةِ، وَيَكُونُ الْإِخْتِبَارُ هُوَ الْكَاشِفُ لِتِلْكَ الْمَتَغَيِّرَاتِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ: أَنَّ يَصَادِقَ إِنْسَانًا، آخَرَ أَمِينًا عَلَى الْأَسْرَارِ، فَتَحْدُثُ لِهَذَا الْأَخِيرِ مُتَغَيِّرَاتٌ تَجْعَلُهُ يَفْقِدُ صِفَةَ الْأَمَانَةِ، أَوْ تَجْعَلُهُ يَشْكُ فِي أَمَانَتِهِ، فَيَكُونُ الْإِخْتِبَارُ هُوَ الْمَقْيَاسُ آنَذَا.

أَمَّا عَنْ كَيْفِيَّةِ اخْتِبَارِ الْأَصْدِقَاءِ فَمَا يَجِبُ التَّأَكِيدُ عَلَيْهِ أَنَّ الْإِخْتِبَارَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانِيًّا وَغَيْرَ مُهِينٍ لَهُمْ. إِنَّ قِسْمًا مِنَ النَّاسِ يَخْتَبِرُونَ أَصْدِقَاءَهُمْ بِشَكْلِ مُهِينٍ أَوْ مُؤْذٍ، وَحِينَمَا يَرَا جَعَهُمْ أَصْدِقَاءَهُمْ يَرُدُّونَ: أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ سِوَى مُجَرَّدِ اخْتِبَارٍ!

وَإِخْتِبَارَاتُ الْأَصْدِقَاءِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا مَا يَلِي:

- اخْتِبَارُ الْمِيلِ النَّفْسِيِّ وَالرُّوحِيِّ «حُبُّ التَّقَرُّبِ».
- الْإِخْتِبَارُ عِنْدَ الْحَاجَةِ «الْعَطَاءُ فِي عُمُومِ الْحَاجَاتِ».
- اخْتِبَارُ الْمَوَاسَاةِ بِالْمَالِ، وَالذَّرْهَمِ وَالذِّينَارِ.
- الْإِخْتِبَارُ فِي الصَّرَاءِ وَالشَّدَائِدِ وَالنَّكَبَاتِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

جَزَى اللَّهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ *** عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي مِنْ صَدِيقِي

- اختبارُ الحِلْمِ والغَضَبِ.
- اختبارُ السَّفَرِ.
- اختبارُ الأصدقاء بأخذانهم، أي بأصحابهم^(١).
- اختبارُ الأمانة، كالائتمان على مال.
- الاختبارُ في الغيبة «حفظ الصَّدِيق في غيبته».
- اختبارُ التَّقْوَى.
- اختبارُ الإخلاص في الصَّدَاقَةِ.
- اختبارُ الصَّدَقِ.
- اختبارُ حفظ اللِّسَان وحُسن استعماله.
- اختبارُ تحصيل الأسرار.

قال الشاعر:

- لا يحفظِ السِّرَّ إِلَّا كُلُّ ذِي كَرَمٍ *** والسِّرُّ عندِ النَّاسِ مَبْدُولُ
- اختبارُ الاهتمام بالعبادات.
- اختبارُ الصِّفَات النَّفْسِيَّة كالأرادة، وسعة الصدر، والمزاج، و . . .
- اختبارُ الأخلاق عموماً.
- اختبارُ الإخلاص والثَّباتِ في الصَّدَاقَةِ.

قال الإمام علي (ع) في الشعر المنسوب إليه:

- وَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ امْرِئٍ مُتَلَوِّنٍ *** إِذَا الرِّيحُ مَالَتْ مَالَ حَيْثُ تَمِيلُ
- وما أَكْثَرَ الإِخْوَانَ حِينَ تَعَدَّهُمْ *** وَلَكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ
- اختبارُ حسن العِشرة والمعاملة.
- اختبارُ رعاية الحُقُوق.

١. كما تقول الحكمة الشَّهيرة: «قل من تصادق أقل لك من أنت» فاختبارك صديقك باختبار صديقه أو صاحبه يعينك على معرفة صديقك.

❖ حُقُوقُ الْأَصْدِقَاءِ

من طبيعة الحياة أَنَّها قائمة على الحقوق. فالنَّبتة التي يزرعها المرء، حَقُّها عليه أن يسقيها ويتعهَّدها. والطَّير الذي يضعه في بيته، حَقُّه عليه أن يطعمه الحَبَّ، ويسقيه الماء ويرعاه. والقِطَّة التي في منزله، حَقُّها عليه أن يُطعمها ويعاملها بالرَّفَق، والأمور كُلُّها على هذا.

والنَّاس الذين هم إما إخوان للمرء في الدِّين أو نظراء له في الخَلْق، لهم حقوق عليه، منها أن يحترمهم، ويُقدِّرهم، ويظهر اهتمامه المُخْلِص بهم، ويلقاهم بوجه طَلْق، ويقضي حوائجهم، ويتعامل بالرَّفَق وباللِّين والرَّحمة معهم، ويتواضع لهم، ولا يُريق ماء وجوههم، ويقدِّر أفكارهم ووجهات نظرهم، ويعطف على رغباتهم الخَيْرَة ويخالطهم ويعاشرهم بإحسان، ولا يُخرجهم، ...

ومن النَّاس، الأصدقاء، فكما أنَّ لعموم النَّاس على المرء حقوقاً، فإنَّ للأصدقاء عليه حقوقاً أيضاً، ويشترك الأصدقاء مع عموم النَّاس في كثير من الحقوق، إلَّا أنَّ للأصدقاء حقوقاً متميِّزة.

وإعطاء الحقوق للأصدقاء يمثِّل جانباً واسعاً وكبيراً من التَّعامل معهم، لأنَّ إعطاء الحقوق من العدالة، التي هي إعطاء كلِّ ذي حقِّ حَقُّه، ووضع الشَّيْء في موضعه.

فَلِكِي يُحَسِّن المرء التَّعامل مع أصدقائه، يلزم له أن يُحسن إعطائهم حقوقهم. وحقوق الأصدقاء على ثلاثة أنواع كما يتبيَّن من خلال النُّظر إلى الأحاديث الشَّريفة الواردة فيها.

- حقوقُ نفسيَّة.
- حقوقُ معنويَّة.
- حقوقُ ماديَّة.

ومن حيث الأوليَّة والتَّفصيل، هناك - إن صحَّ التعبير - حقوقُ رئيسيَّة، وأخرى تفصيليَّة.

الحقوق الرئيسة:

- الحفظُ في الغيبة.
- الحفظُ في النكبة.
- الإجلالُ في العين.
- الوُدُّ في الصدر.
- المُواساةُ في المال.
- العيادةُ في المرض.
- تشييعُ الجنازة.
- الحفظُ بعد الوفاة.

الحقوق التفصيليّة:

- غُفرانُ الخطأ والزَّلة.

قال بشار بن برد:

وَكُنْتُ إِذَا الصَّدِيقُ أَرَادَ غِيظِي *** وَأَشْرَقَنِي عَلَى حَنْقٍ بِرِيقِي
غَفَرْتُ ذُنُوبَهُ وَصَفَحْتُ عَنْهُ *** مَخَافَةَ أَنْ أَعِيشَ بِلا صَدِيقِي

- رحمَةُ العَبْرَةِ.
- سِتْرُ العَوْرَةِ.
- قَبُولُ العَثْرَةِ.
- رَدُّ الغيبة.
- قَبُولُ المَعذْرَةِ.

قال الشاعر:

إِذَا اعْتَذَرَ الصَّدِيقُ إِلَيْكَ يَوْمًا *** مِنْ التَّقْصِيرِ عَذَرَ أَخٍ مُقَرٍّ
فَصْنُهُ عَنْ جَفَائِكَ وَاعْفُ عَنْهُ *** فَإِنَّ الصَّفْحَ شِيمَةُ كُلِّ حُرٍّ

- إدامَةُ النَّصِيحَةِ.
- حَفْظُ الْخَلَّةِ^(١).
- رَعَايَةُ الدَّعْوَةِ.
- شَهُودُ الْمَيْتَةِ.
- إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.
- قَبُولُ الْهَدِيَّةِ.
- مَكَافَأَةُ الصَّلَةِ.
- شُكْرُ النُّعْمَةِ.
- حَسَنُ النُّصْرَةِ.
- حَفْظُ الْحَلِيلَةِ (الرَّوْجَةِ).
- قَضَاءُ الْحَاجَةِ.
- اسْتِنْجَاحُ الْمَسْأَلَةِ.
- تَسْمِيَةُ الْعَطْسَةِ^(٢).
- إِرْشَادُ الصَّالَةِ.
- رَدُّ السَّلَامِ.
- تَطْيِيبُ الْكَلَامِ.
- مَوَالَاةُ الْوَلِيِّ وَالصَّدِيقِ.

١. الْخَلَّةُ: الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ، الْخَصْلَةُ، التُّقْبَةُ. الْخَلَّةُ: الْمَصَادَقَةُ وَالْإِخَاءُ. الْخَلَّةُ: الصَّدَاقَةُ، وَالْخَصْلَةُ.
٢. تَسْمِيَةُ: سَمَّيْتُ لِلْعَاطِسِ: دَعَا لَهُ بِقَوْلِهِ: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ» سَمَّيْتُ عَلَى الشَّيْءِ: ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ.

- نُصْرَةُ الصَّدِيقِ ظَالِمًا^(١) أَوْ مَظْلُومًا.
- عَدَمُ التَّسْلِيمِ وَالْخِذْلَانِ.
- حُبُّ الْخَيْرِ لِلصَّدِيقِ كَمَا لِلنَّفْسِ.
- كَرَهُ الشَّرِّ لَهُ كَمَا لِلنَّفْسِ.
- التَّفَضُّلُ.
- الْإِنْصَافُ.
- الْإِكْرَامُ.

❖ حُدُودُ الصَّدَاقَةِ

كما أنَّ الحديقة لابدَّ لها من سياج يحميها، وحدود تحدُّها لكي تتمَّ المحافظة عليها، واستمرارها، وجني ثمارها، كذلك الصَّدَاقَةُ، لابدَّ لها من حدود تحافظ عليها، وتحميها، وتصون ماهيَّتها، وحدودها هي القواعد الآتية:

- كَوْنُ سِرِّيةِ الصَّدِيقِ وَعِلَانِيَّتُهُ وَاحِدَةً (نَبْعُ الصَّدَاقَةِ مِنَ الْقَلْبِ).
- أَنْ يَرَى الصَّدِيقُ زَيْنَهُ زَيْنُ صَدِيقِهِ، وَشَيْنَهُ شَيْنُهُ.
- أَنْ لَا يَغَيِّرَ الصَّدِيقُ عَلَى صَدِيقِهِ مَالًا أَوْ وَلَدًا.
- أَنْ لَا يُسْلِمَهُ عِنْدَ النِّكَبَاتِ.
- أَنْ لَا يُمَسِّكَ شَيْئًا - عَنْ صَدِيقِهِ - مِمَّا تَصُلُّ إِلَيْهِ مَقْدَرَتُهُ.
- الْحَفْظُ فِي الْغَيْبَةِ.
- الْحَفْظُ فِي الْوَفَاةِ.
- النَّصْحُ فِي الْغَيْبِ.

١. نصرة الصَّدِيقِ ظَالِمًا بِرَدِّهِ عَنْ ظُلْمِهِ.

- الإِيثَارُ عَلَى النَّفْسِ.
- النَّهْيُ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.
- الْإِعَانَةُ عَلَى الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ.
- التَّصَدِيقُ فِي نَفْسِ الصَّدِيقِ وَمَعَايِهِ.
- الْوَقَايَةُ بِالنَّفْسِ.

❖ أَجَوَاءُ الصَّدَاقَةِ

كما أنَّ الإنسان لا يستطيع العيش إلَّا في جَوٍّْ يحتوي على كميَّة كافية من الغذاء والأكسجين، كذلك الصَّدَاقَةُ فهي لا تنمو ولا تبقى إلَّا في ظلِّ أجواء خاصة بها. وكما أنَّ البذرة لا تنفتح، ولا تنمو، ولا تثمر إلَّا حينما توقَّر لها التُّربة الصَّالحة، والكميَّة الكافية من الماء والنور والهواء، كذلك الصَّدَاقَةُ فهي لا تستمر، ولا تزدهر إلَّا في الأجواء الصَّالحة الخاصَّة بها.

وأجواء الصَّدَاقَةِ هي:

- الثِّقَةُ الْمُتَبَادَلَةُ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ (حَسَنُ الظَّنِّ الْمُعْتَدِلِ).
- الْوَرَعُ.
- اسْتِخْدَامُ الْحِلْمِ.
- اسْتِعْمَالُ الرُّفْقِ وَاللِّينِ.
- الْكَرَمُ.
- تَرْكُ الاسْتِقْصَاءِ وَالْإِنْتِقَادِ.
- تَرْكُ الْمُنَاقَشَةِ السَّلْبِيَّةِ.
- الْقَبُولُ بِالصَّدِيقِ كما هو (تَجَنُّبُ الْخِيَالِيَّةِ فِي الْمُصَادَقَةِ).

يقول الشاعر:

أَنْطَلِبُ صَاحِبًا لَا عَيْبَ فِيهِ! *** وَأَيُّ النَّاسِ لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ!؟

❖ آدَابُ الصَّدَاقَةِ

ليس من الصحيح أن يقال: بين الأحبابِ تَسْقُطُ الآدَابُ. لأنَّ الآداب إذا سقطت، سقطت الحياء، ومتى ما سقط الحياء انجرَّ الإنسان إلى ممارسة ما لا يحِلُّ ولا يَجْمُلُ، لأنَّه إذا لم يستح، يفعل ما يشاء. والصَّحيح هو أن تسقط الكُلْفَةُ والتَّكْلُفُ بين الأصدقاء، فحيث أنَّ القلوب متألّفة ومنسجمة ومتحابّة مع بعضها، فليس للكُلْفَةِ مكاناً.

وكما أنَّ للمسجد قدسيّة، وله آداب، فكذلك الصّدّاقة مقدّسة ولها آدابها. وكما أنّنا نلتزم الآداب حينما نرتاد الحدائق والمنتزهات، كذلك فإنَّ للصّدّاقة آدابها التي يخلُق بنا أن نلتزمها وهي كالآتي:

- الاستئذان للدُّخول على الصّديق.
- السّلام قبل الكلام.
- الاحترامُ في المجلس وقت الدُّخول.
- التّوسُّع في المجلس.
- ذكرُ كُنْيَةِ الصّديق في الحضور، والاسم في الغياب.
- التّزامُ آداب الجلوس.
- تسميتُ العَطَسَةِ.
- تركُ المَزَاح المُهين.
- المُضاحكَةُ والدُّعابة.
- تركُ التَّنَاجِي^(١) أمام الآخرين.
- الزيارةُ في الحَضَر.
- المكاتبَةُ حين السّفر.

١. التَّنَاجِي: التَّسَاءُلُ، تناجي القوم: تساءلوا. النجوة: الشُّرْبُ بين اثنين، يقول الإمام الصادق ع: «إذا كان القوم ثلاثة فلا يتناجى منهم إثنان دون صاحبهما فإن ذلك مما يحزنه ويؤذيه» أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٠.

- الإهداء.
- المصافحة والمعانقة.
- تقبيل موضع الثَّور من الجبهة.
- إطعام الطَّعام.
- الدُّعابة للأصدقاء.
- إخبار الصَّدِيقِ صديقَه بحبِّه له.
- المبادلة بين الأصدقاء.
- إدخال السرور إلى قلوب الأصدقاء.
- التَّحَدُّثُ فيما يُهمُّ الأصدقاءَ ويطيب لهم وَيَلِدُّ.
- كتمان أسرار الأصدقاء.
- حفظ أسماء الأصدقاء.
- الوفاء بالوعد مع الأصدقاء.
- التَّزِينُ والتَّجَمُّلُ للأصدقاء.

❖ خَمْسُ قَوَاعِدَ هَامَّةٌ فِي الصَّدَاقَةِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ

القاعدة الأولى: الاعتدالُ العاطفيُّ

في الصَّدَاقَةِ، هل من الصَّحِيحِ أن يكون الحُبُّ مفرطاً؟

وفي الخصومة هل من الصَّواب أن يكون البُغْضُ زائداً عن حدِّ الاعتدال؟

بلا تردُّدٍ أنَّ الاعتدال في الأمور هو الأسلوب السَّليم، وكما تقول الحكمة الإسلاميَّة الشَّهيرة: (خيرُ الأمور أوسطُها)^(٦١) ومن الأمور الهامَّة في الحياة حُبُّ الأصدقاء

^{٦١} الإمام الكاظم ع، بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٢٩٢.

وَوُدُّهُمْ، والذي يجب أن يكون عميقاً وصميماً، وغير مفرط في نفس الوقت.

ويسأل السائل:

إذا كانت الصداقة قائمةً على الحبِّ، والميل العاطفيِّ، فما الحكمة في أن هذا الحبِّ، وهذه العاطفة يجب أن يكونا خارجين عن حدِّ الاعتدال والتَّوازن؟ وتكون الإجابة كالتَّالي:

- مع وجود الصداقة، يُحتمل أن يكون هناك تباعُضٌ أو افتراقٌ. فإذا ما أفرط المرء في حبِّ صديقه، فقد يحدث أن ينفصل هذا الأخير عن الأوَّل، وبالتالي ينصدم الأوَّل بشيء لم يتوقعه. أما إذا اعتدل الصديق في حُبِّه لصديقه فإنَّه بذلك يضع في حسابه أن صديقه - ولسبب ما - قد يبغضه. هذا إضافة إلى أن التَّوسط والاعتدال هو الحدُّ المطلوب في الحبِّ والميل العاطفيِّ.

- الأمر الآخر أن الحبَّ المفرط قد يتحوَّل إلى حبٍّ أعمى وإذا ما تحوَّل إلى ذلك فإنَّ الصديق يتعامل مع صديقه وكأنَّه قَدِيسٌ فلا ينصحه ولا يبيِّن له أخطاءه، وهذا خلاف الصداقة الحقيقيَّة.

- إنَّ الاعتدال في الحبِّ والتوازن العاطفيَّ يجعل الإنسان معتدلاً في بُغْضه أيضاً الأمر الذي يساعد على تخصيص مساحة احتياطية من الحبِّ تجاه البغِض، من أجل أن تعود المياها إلى مجاريها، واستمرار الصداقة في يوم من الأيام.

وفي هذه المعاني يقول الإمام عليٌّ (ع):

«أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيزَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيزَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»^(١).

١. نهج البلاغة، ص ٥٢٢.

القاعدةُ الثَّانِيَةُ: اغْتِنَامُ فُرْصَةِ إِقْبَالِ النَّاسِ

كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ لِأَكْثَرِ الطُّيُورِ مَوَاسِمَ تُقْبَلُ فِيهَا، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: قَدْ تَغَيَّبَ الْبَلَابِلُ عَنْ مَنَاطِقِ مَا فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ، وَلَكِنَّهَا مَعَ إِطْلَالَةِ الرَّبِيعِ تَبْدَأُ بِالْخُرُوجِ أَوْ الْإِقْبَالِ، فَتَمَلَأُ الْأَجْوَاءَ تَغْرِيداً وَأَلْحَاناً.

وَمَعَ إدْرَاكِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَمَا الَّذِي يَفْعَلُهُ الصَّيَادُونَ مِنْ أَجْلِ الصَّيْدِ؟

إِنَّهُمْ يَنْتَهِزُونَ فُرْصَةَ مَوْسَمِ الطُّيُورِ وَاقْبَالِهَا فَيَتَنَاوَلُونَ فَخَاخَهُمْ وَحِبَالَهُمْ، وَيَتَوَجَّهُونَ شَطْرَ الْأَمَاكِنِ الْخَصْبَةِ لِلصَّيْدِ، فَيَكُونُ صَيْدُهُمْ سَمِيناً.

وَهَكَذَا الْحَالُ بِالنَّسْبَةِ لِلنَّاسِ فَهُمْ يُشَبِّهُونَ الطُّيُورَ - إِلَى حَدِّ مَا - فِي إِقْبَالِهِمْ وَإِدْبَارِهِمْ. فَإِذَا مَا أَقْبَلَ عَلَى الْمَرْءِ إِنْسَانٌ أَهْلٌ لِلْمُصَادَقَةِ، فَالْجَدِيرُ بِهِ أَنْ يَغْتَنِمَ فُرْصَةَ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ، دُونَ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي ذَلِكَ، فَيَصْطَادُهُ كَمَا يَصْطَادُ الصَّيَادُ ظَبِيّاً لَائِحاً مُقْبِلاًً. وَحَالُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهِ لِيَضَعُ فِي عَتَبَتِهِ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَأْتِي إِلَيْهِ، وَيَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ قَائِلاً: إِنَّكَ لَسْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَصْدِقَاءٍ، فَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، فَلْيَحْذَرِ كَيْدَ الشَّيْطَانِ. أَوْ قَدْ يَقُولُ الْمَرْءُ فِي نَفْسِهِ: إِنَّ النَّاسَ يَقْبَلُونَ عَلَيَّ، وَيَرْغَبُونَ فِي مُصَادَقَتِي، وَلَكِنِّي لَا أَرْغَبُ فِي مُصَادَقَتِهِمْ، وَهَذَا خِلَافُ الْمُبَادِئِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلصَّدَاقَةِ الَّتِي تَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى التَّوَاضُعِ، وَاغْتِنَامِ فُرْصَةِ إِقْبَالِ النَّاسِ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْدِقَاءِ.

وَفِي هَذِهِ الْمَعَانِي يَقُولُ الْإِمَامُ عَلِيُّ (ع):

«زُهِدْكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ، وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلٌّ نَفْسٍ»^(١).

فَإِذَا أَرَادَ الْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُحَظَّوظِينَ السُّعْدَاءِ، فَلَا يَزْهَدَنَّ فِي مَنْ يَرْغَبُ فِيهِ، وَلْيَقْبَلْ عَلَيْهِ، وَلْيَغْتَنِمِ فُرْصَةَ رَغْبَتِهِ فِيهِ، وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ، وَلْيُؤَاخِهِ وَلِيَصَادَقَهُ.

١. نهج البلاغة، ص ٥٥٥.

القاعدةُ الثالثةُ: الاحتِفَاطُ بالأَصْدِقَاءِ الْقَدَامَى

الأصدقاء القدامى كالتَّحَفِ النَّادِرَةِ التي كُلَّمَا تَعَاقَبْتَ عَلَيْهَا اللَّيَالِي وَالْأَيَّامَ، أَزْدَادَ الْإِنْسَانَ حُبًّا فِيهَا وَمَحَافَظَةً عَلَيْهَا. وَهُمْ كَرَأْسِ الْمَالِ الْأَوَّلِ لِلْإِنْسَانِ. أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ لِلْمَرْءِ رَأْسُ مَالٍ أَوَّلِيٍّ فَإِنَّهُ بِهِ يَصْنَعُ اسْتِثْمَارَاتِهِ الْجَدِيدَةَ وَالْمُسْتَقْبَلِيَّةَ.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَهَلْ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُقَرِّطَ فِي التَّحَفِ النَّادِرَةِ أَوْ أَنْ يَتِمَّ التَّخْلُصُ مِنْهَا بِإِهْمَالِهَا، أَوْ رَمِيهَا؟!

هَلْ مِنَ الصَّحِيحِ أَنْ يُهْمَلَ الْإِنْسَانُ رَأْسُ مَالِهِ وَيُضَيِّعَهُ؟!

كَلَّا!

إِنَّ الصَّدَاقَةَ مَهْمَا كَانَتْ قَدِيمَةً فَهِيَ دَائِمًا جَدِيدَةً، كَمَا أَنَّ النَّهْرَ فَهُوَ دَائِمًا جَدِيدٌ. وَإِنْ أَعْجَزَ الْعَاجِزِينَ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي لَمْ يَكْتَسِبْ صَدِيقًا لَهُ فِي الْحَيَاةِ، وَأَعْجَزَ مِنْهُ ذَلِكَ الَّذِي اكْتَسَبَ أَصْدِقَاءَ، فَفَرَّطَ فِيهِمْ، وَضَيَّعَهُمْ.

يَقُولُ الْإِمَامُ عَلِيُّ (ع):

«أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ»^(١).

وَيَقُولُ الشَّاعِرُ:

الْأَخْلَاءُ فِي الرَّخَاءِ كَثِيرٌ *** وَإِذَا مَا بَلَوْتَ كَانُوا قَلِيلًا

وَإِذَا مَا أَصَبْتَ خِلًا حَفِيفًا *** رَاعِيًا لِلْإِخَاءِ بَرًّا وَصُلَا

فَتَمَسَّكَ بِحَبْلِهِ أَبَدَ الدَّهْرِ *** وَأَكْرَمَ بِهِ أَحَاً وَخَلِيلًا

فَهَلَّا نَكْثَرُ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ الْجَدِّدِ، وَنَحَافِظُ عَلَى مَا ظَفَرْنَا بِهِ مِنْ أَصْدِقَائِنَا الْقَدَامَى؟

١. نهج البلاغة، ص ٤٧٠.

القاعدةُ الرَّابِعةُ: اسْتِعْمَالُ الْوَصْلِ فِي مُقَابِلِ الْقَطْعِ

أرأيت النحل في خلاياه؟

إنَّ المرءَ ليجد حالة التَّوَاصِلِ متمثلةً في أعلى مستوياتها، فأفراد النحل وإن كانوا يزاحمون بعضهم بعضاً، ويستعملون نوعاً من الشَّدَّةِ فيما بينهم، فيلسعون بعضهم بعضاً إلا أنَّ حالة التَّوَاصِلِ سرعان ما تعود فيما بينهم، وكأنَّ شيئاً لم يكن.

وإذا كانت تلك شاكلة النحل، أفليس من الخلقِ بنبي الإنسان الذين هم مُكْرَمُونَ على جميع الخلائق، ومتميزون عليهم بالعقول، أن يستعملوا أسلوب الصِّلَةِ في مقابل القطِيعَةِ، والإحسان في مقابل الإساءة؟

إنَّ الصَّدَاقَةَ قد تتعرَّضُ لما من شأنه أن يسبِّبَ التَّقَاطُعَ، ولكن ما هو الأسلوب الأمثل لرأب الصدع؟

هل التَّمَادِي في الخصومة، والقطيعة، واللَّجَاجَةُ، أم تقديم الحُبِّ، والتَّنَازُلِ، والإحسان؟

وما من شك أنَّه لا أفضل من أسلوب الوَصْلِ في مقابل القطْعِ، والإحسان في مقابل الإساءة فهو الأفضل في التَّعَامُلِ مع الإخوان والأصدقاء وبين عموم النَّاسِ. وعن طريق هذا الأسلوب يحقق المرء المستعمل له أموراً:

- أنه لا يدعُ فرصة للأغلال النَّفْسِيَّةِ أن تُعْشِشَ في نفسه، وفي نفس صديقه المُتَقَاطِعِ معه، فينسفها نسفاً، (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)^(١)
- تقديم التَّنَازُلِ، وبالتالي التَّحَكُّمِ في الآن، والابتعاد عن التَّعَصُّبِ الأعمى.
- عودة الصَّدَاقَةِ إلى مرافئها.

يقول الإمام عليُّ (ع):

«اِحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرَمِهِ عَلَى الصِّلَةِ إِذَا قَطَعَكَ»^(٢).

١. طه - ١٠٦، التَّنْسُفُ: هو الدَّكُّ والقلع من الأصل. والقاع الصَّفصَف: الأرض المستوية.

٢. تحف العقول. صرمة: انقطاعه وهجره.

ويقول (ع):

«عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْذُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ»^(١).

ويقول الشاعر:

وَلَا تَقْطَعْ أَخَاكَ لَكَ عِنْدَ ذَنْبٍ *** فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الْكَرِيمُ.

الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: الْإِصْلَاحُ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ

ما الذي يشاهده المرء لو وضع أمام ناظريه كأس ماء هادئ رسبت في قاعه حبيبات من التُّراب؟

ما يشاهده هو رواق الماء. ولكن ماذا لو حرَّك الكأس تحريكاً خفيفاً واهتزَّت حبيبات التُّراب، ألا يرى شيئاً من تلك الحبيبات يبدأ بالتَّقليل من صفاء الماء؟ أجل.

وهكذا الحال بالنسبة للصداقة، فالأصل فيها هو الصُّدق، والحُبُّ، والوئام، والوَحدة، والاتفاق. كما تتوافق ذرَّات الماء الرَّايق مع بعضها البعض. ومع ذلك فقد يحدث اختلافٌ، أو سوء تفاهم بين صديقين - لسبب ما - لأنَّ الإنسان ليس معصوماً من أن يخطئ وهو لا يتعامل مع تماثيل حجرية، وإِمْما مع بشر. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يتم التَّصرف حيال الاختلافات بين الأصدقاء؟

كيف يتمُّ الإصلاح بينهم؟

في كثير من الأحيان يتنازل الأصدقاء ويمتصُّون الاختلافات التي قد تنشأ بينهم. وقد يكون التَّنازل من طرفين، وقد يكون من طرف واحد، والمحصَّلة:

يعود الأصدقاء إلى الحالة الطبيعيَّة الصَّافية كما تعود جزيئات الماء التي أصابها شيء من التَّعكُّر، إلى حالة الرِّوَّاق.

١. نهج البلاغة، ص ٥٠٠.

وَيُعتَبَرُ الطرفان المختلفان هما المسؤول الأول عن إرجاع الصداقة إلى حالتها الطبيعية. أما لو لم يُبادر أيُّ منهما إلى الصُّلح وفضِّ الاختلاف، وفتح صفحة جديدة، فهنا يأتي دور الطرف الثالث (الوسيط أو الشَّفيع) في تقديم باقة من الورد، أو رفع غصن من الزَّيتون من أجل الإصلاح. ووسيلة الإصلاح، الكلمة الطيبة. وذلك بأن ننقل كلاماً طيباً عن كلِّ منهما للآخر، والكذب الأبيض، وكلُّ وسيلة خيرةٍ تؤدِّي إلى الإصلاح، ورجوع مياه الصداقة إلى مجاريها.

يقول الرسول الأعظم (ص):

«إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَ الصَّيَامِ»^(١).

ويقول الإمام الصادق (ع):

«كُلُّ كَذِبٍ مَسْئُولٌ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا ثَلَاثَةً:

رَجُلٌ كَانِدٌ فِي حَرِّهِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عَنْهُ.

وَرَجُلٌ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يَلْقَى هَذَا بِغَيْرِ مَا يَلْقَى هَذَا.

وَرَجُلٍ وَعَدَ أَهْلَهُ شَيْئاً، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنِّمَ لَهُمْ عَلَيْهِ، يُرِيدُ بِذَلِكَ دَفْعاً^(٢).

١. ميزان الحكمة.

٢. المصدر السابق.

القِسْمُ السَّادِسُ: التَّعَامُلُ مَعَ الْعَائِلَةِ

ما هي العائلة؟

وما ربطها بالتَّعامل مع الناس؟

كلمة «العائلة» تُطلق على من يُعيلهم الرَّجل، ويُنفق عليهم، وهم الزَّوجة والأولاد، ومن ينتسب إليه من أبيه، كالأخوان. والأهل هم العشيرة. وذوو القربى، وتطلق مخصوصاً على الزَّوجة. فأهل الرَّجل هي زوجته.

العائلة نقطة الانطلاق:

وحيث أنَّ أفراد العائلة هم أقرب النَّاس وأولهم بالنِّسبة للإنسان، وإذ أنَّهم يعيشون في محيط مشترك، سواء على صعيد القرابة، أو على صعيد الأسرة الواحدة، والمنزل الواحد، فإنَّ علاقاتهم الاجتماعيَّة، وتعاملهم فيما بينهم يلزم أن تكون قائمة على أسس متينة. وذلك لأنَّ التَّعامل الحسن هو الحالة المطلوبة من جهة، ومن جهة أخرى إنَّ التعامل الحسن مع أفراد العائلة يشكِّل نقطة الانطلاق في التَّعامل مع النَّاس. فمن يُحقِّق نجاحاً باهراً في التَّعامل مع عائلته، فإنَّه يحقِّق نجاحاً في التَّعامل مع عموم النَّاس الآخرين، وخلاف ذلك صحيح. والنَّجاح والسَّعادة في ميدان الاجتماع كلٌّ لا يتجزأ، ويشمل النَّجاح والسَّعادة في التَّعامل مع العائلة، ومع الأصدقاء، ومع عموم النَّاس على اختلاف فئاتهم. فمن يُحقِّق نجاحاً في معاملة النَّاس، أو مع أصدقائه، ولكنَّه يُسيء معاملة أفراد عائلته، فإنَّه لا يُعتَبَر ناجحاً وسعيداً. فَلِكَيْ يَدْخُل المرءُ السَّعادة من أوسع أبوابها، واجبه أن يُسعد نفسه على جميع هذه المحاور، وأولها التَّعامل مع أفراد العائلة.

وقواعد التَّعامل مع كلِّ تلك المحاور، ومع أفراد كلِّ واحد منها، كثيرٌ منها مشترك، وتبقى بعض الخصوصيَّات التي ترتبط بالفرد وموقعه. فعلى سبيل المثال: إنَّ قواعد الاحترام، والتَّقدير، وإظهار الاهتمام المخلص والإشعار بالأهميَّة، والحبِّ للنَّفْس كما الحبُّ للغير، والكره للنَّفْس كما الكره للغير، وترك التَّوبيخ واللَّوم، واستخدام الرُّفق، و... هي قواعدٌ مشتركةٌ للتَّعامل مع عموم النَّاس على اختلاف فئاتهم وحرِّهم، ومع الأصدقاء ومع أفراد العائلة، كالوالدين، والزَّوجة، والأولاد، والإخوان، ومع عموم الأهل والأقارب، كالأعمام، والعَمَّات، والأخوال، والخالات، و....

هناك من النَّاسِ من يبدو في معاملة النَّاسِ رفيقاً لَيِّناً حليماً، ولكنه حينما يعود إلى بيته يتحوَّل إلى شخص عنيف شديد الغضب في معاملة أهله وأقاربه، وهذا ليس صحيحاً، إذ حُسْنُ التَّعَامُلِ كما هو مطلوب خارج المنزل هو مطلوب داخل المنزل أيضاً.

❖ قَوَاعِدُ أَسَاسِيَّةٌ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْعَائِلَةِ

القَاعِدَةُ الْأَوَّلَى: الْحُبُّ وَالْمَوَدَّةُ

قد يسأل السَّائل: إذا كنتُ أعيش مع أبي وأمي، وزوجتي، وأولادي، ألا تكفي قرباتهم لي عن كلِّ شيءٍ؟

والإجابة:

إنَّ علاقة الإنسان بعائلته ليست علاقة ميكانيكيَّة، بل هي علاقة قائمة على الإنسانيَّة، والْحُبُّ المتبادل بين كلِّ فرد وآخر فيها، والْحُبُّ غريزة موجودة في كلِّ فرد من أفراد العائلة تجاه كلِّ فرد آخر فيها، فالأب يحبُّ زوجته، وكلاهما يحبُّ الأولاد، والأولاد يحبُّون الآباء، إلَّا أنَّ تلك الغريزة قد تضيق في إطار القرابة، وهذا ليس صحيحاً.

إنَّ القرابة مهما كانت قويَّة فإنَّها لا غنى لها عن الْحُبِّ، وليست بديلاً عنه، فهي بحاجة إليه أكثر مما يحتاج هو إلى القرابة، فكم من أناس مُتَحَابِّين مُتَوَادِّين، هم أصدقاء من دون أن تربطهم قرابة عائليَّة، وكم من أقرباء ليسوا مُتَحَابِّين بالشَّكل المطلوب!

وفي هذا المضمون يقول الإمام عليٌّ (ع):

«الْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَوْجُحُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ»^(١).

فَلِكَيْ يُحَسِّنَ المرء معاملة عائلته، فيلزمه أن يقيمها على الْحُبِّ، وازدهاره.

١. نهج البلاغة، الحكم.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الصَّدَاقَةُ مَعَ الْعَائِلَةِ

المعلوم أننا نَجِدُ ونجتهد في اكتساب أصدقاء أغراب، وننسى أن أفراد عائلتنا هم أوائل الأفراد الجديرين بالمُصادقة.

ويسأل السَّائل:

إذا كانت لدي صلة قرابة مع أفراد عائلي، فما الدَّاعي لمُصادقتهم؟

وكيف أكون صديقاً لأبي، ولأمي، ولزوجتي، ولأولادي، ولإخواني، ولسائر أفراد العائلة؟ إنَّ كونهم أقرباء بالنسبة للمرء لا يكفي، بل لا بُدَّ من اتِّخاذهم أصدقاء حميمين بالنسبة له، فيحبُّهم ويصادقهم ويعطيهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، كما يعطي أصدقاءه الأغراب حقوقهم.

وإنَّه لمن وافر السَّعادة ومن مظاهر المجتمع المتماسك المتحابِّ، أن تجد الوالد صديقاً لولده، والأخ صديقاً لأخيه، والزَّوج صديقاً لزوجته، وكلُّ فرد في العائلة صديقاً للآخر فيها!

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: الْمُعَاشَرَةُ بِالْمَعْرُوفِ

المُعاشرة، المخالطة، والمعاملة، والمعروف هو كُلُّ عطاءٍ خَيْرٍ يُؤَيِّده الدِّين والعقل. فالكلمة الطَّيبة، والاحترام، والتَّقدير، والحفظ في الغيبة، والحبُّ، والإخلاص، وتلافي إراقة ماء الوجه، والإنفاق، والإحسان، و... كلُّ هذه الأمور تندرج تحت مفهوم المعروف.

والحقُّ أنَّ أفراد العالة هم أولى النَّاس بالمعروف، فمن الاجحاف أن يقدِّم الإنسان معروفه إلى الآخرين، ولا يُقدِّمه إلى أقاربه وأفراد عائلته.

يقول تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)^(١)

١. سورة النساء، آية: ١٩.

وتقول الحكمة الشهيرة:

«الْأَقْرَبُونَ أَوْلَى بِالْمَعْرُوفِ».

ويقول الإمام الصادق (ع):

« إِنَّ الْمَرْءَ يَحْتَاجُ فِي مَنْزِلِهِ وَعِيَالِهِ إِلَى ثَلَاثِ خِلَالٍ يَتَكَلَّفُهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي طَبْعِهِ ذَلِكَ: مُعَاشَرَةً جَمِيلَةً، وَسَعَةً بِتَقْدِيرٍ، وَغَيْرَةً بِتَحَصُّنٍ »^(١).

القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ

يقول تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)^(٢)

أيًّا كانت منزلة المرء في العائلة، سواء كان أباً، أو أمّاً، أو ولداً مؤهلاً، أو زوجة، أو أختاً، أو ... فإن من واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ خَيْرٍ يَأْمُرُ بِهِ الْعَائِلَةُ هُوَ مَعْرُوفٌ، وَإِنَّ كُلَّ عَمَلٍ سَيِّئٍ يَنْهَى عَنْهُ، ويحاول تغييره فهو منكرٌ، فقد يكون أباً فيأمر أولاده بإقامة الصلاة، وحسن الارتباط بالله، واكتساب الأخلاق، وقضاء حوائج الآخرين، واحترام وتقدير الوالدين، والنّاس، وبكل معروف يحتاجون إليه، أو قد ينهاهم عن أي خصلة أو ممارسة ليست من المعروف في شيء. وقد يكون أختاً فيصنع مثل ذلك. وهكذا فإنَّ أيَّ فرد في العائلة مُطَالَبٌ بممارسة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر. وبممارسة ذلك يتم تحقيق أمرين:

- تكريسُ الفضيلة ونشرها في العائلة لتكون (العائلة) بالفعل نواة صالحة، ولبنة متينة.
- تقويم العائلة، وتصحيح مسارها، وتخليصها من كل ما من شأنه أن يجرَّها إلى الرذيلة، والأخلاق والعادات السيئة.

١. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٣٦.

٢. سورة طه، آية: ١٣٢.

القَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: الْحِلْمُ

إذا كان من المطلوب من الإنسان أن يتعامل مع الآخرين بالرِّفق والرِّفق، وَيَدَعِ الْعُنفَ والغضب، فَإِنَّهُ من المطلوب منه بشكلٍ أَوْلَى أَنْ يتعامل مع أفراد عائلته بمثل ذلك. وإنَّه لمن الشَّقَاءَ الحَقِيقِيَّ، والجَوْرَ أن يتحوَّل الإنسان إلى وردة في تعامله مع النَّاسِ، ولكنَّه حينما يعود إلى منزله يتحوَّل إلى بارود متفجِّر، مع أبيه وأمه وزوجته وأولاده، وإخوانه، وعموم أقاربه.

ومن هنا فإنَّ ممارسة الحِلْم، وضبط النَّفْس يجب أن تبدأ من العائلة، إذ فما فائدة أن يُسعد المرء الآخرين وأقرباؤه يَشْقَوْنَ منه؟!

يقول الإمام عليٌّ (ع) في وصيَّته لابنه الحسن (ع):

«وَلَا يَكُنْ أَهْلَكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ»^(١)

القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ

قد يسأل السَّائل:

ماذا يعني الصَّبْر هنا؟

أن يصبر المرء على أهله يعني أمرين:

- أن يصبر على حَبِّه لهم، وتحمُّل مسؤوليتهم، وعلى ما يحبُّ فيهم من الأخلاق والفضيلة.
- أن يصبر على ما يكره منهم، ويعمل على تقويمهم، وإرشادهم إلى الحقِّ والصَّواب.

يقول الإمام الباقر (ع):

«إِنِّي لِأَصْبِرُ مِنْ غُلَامِي هَذَا وَمِنْ أَهْلِي عَلَى مَا هُوَ أَمْرٌ مِنَ الْحَنْظَلِ، إِنَّهُ مَنْ صَبَرَ

١. نهج البلاغة، كتاب ٣١.

نَالَ بِصَبْرِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَدَرَجَةَ الشَّهِيدِ الَّذِي ضَرَبَ بِسَيْفِهِ قُدَّامَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنْ لَا تَتَحَوَّلَ الْعَائِلَةُ إِلَى مَلْهَاءٍ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّزَامِ مَبَادِيهِ

كما أَنَّ المالَ إِذَا أُسِيءَ فَهْمُهُ واستُخدمَهِ يتحوَّلُ إلى ملهَاءٍ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، ومادَّةٍ للأهواءِ والشَّهواتِ، فكذلك الأهل والأولاد، يتحوَّلون إلى أداةٍ إلهاءٍ عن قِيَمِ اللَّهِ فيما إِذَا لم يتمَّ التَّعاملُ معهم وفق الطَّرِيقَةِ التي يأمرُ الدِّينُ الَّذِي هو رسالةُ اللَّهِ إلى النَّاسِ.

وتحوَّلُ العائلةُ إلى ملهَاءٍ عن مبادئِ اللَّهِ يظهرُ في عدةِ أمورٍ منها:

- الإصابةُ بالغرورِ والكفرانِ بسببِ الأولادِ، فكم من إنسانٍ أنجبَ له أولاداً، فلم يتواضع ولم يشكر اللَّهَ على هذه النِّعمةِ، فابتعدَ عن جادَّةِ الحقِّ، والهدايةِ والرَّشادِ.
- الاستسلامُ لضغوطِ الأولادِ السَّليبيَّةِ والتَّأثُّرُ بها.
- الانشغالُ بهم، ومِسْؤُولِيَّتُهُمْ، وبتحمُّلِ نفقاتِهِمْ على حسابِ الالتزامِ بالمبادئِ والقيمِ الإلهيَّةِ.

يقول تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^(١).

الْقَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ: صَلََةُ الرَّحِمِ

من أهمِّ قواعدِ التَّعاملِ مع العائلةِ، والأهلِ وذوي القرباةِ، صلَّتُهُم والمحافظةُ على متانةِ العلاقةِ الاجتماعيَّةِ بهم. وقد ينشغل الإنسانُ بجزئياتِ حياته، أو قد يفرطُ في زيارةِ أقاربه وصلَّتُهُم، فيقطعُهُم، فما الَّذِي يحدثُ من جِراءِ ذلك؟

١. سورة المنافقون، آية: ٩.

إنَّ أبرز ما يحدث هو أن يكون أفراد الأهل والأقارب كحلقات السلسلة المتباعدة عن بعضها البعض، في الوقت الذي يجب أن يكونوا متواصلين متلاحمين.

فَلِكَيْ يَصِلَ الْمَرْءُ رَحْمَهُ، الْأَمْرُ فِي غَايَةِ السُّهُولَةِ، لِيَقِفَ مَعَ نَفْسِهِ، وَلِيَنْظُرَ مَا لَدَيْهِ مِنْ أَقَارِبٍ وَأَرْحَامٍ، وَأَبَاءٍ، وَإِخْوَانٍ، وَأَوْلَادٍ، وَأَعْمَامٍ، وَعَمَّاتٍ، وَأُخُوَالٍ، وَخَالَاتٍ، وَ. . وَلِيَرْسُمَ لَهُ بَرْنَامِجاً لِيَصِلَتَهُمْ.

وصلة الرَّحْمِ وسيلة فَنِيَّةٌ هَامَّةٌ فِي مَصَادِقَةِ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ، وَلِقِضَاءِ الْوَقْتِ الْمَشْحُونِ بِالْوُدِّ وَالْوَثَامِ، وَهِيَ تَتِمُّ بِزِيَارَةِ الْقَرِيبِ إِذَا كَانَ حَاضِراً، وَبِمَكَاتِبَتِهِ إِذَا كَانَ مُسَافِراً، أَوْ بِالِاتِّصَالِ بِهِ بِوَسِطَةِ جِهَازِ الْهَاتِفِ، أَوْ بِالسُّؤَالِ عَنْهُ، أَوْ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ اتَّصَلَ أُخْرَى. وَلَا يَنْسَ الْمَرْءُ أَنَّ لِلزِّيَارَةِ الْأَثَرَ الْأَعْمَقَ فِي الْأَرْحَامِ وَالْأَقَارِبِ وَفِي تَعْزِيزِ التَّلَاحِمِ الْعَائِلِيِّ. وَأَيُّ سَعَادَةٍ يَشْعُرُ بِهَا الْإِنْسَانُ حِينَمَا يَصِلُ أَرْحَامَهُ! إِنَّهَا سَعَادَةٌ يَفْتَقِرُ إِلَيْهَا كُلُّ مَنْ لَا يَصِلُ أَرْحَامَهُ وَأَقَارِبَهُ!

يقول الرسول الأعظم (ص):

«صِلَةُ الرَّحِمِ تُعَمِّرُ الدِّيَارَ، وَتَزِيدُ فِي الْأَعْمَارِ وَإِنْ كَانَ أَهْلُهَا غَيْرَ أَخِيَارٍ»^(١).

❖ التَّعَامُلُ مَعَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَوْلَادِ وَالْإِخْوَانِ

الوالدان، والأولاد، والإخوان هم ليسوا منفصلين عن إطار النَّاسِ، بل هم الأوَّلون والأقربون في هذا الإطار. وعليه فإنَّ هناك قواعد مشتركة كثيرة في التَّعامل مع النَّاسِ، وفي التَّعامل مع الوالدين، والأولاد، والإخوان.

ويمكن إيجاز قواعد التَّعامل مع الوالدين في ما يلي:

- الإحسانُ والبرُّ والمعروفُ.

- الاحترامُ والتَّقْدِيرُ واجْتِنَابُ النَّهْرِ^(٢).

١. بحار الأنوار ، ج ٧٤ ، ص ٩٤.

٢. النَّهْرُ: الرَّجْرَجُ، النَّهْيُ وَالْمَنْعُ.

- القولُ الكريمُ.
- الرَّحْمَةُ بِهِمَا.
- الدُّعَاءُ لَهُمَا.
- عَدَمُ إِطَاعَتِهِمَا فِي مَا لَا يُرِضِي اللَّهَ.
- مَصَادِقُتُهُمَا.

يقول تعالى:

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفًّا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)^(٨١)

ويقول الإمام عليُّ بن الحسين (ع)، في تبيانه لطريقة التعامل مع الوالدين بإعطائهما حقوقهما:

«وَأَمَّا حَقُّ أُمِّكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا حَمَلَتْكَ حَيْثُ لَا يَحْتَمِلُ أَحَدٌ أَحَدًا وَأَعْطَتْكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِهَا مَا لَا يُعْطَى أَحَدٌ أَحَدًا، وَوَقَّتَكَ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهَا، وَلَمْ تُبَالِ أَنْ تَجُوعَ وَتُطْعِمَكَ، وَتَعْطَشَ وَتَسْقِيَكَ، وَتَعْرَى وَتَكْسُوَكَ، وَتَضْحَى وَتُظْلِكَ، وَتَهْجُرَ النَّوْمَ لِأَجْلِكَ، وَوَقَّتَكَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ لِتَكُونَ لَهَا، فَإِنَّكَ لَا تَطِيقُ شُكْرَهَا إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ»^(٨٢).

«أَمَّا حَقُّ أَبِيكَ فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَصْلَكَ، فَإِنَّكَ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ فَمَهْمَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا يُعْجِبُكَ فَأَعْلَمْ أَنَّ أَبَاكَ أَصْلُ النُّعْمَةِ فِيهِ فَاحْمَدِ اللَّهَ وَاشْكُرْهُ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وفيما يرتبط بالتعامل مع الأولاد وإعطائهم حقوقهم يقول عليه السَّلام:

«وَأَمَّا حَقُّ وَلَدِكَ: فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْكَ، وَمُضَافٌ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ،

١. سورة الإسراء، آية: ٢٣ - ٢٤.

٢. مكارم الأخلاق، ص ٤٢١، رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين ع..

وأنتك مسؤول عمّا وليّته به من حسن الأدب والدّلالة على ربّه - عزّ وجلّ - والمعونة له على طاعته. فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مُثابٌّ على الإحسان إليه، مُعاقَّبٌ على الإساءة إليه».

وعن التَّعامل مع الأولاد:

جاء في كتاب « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثّر في النَّاس » لـ ديل كارنيجي، ذكر مقالة نُشرت أوّل الأمر في مجلة «بيبولزهوم جورنال» ثم نُشرت بعد ذلك آلاف المرات. وقصّة المقالة أنّ شخصاً انتقد طفله، وعنفه، ثمّ أصيب بحالة من الندم، ونصّ المقالة هو كالتّالي:

«يا بني!

أكتبُ هذا وأنتَ راقدٌ أمامي على فراشك سادرٌ في نومك وقد توسدتَ كفّك الصّغير وانعقدتْ خصلات شعرك الذهبيّ فوق جبهتك الغضّة.

فمنذ لحظاتٍ خلّتُ كنتُ جالساً إلى مكتبتي أطالع الصّحيفة، وإذا بفيض غامر من النّدم يطغى عليّ فما تمالكِ إلّا أن تسللتُ إلى مخدعك ووخز الضّمير يُصليّني ناراً. وإليك الأسباب التي أشاعت الندم في نفسي:

أتذكر صباح اليوم لقد عَنفَتُكَ وأنتَ ترتدي ثيابك تأهباً للذهاب إلى المدرسة، لأنّك عرفتَ عن غسل وجهك واستعضتَ عن ذلك بمسحه بالمنشفة ولُمْتُكَ لأنّك لم تنظّف حذاءك كما ينبغي وصحّتُ بك مغضباً لأنّك نثرت بعض الأدوات عفوّاً على الأرض.

وعلى مائدة الإفطار أحصيتُ لك الأخطاء واحدة واحدة: فقد أرقتَ حساءك والتهمتَ طعامك وأسندتَ مرفقيك إلى حافّة المائدة، ووضعتَ نصيباً من الرُّبْد على خبزك أكثر مما يقتضيه الدّوقُ.

«وعندما وليّ وجهك شطر ملعبك، واتخذتُ أنا الطّريق إلى محطة القطار، التفتتُ إليّ ولوّحت لي بيدك، وهتفتُ: «مع السّلامة يا بابا» وقطبتُ لك جبیني ولم أجبك، ثمّ أعدتُ الكرة في المساء، ففيما كنتُ أعبّر الطّريق لمحتُك جاثياً على ركبتيك تلعبُ «البلي» وقد بدت على جواربك ثقوب، فأذللْتُك أمام أقرانك، إذ

سَيَّرْتُكَ أمامي إلى المنزل مغضَباً، باكياً. إِنَّ الجوارب، يا بني، غالية الثَّمَن، ولو كنت أنت الذي تشتريها لتوفرت على العناية بها والحرص بها والحرص عليها.
«أفتتصوّر هذا يحدث من أبي؟!»

ثمّ أتذكّر بعد ذلك، وأنا أطلع في غرفتي، كيف جئت تجرّ قدميك متخاذلاً، وفي عينيك عتاب صامت، فلمّا نحيْتُ الصحيفة عني وقد ضاق صدري لقطعك عليّ حبل خلوتي، وقفتّ بالباب متردّداً، وصحّت بك أسألك: «ماذا تريد؟!»

«لم تقل شيئاً، ولكنك اندفعت إليّ، وطوّقت عنقي بذراعيك وقبّلتني، وشددتّ ذراعيك الصّغيرين حولي في عاطفة أودعها الله قلبك الطّاهر مزدهراً، لم يقو حتّى الإهمال على أن يذوي بها!»

«ثم انطلقت مهرولاً تصعد الدّرج إلى غرفتك!

«يا بني!»

«لقد حدث بعد ذلك برهة وجيزة، أن انزلتِ الصّحيفة من بين أصابعي، وعصف بنفسي ألمّ عاتٍ.

«يا الله! إلى أين كانت «العادة» تسير بي؟! عادة التّفطيش عن الأخطاء؟! عادة اللّوم والتّأنيب؟! أكان ذلك جزاؤك مني على أنّك ما زلت طفلاً؟!

«كلّاً! لم يكن مرد الأمر أيّ لا أحبّك، بل كان مرده أيّ طالبتك بالكثير، برغم حادثك! كنت أقيسك بمقياس سنّي، وخبرتي، وتجاربي.

«ولكنك كنت في قرارة نفسك تعفو وتغضي، وكان قلبك الصّغير كبيراً كبر الفجر الوضّاء في الأفق الفسيح، فقد بدا لي هذا في جلاء من العاطفة المهمّة التي حدثت بك إلى أن تندفع وتقبّلني قبله المساء!

«لا شيء يهمّ الليلة يا بني! لقد أتيتُ إلى مخدعك في الظلام، وجثوتُ أمامك موصوماً بالعار!

«وإنه لتفكير ضعيف!

«أعرف أنك لن تفهم ممّا أقول شيئاً لو قلته لك في يقظتك، ولكنني من الغد سأكون أباً حقاً. سأكون زميلاً وصديقاً. سأتألم عندما تنام، وسأضحك عندما تضحك، وسأغضّ لساني إذا اندفعت إليك كلمة من كلمات اللّوم والعتاب، وسأردُّ على الدّوام - كما لو كنت أتلو صلواتي - «إنّ هو إلّا طفل»!

«لشدُّ ما يحزُّ في نفسي أنّني نظرت إليك كرجل، إلّا أنّني وأنا أتأملك الآن منكبّشاً في مهدك، أرى أنك ما زلت طفلاً، وبالأمس القريب كنت بين ذراعي أمك، يستند رأسك الصغير إلى كتفها. وقد حملتُك فوق طاقتك!»

وفيما يرتبط بالتعامل مع الإخوان وإعطائهم حقوقهم يقول الإمام عليّ بن الحسين (ع):

«وأما حقُّ أخيك: فإن تعلم أنّه يدك، وعِزُّك، وقُوَّتُك، فلا تتخذهُ سلاحاً على معصية الله، ولا عدّةً للظلم بخلق الله، ولا تدعُ نصرته على عدوّه، والنصيحة له، فإن أطاع الله، وإلّا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوّة إلّا بالله.»

والحقُّ أنّ الإنسان بالتزام العدالة يمكنه إحسان معاملة والديه وأبنائه وإخوانه، وزوجته، وكلّ إنسان لأنها وضع للشّيء في موضعه، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وهي جامعة لكثير من الفضائل.

❖ التَّعَامُلُ مَعَ الزَّوْجَةِ

يقول تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)^(١).

الأمر الأساسي الذي يجب التأكيد عليه هو أنّ الزّوج - زوجاً كان أو زوجة - هو أحد الأطراف من النّاس بل هو أقربهم بالنسبة للإنسان، وأن السّعادة الزوجيّة هي من أهمّ أوجه السّعادة العامّة في الحياة. ومن هنا فإنّ قواعد ووصايا

١. سورة الرّوم، آية: ٢١.

التَّعَامُلُ تتوجه إلى الزَّوْجِ والزَّوْجَةِ على حد سواء فكل منهما مطلوب منه أن يعامل الآخر ويعاشره بشكل حسن.

وأذ أن المرأة ضعيفة، وباعتبارها محمية الرَّجُل، وأنَّ الرَّجَالَ هم القَوَّامُونَ على النِّسَاءِ، وأنَّ بعض الرَّجَالَ يستغلُّ هذه الأمور بشكل سلبيٍّ، فإنَّ كيفية التَّعَامُلِ تتوجَّه إلى الزَّوْجِ تجاه زوجته.

❖ اثْنَتَا عَشْرَةَ قَاعِدَةٌ هَامَّةٌ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الزَّوْجَةِ

- الْقَاعِدَةُ الْأُولَى: الْحُبُّ.
- الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الاحْتِرَامُ.
- الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّقْدِيرُ الْمُخْلِصُ.
- الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: الصَّدَاقَةُ.
- الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: كَثْرَةُ الْمُوَافَقَةِ.
- الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّوَسُّعُ مَعَ التَّقْدِيرِ.
- الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ: الْعَيْرَةُ بِتَحْصُنٍ.
- الْقَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ: تَرْكُ الْاِنْتِقَادِ.
- الْقَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَرْكُ اللَّوْمِ، وَالْعِتَابِ، وَالتَّوْبِيخِ^(١).
- الْقَاعِدَةُ الْعَاشِرَةُ: اسْتِعْمَالُ الرَّحْمَةِ وَالرَّفْقِ وَالْيَاقَةِ وَالْكِاسَةِ بَدَلَ الْغِلْظَةِ.
- الْقَاعِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الْاِبْتِعَادُ عَنِ النَّكَدِ، وَعَنِ اخْتِلَاقِ الْمَشَاكِلِ.
- الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّزَامُ الْآدَابِ^(٢)، وَالاهْتِمَامُ بِاللَّفَتَاتِ الْبَسِيطَةِ كَامْتِدَاحِ الْإِجَادَاتِ وَتَقْدِيمِ الْهَدَايَا.

١. بديهية أنَّ التَّقْدِ وَاللَّوْمَ الذَّيْنِ يَجِبُ أَنْ يُتْرَكَا فِي مَعَامِلَةِ الزَّوْجَةِ هُمَا الْمُهَيَّنَانِ لَهَا وَالْمُرِيقَانِ لِمَاءِ وَجْهَهَا، وَالْمُسْقِطَانِ لَشَخْصِيَّتَيْهَا، أَمَّا التَّقْدُ وَالْعِتَابُ الْهَادِفَانِ تَقْوِيمَ السُّلُوكِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ فَهُمَا مَحْمُودَانِ مَعَ التَّأَكُّدِ عَلَى تَقْدِيمِهِمَا بِطَرِيقَةٍ فَنِيَّةٍ تَرَاعِي مَشَاعِرَ الطَّرَفِ الْآخَرِ وَعَوَاطِفِهِ.

٢. إِنَّ التَّزَامَ الْآدَابِ فِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ تَجْعَلُ شَخْصِيَّةَ كُلِّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ مُحْتَرَمَةً وَمُوقَّرةً وَمُهَابَةً مِنْ قَبْلِ الزَّوْجِ الْآخَرِ، وَخِلَافَ ذَلِكَ صَحِيحٌ.

أُسْطُورَةٌ . . وَعِبْرَةٌ

جاء في بعض الأساطير أَنَّ امرأة قروية، كانت تصنع الطَّعام كُلَّ يوم لرجال عشيرتها. ولكنها أتت ذات مرة بمقدار من علف الماشية ووضعتهم أمامهم بدلاً من الطَّعام. فصرخ الرِّجَال في وجهها، وقد حَسِبُوا أَنَّ مَسًّا من الجنون قد ألمَّ بها، فما كان منها إلَّا أن قالت لهم:

وما أدراني أَنَّكُمْ ستلاحظون الفارق؟!

ولم أكن أعرف أَنَّكُمْ بَشَرٌ، وَأَنَّكُمْ ستفرِّقون بين الطَّعام، وبين كومة العلف. وأضافت: لقد ظَلَلْتُ أطهو لكم الطَّعام عشرين عاماً، فلم أسمع منكم طوال هذه المدَّة ما يطمئنني إلى أَنَّكُمْ تفرِّقون حقاً بين الطَّعام وعلف الماشية! وكان أبناء الطَّبقة الرَّاقية في عهد القيصرية الرُّوسية، إذا استحسنوا طعاماً، أَصْرُوا على أن يؤثى بالطَّاهي أمامهم لِيُسَبِّغُوا عليه آيات شكرهم وتقديرهم. أفليست الزَّوجة جديرة بالشُّكر والتَّقدير؟

وَهَكَذَا يَفْعَلُ النَّقْدُ

كتب ديل كارنيجي في كِتَابِهِ الْمُتَقَدِّمُ الذِّكْرُ:

«صرَّحت (دوروثي ديكس): الحجَّة الأولى في أسباب الشَّقاء الزَّوجيَّ أَنَّ أَكْثَرَ من خمسين في المئة من مجموع الزيجات تتحلَّم على صخور محاكم الطَّلَاق في مدينة «رينو» بسبب النَّقد وحده . . . النَّقد العقيم الذي يكسر القلب، ويذُلُّ النَّفْسَ!«.

كَلِمَةٌ فِي اللَّيَاقَةِ

أهمُّ ما يلي العناية باختيار الرِّفيق المناسب، هو التزام حدود اللَّيَاقَةِ بعد الزَّواج. فلو التزمت الزَّوجات حدود اللَّيَاقَةِ مع أزواجهن كما يلتزمُنَّها مع الأعراب، لعَضَّ كُلُّ زوج لسانه إذا اندفعت إليه قوارص الكلم!

عَاقِبَةُ النَّكَدِ

«كان تولستوي من أروع وأشهر القِصَصِيِّينَ الذين عرفهم التَّاريخُ، وبالإضافة إلى الشُّهرة، كان وامراته على حظٍّ موفور من المال، والبنين، والمركز الاجتماعيِّ، فكان خليقاً بهما أن يبلغا قِمَّةَ السَّعادةِ والهناءِ، وقد بلغاها في أوَّل الأمر، حتَّى أنهما كانا يسجدان لله ويبتهلان له أن يديم عليهما هذه السَّعادة الغامرة.

«ثمَّ حدث شيء عجيب، فقد تغيَّر تولستوي بعد ذلك تدريجياً، حتَّى أصبح شخصاً مختلفاً تماماً! فقد راح يزدرى مؤلفاته، وزهد في الدُّنيا، وجاهِها، واعتزم أن يكرِّس حياته لإصدار نشراتٍ تحثُّ على السَّلام، ومحو الحرب والفقر من هذا العالم. ثم تخلَّى عن أراضيه، وعاش عيش الشَّظف، وأخذ يفلح الأرض، ويقطع الأشجار، ويصنع أحذيته بنفسه، ويكنُس غرفته بيده، ويتناول طعامه في وعاء خشبي!

«ولكن زوجته كانت تحبُّ الثَّرَفَ الذي يحتقره، وكانت تشتهي المال، والجاه والثَّروة التي يُمقِّتها. وكانت تتلهَّف على الشُّهرة والمركز، والصَّيت الذي يزدريه، ومن ثمَّ ظَلَّتْ تخلق له النَّكد، وتنغصُّ عليه حياته وتُسفِّه آراءه وتضخب، وتلعن حين يصرُّ على أن ينشر كتبه دون أن ينال عنها أجراً، أو يلحقه بسببها مجد.

«وإذا أخفقت مع هذا عن إثناؤه عن عزمه، أسلمت نفسها لقبضة «الهيستيريا» وجعلت تتمرّع على الأرض، وزجاجة السُّم على شفيتها، وهي تقسم لتقتلن نفسها إن لم ينزل عند إرادتها وأصبح تولستوي لا يحتمل حتَّى مجرد رؤية زوجته!

«وفي ذات مساء سعت إليه وقد استبد بها الظمأ إلى العطف والحبِّ، وجثت على ركبتيها أمامه، وتضرَّعت إليه أن يتلو عليها رسائل الحبِّ التي كتبها لها قبل زواجه منها! وبينما هو يقرأ ما سطره في تلك الأيام الجميلة الخالية بكى كلاهما. بكيا في حرقة وحرارة بعد الفارق بين الأحلام الظَّليلة التي رتعا زمناً في فيئها وبين الحقيقة المستعرة التي يصطليان لهيبيها!

«وعندما بلغ تولستوي الثمانية والثمانين من عمره، عجز عن احتمال الشَّقاء الذي يخيِّم على بيته فما كان منه إلا أن تسلَّل هارباً ذات ليلة عاصفة ممطرة من ليالي شهر أكتوبر عام ١٩١٠ واحتواه البرد ولفَّه الظَّلام وهو سائر لا يدري إلى أين! وبعد ذلك بأحد عشر يوماً مات تولستوي متأثراً بالتهاب رئويٍّ . ووُجِدَتْ جثَّتُه في فناء إحدى محطَّات السَّكك الحديدية وكانت الوصية التي أوصى بها قبيل موته، ألا يُؤذَنَ لزوجته برؤيته!»^(١).

أَشْيَاءٌ رَمَيزِيَّةٌ تَعْنِي الشَّيْءَ الْكَثِيرَ لِلْمَرْأَةِ

يقول أحد الكتَّاب:

«اعتدتُ في الذكرى السنوية لزواجنا أن أقدمَ لزوجتي هدية تعبيراً عن حبِّي وتقديري لها، وفي آخر ذكرى قبل كتابة هذه الأسطر، طرحت على نفسي هذا السؤال: أيُّ هدية أقدمها لزوجتي العزيزة في ذكرى زواجنا؟ طرحتُ هذا السؤال وأنا أدرك سلفاً أنَّ الهديةَ رمزيةَ أكثر منها قيمية. فتوجَّهتُ إلى مكتبة قريبة من منزلنا واشتريتُ قلماً جميلاً وبطاقة كتبت فيها: «زوجتي الحبيبة فلانة! بمناسبة الذكرى الرابعة لزواجنا المبارك أقدمُ لك هذه الهدية المتواضعة تعبيراً منِّي عن حبِّي وتقديري لك» فما كان من زوجتي إلَّا أن سُرَّتْ وابتهجتْ وشكرتني على ذلك، ثمَّ علَّقت الهديةَ والبطاقة على صِوان ثيابها».

١. ديل كارنيجي: كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس.

دعاء

يقول الإمام علي بن الحسين (ع) في دعاء «مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَ مَرْضِي الْأَفْعَالِ»:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَ بَلِّغْ بِإِيمَانِي أَكْمَلَ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ الْيَقِينِ، وَأَنْتَهُ بِنَيْتِي إِلَى أَحْسَنِ النَّيَّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ. اللَّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نَيْتِي، وَصَحِّحْ بِمَا عِنْدَكَ يَقِينِي، وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ مَا فَسَدَ مِنِّي.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَا يَشْغَلُنِي الْاهْتِمَامُ بِهِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَدًا عَنْهُ، وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيَمَا خَلَقْتَنِي لَهُ، وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلَا تَفْتِنَنِي بِالنَّظَرِ، وَأَعِزَّنِي وَلَا تَبْتَلِنِي بِالْكِبَرِ، وَعَبْدَنِي لَكَ وَلَا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجِرْ لِلنَّاسِ عَلَى يَدَيِ الْخَيْرِ وَلَا تَحْقِفْهُ بِالْمَنِّ، وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفُحْرِ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إِلَّا حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلَا تُحْدِثْ لِي عِزًّا ظَاهِرًا إِلَّا أَخَذْتُ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقُدْرَتِهَا.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمَتَّعْنِي بِهَدْيٍ صَالِحٍ لَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةً حَقًّا لَا أَرْيَغُ عَنْهَا، وَنِيَّةً رُشِدًا لَا أَشُكُّ فِيهَا، وَعَمْرُنِي مَا كَانَ عُمْرِي بِذَلِكَ فِي طَاعَتِكَ، فَإِذَا كَانَ عُمْرِي مَرْتَعًا لِلشَّيْطَانِ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ مَقْتُكَ إِلَيَّ، أَوْ يَسْتَحْكِمَ غَضَبُكَ عَلَيَّ. اللَّهُمَّ لَا تَدْعُ خَصْلَةً تُعَابُ مِنِّي إِلَّا أَصْلَحْتُهَا، وَلَا عَائِبَةً أُوْتِبُ بِهَا إِلَّا حَسَنْتُهَا، وَلَا أُكْرِمُهَا فِي نَاقِصَةٍ إِلَّا أَكْمَمْتُهَا.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَبْدِلْنِي مِنْ بَغْضَةِ أَهْلِ الشَّتَاءِ الْمَحَبَّةَ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظَنَّةِ أَهْلِ الصَّالِحِ الثَّقَةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ الْأَذْدَيْنِ الْوَلَايَةِ، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الْأَرْحَامِ الْمَبَرَّةَ، وَمِنْ خِذْلَانِ الْأَقْرَبِينَ النُّصْرَةَ، وَمِنْ حُبِّ الْمُدَارِينَ تَصْصِيحَ الْمَقَةِ، وَمِنْ رَدِّ الْمُلَابِسِينَ كَرَمَ الْعِشْرَةِ، وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلَاوَةَ الْأَمْنَةِ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ لِي يَدًا عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي، وَلِسَانًا عَلَى مَنْ خَاصَمَنِي، وَظَفَرًا مِمَّنْ عَانَدَنِي، وَهَبْ لِي مَكْرًا عَلَى مَنْ كَايَدَنِي، وَقُدْرَةً عَلَى

مَنْ اضْطَهَدَنِي، وَتَكْذِبًا لِمَنْ قَصَبَنِي، وَسَلَامَةً مِمَّنْ تَوَعَّدَنِي، وَوَفَّقَنِي لِطَاعَةِ مَنْ سَدَّدَنِي، وَمُتَابَعَةِ مَنْ أَرَشَدَنِي.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْنِي لِأَنْ أُعَارِضَ مَنْ عَشَّيَنِي بِالنُّصْحِ، وَأُجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بِالْبِرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ، وَأُكَافَأَ مَنْ قَطَعَنِي بِالصَّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنْ اغْتَابَنِي إِلَى حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ، وَأُغْضِيَ عَنِ السَّيِّئَةِ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَلِّنِي بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَالْإِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ، وَكُظْمِ الْعَيْظِ، وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَصَمِّ أَهْلَ الْفُرْقَةِ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ، وَسَثْرِ الْعَائِبَةِ، وَلِينِ الْعَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَحُسْنِ السَّيْرِ، وَسُكُونِ الرِّيْحِ، وَطِيبِ الْمُخَالَفَةِ، وَالسُّبْقِ إِلَى الْفَضِيلَةِ، وَإِثَارِ التَّفْضِيلِ، وَتَرْكِ التَّغْيِيرِ، وَالْإِفْضَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ، وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، وَاسْتِقْلَالِ الْخَيْرِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَاسْتِكْثَارِ الشَّرِّ وَإِنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَكْمِلْ ذَلِكَ لِي بِدَوَامِ الطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَرَفْضِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَمُسْتَعْمِلِ الرَّأْيِ الْمُخْتَرَعِ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ إِذَا كَبُرْتُ، وَأَقْوَى قُوَّتِكَ فِيَّ إِذَا نَصَبْتُ، وَ لَا تَبْتَلِيَنِي بِالْكَسَلِ عَنْ عِبَادَتِكَ، وَلَا بِالْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ، وَلَا بِالْتَّعَرُّضِ لِخِلَافِ مَحَبَّتِكَ، وَلَا مُجَامَعَةِ مَنْ تَفَرَّقَ عَنْكَ، وَلَا مُفَارَقَةِ مَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْكَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَصُولَ بَكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَأَسْأَلَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ عِنْدَ الْمَسْكِنَةِ، وَلَا تَفْتِنَنِي بِالْإِسْتِعَانَةِ بِغَيْرِكَ إِذَا اضْطُرَرْتُ، وَلَا بِالْخُضُوعِ لِسُؤَالِ غَيْرِكَ إِذَا افْتَقَرْتُ، وَلَا بِالْتَّضَرُّعِ إِلَى مَنْ دُونَكَ إِذَا رَهَبْتُ، فَاسْتَحِقْ بِذَلِكَ خِذْلَانَكَ وَمَنْعَكَ وَإِعْرَاضَكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنَ التَّمَنِّي وَالتَّظَنِّي وَالْحَسَدِ ذِكْرًا لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّرًا فِي قُدْرَتِكَ، وَتَذْهِبًا عَلَى عَدُوِّكَ، وَمَا أَجْرَى عَلَى لِسَانِي مِنْ لَفْظَةٍ فَحْشٍ أَوْ هُجْرٍ أَوْ شَتْمٍ عَرَضٍ أَوْ شَهَادَةٍ بَاطِلٍ أَوْ اغْتِيَابٍ مُؤْمِنٍ غَائِبٍ أَوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ نُظْفًا بِالْحَمْدِ لَكَ، وَإِعْرَاقًا فِي الشَّاءِ عَلَيْكَ، وَذَهَابًا فِي تَمْجِيدِكَ، وَشُكْرًا لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرَافًا بِإِحْسَانِكَ، وَإِحْصَاءَ لِمَنِّكَ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَ لَا أَظْلَمَنَّ وَأَنْتَ مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ عَنِّي، وَلَا أَظْلَمَنَّ

وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى الْقَبْضِ مِنِّي، وَلَا أَضِلُّنَّ وَقَدْ أَمَكَّنْتَكَ هِدَايَتِي، وَلَا أَفْتَقِرَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وُسْعِي، وَلَا أَطْغَيْنَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وَجْدِي. اللَّهُمَّ إِلَى مَغْفِرَتِكَ وَقَدْتُ، وَإِلَ عَفْوِكَ قَصَدْتُ، وَإِلَى تَجَاوُزِكَ اسْتَقَفْتُ، وَبِفَضْلِكَ وَثَقْتُ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا يُوجِبُ لِي مَغْفِرَتَكَ، وَلَا فِي عَمَلِي مَا أَسْتَحِقُّ بِهِ عَفْوَكَ، وَمَا لِي بَعْدَ أَنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا فَضْلَكَ.

«فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ. اللَّهُمَّ وَأَنْطِقْنِي بِالْهُدَى، وَالْأَهْمَنِ التَّقْوَى، وَوَقِّفْنِي لِلَّتِي هِيَ أَزْكَى، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا هُوَ أَزْصَى. اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِي الطَّرِيقَةَ الْمُثَلَّى، وَاجْعَلْنِي عَلَى مِلَّتِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَ مَتَّعْنِي بِالْإِفْتِصَادِ، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ السَّادَاتِ، وَمِنْ أَدْلَةِ الرَّشَادِ، وَمِنْ صَالِحِ الْعِبَادِ، وَارْزُقْنِي قُورَ الْمَعَادِ، وَ سَلَامَةَ الْمِرْصَادِ. اللَّهُمَّ خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي مَا يَخْلُصُهَا، وَأَبْقِ لِنَفْسِي مِنْ نَفْسِي مَا يُصْلِحُهَا، فَإِنَّ نَفْسِي هَالِكَةٌ أَوْ تَعَصَمَهَا. اللَّهُمَّ أَنْتَ عُدَّتِي إِنْ خَزَنْتُ، وَأَنْتَ مُتَجَجِعِي إِنْ حُرِمْتُ، وَبِكَ اسْتِغَاثَتِي إِنْ كَرِهْتُ، وَعِنْدَكَ مِمَّا قَاتَ خَلْفٌ، وَلِمَا فَسَدَ صِلَاحٌ، وَفِيمَا أَنْكَرْتُ تَغْيِيرٌ، فَأَمْنُنْ عَلَيَّ قَبْلَ الْبَلَاءِ بِالْعَافِيَةِ، وَقَبْلَ الطَّلَبِ بِالْجِدَّةِ، وَقَبْلَ الضَّلَالِ بِالرَّشَادِ، وَاكْفِنِي مَثْوَنَةَ مَعَرَّةِ الْعِبَادِ، وَهَبْ لِي أَمْنُ يَوْمِ الْمَعَادِ، وَامْنَحْنِي حُسْنَ الْإِشَادِ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَ اذْرَأْ عَنِّي بِلُطْفِكَ، وَاعْذِنِي بِنِعْمَتِكَ، وَأَصْلِحْنِي بِكَرَمِكَ، وَدَاوِنِي بِصُنْعِكَ، وَأَظْلِنِي فِي ذَرَاكَ، وَجَلِّلْنِي رِضَاكَ، وَوَقِّفْنِي إِذَا اسْتَكَلْتُ عَلَى الْأُمُورِ لَاهْذَاهَا، وَإِذَا تَشَابَهَتِ الْأَعْمَالُ لِأَزْكَاهَا، وَإِذَا تَنَاقَصَتِ الْمِلَلُ لِأَرْضَاهَا.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَوَجَّنِي بِالْكَفَايَةِ، وَسَمِّنِي حُسْنَ الْوِلَايَةِ، وَهَبْ لِي صِدْقَ الْهِدَايَةِ، وَلَا تَفْتِنَنِي بِالسَّعَةِ، وَامْنَحْنِي حُسْنَ الدَّعَةِ، وَلَا تَجْعَلَ عَيْشِي كَذًّا كَذًّا، وَلَا تَرُدُّ دُعَائِي عَلَيَّ رَدًّا، فَإِنِّي لَا أَجْعَلُ لَكَ ضِدًّا، وَلَا أَدْعُو مَعَكَ نِدًّا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَامْنَعْنِي مِنَ السَّرَفِ، وَحَصِّنْ رِزْقِي مِنَ التَّلَفِ، وَوَفِّرْ مَلَكَتِي بِالْبَرَكَهَةِ فِيهِ، وَأَصِبْ بِي سَبِيلَ الْهِدَايَةِ لِلرِّبِّ فِيمَا أَنْفَقُ مِنْهُ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَثْوَنَةَ الْاِكْتِسَابِ، وَارْزُقْنِي مِنْ غَيْرِ

اِحْتِسَابٍ، فَلَا أَشْتَغِلْ عَنْ عِبَادَتِكَ بِالطَّلَبِ، وَلَا أَحْتَمِلْ إِضْرَ تَبِعَاتِ الْمَكْسَبِ.
اللَّهُمَّ فَأُطْلِبُنِي بِقُدْرَتِكَ مَا أَطْلُبُ، وَأَجِرْنِي بِعِزَّتِكَ مِمَّا أَرْهَبُ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَصُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْتَذِلْ جَاهِي بِالِافْتَارِ
فَأَسْتَزِقْ أَهْلَ رِزْقِكَ، وَأَسْتَغْطِي شِرَارَ خَلْقِكَ، فَأَقْتِنِ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُبْتَلَى
بِدَمٍّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنِي صِحَّةً فِي عِبَادَةٍ، وَفَرَاغاً فِي زَهَادَةٍ، وَعِلْماً
فِي اسْتِعْمَالٍ، وَوَرَعاً فِي إِجْمَالٍ. اللَّهُمَّ اخْتِمْ بَعْفُوكَ أَجَلِي، وَحَقِّقْ فِي رَجَاءِ رَحْمَتِكَ
أَمَلِي، وَسَهِّلْ إِلَى بُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلِي، وَحَسِّنْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِي عَمَلِي.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَنَبِّهْنِي لِذِكْرِكَ فِي أَوْقَاتِ الْغَفْلَةِ، وَاسْتَعْمِلْنِي
بِطَاعَتِكَ فِي أَيَّامِ الْمُهْلَةِ، وَأَنْهَجْ لِي إِلَى مَحَبَّتِكَ سَبِيلاً سَهْلاً، أَكْمِلْ لِي بِهَا خَيْرَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ.

«اللَّهُمَّ وَصِّلْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، كَأَفْضَلِ مَا صَلَّيْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ قَبْلَهُ،
وَأَنْتَ مُصَلٍّ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَهُ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَفِي
بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ النَّارِ»^(١).

١. الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ ، للإمام علي بن الحسين ع، تجدر الإشارة إلى أنَّ هذا الدعاء من الأدعية الفريدة، الجديرة بالتأمل، وهو بحق برنامج خلقي وسلوكي، ينبغي للمرء أن لا يحرم نفسه من العمل على ضوئه.

الفهرس المفصل

٤	الفهرس
٥	نبذة عن الكاتب
٦	إهداء
٧	مُقَدِّمَةٌ

القِسْمُ الْأَوَّلُ: الْأَسُسُ الْأَوَّلِيَّةُ لِلتَّعَامُلِ السَّلِيمِ مَعَ النَّاسِ

١١	مُعَامَلَةُ النَّاسِ
١٨	الْأَسُسُ الْأَوَّلِيَّةُ لِلتَّعَامُلِ السَّلِيمِ مَعَ النَّاسِ
١٩	الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ: الدِّينُ
٢٣	مُعَامَلَةُ اللَّهِ
٢٣	اصْلَاحُ الْعِلَاقَةِ مَعَ اللَّهِ
٣٠	اصْلَاحُ أَمْرِ الْآخِرَةِ
٣٤	كيف يجب أن يكون تعامل الإنسان مع الله؟
٤٠	التَّعَامُلُ مَعَ النَّفْسِ
٤٠	لَا تُسِئْ إِلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ
٤١	بَيْنَ مُعَامَلَةِ النَّفْسِ وَمُعَامَلَةِ النَّاسِ
٤٤	مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ
٤٦	نَهْيُ النَّفْسِ عَنْ هَوَاهَا
٥٠	مَعْرِفَةُ حَقِّ النَّفْسِ
٥٢	مِرَاقَبَةُ النَّفْسِ وَمُحَاسِبَتُهَا
٥٤	ثَمَرَاتُ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ
٥٨	الْأَسَاسُ الثَّانِي: الْعَقْلُ

الأساس الثالث: العِلْمُ	٦٢
الأساس الرابع: الوجدانُ والصِّميرُ الصالحان	٦٥
الأساس الخامس: الأخلاقُ الحَسَنَةُ	٦٨
الأساس السادس: العَدْلُ وإعطاءُ النَّاسِ حَقُّوْقَهُم	٧٤
الأساس السَّابع: معرفَةُ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ	٨٢

القِسْمُ الثَّانِي: الْأُسُسُ الْفَنِّيَّةُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ

تركُ اللَّوْمِ والعتَابِ	٨٧
التَّوَّاضُعُ لِلنَّاسِ	٩٣
تَقْدِيرُ النَّاسِ والاهْتِمَامُ الْمُخْلِصُ بِهِمْ	٩٩
خَلْقُ الرَّغْبَةِ الْجَامِحَةِ فِي الطَّرْفِ الْآخَرِ	١٠٦
تَحَاشِيُ الْجِدَالِ	١١٤
حِفْظُ كَرَامَةِ الطَّرْفِ الْآخَرِ	١١٩
التَّوَسُّلُ بِالرَّفْقِ وَالذِّبْنِ وَالتَّسَامُحِ وَالرَّحْمَةِ	١٢٣
الْيَاقَظَةُ وَاللِّبَاقَةُ فِي التَّحَدُّثِ	١٣٤
مُخَاطَبَةُ دَوَافِعِ الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ فِي النَّاسِ	١٤٠

القِسْمُ الثَّالِثُ: كَيْفَ يَكْسِبُ الْمَرْءُ وَدَّ النَّاسِ وَحُبَّهُمْ لَهُ؟

التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ	١٤٥
أَسْبَابُ التَّقْدِيرِ الْمُخْلِصِ	١٤٨
كَيْفَ يُصْبِحُ الْمَرْءُ مَحْبُوبًا؟	١٥٣
لِئَلَّا يُسَرَّ النَّاسُ بِالْمَرْءِ	١٥٨
الابْتِسَامُ	١٦١
الإِصْغَاءُ الطَّيِّبُ، وَتَشْجِيعُ الْمُحَدِّثِ عَلَى الْكَلَامِ	١٦٨
أُمُورٌ أُخْرَى فِي التَّحَبُّبِ إِلَى النَّاسِ	١٧٩

القِسْمُ الرَّابِعُ: مِنْ أَخْلَاقِيَّاتِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ

حِفْظُ اللِّسَانِ وَحُسْنُ اسْتِعْمَالِهِ	١٨٣
التَّزَامُ الصَّدَقِ مَعَ النَّاسِ	١٨٨
حِفْظُ النَّاسِ فِي الْغَيْبَةِ	١٩٠
اجْتِنَابُ النَّمِيمَةِ وَالسَّعَايَةِ	١٩٦
التَّزَامُ الْوَجْهِ الْوَاحِدِ وَاللِّسَانِ الْوَاحِدِ مَعَ النَّاسِ	١٩٨
حِفْظُ أَسْرَارِ النَّاسِ	٢٠١
اجْتِنَابُ قَذْفِ وَاتِّهَامِ النَّاسِ	٢٠٣
تَجَنُّبُ الْفُحْشِ وَالسَّبِّ وَاللَّعْنِ	٢٠٧
تَحَاشِي السُّخْرِيَّةِ مِنَ النَّاسِ وَاجْتِنَابُ تَحْقِيرِهِمْ وَتَغْيِيرِهِمْ	٢١٠
كُفُّ الْأَذَى عَنِ النَّاسِ	٢١٧
الْبِرُّ بِالنَّاسِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ	٢٢٠
التَّوَسُّلُ بِالْحِلْمِ وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ	٢٢٥
الْحَيَاءُ مِنَ النَّاسِ	٢٣٧
حُسْنُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ	٢٤٠
الْأَمَانَةُ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ	٢٤٧
الْوَفَاءُ لِلنَّاسِ بِالْوَعْدِ وَالْعَهْدِ	٢٥١
احْتِرَامُ قِيَمَةِ الْإِنْسَانِ	٢٦٢
شُكْرُ النَّاسِ عَلَى إِحْسَانِهِمْ	٢٦٦
الْمُوَافَقَةُ الْعَقْلَائِيَّةُ مَعَ النَّاسِ	٢٦٩
التَّبَيُّنُ وَالْإِنَاءَةُ فِي اتِّخَاذِ الْمَوَاقِفِ مِنَ النَّاسِ	٢٧١
تَجَنُّبُ الْخُصُومَاتِ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ	٢٧٥
الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ	٢٨١

٢٨٦	اجْتِنَابِ التَّعَصُّبِ الْمَذْمُومِ
٢٩٠	التَّسْلِيمُ بِأَخْطَاءِ الذَّاتِ
٢٩٢	الْبَدْءُ بِأَخْطَاءِ الذَّاتِ أَوْلاً قَبْلَ الْإِنْتِقَادِ
٢٩٥	كَيْفِيَّةُ التَّعَامُلِ حِينَمَا يُخْطِئُ الْآخَرُونَ
٢٩٧	اخْتِرَامُ آرَاءِ الْآخَرِينَ وَتَلَاوُفِي تَخَطُّئِهِمْ
٢٩٩	كَيْفَ يَكْسِبُ الْمَرْءُ النَّاسَ إِلَى وُجْهِهِ نَظَرِهِ؟
٣٠٤	كَيْفَ يَطْلُبُ الْمَرْءُ مَا يَرِيدُ مِنَ النَّاسِ؟
٣٠٦	تَحْيِيْبُ الْآخَرِينَ فِي الْأَعْمَالِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُمْ
٣٠٧	حُسْنُ لِقَاءِ النَّاسِ
٣٠٧	السَّلَامُ
٣١٠	المُصَافَحَةُ
٣١٢	المُعَانَقَةُ
٣١٣	التَّقْيِيلُ
٣١٤	التَّعَرُّفُ عَلَى النَّاسِ
٣١٦	حُسْنُ الْمَجَالَسَةِ
٣٢١	مُدَاعَبَةُ النَّاسِ وَمُطَابَبَتُهُمْ
٣٢٥	المُظْهَرُ اللَّائِقُ
٣٢٧	أَخْلَاقِيَّاتُ أُخْرَى فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ
٣٢٩	مِنَ الْأَخْلَاقِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلرَّسُولِ الْأَعْظَمِ (ص)

القِسْمُ الْخَامِسُ: التَّعَامُلُ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ

٣٣٧	الصَّدَاقَةُ
٣٣٨	عَظَمَةُ الصَّدَاقَةِ
٣٣٩	الصَّدَاقَةُ صِنَاعَةٌ

..... ٣٣٩	الصَّدَاقَةُ ضَرُورَةٌ دِينِيَّةٌ وَحَيَاتِيَّةٌ
..... ٣٤٠	اخْتِيَارُ الْأَصْدِقَاءِ
..... ٣٤١	الجديرون بالمصادقة
..... ٣٤٣	مَنْ لَا تَصِحُّ أَوْ لَا تَجْدُرُ مُصَادَقَتُهُمْ
..... ٣٤٦	اخْتِيَارُ الْأَصْدِقَاءِ
..... ٣٤٩	حُقُوقُ الْأَصْدِقَاءِ
..... ٣٥٢	حُدُودُ الصَّدَاقَةِ
..... ٣٥٣	أَجَوَاءُ الصَّدَاقَةِ
..... ٣٥٤	آدَابُ الصَّدَاقَةِ
..... ٣٥٥	خَمْسُ قَوَاعِدَ هَامَّةٍ فِي الصَّدَاقَةِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ

القِسْمُ السَّادِسُ: التَّعَامُلُ مَعَ الْعَائِلَةِ

..... ٣٦٤	قَوَاعِدُ أُسَاسِيَّةٌ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْعَائِلَةِ
..... ٣٦٩	التَّعَامُلُ مَعَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَوْلَادِ وَالْإِخْوَانِ
..... ٣٧٣	التَّعَامُلُ مَعَ الزَّوْجَةِ
..... ٣٧٤	اثْنَتَا عَشْرَةَ قَاعِدَةً هَامَّةً فِي التَّعَامُلِ مَعَ الزَّوْجَةِ
..... ٣٧٨	دعاء

السيد رضا علوي السيد أحمد (١٩٥٨-٢٠٠٨) وإسمه المستعار "خليل الموسوي". كاتب ومؤلف ومهندس وأستاذ بحراني ولد في قرية مهزة بجزيرة سترة في البحرين. له العديد من المؤلفات التعليمية والتربوية والسلوكية التي يسعى من خلالها



لتنشئة جيل واع ذاتياً وتربوياً وإجتماعياً مستقل التفكير، والتي منها سلسلة فن السلوك التي تتكون من ثلاثة أجزاء. وله العديد من الكتابات والمقالات النقدية التي يحاول فيها تسليط الضوء على المشاكل المجتمعية في محاولة لإيجاد حلول عميقة لتطوير ورقي المجتمع. كان معلماً في اللغة العربية وقد ألف كتاب بعنوان فن الكتابة وقام بتدريسه. وكان السيد رضا شاعراً، فله ديوان شعر لم يُطبع بعد. وقد كان يتقن ثلاث لغات، العربية والانجليزية والفارسية، وقد ترجم أحد كتبه الى اللغة الإنجليزية. وكان مهندساً معمارياً وقد شغل عدة مناصب وأخرها كان في بلدية المنامة. ألف السيد رضا اثنا عشر كتاباً، سبعة منها قد تم طباعته وخمسة منها لم يستطع إكمالها بسبب المرض.

